موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله

المؤلفات

سيرة الأئمة الإثني عشر (ع)

القسم الأول

المجلد الثالث

دار المؤرخ العربي
بيروت

موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسن آل ياسين

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله

المؤلفات

(٣)

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله

المؤلفات

سيرة الأئمة الإثني عشر (ع)

القسم الأول

المجلد الثالث

دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

دار المؤرخ العربي

بيروت - بئر العبد - مقابل بنك بيروت والبلاد العربية - بناية نخلة

تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص.ب: ١٢٤ / ٢٤

البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com

www.al-mouarekh.com

دليل موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسن آل ياسين
المؤلفات

المجلد صفر (٠): سيرته الدراسية والعلمية

المجلد الأول: أصول الدين

- الله بين الفطرة والدليل
- العدل الإلهي بين الجبر والاختيار
- النبوة
- الإمامة
- المعاد

المجلد الثاني: في رحاب الرسول (ص)

المجلدات الثالث والرابع والخامس: (سيرة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام)

المجلدان السادس والسابع: من المؤمنينَ رجالٌ (سيرة ٢٩ صحابياً).

المجلد الثامن: مفاهيم إسلامية

- في رحاب القرآن
- عباد الرحمن
- نهج البلاغة.. لمن؟
- المهدي المنتظر (عج) بين التصور والتصديق

المجلد التاسع: في رحاب الإسلام

- المادة بين الأزلية والحدوث
- الإنسان بين الخلق والتطور
- هوامش على كتاب نقد الفكر الديني

المجلد العاشر: الأعمال الفقهية

- على هامش كتاب العروة الوثقى
- مذكرات في الفقه الإستدلالي (١ و٢)
- مناسك العمرة المفردة
- بين يدي «المختصر النافع»

المجلد الحادي عشر: أعلام من التراث

- الصاحب بن عبّاد حياته وأدبه
- محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد)
- منهج الطوسي في تفسير القرآن
- السيد علي بن طاووس (حياته، مؤلفاته، خزانة كتبه)

المجلد الثاني عشر: دراسات وصنعات

● **شعر تراثي:**

- ديوان أبي طالب بن عبد المطلب في صنعتين
- من المستدرك على ديوان الخبزارزي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ
- ديوان متمم بن نويرة
- ديوان مالك بن نويرة

● **الأعمال اللغوية:**

- صيغة (فَعَّلَ) في العربية
- (فَيْعِلٌ) أم (فَعِيْل)
- ملاحظات في المعجمات المحققة المطبوعة
- المعجم الذي نطمح إليه
- جوهرة الجمهرة للصاحب إسماعيل بن عبّاد ٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ
- مسائل لغوية في مذكرات مجمعية
- (إبريق) لفظ عربي فصيح
- السلسبيل لفظ عربي فصيح

المجلد الثالث عشر: دراسات تاريخية

- تاريخ المشهد الكاظمي
- المعمى والأحاجي والألغاز
- تاريخ الحكم البويهي في العراق
- الأرقام العربية : فوائدها، نشأتها، تطورها
- تاريخ الصحافة الكاظمية
- لمحات من تاريخ الكاظمية
- لمحات من تاريخ الطبري

المجلدان الرابع عشر والخامس عشر: تاريخ الشعر الكاظمي ١/٣

المجلدان السادس عشر والسابع عشر: معجم النبات ١/٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وسيد رسله محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين المنتجبين.

❀ ❀ ❀

الحديث عن الأئمة الإثني عشر (ع) أجمل الحديث، وسيرتهم العطرة المضمخة بالأريج أعذب السير، وحياتهم المعطاء الدفاقة بالخير أسمى ما عرفت البشرية من حياة تنشر السعادة وتمنح الحب وتغمر بالنور.

❀ ❀ ❀

ومنذ حين، ونفسي تسوقني ـ وبعنف ـ إلى كتابة دراسات تتميّز بالاختصار والتكثيف، تعنى بتسجيل لمحاتٍ من تاريخ هؤلاء القادة العظام أبواب علم النبوة وخزان الوحي والتنزيل، باعتبار أن تاريخهم الفواح هو تاريخ الإسلام ـ كل الإسلام ـ بما حمل من هدى وإشراق وحياة؛ وبما ألهم من عزم وتضحية وفداء، وباعتبار أن شباب المسلمين اليوم ـ وهم على أعتاب تأسيس مجتمعهم الحضاري الجديد ـ بحاجة ماسة إلى الاطلاع على ذلك كله، بأمل أن يقتبسوا منه مزيداً من العلم والمعرفة؛ والثبات والصمود، مضافاً إلى مزيدٍ من العناية ببناء الروح والنفس والخلق والضمير.

وعشت أمام هذه الرغبة النفسية الملحة بين عاملين يتنازعان الأخذ والرد... بين مانع يمنع ودافع يدفع.

وكان المانع لي عن التقدم نحو هذه المهمة ـ وأقولها بصراحة متناهية ـ شعوري بشموخ هذا الموضوع وبتضاؤلي أمامه حتى لكأني أرتجف رهبة وفرقاً من الإقدام عل ولوج هذا الخضمّ العميق البعيد الغور.

وكان الدافع لي على اقتحام هذا اللّجّ الخطير ـ وأقولها بالصراحة نفسها ـ شعوري خلال وقوفي على البحوث المعنية بهذا الموضوع بأن هناك جوانب رئيسة في تاريخ الأئمة وسيرتهم وتراثهم الفكري لم تبحث بالشكل الذي يجب أن يكون عليه البحث في العرض والسرد والأداء؛ ولم تُسلط عليها الأضواء بالمقدار الذي تستحقه من جلاء وكشف، ولم تجمع أطرافها المهمة في دراسات موجزة مبسطة تغني القارىء المعاصر ـ وهو العَجِلُ المستوعَبُ الوقت ـ عن الرجوع إلى الموسوعات الكبرى والضياع بين أسانيدها المعنعنة ومجلداتها الضخمة ومعلوماتها الموزعة المبعثرة.

وفي العام الماضي ـ وفي شهر رمضان بالذات ـ عاودتني الفكرة وهي أشد دفعاً ووقعاً؛ وساورتني الرغبة وهي أعنف جموحاً وهيمنة، فلم أجد بداً من الانصياع والرضوخ، عسى أن يحالفني التوفيق في تقديم هذه «السلسلة» على النحو الذي رجوت لها، قياماً بواجب الوفاء بكل أطراف البحث ونقاطه الرئيسة، واعتماداً على الحياد والتجرد والموضوعية في النقل والنقد والتحليل.

وهكذا بدأت العمل في الإعداد لهذه الدراسات.

وعلى هدى هذا المنهج كتبت هذه الصفحات.

والله المسؤول أن يكتب لي في مسعاي هذا بعض الفوز والنجاح، وبعض الأجر والثواب في كتابه وميزانه، وهو ولي ذلك كله.

❀ ❀ ❀

وكان لا مناص من أن تعنى الرسالة الأولى في هذه السلسلة بسيرة الإمام الأول، بطل الإسلام، وباب مدينة العلم، وعدل القرآن، والمحارب على التنزيل والتأويل، وصي محمد وخليفته على أمته، أبي الحسن والحسين، علي بن أبي طالب، (ع).

وسيرة علي ـ كما يعلم عارفوه ودارسوه ـ سيرةٌ حافلة الجوانب واسعة الأرجاء، وربما ضاقت بها فلم تستوعبها الدراسات الضخمة والمجلدات المتعددة. وذلك لأن الحديث عن تاريخ علي إنما هو حديث عن تاريخ بزوغ فجر الإسلام، وتاريخ انطلاقة رسالة السماء؛ وتاريخ نزول آي القرآن؛ وتاريخ حياة الرسول الأعظم بكل ما لها من أبعاد وأعماق ومجالات، وتاريخ كثير مما وقع بعد وفاة النبي (ص) من خلاف وخلافات ومشاكل وأزمات، ثم تاريخ الحاكم الذي أراد الرجوع بالإسلام سيرته الأولى عندما آلت إليه الخلافة، وأخيراً وليس آخراً فهو تاريخ ذلك المسلم الأول الذي لم تأخذه في الله لومة لائم فحارب «الناكثين» و«القاسطين» و«المارقين» كما وعده ابن عمه رسول الله (ص).

ولما كان الحديث عن علي حديثاً عن ذلك كله فليس من العِلميّة في شيء أن ندّعي إمكان تلخيصه في صفحات، أو تسجيله في كتاب ذي أوراق معدودات.

ولهذا كان لا بدَّ لي ـ أولاً ـ من الاكتفاء باستعراض أبرز النقاط وأكثرها أهمية وتأثيراً في تاريخه الحافل المرتبط بتاريخ المسيرة الإسلامية في كل ما شهدته من انطلاقات وتراجعات خلال هذه الفترة الحساسة من الزمن.

ثم كان لا بد لي ـ ثانياً ـ من تقسيم البحث إلى أقسام؛ يقتصر فيها

كل قسم على جانب رئيس من تلك الجوانب الكبرى؛ ليتسنى استيعاب الموضوع وأداؤه حقه بالشكل التام المفيد.

وقد اشتمل هذا القسم «الأول» تنفيذاً لهذا المنهج على:

حديثٍ عن علي المجاهد في سبيل رسالة السماء والحامل لأرفع أوسمتها، خلال حياة النبي (ص).

وحديثٍ عن علي المرتبط بتاريخ الإسلام، من يوم وفاة الرسول (ص) إلى يوم اجتماع المسلمين وإجماعهم على بيعته بعد مقتلِ عثمان.

وحديثٍ عن علي الحامل لراية التصحيح والعودة إلى واقع الإسلام، منذ بايعه المسلمون حتى خرَّ في محرابه المطهر صريع سيف الكفر والخيانة والحقد الأسود.

❀ ❀ ❀

وليس لي ما أقوله في الختام إلا الابتهال إلى الله تعالى بأن يجنبنا ـ جميعاً ـ اتباع الهوى ومواطن الزلل، وأن يلهمنا الصواب والسداد في القول والعمل.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

العراق ـ بغداد ـ الكاظمية(*):

محمد حسن آل ياسين

(*) حررت هذه المقدمة في بيروت صباح يوم الجمعة ٧ /ربيع الثاني/ ١٣٩٨ هـ. والحمد لله أولاً وآخراً.

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

سيرة وتاريخ

أوسمة السماء

.. وحظي «علي» من أوسمة السماء بما لم يُحظ به غيره من المسلمين من سابقين ولاحقين. ومنذ الوسام الأول حينما شاء الله له أن يولد في بيته الحرام وحتى الوسام الأخير حينما شاء الله له أن يفارق الدنيا بالشهادة وفي بيته الحرام، والأوسمة السماوية ـ على لسان الرسول (ص) ـ تترى عليه باستمرار وتتابع؛ وعلى النحو الذي لا يستطيع معه الباحث الموضوعي ـ بل والموسوعي أيضاً ـ تتبع ذلك وملاحقته بدقة واستيعاب.

❁ ❁ ❁

عناية الله بعليٍّ ليست كلمة عاطفية يقولها محب في حبيب، أو معنى شعرياً يطلقه شاعر على ممدوح يريد أن يكيل المدح له، ولكنها عناية من نمط خاص وبتقدير غيْبيٍّ ملفت للنظر ومثير للانتباه.

ومهما تطور حساب الاحتمالات وقام علم الرياضيات بدراسة الصدفة ومجالاتها فإن ارتباط علي بالله واسباغ العناية الإلهية عليه ليست خاضعة لأي معنى من معاني الصدفة وأي مجال من مجالات الاحتمال.

ولم تكن تلك العناية الإلهية عنايةً صامتة يكثر فيها العمل الصالح من علي لتكثر حسناته في كتاب الله، ثم لترتفع درجاته في يوم القيامة وليكون مقامه في الجنة في أعلى عليين.

إنها ـ على شكلها هذا ـ عناية ولا شك. وتوفيقُ العبد لاستمرار أعماله الصالحة ليستمر ثوابه في الزيادة عنايةٌ مهمة وفي منتهى الأهمية.

ولكنها ـ كما أسلفنا تسميتها ـ عنايةٌ صامتة لا تبلغ إذن سامع، ولا يصطدم بها بصر ناظر؛ ولا يعيها فكر متأمل. وإنما هي عمل بين العبد وربه فقط.

أما العناية الإلهية بعليّ والارتباط المخلص لعليّ بالله تعالى فقد كان من نمطٍ آخر.

عناية إلهية كلها أوسمة وتصريحات يدلي بها الذي لا ينطق عن الهوى.

وارتباط بالله كله نشاط وعمل وفداء وتضحية تغمر الأبصار والأسماع والأفئدة فلا يقدر على نكرانها إلا الأصمُّ الأبكم الأعمى الميت القلب.

وإذا تعارفت الدول اليوم على أن يكون التكريم «شيئاً» ذهبياً أو فضياً أو نحاسياً أو أي معدن آخر يُطْلَق عليه اسم «الوسام»؛ وإذا كان هذا الوسام ذا درجات وفئات متعددة ليكون التكريم لكل إنسان بحسب استحقاقه وأهليته... فإن أوسمة الإسلام والعقيدة «آيات» ينزل بها الوحي من الله تعالى فيرتّلها المسلمون آناء الليل وأطراف النهار، وتصريحات يطلقها النبي الأمين المنزّه عن الهوى الشخصي والعصبية القبلية والرغبة الذاتية والحب الأعمى؛ فيتداولها المؤمنون «حديثاً» شريفاً لا تصحّ مخالفته شرعاً.

وحُظي علي من أوسمة السماء بما لم يُحْظَ به غيره من المسلمين من سابقين ولاحقين، ومنذ يومه الأول في هذه الدنيا وحتى اليوم الأخير، والأوسمة السماوية ـ على لسان الرسول (ص) ـ تترى عليه

باستمرار وتتابع، وعلى النحو الذي لا يستطيع معه الباحث الموضوعي - بل والموسوعي أيضاً - أن يتتبع ذلك ويلاحقه بدقة واستيعاب.

ولعل القارىء عندما يقف على حديثنا هذا عن الأوسمة سيتصور أن تلك الأوسمة إنَّما تبدأ باسلام عليٍّ ومبادرته إلى الإيمان بالرسالة الجديدة في الساعات الأولى من تبلُّغ الرسول بها.

وذلك تصوّر لا يقوم على الصواب والتعمق.

إن الباحث عن عليٍّ وتاريخه الحافل سيُفاجأ بادىء ذي بدء بأنه قد ولد في الكعبة الشريفة حرم الله الآمن وبيته العتيق وحماه المطهر. وحسبنا أن نتصور هذا الوليد الجديد وقد وضعته أمه في مثل هذا المكان المقدّس يستقبل أول ما يستقبل من هذه الدنيا تلك القطعة المشرفة من الأرض التي اختارها الله لتكون قبلة الصلاة وقطب الطواف ومحجة القلوب المؤمنة والنفوس المتجهة إليه.

أكان ذلك صدفة من صدف الزمان أو احتمالاً من احتمالات الأوضاع الدنيوية؟!

ولماذا لم تتكرر هذه الصدفة لنبي أو ولي؟

يقول الحافظ الكنجي الشافعي فيما يرويه عن الحاكم النيشابوري: «ولم يولد قبله - أي قبل عليٍّ - ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه، إكراماً له بذلك وإجلالاً لمحله في التعظيم»(١).

(١) كفاية الطالب: ٢٦١. ويراجع في هذه المكرمة: تذكرة الخواص: ٣ والفصول المهمة: ١٢ ومطالب السؤول: ١/ ٢٩ وحياة علي للشنقيطي: ٣٧ وعبقرية الإمام: ٢٦ والإمام علي لأبو علم: ٩ وديوان عبد الباقي العمري: ٩٦.

ألا يحق لنا أن نعدّ ولادة علي في الكعبة وساماً من تلك الأوسمة؟

ألا يدل ذلك على عناية آلهية خاصة بعليّ دون غيره من الناس؟

❀ ❀ ❀

وتمر الأيام بوليد الكعبة وابن سيد البطحاء، وإذا بقريش وقد أصابتها أزمة شديدة من القحط وشحة المواد الغذائية الأساسية، وعندما يصيب القحط الشعب المكي فإن رئيس مكة يكون في هذه الحال أشدّ من غيره، لأنه الملجأ والملتجى للناس الجائعين، وهكذا نفد ما لدى أبي طالب قبل أن ينفد ما لدى غيره من ذوي قرباه، وأحسَّ بذلك أولئك القريبون إليه المطلعون على شؤونه وأوضاعه الخاصة، فتقدم رسول الله (ص) ولم يكن بُعِثَ بالنبوة يومذاك، إلى عمه العباس واقترح عليه أن يأخذ كل واحد منهما ابناً من أبناء أبي طالب تخفيفاً عنه، فرجّح العباس هذه الفكرة، فأخذ محمد علياً وأخذ العباس جعفراً، «فلم يزل علي بن أبي طالب مع رسول الله (ص) حتى بعثه الله نبياً»[1].

وهكذا أصبح هذا الوليد الصغير ربيبَ محمد، وأصبح محمد هو القائم بأمره والمشرف على تربيته والباني لأخلاقه وسلوكه وقابلياته.

وهنا نكرر ما سلف لنا ذكره: هل كان ذلك صدفة واتفاقاً أيضاً؟

وهل حدوث الأزمة صدفة؟ وضيق أبي طالب صدفة؟ واقتراح محمد على عمه العباس صدفة؟ وكون عليّ هو الذي يصبح من نصيب محمد صدفة؟

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/٣١٣، وقريب منه في سيرة ابن هشام، ١/٢٦٢ ومقاتل الطالبيين: ٢٦ وتاريخ ابن الأثير: ٢/٣٧ وشرح نهج البلاغة: ١/١٥ و١٣/١٩٨

أبداً. إنها تخطيط غيْبيّ لا علاقة له بالصدفة والاحتمال مطلقاً.

فوليد البيت الذي يريده الله تعالى لمهمة كبيرة في المستقبل لا بدَّ أن يربيه محمد ويشرف على توجيهه وتنمية ملكاته وصقل قابلياته وبناء شخصيته.

وهكذا كان.

ونشأ وليد البيت في أحضان محمد فإذا به صبي لامع وفتى عبقري.

وبُعث محمد (ص) بالإسلام فبادرت أم المؤمنين خديجة إلى الإيمان به فكانت الأول على سطح هذه الكرة ممن يعتنق هذا الدين الجديد.

وشاء المؤرخون أن يجعلوها أول النساء ليبحثوا بعد ذلك عن أول الرجال.

وكان علي هو الحائز لهذه «الأولية»، فقد اتفق الرواة المعتمدون والمؤرخون المعروفون على أن علياً أول من أسلم وأول من صلّى لله وعَبَدَه[1].

وهكذا أصبح «وليد الكعبة» و«ربيب النبي» «أول المسلمين» حقاً.

وإنها لنتيجةٌ طبيعية لمن يولد في بيت الله ويربيه رسول الله أن يكون أول المؤمنين بدين الله.

(١) يراجع في ذلك: سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٠٩ ـ ٣١٤ وحلية الأولياء ١/ ٦٦ وأنساب الأشراف: ٢/ ٩٠ ـ ٩١ والاستيعاب: ٣/ ٢٧ ـ ٣٣ وتاريخ ابن الأثير: ٢/ ٣٧ ـ ٣٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٧ والأئمة الإثنى عشر: ٤٨ ـ ٤٩.

وعزَّ على أعداء علي أن يكون هو بالذات «أول المسلمين»، ولكنهم ماذا يفعلون وهو «الأول» بلا ريب.

وخرج علينا عبقريّهم يقول: إن علياً قد أسلم وهو صبي، وإسلام الصبي ليس كإسلام الكبار البالغين.

وقد نسي هذا القائل أن المؤرخين يروون أن النبي قد دعا علياً إلى الإسلام[١]، علماً بأن النبي ـ كما أجمعت الكلمة ـ لم يدعُ صبياً غيره إلى هذا الدين، ومعنى ذلك أن النبي عندما يدعو أحداً إلى دينه فلا بد أن يكون عاقلاً بالغاً واعياً كما هو بديهي، إذن فلماذا دعا علياً إذا كان طفلاً غير واعٍ للرسالة الجديدة والدين الوليد؟

والجواب ـ بكل جلاء ـ أن النبي قد أدرك في عليٍّ من الوعي والذكاء والألمعية ما يجعله في مصاف الرجال حقاً فدعاه، لعلمه هذا بأمره، وقبل منه إسلامه بلا تردد.

وتلك قضية بديهية واضحة لا مجال فيها لتفلسف وأخذٍ وردٍّ[٢].

❁ ❁ ❁

وبعد ثلاث سنوات من البعثة النبوية أمر الله تعالى نبيه بانذار عشيرته الأقربين.

وكان لا بد في هذه الجلسة الأولى من أن تؤتي هذه العناية الإلهية بوليد الكعبة وربيب النبي وأول المسلمين أولى ثمارها، وأن يُحظى عليٌّ في هذه المناسبة بأول «وسام» سماوي يعلقه محمد بعد نبوته على صدره

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٣ والعقد الفريد: ٥/ ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) هذا كله مع عدم المناقشة في عمر علي يومذاك، وإنها لمسألة لا تخلو من مناقشة وبحث.

ليعلم الناس عناية الله بهذا الرجل وإعداده لمستقبل كبير وخطير في تاريخ الإسلام.

وهكذا كان. وأعلن النبي أمام عشيرته بكل صراحة ووضوح: «إن هذا [يعني علياً] أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»[١]، وأصبح عليٌّ بذلك وصيّ محمد وخليفته كما سيأتي تفصيله في فصل قادم.

واستمر هذا المسلم الأول في نشاطه الإسلامي الكبير في مكة المكرمة، وبقي ـ كما اختاره الله ـ وزيراً وظهيراً للنبي (ص)، حتى إذا صمّم الرسول على الهجرة بعد ثلاث عشرة من سني الجهاد المكي أمر الله تعالى نبيه «أن يأمر علياً بالنوم على فراشه.. فأمره رسول الله (ص) بذلك.. قال: سمعاً وطاعة وطيبة نفسي بالفداء لك يا رسول الله. ثم أتى مضجعه واضطجع، وتسجى بثوبه. وجاء المشركون من قريش فحفوا به لا يشكون أنه رسول الله (ص)، وقد أجمعوا أن يضربه ـ من كل بطن من بطون قريش رجلٌ ـ ضربةً بالسيف لئلا يطلب الهاشميون.. بدمه، وعليّ يسمع ما القوم فيه من تلف نفسه، ولم يدعه ذلك إلى الجزع»[٢]، بل «نام على فراشه صابراً محتسباً واقياً له بمهجته ينتظر القتل.. والجود بالنفس أقصى غاية الجود»[٣].

وتأكيداً لفكرة كونه خليفة رسول الله (ص) فقد استخلفه النبي بعد

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/٣١٩ ـ ٣٢١ وتاريخ ابن الأثير: ٢/٤١ وشرح النهج: ١٣/ ٢١٠ ـ ٢١١.

(٢) العقد الفريد: ٥/٩٩. ويراجع في هذه المفاداة تاريخ الطبري: ٢/٣٧٢ والبداية والنهاية: ٣/١٨١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٣/٢٥٨ ـ ٢٥٩.

هجرته «أن يقيم بعده بمكة أياماً حتى يؤدي عنه أماناته والودائع والوصايا التي كانت عند النبي (ص)، ثم يلحقه بأهله، ففعل ذلك»(١).

وألقى النبي (ص) رحله في المدينة المنورة فأصبحت مركز النبوة وعاصمة الدولة ومنطلق الدعوة ونقطة الانطلاق.

وكان أول وسام ناله عليّ في هذه المدينة الطيبة بعد الهجرة: تلك الأخوة التي حُظي بها مع النبي (ص) عندما آخى رسول الله (ص) بين أصحابه، واحتفظ بأخوّة عليّ لنفسه وقال له: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»(٢).

وعزَّ ذلك وثقل على نفوس قوم من الناس فبذلوا ما بذلوا من الجهود في سبيل التشكيك فيه، وكان من جملة أولئك ابن تيمية الذي أنكر المؤاخاة بين المهاجرين، «وخصوصاً مؤاخاة النبي (ص) لعليّ، قال: لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي لأحدٍ منهم ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري»(٣).

وهذا في واقع الأمر تشكيك في بديهيات التاريخ.

ولذلك رفض الحافظ ابن حجر كلام ابن تيمية وقال في الرد عليه: «هذا ردٌّ للنص بالقياس، وإغفال عن حكمة المؤاخاة؛ لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى، فآخى بين

---

(١) الأئمة الإثنى عشر: ٤٩. وقريب منه في تاريخ الطبري: ٢/ ٣٧٨ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٥٣ ـ ١٥٤ و٣/ ق١/ ١٣ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٩.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٦٣٦ وسيرة ابن هشام: ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٤ وحلية الأولياء: ١/ ٦٧ وتاريخ بغداد: ١١/ ١١٣ و١٢/ ٢٦٨ والاستيعاب: ٣/ ٣٥ والبداية والنهاية: ٧/ ٣٥٩.

(٣) فتح الباري: ٨/ ٢٧٣. ويراجع منهاج السنة ٤/ ٩٦.

الأعلى والأدنى، ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى. وبهذا يَظهر مؤاخاته (ص) لعليّ، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمر، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة لأن زيداً مولاهم، فقد ثبت اخوتهما وهما من المهاجرين»(١).

وكان الوسام الثاني الذي حصل عليه علي في المدينة بعد الهجرة تزوجه بحبيبة محمد وعزيزته وبضعته الغالية عليه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع).

ويحدثنا الصحابي أنس بن مالك عن هذه المكرمة فيقول:

«خطب أبو بكر إلى النبي (ص) ابنته فاطمة فقال النبي (ص): يا أبا بكر لم ينزل القضاء بعد. ثم خطبها عمر مع عدةٍ من قريش كلهم يقول له مثل قوله لأبي بكر. فقيل لعلي: لو خطبت إلى النبي (ص) لخليق أن يزوجكها؟ قال: وكيف وقد خطبها أشراف قريش فلم يزوجها؟. قال فخطبها، فقال النبي (ص): قد أمرني ربي عزَّ وجل بذلك» ثم دعا النبي عدداً من الصحابة فلما اجتمعوا عنده قال: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه... إن الله تبارك اسمه وتعالت عظمته جعل المصاهرة نسباً لاحقاً.. ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة بنت خديجة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أني قد زوجته»(٢).

وبعد أن انتهى من مراسيم الزواج دخل (ص) على ابنته فقال لها: «زوجتكِ سيداً في الدنيا والآخرة، وأنه لأول أصحابي إسلاماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلماً»(٣).

---

(١) المصدر نفسه: ٨/ ٢٧٣.
(٢) ذخائر العقبى: ٢٩ ـ ٣٠.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٩٦ و٧/ ٢٢٠ و١٣/ ٢٢٧ والاستيعاب: ٣/ ٣٦.

وهكذا يتكشف هذا الزواج عن جوانب وميزات قد لا يدركها القارىء العجل وقد لا يقف عليها المستعرض للنصوص بدون تمحيص.

وكانت أولى هذه الميزات أنه زواج في السماء وبأمرٍ من الله تعالى قبل أن يكون نسباً أرضياً ومجرد ارتباط عاطفي، ويكفينا في ذلك ما حدثنا به الخليفة عمر بن الخطاب إذ قال: «نزل جبريل فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تزوج فاطمة ابنتك من علي»[١].

وكان ثاني هذه الميزات أن الله تعالى قد جعل الذرية النبوية الطاهرة محصورة بهذا الزواج المبارك ومن طريق هذين الزوجين، وفي ذلك يقول الخليفة عمر بن الخطاب: «سمعت رسول الله (ص) يقول: «كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي، وكل بني انثى فعصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أبوهم وأنا عصبتهم»[٢].

ثم كان ثالث هذه الميزات أن الزهراء (ع) وحيدة محمد التي لم يكن لها أخت في النسب الأبوي. أما زينب ورقية وأم كلثوم ـ وقد اشتهرن بكونهن بنات محمد ـ فهن بنات خديجة من زوجيها الأولين ولم يؤيد التحقيق التاريخي المتعمق بنوتهن لمحمد. وقد سبق لنا بحث ذلك في دراسة سابقة فلا نكرر ولا نعيد[٣].

❀ ❀ ❀

وتوالت الأوسمة السماوية على عليٍّ وبالشكل المتتابع المتسلسل،

---

(١) ذخائر العقبى: ٣٠. ويراجع شرح نهج البلاغة: ١٩٣/٩.
(٢) ذخائر العقبى: ١٦٩، وقريب منه في شرح نهج البلاغة: ١٠٦/١٢.
(٣) يراجع كتابنا [«أصول الدين ـ النبوة» هامش الصفحات ١٤٦ ـ ١٤٨].

وإلى الحد الذي لا يسع الإنسان عندما يدركه ـ بعمق ـ إلاَّ الاعتقاد بالعناية الإلهية الخاصة وبالهدف المعين الكبير والخطير الذي كان قد أُعِدَّ عليٌّ له في علم الله مسبقاً.

وهكذا كان علي «صاحب لواء رسول الله (ص) يوم بدر وفي كل مشهد»[(١)].

وكان علي باب مدينة العلم في قول النبي (ص) «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد العلم (أو: الحكمة) فليأتِ الباب»[(٢)].

وكان علي بالنسبة إلى الصحابة الآخرين: «أعلمهم علماً» و«أكثرهم علماً» وبحسب التعبير النبوي الشريف: «أعلم أمتي من بعدي» و«عيبة علمي»[(٣)].

وكان علي هو الذي يقول فيه الناطق عن الوحي: «ألا أدلكم على ما إنْ تساءلتم عليه لم تهلكوا؟ إن وليَّكم الله وإنَّ إمامكم علي بن أبي طالب، فناصحوه وصدِّقوه، فإن جبريل أخبرني بذلك»[(٤)].

وكان علي هو الذي لا يحبه إلاَّ مؤمن ولا يبغضه إلا منافق[(٥)].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٤ والاستيعاب: ٣/ ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الاستيعاب: ٣/ ٣٨ وتاريخ بغداد: ٢/ ٣٧٧ و٤/ ٣٤٨ و٧/ ١٧٣ و١١/ ٢٠٤ وأسد الغابة: ٤/ ٢٢ وذخائر العقبى: ٧٧ والبداية والنهاية: ٧/ ٣٥٨ ومجمع الزوائد: ٩/ ١١٤ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٣٧.

(٣) مسند أحمد: ٥/ ٢٦ والاستيعاب: ٣/ ٣٦ و٣٨ وحلية الأولياء: ١/ ٦٥ ـ ٦٦ ومجمع الزوايد: ٩/ ١٠١ و١١٤.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٩٨.

(٥) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٨٣ و١٨/ ٢٧٥ و٢٠/ ٢٢١.

وكان «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار»[١].

وكان علي من النبي «بمنزلة هارون من موسى»[٢]. كما سيأتي تفصيله في صفحات قادمة.

ثم كان آخر ما أُثر عن النبي (ص) ـ بشأن علي ذلك الحديث المتواتر الشهير الذي رواه (١١٠) من الصحابة و(٨٤) من التابعين و(٥٧) من علماء القرن الثاني وحفاظه من غير الشيعة الإمامية و(٩٠) من القرن الثالث و(٤٣) من القرن الرابع و(٢٤) من القرن الخامس و(١٩) من القرن السادس و(٢١) من القرن السابع و(١٨) من القرن الثامن و(١٦) من القرن التاسع و(١٣) من القرن العاشر و(٢٥) من القرون الأربعة الأخيرة[٣].

إنه الحديث المعروف بحديث الغدير والذي ورد فيه قوله (ص):

«إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنتُ مولاه فهذا علي مولاه، اللهم والِ مَنْ والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدِرِ الحقّ معه حيثما دار»[٤].

وسنبحث هذا الحديث بالتفصيل والتحليل في فصل آتٍ من هذا الكتاب.

❀ ❀ ❀

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٧٢ و٢٠/ ٢٢١.

(٢) صحيح مسلم: ٧/ ١٢٠ ومصادر أخرى يأتي ذكرها عند شرح الحديث.

(٣) يراجع في أسماء هؤلاء الرواة ومصادر روايتهم لهذا الحديث: كتاب الغدير: ١/ ١٤ ـ ١٣٩.

(٤) أسد الغابة: ٤/ ٢٨ وسنن ابن ماجة ١/ ٤٣ ومصادر أخرى يرد ذكرها في موضعها.

وهكذا ينتهي عهد النبوة الزاهر، وتصعد روح محمد إلى السماء في سنة إحدى عشرة من الهجرة، وعليٌّ يحمل كل هذه الأوسمة السماوية الرائعة، وفيهاما هو نص على الإمامة والوصاية والاستخلاف.

مع الخلفاء الثلاثة

... وسيكتب عنه التاريخ بحروف من نور أن هذا الرجل العظيم قد ضرب أروع الأمثلة والدروس، في التجرد من الأنا؛ وفي العمل من أجل استمرار المسيرة الإسلامية، وفي نكران الذات أمام المصلحة العليا لرسالة الإسلام ووحدة كلمة المسلمين، على الرغم من إيمانه القاطع بأن الإمامة إرثه الشرعي وحقه الشخصي الذي لا ريب فيه.

❀ ❀ ❀

في صباح يوم متجهّم القسمات عابس الأسارير؛ فوجىء المسلمون بالحادث الجلل الذي هزّ كيانهم هزاً، وزلزل استقرارهم النفسي والعقيدي من الأعماق، وحطم كل آمالهم الضاحكة المشرقة أبشع تحطيم. فقد مات رسول الله (ص)، وانقطعت الصلة المباشرة بوحي السماء، وانطفأ ذلك السراج المنير والمصباح الوضاء. وسيحدث ـ بعد هذا اليوم ـ من الهزات والعواصف ما لا يخطر على بال، كما وعدهم ربهم إذ قال وهو أصدق القائلين: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ﴾.

وكانت أولى تلك المشاكل الكبرى التي اصطدم بها هؤلاء المسلمون المفجوعون هي مسألة الخلافة عن هذا الفقيد العظيم.

وعلى الرغم من النص النبوي الصريح الجلي على عليٍّ ـ كما سيأتي بيانه في فصل لاحق ـ فإن العنعنات والعصبيات لم تسمح لذلك النص بالتطبيق على صعيد الواقع العملي، فأصبحت «مسألة الخلافة» هذه أم البلاء ومفتاح الشقاء.

ولا غرابة في كل ذلك ولا عجب.

يقول الكاتب المعتزلي عز الدين بن أبي الحديد:

«اعلم أن كل دم أراقه رسول الله (ص) بسيف علي (ع) وبسيف غيره، فإن العرب بعد وفاته (ص) عصبت تلك الدماء بعلي بن أبي طالب وحده، لأنه لم يكن في رهطه مَنْ يستحق في شرعهم وسنتهم وعادتهم أن يُعْصَب به تلك الدماء إلا بعلي وحده، وهذه عادة العرب إذا قُتل منها قُتِل طالبتْ بتلك الدماء القاتل، فإن مات أو تعذرت عليها مطالبته طالبت بها أمثل الناس من أهله»[1].

ومن هنا كانت الخلافة في تلك الساعة الحرجة الرهيبة معضلة المعضلات ومشكلة المشاكل، أياً ما كان النص الصحيح والحق الصريح.

ولا نريد هنا أن نقتحم ميدان البحث في هذا الحدث الضخم وفي ما وقع في تلك الساعات الأليمة من خلاف وانشقاق وأخذ ورد، لأن اقتحام هذا الموضوع بالتفصيل قد يثير بعض العواطف ويخدش بعض المشاعر ويحرك بعض العصبيات. وسيرد شيء من الاستطراد الموجز لبعض جوانب هذا الحدث في فصل قادم.

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٠٠.

وكانت الخلاصة ـ كما أسفرت عنها السقيفة ـ فوز أبي بكر بخلافة المسلمين.

وكان تعليق علي على هذا الفوز تعليق الرافض المعارض، فقد أُثِرَ عنه لما انتهت إليه أنباء السقيفة أنه قال:

«ما قالت الأنصار؟

قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير.

قال (ع): فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله (ص) وصّى بأن يُحْسَن إلى محسنهم ويُتَجَاوَزَ عن مسيئهم؟

قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟

فقال (ع): لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم.

ثم قال (ع): فماذا قالت قريش؟

قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول (ص).

فقال (ع): احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»[١].

«وروي له شعر في هذا المعنى أيضاً:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم
فكيف بهذا والمشيرون غُيَّبُ
وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم
فغيرُك أوْلى بالنبي وأقربُ»[٢]

---

(١) نهج البلاغة: ١/١١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢/١٨٠.

ثم كان مما زاد الإمام رفضاً وامتعاضاً ما لقيت زوجته سيدة نساء العالمين وحبيبة رسول الله (ص) ووحيدته من العنت والشجا بعد وفاة أبيها، وقد أشار ـ سلام الله عليه ـ إلى ذلك خلال كلمته في تأبين الزهراء عند دفنها:

«وسَتُنَبِّئُكَ ابنتك بتضافر أمتك على هضمها، فأحفِها السؤال، واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد؛ ولم يخل منك الذكر... الخ»(١).

ثم كانت المآسي التي حدثت تحت ستار محاربة أهل الردة(٢) مدعاة لمزيد من المعارضة والرفض للأوضاع الجديدة التي أسفرت عنها عملية الاستخلاف المشار إليه.

وقد لخص علي موقفه من الخليفة الأول تلخيصاً دقيقاً جداً فقال في خطبة له:

«أما والله لقد تقمّصها [أي الخلافة] فلان [يعني أبا بكر] وانه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليَّ الطير، فسدلتُ دونها ثوباً، وطويتُ عنها كشحاً، وطفقتُ ارتأئي بين أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربَّه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا»(٣).

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٤١٧.

(٢) يراجع بحثنا: «نصوص الردة في تاريخ الطبري: نقد وتحليل» [ص: ٣١٧ ـ المجلد الثالث عشر من هذه الموسوعة].

(٣) نهج البلاغة: ١/ ٣٠ ـ ٣١.

وهذه هي الموضوعية المذهلة التي تميز بها عليٌّ ذلك التميز الهائل العظيم.

إنه صاحب الحق، ولذلك فهو معارض ورافض وسلبي إلى آخر الخط.

ولكنه ـ باعتباره ابن الاسلام وبانيه وحاميه ـ لن يفضل شيئاً من شؤون الدنيا ـ مهما عظم وسما ـ على رعاية مصلحة الإسلام العليا وشؤونه الأساسية وإعلاء رايته الخفاقة.

ولا مانع لديه ـ في سبيل هذه المصلحة ـ من الصبر على كل «قذى» و«شجا» ومكروه يصيبه؛ ومن التنازل عن كل مآربه الذاتية وحقوقه الخاصة وشؤونه الدنيوية الزائلة.

وهكذا كان...

ولقد جاءه عمه العباس بن عبد المطلب قائلاً له: «ابسط يدك أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله (ص)»[1]، فرفض.

ثم جاءه أبو سفيان قائلاً له: «ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش! والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً».

فرد عليه علي مغضباً: «يا أبا سفيان! طالما عاديت الإسلام وأهله»[2].

وفي نص آخر عن أبي سفيان أنه قال: «أبا حسن أبسط يدك حتى أبايعك».

(١) الأمامة والسياسة: ١/ ٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٩.

فرد علي عليه: «إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة وانك والله طالما بغيت للإسلام شراً»(١).

وهكذا وقف علي بكل صلابة دين وقوة إيمان أمام محاولات الفتنة وإثارات التخريب، وإن لم تقم له مع الخليفة أية علاقة وارتباط. بل كانت العلاقات بينهما ـ في الحقيقة ـ متسمة بالسلبية والقطيعة؛ أو اللاايجابية في أدق التعابير.

ودامت الحال على هذا المنوال حتى توفي أبو بكر.

وآلت الخلافة بعد أبي بكر إلى عمر بن الخطاب.

وكان ذلك ـ في أحسن الفروض ـ بنص الخليفة السابق عليه وليس بالشورى والانتخاب، ويروي بعض المؤرخين أن عثماناً هو الذي وضع اسم عمر في وصية أبي بكر وكان قد أغمي على الخليفة حينذاك، فلما أفاق من إغمائه وعلم بما كتب عثمان رضى به وأقره عليه(٢).

ومع إيمان علي بأن الحق حقه والخلافة تراثه، فإنه كان يقف من الحكم والحكام ـ كما أسلفنا ـ موقف المحافظ على مصلحة الإسلام العليا من جهة والمتعامل بالمثل مع سلوك الخليفة وتجاوبه معه من جهة أخرى.

وعندما تسلم ابن الخطاب الخلافة سعى بكل جهدٍ ـ ونقولها بصراحة وأمانة تامتين ـ إلى الاستفادة من عبقرية علي وعلمه ومواهبه، فكان يلين جانبه لأبي الحسن كل اللين وبشكل مثير للانتباه، خصوصاً وأن أبا حفص كان معروفاً بـ «غلظ الطينة وجفاء الطبيعة، ولا حيلة له

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٩.

(٢) الأوائل: ١٢٠ وصبح الأعشى: ٩/ ٣٥٩.

فيها [كما يرى ابن أبي الحديد المعتزلي] لأنه مجبول عليها لا يستطيع تغييرها»[١].

ولأن أبا حفص كان على هذه الجبلة والشاكلة رأى أن علياً لا يصلح للخلافة لأنه «امرؤ فيه دعابة!!»[٢]، ولكنه رأى ـ مع ذلك ـ أن «هذه الدعابة!!» لا تمنع من الاستفادة من علم علي وطاقاته الذهنية والفكرية الكبرى.

وقابله علي بقلب مفتوح ونفس طاهرة الجذور فمحض النصيحة، وأسدى التوجيه، ورد على كل سؤال، وساهم في حل كل معضلة كان يمر بها الحكم والحاكم. مندفعاً إلى هذا كله بدافع إخلاصه للدين وحرصه على وحدة الكلمة وكلمة التوحيد، وفي ذلك يقول سلام الله عليه:

«لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري. ووالله لأسَلمَنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً في ما تنافستموه من زخرفه وزبرجه»[٣].

وهكذا التقى الاثنان.

ولم يمنع من هذا اللقاء كل مواقف أبي حفص من علي وآل علي

---

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ٦/ ٣٢٦، ويقول ابن أبي الحديد المعتزلي معلقاً على هذه «الدعابة!!»: ولما كان عمر شديد الغلظة وعر الجانب خشن الملمس دائم العبوس، كان يعتقد أن ذلك هو الفضيلة وأن خلافه نقص. ولو كان سهلاً طلقاً مطبوعاً على البشاشة وسماحة الخلق لكان يعتقد أن ذلك هو الفضيلة وأن خلافه نقص. حتى لو قدرنا أن خلقه حاصل لعلي (ع) وخلق عليّ حاصل له لقال في علي: لولا شراسة فيه». شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٢٧.

(٣) نهج البلاغة: ١/ ١٢٤.

يوم السقيفة؛ ومن دوره الكبير في تنصيب أبي بكر، ذلك الدور الذي يقول فيه ابن أبي الحديد المعتزلي: «وهل كان لولا مقام عمر وحضوره في تلك المقامات يتم لأبي بكر أمر أو ينتظم له حال... والأمر في هذا أظهر من كل ظاهر»[١]، ويقول أيضاً بأنه لولا عمر «لم يثبت لأبي بكر أمر ولا قامت له قائمة»[٢].

نعم هكذا التقى الرجلان: عمر يتوجه نحو علي بكل جد واندفاع، وعلي يضع نفسه تحت تصرف المصلحة الإسلامية العليا بكل صدق وإخلاص.

ويبدو لي من دراسة علاقة الرجلين في هذه الفترة بالذات أن عمر كان مدفوعاً إلى هذا الموقف بدافع العمل على تخفيف حدة التوتر بين علي وأصحابه وبين الحكم القائم يومذاك، ثم كان مدفوعاً لهذا الموقف أيضاً بدافع شعوره بالحاجة إلى علم علي بالشريعة وآرائه الصائبة في الشؤون العامة، إدراكاً منه بأنه لم يكن ـ من الناحية العلمية ـ بالمنزلة التي تؤهله للإجابة على استفسارات المسلمين وللقضاء بينهم في ما يعرض عليه من مشاكلهم ومنازعاتهم[٣].

ومن هنا كان التجاؤه إلى علي وتكراره القول: «لولا علي لهلك عمر»، بهذا النص تارة، وبهذا المضمون تارات أخرى[٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ١٩٢.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٧٤.

(٣) يقول ابن أبي الحديد في شرح النهج: ١/ ١٨١ «كان عمر يفتي كثيراً بالحكم ثم ينقضه ويفتي بضده وخلافه».

(٤) الاستيعاب: ٣/ ٣٩ وطبقات الفقهاء: ١٠ ومطالب المسؤول: ١/ ٣٧ وتذكرة الخواص: ١٥٧ وشرح نهج البلاغة: ١/ ١٤١ و١٢/ ١٧٩ و٢٠٥ والبداية والنهاية: ٧/ ٣٥٩ وذخائر العقبى: ٨٢ والرياض النضرة: ٣/ ٢٠٥ والفصول المهمة: ١٧.

ولا نريد في هذه العجالة ـ أن نحصي كل تلك المواقف أو نستعرض كل تلك المجالات التي استشار فيها الخليفة علياً وأخذ بقوله، ولكننا نروي بعضاً من نماذجها في أدناه:

١ ـ عمر يستشير علياً في المرأة التي ولدت لستة أشهر ويعمل بقوله ويقول: اللهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب؛ أو: لولا علي لهلك عمر[١].

٢ ـ عمر يأخذ بقول علي في المرأة المجنونة الزانية[٢].

٣ ـ عمر يستشير علياً في محرم أصاب بيض نعام ويأخذ بقوله ويقول: اللهم لا تنزل بي شديدة إلا وأبو حسن إلى جنبي[٣].

٤ ـ عمر يأخذ بقول علي في تفسير ما قاله حذيفة بن اليمان ويقول: كاد يهلك ابن الخطاب لولا علي بن أبي طالب[٤].

٥ ـ عمر يأخذ بقول علي في المرأة الحامل التي اعترفت بالفجور ويقول: عجزت النساء أن تلدن مثل علي بن أبي طالب، لولا علي لهلك عمر[٥].

٦ ـ عمر يأخذ بقول علي في المرأة التي تزوجت في عدتها[٦].

---

(١) كفاية الطالب: ١٠٤ وتذكرة الخواص: ١٥٧ وذخائر العقبى: ٨٢ والرياض النضرة: ٣/ ٢٠٥.

(٢) تذكرة الخواص: ١٥٧ وشرح النهج: ١٢/ ٢٠٥ وفتح الباري: ١٥/ ١٣١ وذخائر العقبى: ٨١.

(٣) ذخائر العقبى: ٨٢ والرياض النضرة: ٣/ ٢٠٦.

(٤) كفاية الطالب: ٩٦ والفصول المهمة: ١٧.

(٥) مطالب المسؤول: ١/ ٢٦ ـ ٢٧ وذخائر العقبى: ٨٠ والرياض النضرة: ٣/ ٢٠٨.

(٦) تذكرة الخواص: ١٥٧ وذخائر العقبى: ٨١ والرياض النضرة: ٣/ ٢٠٩.

٧ ـ عمر يسأل علياً عن حكم الحامل التي خافت الخليفة فأسقطت حملها، ويعمل بقوله(١).

٨ ـ عمر يسأل علياً عن حكم المرأة التي أجهدها العطش ففعلت محرماً، ويعمل بقوله(٢).

٩ ـ عمر يعمل بقضاء علي في الرجلين الذين استودعا أمرأةً مائة دينار ويقول: لا أبقاني الله بعد ابن أبي طالب(٣).

١٠ ـ عمر يحيل مسائل يعجز عن معرفتها الصحابة إلى علي فيجيب عنها؛ فيقول عمر: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن(٤).

١١ ـ عمر يسأله سائل عن العمرة فيحيله إلى علي(٥).

١٢ ـ عمر يعمل بقول علي في أن يكون ابتداء التاريخ الإسلامي من الهجرة النبوية(٦).

۞ ۞ ۞

واستمرت العلاقة بين الرجلين على هذه الشاكلة من التعاون والتناصح والايجابية حيناً طويلاً، حتى خيل لبعض الناس أن عمر ربما عهد بالخلافة من بعده لعلي.

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد تعرض الخليفة عمر بن

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٧٤.
(٢) ذخائر العقبى: ٨١ والرياض النضرة: ٣/ ٢٠٨.
(٣) تذكرة الخواص: ١٥٧ وذخائر العقبى: ٨٠ والرياض النضرة: ٣/ ٢١١.
(٤) تذكرة الخواص: ١٥٤.
(٥) ذخائر العقبى: ٧٩ والرياض النضرة: ٣/ ٢٠٦.
(٦) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨ ـ ٣٩ وشرح نهج البلاغة: ١٢/ ٧٤.

الخطاب إلى محاولة اغتيال، أصابته اصابات لا يرجى منها شفاء.

وتلفّتَ نحوه بعض من كان حوله من حاشيته قائلاً:

لو استخلفت؟

وأسفر جواب هذا السؤال عن قصة عجيبة كانت مفتاح كثير من المآسي التي عانى المسلمون من آلامها وآثارها أشد المعاناة وأقساها.

ولما كان الكاتب المصري المعروف الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود قد بحث هذه القصة وحللها باسهاب وتفصيل وبكثير من الحياد والموضوعية، وتحاشياً من تكرار النتائج والأفكار نفسها، نقتبس من كلام هذا الكاتب الحر فقرات تعنى بشرح قصة الشورى وما انتهت إليه من خلافة الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

قال الأستاذ عبد الفتاح متحدثاً عن جواب الخليفة عمر على السؤال السالف الذكر:

فكر عمر ملياً في السؤال، وقال بنبرة الآسف:

«لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفتُه وقلتُ لربي لو سألني: سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة. ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله.

«فهلا ذكر ـ في هذا المقام ـ قليلاً من الكثير الذي قيل في ابن أبي طالب على لسان رسول الله؟

«إنه بلا ريب ذكره، وذكر قدر علي؛ لا كما جرت به سيرته على شفاه محبيه، بل كما علمه هو وخبره وقدره القدر الذي يعلو به على

الآخرين. ولكنه أيضاً ذكر السياسة العليا التي استنّتها لنفسها قريش...».

وأخيراً أوصى عمر وأعلن رأيه، ولكنه أوصى كما شاءت نفسه لا كما شاءت معرفته وتجربته.

«ولم يكن الرجل وإن أوصى قد اختار، ولكنه رسم حدود هذا الاختيار وحصر الأمر في ستة نفر من أصحابه لن تعدو الخلافة أحدهم بحال، ثم ترك لهم وحدهم أن ينتخبوا أمير الإسلام.

«ومع ذلك فمن ذا الذي يستطيع أن يقول إنه لم يحدد موقفه إذ ذاك من علي غاية التحديد؟ ولم يقطع ـ بالتلميح دون التصريح ـ عليه الطريق إلى ولاية الناس؟ ولم يدلُ بدلوه مع الدلاء التي أخذت من حق هذا الهاشمي المحسود؟

«إن الرجل لم يناد صراحة باقصاء علي عن الإمارة، ولكن وضْعه إياه مع أولئك الآخرين على سواء كان يصرخ بأنه ليس يبزّهم ولا يعلو عليهم مرتبة في الشأن الذي اختيروا له. وما أحسبه إلا واضحاً ما سوف تخسره قضية علي بهذه المساواة.

«ثم دعنا نستعرض أسماء أولئك الأنداد ونعرف أين مكانهم من صفوف ذوي الأحقاد. ما من ريب في أن ظلالاً من الحسد قد لفتهم أو أسرهم أو فروعاً منها، وليكن خيرهم لعلي ـ وقد أدخلنا الأنساب في الحساب ـ ابن عمته الزبير، ولكننا رغم هذا لا نستطيع أن نذكر خبره إلا مشوباً بالغيرة منه، وموقفه في الماضي من علي مذكور معروف، وموقفه منه من بعد دونه منايا وحتوف.

«لقد ألّب عمر ـ عامداً أو بغير تدبير ـ على سليل هاشم أحقاد قريش، وكتب له ـ إذ أودع الشورى أولئكم الخمسة ـ مصيراً مآله الفشل.

ومن لعلي برضا بني تيم بعد أن نافس شيخها أبا بكر وغالبه غبّ وفاة الرسول على ولاية الأمر، وهذا طلحة التيمي له رأي الآن في الانتخاب قد يستغله في الثأر؟ ومن له بمحو الأحقاد الأموية على بني هاشم من قلوب أصحابها بعد أن ظلوا أجيالاً يربون هذه الأحقاد في قلوب الأبناء والأحفاد... قد كان يكفي أن تجمع شورى عمر بين علي وبين التيمي طلحة والأموي عثمان ليبوء أول ثلاثتهم بالهزيمة والخسران.

«ولكننا نرى عهد الخليفة الطعين بادياً في صورة من الإمعان في تأليب قوى العصبية كلها ضد ابن أبي طالب. فلقد ضمّت الشورى أيضاً سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وكلا الرجلين من زهرة، ولكليهما نسب موصول ببني أمية... فإذا علمنا هذا فماذا بقي بعده لعلي. وأي بطن من قريش ينصف قضيته وقريش كلها خصومه وقضاته في آن واحد؟

«وكذلك كانت وصية عمر بالشورى تومىء إلى الرجل المغلوب كما يومىء عهد مكتوب».

واستقبل علي النبأ بصبر وصمت، ولقيه عمه العباس بن عبد المطلب فسأله عن الأمر، وأجابه أبو الحسن باقتضاب: جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فبان الألم في عيني العباس «ولم يفه بحرف كأنما قد بغته ما سمع... ولا يملك أن يميط الدهشة عن نفسه. فلقد كان هذا اليوم أَولى الأيام بعودة الحق إلى صاحبه بعد أن عرف الإسلام طريقه إلى النفوس واستقر في القلوب أعواماً كفيلة بأن تنسي الناس عصبية الجاهلية وتميت الأحقاد القديمة التي توارثوها. ولكنه الآن علم أنه أحسن الظن بطبيعة البشر.. وتكررت للمرة الثالثة أمام عينيه نفس الصورة التي بدت له عند وفاة الرسول. وظهرت قريش تماماً كعهدها الأول حاقدة ناقمة على بني بيته وبيت آبائه، متربّصة لهم تتحيّن

الساعات. وليس اختيار ذينك الرجلين تباعاً بعد موت محمد سوى مظهر لاستمساك القوم بشريعة الأحقاد».

«وزفر علي تبرّماً وهو يذكر ما فات، ثم قال باستنكار:

«متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر»!

«أجل. متى اعترض الريب فيه مع أول الخليفتين! ألا قد كان جلياً غاية الجلاء لكل مبصر أن ابن أبي طالب وشيخ بني تيم لم يكونا على سواء، وأن الهاشمي الصغير كان إذ ذاك أولى بالأمر من أبي بكر، لولا تدافع الأحداث مرة والاستجابة لهذه السخائم القديمة مرات».

واقترح عليه عمه العباس وغيره من المقربين إليه أن لا يدخل مع هؤلاء في الشورى ترفعاً عنهم من جهة وابتعاداً عن الفشل المحتم من جهة أخرى.

وأجاب علي على ذلك قائلاً:

اني «أدخل في الشورى معهم لأن عمر قد أهَّلني الآن للخلافة، وكان من قبل يقول أن النبوة والخلافة في بيت واحد لا تجتمعان.

«أجل.. فقد كان هذا رأي عمر، أو هكذا كان يقول في الماضي مُلتمساً الحجة فيه لقريش على ما سبق من عدوانها على حق علي وحرمانه ولاية الأمر بعد رسول الله.

«وراح ابن أبي طالب يدلي برأيه لابن عباس:

«أردت أن أظهر أن روايته تناقض فعله.

«وحقاً نقض الفعل الرواية وإن جاء كلاهما بنفس الغاية».

❀ ❀ ❀

«لقد كانت الشورى العمرية ضرباً جديداً من العهود، لا إلى الشورى ولا إلى الوصية، ولم يكن لها مثيل قبلها في الإسلام، وهي بنحوها هذا نوع غريب من الاختيار قبل الانتخاب».

إن «قصة الشورى جديرة بأن يتلكأ عندها برهة ذهن المتدبر، لأن فيها ـ برسمها المعروف ـ شيات:

«فيها: خروج على مبدأ الشورى الذي أملاه على النفس البشرية حب الحرية.

«وفيها: تحكّم الفرد في الجماعة إذ يلزمها أن تترسّم رأياً رآه في نفرٍ اختارهم وفق تقديره إن لم يكن وفق هواه».

«وفيها: تعسف التسوية بين ستة تُجاهر المزايا والفوارق بأنهم ليسوا على درجة واحدة في شرعة المساواة».

«وفيها: تكتيل للقوى العصبية وللأحقاد القبلية وتجيشها صفاً يرجح ميزانها ويمد لها في حبل الطغيان».

«ثم فيها قبل هذا وذاك نكوص عن الرأي الصائب الذي كانت تفرضه منذ البدء، مصلحة الشعب إلى رأي متعثر لم يكن قرين الصواب».

«ما كان عمر بالرجل الذي يعمل عفواً دون أن يهدف إلى غاية من وراء عمله، أو بالغرير الذي يكل الأمور إلى تصريف المقادير، ولكنه كان موفور الحنكة، بصيراً بمواقع خطاه... ولئن عهدناه من قبل تغلب عليه الدفعة حتى لتركبه شططاً، فإن اختياره أهل الشورى لم يكن عن دفعة، بل جاء عن تريث وروية».

«ومع ذلك فما من حكمة يستطيع من يمعن التدبر أن يراها ماثلة

وراء عهده بالشورى وحصره الخلافة في ستة يختارون من بينهم أميراً. . . وأن عمر الذي تعودنا أن نرى له العذر ظاهراً في ما صدر عنه من أمور تُحْسَب عليه لا نستطيع ها هنا أن نلتمس له عذراً».

❀ ❀ ❀

ومهما يكن من أمر.

فقد اجتمع الستة (الكبار) بعد وفاة عمر لانتخاب الخليفة الجديد.

وكان «لولب» هذا الاجتماع و«قطبه» بنص الخليفة الراحل عبد الرحمن بن عوف!!

وبعد أخذ ورد طويلين استغرقا ثلاثة أيام من الوقت، توجه عبد الرحمن إلى علي وعثمان وقال لهما:

«إني قد سألت عنكما وعن غيركما فلم أجد الناس يعدلون بكما!

ثم تمهل برهة عاد بعدها يستأنف الحديث:

يا أبا الحسن، هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟

فرمقه علي بنظرة نفاذة وقال:

بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي».

«كان هذا هو الجواب الحاسم، الجدير بأن يلفظ به من له قوة خلق علي واعتداده بنفسه، ولن يضيره أن يفقد صولة أو ملكاً بقدر ما كان يضيره لو آثر أن يصل إلى السلطان عن غير طريق حرية رأيه وجهره بما يعلم أنه حق أبلج لا تعتريه شبهة، وما كان لامرىء أن ينكر على أبي الحسن علمه وحكمته ونضج آرائه وغيرها من سجاياه المثلى التي

تؤلف من بينها أقوى دعامة يمكن أن يستند إليها حكم فاضل قويم».

«ماذا عسى كان ابن عوف يريد بشرطه؟

«ولئن بدا لعبد الرحمن أن يتثبت من الأسس التي يزمع علي أن يقيم عليها حكمه أفلم يكفه أن يكون ذلك الأساس كتاب الله وسنة الرسول؟ وأي دستور وضعي يستطيع أن يسع؛ من النظم التي تضيء العدل وتضيء القوة؛ ما وسعه دستور السماء؟ وفيم إذن ولم الشرط بتأثر خطا أبي بكر وعمر ما دام المشروط عليه قد أقرَّ على نفسه بالتزام أوضح نهج وأقوم تشريع؟

«ولكن ابن عوف ـ في ما يبدو ـ لم يرضه ها الإقرار بالتزام الأصول بقدر ما كان يرضيه أن يجمع إليه التزام التفاصيل. وعجب أن تكون هكذا نظرته ويكون شرطه؛ وهو العالم بأن الدستور الإلهي فيه غناء عن فعل ذينك الشيخين أيّما غناء؛ وأنهما آدميان بلا قداسة ولا تنزيه، قمينان بالإصابة وبالوقوع في الأخطاء. ولو أن الرجل تفكّر قليلاً لعلم استحالة قبول علي شرطه. وكان حرياً به حقاً أن يتفكر... ولا ينسى في هذه الآونة ـ التي نصبه القدر فيها صانعاً للحكام ـ أن الشيخين لم يتأثر ثانيهما خطوات سابقه تمام التأثر، بل خالف نهجه وخالف أيضاً نهج رسول الله في كثير من الأمور... حتى تلك النواحي التي لها خطرها من السياسة العامة للدولة قد امتدت يده إليها بالتبديل والتعديل، وتناول منها النظام المالي المعروف فهدمه وأقام آخر مغايراً على أنقاضه، لم يمنعه عن ذلك علمه برأي رسول الله وعمله، أو عمل أبي بكر بذلك المبدأ القويم.

«كان عمر في هذا حاكماً له سياسته التي آمن بصلاحيتها، فلم يقف أمام رأي سلفيه مكتوف اليدين أو معقود اللسان، ولم يدع الماضي يحول بينه وبين غرضه، بل سار قدماً إلى شوطه ولما ينصرم من الوقت

إلا قليل على وفاة أول خلفاء رسول الله. وجاءت السنة الخامسة عشرة من الهجرة بنحو جديد لتقسيم العطاء على الناس لم ينحه محمد أو أبو بكر، فألغى عمر المساواة ـ أساس التقسيم ـ وفرض الأعطيات بدرجات» كما سيأتي تفصيله في فصل لاحق.

«فأي السياسات إذن أراد عبد الرحمن أن يلزم بها علياً قبل أن يدلي إليه بالبيعة؟ وعلى أي الدساتير المستقاة من فعل الخليفتين السابقين كان عليه أن يسير؟ وبأي الشيخين كان يقتدي والأمور لديهما تختلف منازلها هكذا».

«وأما انها إذن لرؤيا حجبت كثيراً من الحقائق عن ذهن ابن عوف حين أراد أن يلزم علياً شرطه! أم هو يا ترى قد آمن بأنه لن يقبل شرطه، فشرطه!؟».

وعلى كل حال.

«وللمرة الثانية دعا [عبد الرحمن] إليه علياً وعثمان ليسمع منهما الجواب المألوف على شرطه المعروف.

قال له أول الرجلين بثبات:

بل على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي.

وقال الثاني وهو مسلس القياد:

نعم!

فصفق بكفه على يده وقال:

اللهم أني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان.

وكذلك ـ بين الصخب والضجيج واضطراب الآراء ـ فاز سليل أمية

بالمجد الذي حلم به أجداده طويلاً، وتمت له أمرة الناس ـ لا بالناس ـ وإنما بمشيئة رجل فرد من قريش كان هو الآخر يترجم فعله عن عاطفة قبلية. تلك لحظة من الدهر بدت فيها الأنانية العصبية كما لم تبد بمثل وضوحها في غيرها من لحظات الإسلام السوالف»(١).

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

❀ ❀ ❀

وهكذا تمَّ الأمر المدبر وأعلن اسم عثمان خليفة على رقاب المسلمين.

وبادر الخليفة الجديد إلى استعمال مركزه الكبير في استحداث إجراءات وتصرفات خرج بها ـ كل الخروج ـ على أحكام الإسلام الصريحة في الأفعال والأقوال وتوزيع الأموال، بل خالف في كثير منها حتى سيرة سلفيه أبي بكر وعمر.

وعلى الرغم من كل ذلك فلم يقف علي منه موقف المعارض الهدام وإنما موقف المعارض الإيجابي البناء، فكان يريد أن تسلم أمور المسلمين؛ وأن يطبق الحكم الشرعي؛ وأن تسود العدالة الاجتماعية؛ وأن يوضع الأمناء الأكفاء في مواضعهم التي يستحقونها على رأس القيادة والمسيرة الإسلامية بلا محاباة ولا محسوبية ولا منسوبية.

وسنقف في فصل لاحق على مدى دفاع علي عن عثمان عندما ثار عليه المسلمون ليقتلوه؛ وكم بذل من جهد وتحمل من نصب في سبيل حماية عثمان من الموت؛ وفي سبيل الوقوف أمام مبدأ قتل الحاكم إذا أساء أو انحرف، وفي سبيل إصلاح الخليفة لسلوكه والعودة به إلى

(١) الإمام علي بن أبي طالب: ١/٢٨٦ ـ ٣٣٠ «الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٦ م».

حظيرة الشرع وخط الإسلام الأصيل، لتستقيم الأمور، وليسود العدل، وتسير القافلة إلى أمام بِدِعَةٍ وأمان.

❀ ❀ ❀

وهكذا تنتهي عهود ثلاثة من الخلفاء أو تكاد، ولم يتلون علي خلالها في موقف، ولم يتغير له فيها نهج عمل وطريق بناء.

وسيكتب عنه التاريخ بحروف من نور ـ وقد كتب فعلاً ـ أن هذا الرجل العظيم العظيم قد ضرب أروع الأمثلة والدروس؛ في التجرّد من الأنا، وفي العمل من أجل استمرار المسيرة الإسلامية، وفي نكران الذات أمام المصلحة العليا لرسالة الإسلام ووحدة كلمة المسلمين، على الرغم من إيمانه القاطع بأن الإمامة إرثه الشرعي وحقه الشخصي الذي لا ريب فيه.

البيعة

... والتقت لأول مرة في تاريخ الإسلام إمامة السماء الشرعية بخلافة الأرض الزمنية في شخص رجل واحد: «الامامة الشرعية إذ تعني رئاسة الدين، والخلافة الزمنية إذ تعتبر رئاسة الدولة.

وسقطت هذا اليوم تلك الازدواجية القاسية التي ابتُلي بها المسلمون حيناً من الدهر... إذ تجمعت كل شؤون الدنيا والدين في يد علي أمير المؤمنين، فكان الخليفة المنتخب بالرضا، والإمام المعيَّن بالنص الشرعي.

❀ ❀ ❀

في شهر ذي الحجة من عام خمس وثلاثين للهجرة بلغ سخط الجماهير المسلمة ذروته، ولم يعد ينفع في كبح جماحها وعدُ حاكمٍ باصلاح أو توسط ذي جاه أو تدخل ذي نفوذ.

وكانت النتيجة الحاسمة لذلك السخط العارم أن يصبح الخليفة مقتولاً بسيوف أولئك المؤمنين وأن يدفن سراً في مقبرة اليهود في المدينة المنورة خلف البقيع[١].

واحتلت تلك «الحركة» واجهة التاريخ الإسلامي بكل جلاء

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤١٢.

وبروز، وكان جديراً بها أن تحمل اسم «الثورة» بكل صدق واستحقاق، ولكن كُتّاب التاريخ شاءوا أن يعبّروا عنها بـ «الفتنة»، وشاء بعض منهم أن يزيد وصف «الكبرى» عليها، لتكون لديهم «الفتنة الكبرى» في تاريخ الإسلام.

ولكنها ـ على الرغم من كل ذلك التضبيب والتشويش ـ «ثورة» حقيقية بكل ما تمتد إليه كلمة «الثورة» من أبعاد وآفاق.

وليست «ثوريتها» التي نعنيها ـ هنا ـ ونلح عليها بإصرار أنها انجلت عن خليفة مقتول ودم مطلول، بل إن ذلك ـ وأقولها بكل يقين ـ لم يكن هدف الثوار عندما بدأوا تحركهم الإصلاحي لأول مرة، ولكن «الثورية» المقصودة أنها كانت تعبيراً عملياً للجماهير عن رفضها للانحراف وتمردها على الزيف وإصرارها على العودة إلى واقع الإسلام كما حددته رسالة السماء ونفذه حامل الرسالة عملاً وسلوكاً وتطبيقاً طيلة سني حياته المباركة.

وهكذا أصبحت هذه «الحركة» التصحيحية «ثورة» بل أول ثورة في تاريخ الإسلام، إذا جاز لنا غض النظر عن تلك الحروب التي دعيت في التاريخ «حروب الردة» ولم نشأ أن نعتبرها ـ كلاً أو بعضاً ـ حروباً تصحيحية وعملاً ثورياً أيضاً(١).

ومهما حاول المؤرخون ـ من بسطاء ومأجورين ـ أن يضببوا الجو ويكدروا الصفو عندما تحدثوا عن هذه الثورة ودوافعها وأهدافها فإن المطّلع على التاريخ والواقف عليه بحياد وموضوعية يجد لها من الأسباب والمبررات ألف سبب وسبب.

---

(١) يراجع في معرفة حقيقة حروب الردة: بحثنا «نصوص الردة في تاريخ الطبري»، [المجلد الثالث عشر من هذه الموسوعة، ص: ٣١٧].

ويكفينا من كل ذلك أن نشير إلى ما آل إليه الوضع العام من انحراف كبير عن الخط الإسلامي ومن خروج على النهج النبوي ومن فظاعة متناهية في سوء توزيع الثروات العامة تكدُّساً في جيوب محظوظة وخزائن محدودة، وحرماناً للملايين ذات الحق الطبيعي في هذه الأموال.

ويكون معنى ذلك كله: فقدان هذا الحكم لمبرر وجوده ولوجوب طاعته. وكمَثَلٍ على سوء الأوضاع العامة يومذاك: ما يحدثنا به التاريخ من أن الولاة والعمال على البلاد الإسلامية كانوا بأجمعهم من عائلة الخليفة وأرحامه وذوي قرباه، ممن لم يعرف الإيمان إلى قلوبهم سبيلاً ولم تتوفر فيهم من المواصفات المطلوبة ـ إسلامياً ـ ولا صفة واحدة، ثم زاد الطين بلّةً أن الموجه لهؤلاء والآمر الناهي فيهم هو مروان بن الحكم بن أبي العاص، الذي يعرف المسلمون تاريخه وكل ما يمت إليه حرفاً وسطراً ابتداءً من وصف النبي (ص) له «بالوزغ» وانتهاءً بطرده من المدينة المنورة طيلة العهد النبوي ثم طيلة عهدي الخليفتين أبي بكر وعمر.

أما سوء توزيع الثروة العامة والتصرف الكيفي الاعتباطي في صرف أموال الدولة ـ وهي أموال الجماهير وحقوق الناس ـ فحسبنا من نماذجه أن نقرأ السطور الآتية:

١ ـ ولّى الخليفة الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله (ص) صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم فوهبها له.

٢ ـ قدمت ابل الصدقة على الخليفة فوهبها للحارث بن الحكم بن أبي العاص.

٣ ـ أعطى سعيد بن العاص مائة ألف درهم.

٤ ـ أعطى شريكه في الجاهلية ربيعة بن الحارث مائة ألف درهم وأقطعه دار العباس.

٥ ـ وهب لطلحة خمسين ألفاً.

٦ ـ وهب خُمس افريقية لمروان بن الحكم.

٧ ـ دفع لزيد بن ثابت عشرة آلاف دينار.

٨ ـ أخذ من بيت المال سفطاً فيه حلي وجواهر فحلى ببعض تلك الحلي أهله.

٩ ـ أعطى عبدالله بن خالد بن أسيد أربعمائة ألف درهم.

١٠ ـ أقطع مروان فدكاً. وهي ملك خاص بالزهراء (ع) أخذه منها الخليفة أبو بكر بحجة أنها للمسلمين.

١١ ـ أقطع الحارث بن الحكم أخا مروان موضع سوق بالمدينة كان رسول الله (ص) قد تصدق به على المسلمين.

١٢ ـ حمى المراعي حول المدينة بأجمعها من مواشي المسلمين إلاَّ عن بني أمية.

١٣ ـ أعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقية من طرابلس الغرب إلى طنجة.

١٤ ـ أعطى أبا سفيان مائتي ألف.

١٥ ـ أتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة فقسمها كلها في بني أمية.

١٦ ـ أدَرّ القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة ولا يغزون ولا يذبون.

١٧ ـ تطاول في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة لأهله وبناته،

«ولما بنى قصره طمار والزوراء، وصنع طعاماً كثيراً ودعا الناس إليه، كان فيهم عبد الرحمن [بن عوف] فلما نظر للبناء والطعام قال: يا ابن عفان! لقد صدقنا عليك ما كنا نكذب فيك وإني أستعيذ بالله من بيعتك»(١).

والشيء المثير للعجب أن الخليفة لم يكن يجد في كل هذا العطاء الفردي الخاص أي مانع شرعي أو أي مبرر للنقد عليه، بل كان يرى أن له كل الحق في ذلك لأن المال «مال الله أعطيه مَن شئت وامنعه من شئت!»(٢) ولأن «السواد [أي الأرض المزروعة] بستان قريش»(٣)، ولأن عطاءه هذا هو دليل إمامته «فما لي لا أصنع في الفضل ما أُريد، فَلِمَ كنتُ إماماً»(٤)!! على حد قوله الشهير.

❀ ❀ ❀

وهكذا اشتعل فتيل الثورة بسبب مجموع هذه التصرفات التي لا تمت إلى الدين بصلة، مضافة إلى جهل الحاكم بأحكام الشريعة(٥)، وتجميد شريعة الله في الحدود(٦). ومطاردة الصحابة الخيرين والمعروفين بإيمانهم وسيرتهم الفاضلة كحرمان الصحابي عبدالله بن مسعود من

(١) يراجع في ما سلف: الإمامة والسياسة: ١/ ٣٠ ـ ٣١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٤٤ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٤٥ وتاريخ الطبري: ٤/ ٢٥٣ و٢٥٦ و٢٩٢ و٣٤٥ و٤٠٤ و٤٠٥ وأنساب الأشراف: ٥/ ٢٥ و٢٨ و٣٩ و٤٨ والأوائل: ١٤٤ و١٤٥ و١٥٠ و١٥٢ ـ ١٥٤ وشرح نهج البلاغة: ١/ ١٩٦ ـ ١٩٩ و٢/ ١٦١ و٣/ ٧ وتاريخ أبي الفدا: ١/ ١٦٧ ومرآة الجنان: ١/ ٨٥.

(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٨٨.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٢٣ وأنساب الأشراف: ٥/ ٤٠.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣٩.

(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٧ و٢٨٧ و٤٠١.

(٦) أنساب الأشراف: ٥/ ٣٣، وقضية الوليد بن عقبة أشهر من أن تذكر.

العطاء[1]، كَنَفْيِ الصحابي أبي ذر الغفاري إلى الربذة حتى مات وحيداً هناك، وإلى آخر ما ورد في كتب التاريخ مما لا مجال لسرده وذكره.

نعم. كان من مجموع ذلك وما شابه ذلك أن نفد الصبر لدى المسلمين المخلصين فثاروا.

وكانت ثورتهم تصحيحية بيضاء أكثر منها ثورة قتل ودماء.

ولكن ترجرج الخليفة في آرائه، وعدم ثباته على رأي واحد منها بشكل قاطع ـ كما ستأتي الإشارة إليه في فصل قادم ـ ثم تصرفات مروان بن الحكم التي اتسمت بالهوج والرعونة والحماقة، ثم كتاب الخليفة إلى واليه على مصر بأن يبطش بالثوار المصريين ذلك البطش الذي لا تقره شريعة الغاب فضلاً عن شريعة الله. كل ذلك قد حمل الثورة على السير في طريق الدم حتى بلغت نهايتها المحتومة.

وأسفرت تلك النهاية عن خليفة ذبيح، ونظام حكم منهار، وجو متوتر مشحون بالمفاجآت.

ولم يكن من الممكن للمسلمين ـ لدينهم ودنياهم ـ أن يظلوا بدون خليفة يتولى أمورهم ويسوس شؤونهم.

لدينهم: لأن «مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» كما جاء في الحديث النبوي الشريف[2].

ولدنياهم: لأن الدولة بحاجة إلى رئيس، وإلاَّ عمت الفوضى وساد الخراب.

---

(١) الأوائل: ١٥٢ وأنساب الأشراف: ٥/ ٣٧ والبداية والنهاية: ٧/ ١٦٣.

(٢) الحديث أو مضمونه في صحيح مسلم: ٦/ ٢١ ـ ٢٢ مسند أحمد: ٢/ ٢٩٦ و٣/ ٤٤٦ و٤/ ٩٦ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٤٢ وتفسير ابن كثير: ١/ ٥١٧ ومجمع الزوائد: ٥/ ٢١٨ ـ ٢٢٥.

وإذن. فلا بد من الخليفة.

وحيث أن الأمة تعيش الآن في ظل ثورة الجماهير المسلمة، فمن البديهي أن يكون الخليفة الجديد على مستوى تطلعات هذه الجماهير وآمالها... تطلعاتها الواسعة في العدالة والإصلاح الجذري، وآمالها المتفتحة في الغد المشرق والمستقبل السعيد.

ولم يكن بين المسلمين انسان تجتمع فيه تلك المواصفات (عقيدياً) وتلك التطلعات (ثورياً) وتلك الآمال العريضة (ثقة واطمئناناً) غير علي بن أبي طالب.

وبكل صراحة ويقين فإن هذه الحقيقة العلوية التي كان يؤمن بها الناس ـ كل الناس الطيبين ـ لم تكن منبعثة عن عاطفة مشبوبة تسيطر على العقل فتجمد حركته، ولا عن هوى أعمى يغض البصر عن كل شيء، ولا عن مصلحة ذاتية تقلب الأسود أبيضاً والأبيض بلون السواد. وإنما هي الحقيقة الثابتة المجردة عن كل شائبة من شوائب العواطف الجامحة والتعصب الذميم.

ولماذا لا يكون علي هو الخليفة المنشود؟

وهل هناك في الملأ المسلم مَن يملأ المركز بكل مواصفاته المطلوبة غير علي؟

وكما يقول الكاتب المعتزلي الحر عز الدين بن أبي الحديد: «لنفرض أن النبي (ص) ما نص عليه بالخلافة من بعده، أليس يعلم الصحابة أنه قال في ألف مقام: «أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمتَ» ونحو ذلك من قوله: «اللهم عاد من عاداه ووال من والاه» وقوله: «حربك حربي وسلمك سلمي» وقوله: «أنت مع الحق والحق معك» وقوله: «هذا مني وأنا منه» وقوله: «هذا أخي» وقوله: «يحب الله

ورسوله ويحبه الله ورسوله» وقوله: «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك» وقوله: «إنه ولي كل مؤمن ومؤمنة بعدي» وقوله: «لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق» وقوله: «إن الجنة تشتاق إلى أربعة، وجعله أولهم»(١).

❀ ❀ ❀

وتدافع المسلمون على عليّ يريدون البيعة له.

ولكن علياً ـ وهو الذي يفترض فيه القبول لأن الخلافة حقه وارثه وقد عاد إليه ـ رفض هذا الطلب كل الرفض.

وكانت حسابات علي في الرفض صحيحة مائة بالمائة.

إن الجماهير التي تكأكأت على عليٍّ تريد مبايعته كانت مدفوعة بإيمانٍ سليم ونية حسنة وحسٍ ثوري صادق، ولكنها لم تكن معبّأة ـ فكرياً ونفسياً ـ للطوارىء والملابسات.

وإن علياً ليعلم ـ حق العلم ـ مدى عنف الطوارىء المقبلة والمشاكل التي تقف بانتظاره، بل إنه ليقرؤها حرفاً حرفاً كما يقرأ الإنسان المتعلم ورقة مكتوبة.

إن علياً يرى أن تلك المآسي التي عانى منها الناس، سواء منها ما يتعلق بفساد الإدارة العامة، أو بتوزيع الثروة الاعتباطي، أو بالتصنيف الطبقي لأفراد المجتمع الواحد، أو ذلك الاقطاع الأموي وغير الأموي الذي ما أنزل الله به من سلطان إن كل ذلك مما يجب تصحيحه فوراً وبدون تلكؤ وانتظار، لتعود الأمور إلى حالها الأولى يوم مات رسول الله (ص). وان تصحيح ذلك لن يعتمد أسلوب الهدوء والتمهل والتدرج به على مدى سنين وأعوام، وإنما يجب تحقيقه بسرعة فائقة وبأسلوب يحمل من الثورية الصارمة أضعاف أضعاف ما يحمل من الحلم أو اللين.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٢٤.

وهنا، ستثور الأحقاد، وستتكتل المصالح، وستتجمع أكداس المتضررين، وسيتحالف هؤلاء جميعاً ـ حلفاً غير مقدس ـ للإطاحة بعلي وحكمه ومنهجه، انقاذاً لمصالحهم، وإبقاء على مراكزهم، وحفاظاً على ارستقراطيتهم الجاهلية.

وعندما يزحف نحوه هذا الحلف بكل جموعه وطاقاته، فسيجد (ع) نفسه ملزماً بضرورة التصدي لهؤلاء بكل ضراوة وشدة باعتبارهم «بغاة» بنص القرآن الكريم، ومتمردين على الدولة والنظام باصطلاح القانون الوضعي.

وسيفقد علي ـ هكذا كان يفكر ـ بخروج هؤلاء المتحالفين عليه وبوقوفه أمامهم بحزم كل ما يحتاج إليه من استقرار وطمأنينة، لبناء الدولة المنشودة ووضع أسس التقدم بالمجتمع إلى أمام بتطبيق الأحكام الإسلامية حرفياً وبدون شذوذ أو انحراف أو التواء.

ولم يجد بداً من أن يلمح إلى أفكاره على رؤوس الأشهاد كي يكفوا عنه فقال (ع) مخاطباً تلك الجماهير المحتشدة:

«دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. وإن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت. واعلموا أني إن أجبتكم ركبتُ بكم ما أعلم ولم أُصغِ إلى قول القائل وعتب العاتب»[1].

وهكذا أعلن في خطبته هذه رفضه للبيعة، وأشار إلى ما يقرأ من غيب منتظر «له وجوه وألوان» ولمح من طرف خفي إلى عدم اطمئنانه لموقف الناس عندما يجدّ الجد ويحدث ما «لا تقوم له القلوب ولا تثبت

(١) نهج البلاغة: ١/ ١٨١.

عليه العقول»، وبذلك بلغ أبو الحسن الأوج في الذكاء السياسي وفي قراءة المستقبل وفي الفهم الدقيق لحقائق الناس.

ولكن المسلمين ـ على الرغم من ذلك ـ أصروا كل الإصرار على بيعته. ولم يجد علي بداً من مصارحتهم ببعض أفكاره ونياته في الإصلاح، وكأنه كان يريد أن يجعلها الشرط الذي سيوافق ـ إن اضطر إلى الموافقة ـ على أساسه فقال لهم: «ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله (ص) يرى أن الفضل له على مَن سواه لصحبته فإن الفضل النير غداً عند الله وثوابه وأجره على الله»[١].

ثم زاد علي في صراحته بزيادة إصرار المسلمين عليه فقال:

«ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل ما أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال، فإن الحق القديم لا يبطله شيء. ولو وجدته وقد تزوج به النساء وفرق في البلدان لرددته إلى حاله. فإن في العدل سعة، ومن ضاق عند الحق فالجور عليه أضيق»[٢].

وهكذا كاشف علي هذه الجماهير بآرائه وأفكاره في إعادة تنظيم الدولة الجديدة ليكونوا على علم مسبق بها، حيث تكون البيعة على هذا

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٧/ ٣٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٦٩.

الأساس، وحيث تكون الذهنية العامة مستعدة للهزات والرجّات المقبلة وقادرة على تفسير أسباب تلك الهزات ومعرفة دوافع القائمين بها والمبطلين لها والمتحمسين لباطلها المغلف الخدّاع.

وزادت صراحة علي من حدة إلحاح المسلمين ومن شدة الضغط عليه وقالوا له بالحرف الواحد: «ننشدك الله! ألا ترى ما نرى؟ ألا ترى الإسلام! ألا ترى الفتنة! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتكم لما أرى، واعلموا إن أجبتكم ركبتُ بكم ما أعلم»[1]، فقالوا:

«والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون إلا عن رضا المسلمين... فلما دخل المسجد دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس»[2].

ولم يكن لعلي مجال للاعتذار بعد هذا الحماس الإسلامي المنقطع النظير، بل كان هذا الحماس وذلك الخوف على الإسلام ـ وقد أعلنه الناس كما سلف ـ هو السبب الوحيد والفريد لرضوخه لهذا الأمر وقبوله لذلك الطلب، وفي إيضاح هذا المعنى يقول:

«أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[3].

ويقول أيضاً:

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٣٤.
(٢) المصدر السابق: ٤/ ٤٢٧.
(٣) نهج البلاغة: ١/ ٣٦.

«فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم... فنهضتُ في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه»[١].

ويقول أيضاً في مناسبة أخرى يصف يوم بيعته:

«وبسطتم يدي فكففتُها، ومددتموها فقبضتُها، ثم تداككتم عليّ تداكَّ الابل الهيم على حياضها يوم وردها، حتى انقطعت النعل، وسقط الرداء، ووطىء الضعيف. وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب»[٢].

وتدافع المسلمون على البيعة من هنا وهناك.

وكان في طليعة هؤلاء المبايعين صحابة النبي (ص) من بقايا المهاجرين وجموع الأنصار، وتجاوبت أرجاء الدنيا الإسلامية مع البيعة الجديدة، فبايع الحجاز واليمن والعراق ومصر وشمال أفريقيا وبلاد فارس.

والتقت لأول مرة في تاريخ الإسلام إمامةُ السماء الشرعية بخلافة الأرض الزمنية في شخص رجل واحد: الإمامة الشرعية باعتبارها رئاسة دين، والخلافة الزمنية باعتبارها رئاسة دولة[٣].

وعندما تجتمع الإمامة والخلافة ـ بالمعنى السابق لكل منهما ـ في

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١١٩.

(٢) نهج البلاغة: ١/ ٤٥٧.

(٣) يراجع في الفرق بين الإمامة والخلافة «الإمامة»: وقد أشرنا هناك إلى أن هذا الفرق لم يكن في صلب الفكر الإسلامي الأصيل، ولكن التطبيق الفعلي قد فرض هذا المعنى فرضاً [ص: ١٦٧ ـ ١٧٠ ـ المجلد الأول من هذه الموسوعة].

شخص رجل واحد فإن معناه القضاء على تلك «الثنائية» التي كان يعيشها المسلم فتحيله إلى إنسان مفكك الارتباط مشلول الحركة، حيث لا يستطيع التوفيق بين طاعة «الإمام» الشرعي الجالس في هذا الركن من المسجد و«الخليفة» الزمني الجالس في الركن الآخر منه.

وسقطت هذا اليوم تلك الإزدواجية القاسية التي ابتُلي بها المسلمون حيناً من الدهر، وتجمّعت كل شؤون الدنيا والدين في يد أمير المؤمنين، فكان الخليفة المنتخب بالرضا، والإمام المعيّن بالنص الشرعي.

أما كونه «الخليفة المنتخب» فذلك من بديهيات التاريخ التي لا تحتاج إلى إطالة كلام أو سرد تفاصيل.

وأما كونه «الإمام المعيّن بالنص الشرعي» فذلك ما ذهب إليه الشيعة الإمامية وكثير من المعتزلة، مستندين في ذلك إلى أن الإمامة باعتبارها استمراراً لمقام النبوة لا بد فيها ـ كالنبوة ـ من التعيين الخاص الكاشف عن اختيار الله تعالى ورضاه.

وكما أنه لا نبوة بانتخاب وشورى فكذلك لا إمامة بشورى وانتخاب.

وكان هذا المنهج هو الخط الثابت لهؤلاء في مسألة «الإمامة» و«الإمام».

أما بقية الطوائف الإسلامية فلم تختر منهجاً معيناً لمسألة الحكم في الإسلام، بل شاءت أن لا يكون للإسلام منهج مقرر في مسألة «الحاكم» ابدا، ولذلك فقد ذهبت إلى أن كل من استولى على الأمر وزعم أنه إمام فهو إمام، سواء كان ذلك الاستيلاء بطريق الانتخاب ـ

كما نُسِب إلى أبي بكر وعثمان وعلي والحسن دون غيرهم في تاريخ الإسلام ـ أو بالنص عليه من سلفه ـ كما وقع لعمر بن الخطاب وأكثر الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين ـ أو بالقوة والسيف ـ كما فعل معاوية بن أبي سفيان وأبو العباس السفاح وأضرابهما.

وهكذا أصبح للإمامة ـ لفظاً ـ معنى السلطة الزمنية، وإن كانت «لدى مفكري الإسلام ـ سنيين وشيعة ـ تعني صاحب الحق الشرعي»[1].

كما أصبح الحصول عليها عملاً اعتباطياً لا يقوم على أسس معينة وشروط ثابتة أو مؤهلات خاصة.

ثم كانت الطامة الكبرى أن يُنسبَ هذا الإهمال لشؤون الحكم وتعيين الحاكم إلى التشريع الإسلامي والقرآن الكريم بالذات!!

يقول الشيخ علي عبد الرازق: و«ليس القرآن وحده هو الذي أهمل تلك الخلافة ولم يتصد لها، بل السنة كالقرآن أيضاً قد تركتها ولم تتعرض لها»[2].

ويقول فتحي رضوان: «لا خلاف في أن القرآن الكريم لم يورد بياناً عن نظام الحكومة التي يرتضيها أو يأمر بها الإسلام» و«لا يجد الباحث من الأحكام ما يستطيع أن يقول معه أن الكتاب قد رسم خطاً ما للناس يلزمونه في اختيار حكامهم»[3].

ويقول الدكتور أحمد محمود صبحي: «لقد كان علاج أبي بكر

(١) نظرية الإمامة: ٢٤.
(٢) الإسلام وأصول الحكم: ٤٢.
(٣) الإسلام ومشكلات الفكر: ١٦٢.

وعمر علاجاً مؤقتاً لدرء فتنة متوقعة، دون وضع أسس كاملة لنظام الحكم»[١].

ويقول الدكتور محمود اسماعيل: «إن الرسول (ص) مات ولم يضع نظاماً ثابتاً محدداً لمن يخلفه في حكم المسلمين»[٢].

إلى كثير من أمثال هذه الأقوال التي سيتضح بطلانها وبعدها عن الحقيقة في ختام هذا الفصل.

وذهبت الشيعة الإمامية مذهباً آخر، فرأتْ أن النصوص الإسلامية ـ كتاباً وسنّة ـ قد حددت المنهج بصراحة ورسمت معالم الطريق للمسلمين بكل جلاء ووضوح، ولم تترك الأمر مهملاً تعصف به الفوضى وتعبث به أطماع الطامعين وشهوات المتشهيّن.

واستدلت في ما استدلت به على تحديد المنهج بالنص والتعيين بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ حيث دلت هذه الآية بصريح اللفظ على أن اختيار أمناء الشريعة ورعاة الدين ليس من الحقوق التي ترك الله مجال التصرف فيها للناس، وإنما ينحصر الاختيار في هذا الموضوع بالله تعالى، وبه وحده.

أما الرد على ذلك بأن هذا الاختيار في الآية مختص بمسألة النبوة وانها ناظرة إلى هذا الأمر دون سواه فغير مقبول. إذ ليس في صدر الآية أو ذيلها ما يشعر ـ ولو من طرف خفي ـ بالاختصاص بالأنبياء، فقط، بل إن اطلاقها ـ بما يحمل من عموم وشمولية ـ يأبى كل قيد وتأويل، وكيف لا، والإمامة باعتبارها استمراراً لمقام النبوة واتماماً لمسيرة

---

(١) نظرية الإمامة ٢٦.

(٢) قضايا في التاريخ الإسلامي: ٤٠.

الرسالة بحاجة إلى نفس الشروط الملحوظة في النبي من هذه الناحية.

والحق أنه لو لم تكن تثبت الوصية عن النبي (ص) بطريق الرواية والنقل، فإن العقل بمجرده حاكم بضرورة هذه الوصاية ووقوعها. وإن أحدنا لا يرضى لنفسه أن يغيب عن حطامه الزائل أو يموت عن شيء من متاعه القليل دون أن يَكلَ هذا وذاك إلى وصيٍ أمين يديره ويحوطه. أفيجوز على نبي الإسلام أن يفارق تراثه العظيم ـ وهو للإنسانية طوال عصورها ـ دونما وصي يرعى هذا التراث ويحوطه على الوجه الصحيح؟!

يقول عبدالله بن عمر بن الخطاب لأبيه وهو على فراش الموت: «إني سمعتُ الناس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لك: زعموا انك غير مستخلف وأنه لو كان لك راعي ابل أو راعي غنم ثم جاءك وتركها لرأيت أنْ قد ضيّع فرعاية الناس أشد»[١]. وفي رواية ابن سعد: إن عبدالله قال لأبيه: «أرأيت لو أنك بعثتَ إلى قيّم أرضك ألم تكن تحب أن يستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض؟ قال: بلى، قال: أرأيت لو بعثتَ إلى راعي غنمك ألم تكن تحب أن يستخلف رجلاً حتى يرجع.. الخ»[٢].

إن كل الظروف المحيطة بالإسلام حين وفاة النبي (ص) تدعونا إلى الإيمان بضرورة أنه أوصى، وانه لم يترك غرسته المباركة في صحراء، عرضةً لريح هوجاء أو هجير محرق أو نزوة عارضة.

وإذا جاز للقائلين بالانتخاب يوم وفاة النبي (ص) أن يبرروا عزوف الخليفة الأول عن انتخاب خلفه والاكتفاء بالنص عليه بأن الظروف

(١) حلية الأولياء: ١/ ٤٤ بهذا المضمون في الإمامة والسياسة: ١/ ٢٢ وشرح نهج البلاغة ١٢/ ١٩٠.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٢٤٨.

العامة كانت تفرض النص وتعينه، لأن حروب الفتح كانت قائمة، وان الخشية من تمرد المتمردين ما زالت موجودة. فإن الظروف التي أحاطت بوفاة النبي (ص) كانت أكثر خطورة وأشد حساسية، وكان النبي ـ قطعاً ـ على علم تام بها وبملابساتها الخطرة، بحكم علمه بواقع الأمور وبحكم اخبار الله تعالى له بذلك في قوله جلَّ وعلا: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾.

فلماذا لم ينص النبي ـ إذن ـ ونص غيره؟!

هل كان محمد أقل من غيره ادراكاً للخطر أو شعوراً بالمسؤولية؟!

إن الدين الذي فرضت فيه القواعد والأحكام والتشريعات لكل مسألة من مسائل الدنيا وكل جانب من جوانب الحياة وكل تصرف من تصرفات الإنسان، من بيع وشراء وحوالة وكفالة وإجارة ووكالة ومزارعة ومساقاة وقرض ورهن ونكاح وطلاق وصيد وذباحة وأطعمة وأشربة وحدود وديات. إن ديناً كهذا لا يمكن له ـ في نظرنا على الأقل ـ أن يهمل مسألة الإمامة، هي في أهميتها ودورها في التشريع وقيادة الدولة وتوجيه الركب الإسلامي نحو اتمام ما بدأ النبي (ص) به في بناء الصرح الجديد.

وان الإسلام الذي هدف في كل تشريعاته إلى ضمان العدالة والمساواة والطمأنينة للإنسان المسلم، تأميناً له من المخاوف، وحماية من المساوىء، في ظل عقيدة سامية تصله بالله تعالى وتهيمن على جوارحه، بوازعٍ من نفسه يمنعها من الخيانة والسوء والفساد والشر.

إن الإسلام لا يمكن أن يحقق ـ في نظرنا على الأقل ـ هذا الهدف الكبير من دون الإمام المنصوص عليه، ليكون هذا الإمام بعيداً عما يعرض لغيره من خطأ وزلل وانحيازٍ لعاطفة وفساد في رأي وتأثر بغير

العدل، مما يفسد الحاكم وتفسد بفساده حياة الناس ودينهم ونظامهم العام، ولا بد للتخلص من كل هذه السيئات من إمام مختار جامع لجميع صفات الكمال. منزه عما يشين، بعيد عن كل سوء في التصرف وخطأ في التقدير وخروج على تعاليم الشريعة ـ وذلك ما نطلق عليه اسم العصمة ـ وواضح أن اختيار شخص جامع لكل هذه الصفات مما يعسر على المحكومين الناخبين، فلا بد ـ إذن ـ من النص النبوي عليه وارشاد الأمة إليه.

وليست هذه العصمة المشار إليها فكرة تدعو إلى الغرابة أو العجب كما يبدو من كلام بعض الباحثين في المذاهب الإسلامية وبخاصة من المستشرقين، وإنما هي من مستلزمات الحاكم الذي يكون من بعض واجباته تفسير القرآن الكريم وتطبيق أحكامه وشرح غوامضه وبيان المراد منه بالتعيين.

إن العصمة في كلام العرب معناها المنع، وهذا المعنى هو المقصود بالذات في المصطلح الديني أيضاً، حيث يُراد بها تلك الملكة النفسية التي تهيمن على الإنسان فتمنعه عن فعل المعصية وترك الطاعة، وتسيطر على عقله وحسه وشعوره فتجعله متيقظاً إلى أبعد حدود التيقظ فلا يسهو ولا ينسى ولا يفعل ما لا يرضي الله عزَّ وجل.

إن فاعل المعصية ظالم في المصطلح القرآني: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ وإلى أمثال ذلك من الآيات وهو كثير.

وهذا العاصي الذي سماه القرآن «ظالما» لا يجوز في الشرع أن يتحمل أي مسؤولية ذات ارتباط بالله تعالى ودينه وشرائعه، وهذا هو ما

نص عليه القرآن الكريم بقوله عزَّ من قائل: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

وهكذا يبدو أن معنى «العصمة» والذهاب إلى اشتراطها في الإمامة ليسا من غرائب الآراء ولا من عجائب المعتقدات، بل إن ذلك هو المعنى المنسجم مع النصوص الشرعية القطعية والفكر الديني الأصيل.

ويقول الدكتور أحمد محمود صبحي في التعليق على مسألة العصمة عند الشيعة الإمامية:

«إن جميع فلاسفة السياسة حين تناولوا موضوع السيادة العليا في الدولة أو المرجع الأخير للسلطة جعلوه فوق مستوى الشبهات.. ولقد أثبت الفلاسفة السياسيون القائلون بالدكتاتورية والذين أثبتوا السيادة العليا في الدولة لشخص الحاكم أثبتوا العصمة له، وإن اختاروا لذلك أوصافاً أخرى. وكذلك وصف فلاسفة الأنظمة الديمقراطية الشعب أو ممثليه أو الدستور بالعصمة. ويبدو أن العصمة لا بد أن تخلع على مَن يمتلك السيادة العليا في الدولة كضمان وحيد لاستقرار نظام الحكم وفرض تأييده على المحكومين»(٢).

ويضيف الدكتور صبحي قائلاً:

«إن جميع الأنظمة السياسية على اختلافها تقر بوجوب وجود سلطة عليا تكون مرجع الأحكام، ولا يخضع الفرد لهذه السلطة أياً كانت حاكماً أو إرادةً عامة أو دستوراً إلا إذا أُضفي عليها نوع من القداسة ووصفت بالعصمة. فليست عصمة إمام الشيعة بشيء يدعو إلى

---

(١) نظرية الإمامة: ١٣٥.

(٢) وقد شرح الفخر الرازي في تفسيره: ٤/ ٤٣ هذه الآية شرحاً مسهباً وكان مما قاله في ذلك: «قد ثبت أن المراد من هذا العهد الإمامة».

الاستغراب مهما بدا في هذا اللفظ من غيبية، وإذا كان الشيعة هم أول من ابتدعوا البحث في حقيقة العصمة وحدودها فهم ليسوا وحدهم الذين انفردوا بالقول بها»[١].

وخلاصة القول فإن معرفة المعصوم واختياره للإمامة بخصوصه خارج عن قدرة البشر وطاقتهم، لأن العصمة ملكة نفسية ذاتية لا يستطيع الإنسان العادي التعرف بها والاطلاع عليها بسهولة وبساطة. ومن هنا كان لا بد من النص والتعيين من قبل المطّلع على السرائر والواقف على مكنونات الضمائر، ليكون المنصوص عليه محل الثقة وموضع الاطمئنان.

وهنا قد يقول قائل:

ألا تتناقض فكرة «النص» و«التعيين» هذه مع فكرة «الشورى» التي نص عليها القرآن الكريم في أكثر من آية وسار عليها السلف الأول أكثر من مرة؟

ولتوضيح الجواب على هذا السؤال نقول:

لقد وردت في القرآن الكريم آيتان تعنيان بمسألة الشورى هما قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ وقوله عزَّ من قائل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

والمتأمل في هاتين الآيتين وفي سياقهما القرآني يجد أنهما لا يمسّان موضوع انتخاب الخليفة أبداً ولا يرتبطان بهذا الموضوع لا من قريب ولا من بعيد، وإنما يتعلقان بالشؤون التي يقوم بها النبي أو الإمام في إدارة أمور المسلمين وتنظيم مجالات حياتهم.

ويدل على ذلك أن الآية الأولى موجهة ـ بصيغة الأمر ـ إلى

(١) المصدر نفسه: ١٣٩.

النبي (ص) بالذات. وإذا كان المقصود ـ حسب الزعم ـ هو المشاورة في تعيين الخليفة فلماذا أهمل محمد (ص) ذلك؟ وهل اهماله لهذا الأمر الصريح القاطع إلا العصيان والتمرد وحاشا الرسول من ذلك.

كما يدل على عدم ارتباط الشورى بالخلافة أن الخليفتين أبا بكر وعمر لم يستدلا في اجتماع السقيفة بهذه الشورى ولم يستندا إليها في رد الرافضين لتلك الخلافة يومذاك، وإنما اكتفيا لإثبات ما كانا يريدانه بالتأكيد على الحديث النبوي «الأئمة من قريش». ولو كانت هاتان الآيتان تمسّان هذا الجانب لاستدلا بها، ولو استدلا بها لتناقل الرواة ذلك كما تناقلوا غيره.

كذلك يدل على صحة ما قلناه ما روي أن أم المؤمنين عائشة كانت قد قالت يوم دخولها البصرة: «إن من الرأي أن تنظروا إلى قتلة عثمان فيُقتلوا به ثم يُرَد هذا الأمر شورى على ما جعله عمر بن الخطاب»[1]، ولو كانت الآيتان تعنيان شورى اختيار الخليفة لنسبتها إلى الله تعالى لا إلى عمر، ولكان ذلك أدعم لحجتها وأدحض لحجج خصمها.

وأخيراً وليس لآخراً، فلو كانت الشورى المذكورة في القرآن هي شورى اختيار الخليفة لما كانت بيعة السقيفة (فلتة)[2] على حد تعبير الخليفة عمر بن الخطاب، ولما احتاجت إلى حمد الله تعالى على أنه قد وقى المسلمين شرها، ولما استلزمت تهديد الخليفة بقتل من عاد إلى مثلها.

❀ ❀ ❀

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٦٣.

(٢) مراجع في «الفلتة» تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٥ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٣ و٢٦ ـ ٢٧ و٦/ ٤٧ و١٧/ ١٦٤ وفتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١٥/ ١٦٢.

ومهما يكن من أمر، فقد ظهر مما مر أن الشيعة لم يصدروا في معارضتهم للشورى عن انحياز عاطفي لشخص معين، أو رأي سياسي بالمعنى الشائع للسياسة. وإنما رأوا في النص ضماناً لحياة صحيحة ووسيلة لبناء سليم، فهم مندفعون في تأييد هذا الرأي بروحٍ من الإيمان بالإسلام والإخلاص للهدف والشعور بالمصلحة.

وهكذا يتضح أن القول بضرورة النص:

١ ـ منسجم تماماً مع مشاعر الفطرة في الإنسان، بما تزرع فيه من احساس بالحاجة إلى ما وراء الغيب ومن ركون إليه في كل الأمور.

والإمامة ـ كما نؤمن ونعلم ـ رأس الأمور التي تشد الإنسان المسلم بما وراء الغيب، بفعل ما تضفي عليه من مشاعر الراحة والاطمئنان والاستسلام الكامل لسلامة المسيرة وسداد خطاها على الطريق.

٢ ـ ومنسجم أيضاً مع علم النفس بما يذهب إليه من ضرورة اجتثاث عوامل القلق في الإنسان وردعه عن النزوع إلى الخروج على القانون.

وعندما يكون الإمام معيناً من قبل صاحب الوحي مباشرة فإن الفرد سيكون واثقاً كل الثقة بهيمنة العدل والنزاهة والمساواة الصادقة والإخلاص المطلق، وبذلك تزول كل عوامل القلق والتململ والتمرد.

٣ ـ وهو منسجم كذلك مع ما ذهب إليه علماء الاجتماع من اعتبار الدين أعلى صيغ الربط والتماسك في الحياة الاجتماعية، بما يغمر حامليه من أحاسيس التآخي والوحدة والتراص الكامل.

والإمام المنصوص قمة ـ ولا شك ـ في عملية الربط والتماسك المتصلة بالمبدأ الأعلى والإيمان بحسن اختياره وسلامة انتقائه.

ولن يضير الفكرة ـ بعد ثبوت أصالتها الإسلامية المقتبسة من القرآن الكريم والحديث الشريف، وبعد ثبوت انسجامها مع مشاعر الفطرة ومبادىء علمي النفس والاجتماع ـ أن يرفضها رافض، أو ينبذها نابذ، أو يعبر عنها بما يشاء من الأسماء معبر.

نعم. لن يضير الإمامة بعد ثبوت كل ما سلف أن تسمى في لسان بعض الكتاب «تيوقراطية».

فإن هذه التسمية إن قُصد بها «الحكم الديني» فما في ذلك بأس، بل هو الأمر الواقع بالضبط.

وإن قصد بها «التحكم برقاب الناس» باسم الدين قياساً على التحكم الكنسي السيء الصيت، فذلك هو خلاف حقيقة الإمامة نظرية وتطبيقاً.

ولهذا رفض الدكتور مجيد خدوري هذه التسمية لعدم انطباقها على الواقع، واختار لها اسماً آخر استقاه من صميم منهج الإسلام هو «الحكم النوموقراطي»[(1)]، أي الحكم الذي تكون السيادة فيه للقانون. وهذه هي الحقيقة التي لا يستطيع انكارها الشُكاك والجاحدين مهما اشتطّو في الشك أو الجحود.

كذلك، لن يضير الإمامة أن يسميها كتاب آخرون «دكتاتورية».

فإن الحكم الدكتاتوري هو الحكم الذي تكون فيه السيادة لفرد أو أفراد معينين، فتكون الدولة ملكاً لهم والقانون لعبة بأيديهم، وذلك ما

(١) نظرية الإمامة: ٦٢.

يتنافى ـ كل التنافي ـ مع منهج الحكم الإسلامي الذي تعتبر السيادة فيه للقانون وحده، دون غيره من الاعتبارات.

وواضح أن سيادة القانون كما جسّمها عهد الإمام الأول علي بن أبي طالب (ع) ـ في سلمه وحربه ـ هي والدكتاتورية على طرفي نقيض.

ثم لن يضير الإمامة أن يطلق عليها بعض الكتاب اسم «الحكم الطبقي».

ومعلوم أن سيادة «الطبقة» معناها تسخير التشريع لصالح تلك الطبقة وتوجيه الأجهزة القمعية كلها لتدعيم مصالحها الخاصة. وهذا ما لا يمت إلى الإسلام بأي شبه من الأشباه وأية صلة من الصلات.

إن سيادة القانون وتحكيم مصدر السلطات وعدم السماح لأي أحد ـ حتى شخص الإمام ـ بتغيير النصوص وتعديل التشريع، يقطع العلاقة بين الإمامة وبين كل فكرة طبقية قد يحاول البعض الصاقها بهذا النظام.

وأخيراً، فلن يضير الإمامة المنصوصة أن يطلق عليها اسم الأسلوب «اللاديمقراطي» في الحكم الذي يقف بالاتجاه المقابل تماماً لـ «الديمقراطية» بكل ما تحمل من جمال وجاذبية.

والغريب أن نبز الإمامة المنصوصة بـ «اللاديمقراطية» مما يتردد ذكره حتى على ألسنة بعض المسلمين الملتزمين بصحة ما وقع في تاريخ الإسلام من خلافات وسلطنات وإمارات، مع تسجيل إعجابهم الكبير بالاسلوب الانتخابي «الديمقراطي» الذي طلع على المسلمين بالخلافة الأولى بعد وفاة النبي (ص).

وعندما يدخل البحث دائرة المقارنة بين «الديمقراطية»

و«اللاديمقراطية» في مسألة الإمامة والخلافة فإن الموضوعية والعلمية تلزمنا ـ هنا ـ أن نقف قليلاً لنستعرض بصراحة تامة ـ لا محيص للبحث عنها ـ نماذج مما رواه مؤرخو الإسلام المشهورون عن موقف المسلمين يومذاك من انتخاب خليفتهم وعن الأسلوب الذي اتبع في إدارة عملية الانتخاب لنعرف مدى تحقق «الديمقراطية» في ذلك كله:

يقول المؤرخون:

١ ـ انتضى الحباب بن المنذر سيفه وهدَّد به أبا بكر، فأُخذ ووطىء في بطنه ودُسَّ في فيه التراب[١].

٢ ـ رفض سعد بن عبادة أن يبايع وقال للمرشح للخلافة: «أما والله أرميكم بكل سهم في كنانتي واخضب منكم سناني ورمحي»[٢]، فنادى عمر: «اقتلوا سعداً قتل الله سعداً»[٣] وأراد أن يكرهه على البيعة «فاشير عليه أن لا يفعل، وأنه لا يبايع حتى يُقتَل، وأنه لا يقتل حتى يقتل أهله، ولا يقتل أهله حتى يقتل الخزرج، وإن حوربت الخزرج كانت الأوس معها وفسد الأمر. فتركوه»[٤].

٣ ـ أبو سفيان يقول: «إني لأرى عجاجة لا يطفئها الادم»[٥].

٤ ـ أخذ قيس بن سعد بلحية عمر قائلاً: «والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة... الخ»[٦].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٣ وشرح نهج البلاغة: ١/ ١٧٤ و٦/ ٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٢ والإمامة والسياسة: ١/ ١٠.
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٦ وشرح نهج البلاغة: ١/ ١٧٤.
(٤) شرح نهج البلاغة: ٦/ ١٠ ويراجع تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٢.
(٥) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٤٤.
(٦) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٢.

٥ ـ الزبير يخترط سيفه ويقول: «لا أغمده حتى يُبَايَعَ عليٌّ»[١]، وعمر يكسر سيف الزبير[٢].

٦ ـ المقداد يُدافَعُ في صدره[٣].

٧ ـ علي يُقاد إلى البيعة بالإكراه[٤].

٨ ـ بنو هاشم لم يبايعوا. وتعرض بيت فاطمة إلى الارهاب، والإتيان بقبس نار بقصد إحراق الدار[٥]، مما أدى إلى غضب الزهراء وموجدتها على بعض الناس[٦].

٩ ـ كان ممن تخلف عن البيعة: فروة بن عمر، وهو «ممن جاهد مع رسول الله وقاد فرسين في سبيل الله، وكان يتصدق من نخله بألف وسق في كل عام»[٧].

١٠ ـ كان ممن امتنع عن البيعة: خالد بن سعيد بن العاص، وكان يقول: لا أبايع إلا علياً[٨].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٢٠٣، ويقول في شرح نهج البلاغة: ٦/١١ «فقال عمر: عليكم الكلب ـ أي الزبير ـ فوثب عليه سلمة بن أسلم، فأخذ السيف».
(٢) شرح نهج البلاغة: ١/١٧٤.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١/١٧٤.
(٤) صبح الأعشى: ١/٢٢٨ والإمامة والسياسة: ١/١٢ ـ ١٣.
(٥) تاريخ الطبري: ٣/٢٠٢ و٢٠٥ و٢٠٨ والإمامة والسياسة: ١/١٢ ـ ١٣ وتاريخ اليعقوبي: ٢/١٠٥ وتاريخ أبي القدا: ١/١٥٦ شرح نهج البلاغة: ١/١٧٤ و٢/٢٣ و٤٦ ـ ٤٧ و٥٦ و٦/١١ و٤٦ ـ ٤٧ و٥١.
(٦) وفاء الوفا: ٢/٩٩٥ مسند أحمد: ١/٦ و٩ والبداية والنهاية: ٥/٢٨٥ و٦/٣٣٣ وصحيح البخاري: ٥/١٧٧.
(٧) شرح نهج البلاغة: ٦/٢٨ ـ ٢٩.
(٨) شرح نهج البلاغة: ٦/٣٢.

١١ ـ الخليفة عمر يقول: «وإن علياً والزبير ومَن معهما تخلفوا عنا في بيت فاطمة، وتخلفت عنا الأنصار بأسرها»[١].

١٢ ـ الأنصار يقولون: «لا نبايع إلاَّ علياً»[٢].

١٣ ـ يقول الزبير بن بكار: «كان عامة المهاجرين وجلّ الأنصار لا يشكون أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله (ص)»[٣].

١٤ ـ «الأنصار كانت تعظم علياً، وتهتف باسمه حينئذ»[٤].

١٥ ـ يقول البراء بن عازب عن يوم الانتخاب الأول: «فلم ألبث وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل، ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم محتجزون بالأزر الصنعانية، لا يمرون بأحد إلاَّ خبطوه وقدموه فمدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه، شاء ذلك أو أبى. فأنكرت عقلي»[٥].

وبالاطلاع على هذه النماذج من النصوص التاريخية التي تروي لنا «عينة» مما حدث في المدينة المنورة يومذاك، لا يبقى أي مجال للادعاء بتوفر الشروط «الديمقراطية» في عملية انتخاب الخليفة. بل لم نجد بينها إلا الدليل الصارخ على «اللاديمقراطية» بكل أساليبها ووسائلها التي عرفها تاريخ الانتخابات قديماً وحديثاً.

وإذن. فليس هناك «انتخاب» بالمعنى الديمقراطي أبداً، ولم يكن

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٥.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٢.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢١.
(٤) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٣. ويراجع المصدر نفسه ٢/ ٤٩.
(٥) المصدر نفسه: ١/ ٢١٩.

لحرية الرأي والاختيار أي دور في هذه المسألة مطلقاً، ومع ذلك فإن الطبري المؤرخ لم يجد مانعاً من الرواية عن كذاب عصره سيف بن عمر: إنه لم يخالف تلك البيعة «إلا مرتد أو مَن قد كاد أن يرتد»[1].

وما أدري هل كان سلمان والزبير وعلي وبنو هاشم والمقداد والحباب بن المنذر وفروة بن عمر وخالد بن سعيد بن العاص وعامة المهاجرين مرتدين؟ أو أنهم كادوا أن يرتدوا؟!

وهل كان سعد بن عبادة وابنه قيس والأنصار ـ كلهم أو جلهم ـ مرتدين؟ أو كادوا أن يرتدوا؟

وهل كان من الديمقراطية والحرية الانتخابية أن لا يمر المؤيدون «بأحدٍ إلا خبطوه وقدموه فمدوا يده... شاء ذلك أو أبى» على حد تعبير البراء بن عازب؟!

وعلى أي حال..

فإن اتهام الإمامة المنصوصة بأنها أسلوب «لاديمقراطي» في الحكم مردود بما سلف ذكره من كون «الانتخاب» كما وقع يومذاك قد اعتمد الأسلوب المعاكس للديمقراطية اعتماداً صريحاً لا مجال فيه لتفسير أو تبرير، حتى أصبح ما وقع في ذلك اليوم «فلتة» وقى الله المسلمين شرها كما أخبرنا الخليفة عمر بن الخطاب، وحتى عزف حكام المسلمين عن هذه «الديمقراطية» فاختاروا طريق نص السلف على الخلف ـ أموياً وعباسياً وفاطمياً وعثمانياً ـ وكأنه هو الأصل الأصيل في نظام الحكم في الإسلام.

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٧.

وقد نسي الجميع بعد أربعة عقود من وفاة النبي (ص) فكرة الانتخاب وادعاء الشورى وأصبح الخط الأساسي للحكم الإسلامي نص كل حاكم على مَن يليه، حتى وإن كان الخليفة المنصوص «يزيد» أو «الوليد» أو «الأمين» أو «محمد رشاد».

ونقطة أخرى يجب أن لا نغفل عنها هنا، تلك هي:

إن القيمة الأساسية للديمقراطية ـ كنظرية ـ إنما تتمثل في ما تدل عليه من «حكم الشعب» وأن القيمة الأساسية للشعب وحكمه ـ في هذه النظرية ـ إنما تنشأ من الإيمان بكونه «مصدر السلطات».

ولما كان الله تعالى ـ إسلامياً ـ هو مصدر السلطات وهو الفعال لما يريد كان لا بد من الإقرار بأنه صاحب القول الفصل في أي شأن من شؤون الحكم والنظام.

وحيث أن النبي هو الناطق الوحيد باسم مصدر السلطات والممثل الأمين له بين الناس، فإن هذا الممثل المصدق حينما ينص على تعيين إمام للمسلمين كان هذا النص في واقعه نص ذلك المصدر الأصيل، وبذلك يكون هذا التعيين منسجماً كل الانسجام مع المنطق السياسي القائل بضرورة استشارة مصدر السلطات والأخذ برأيه في الانتخاب والاختيار.

وحينما نصل بالبحث إلى هذه النتيجة الأساسية المهمة في مسألة الإمامة المنصوصة فإن القائل قد يقول:

وما هو هذا النص النبوي القاطع الذي لا يقبل المناقشة والتأويل؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال نود أن نشير إلى بحثنا الذي سبق

لنا نشره في موضوع «الإمامة» وإلى ما أودعنا فيه من حديث مفصل عن معظم جوانب الموضوع وأطرافه ومجالاته المختلفة.

ومع ذلك فإننا سنستعرض في أدناه ثلاثة شواهد من النصوص النبوية الصريحة في تعيين الإمام الذي يقوم بالأمر من بعده، تاركين الاستيعاب والاستقصاء إلى الكتب المطولة المعنية بهذا الموضوع.

النص الأول

حديث الدار

أخرج ابن جرير الطبري بسنده: أن النبي (ص) عندما نزل عليه قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا بني عبد المطلب إليه وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب. ولما فرغوا من طعامهم قام فيهم رسول الله (ص) خطيباً فقال:

«يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم»؟

فأحجم القوم عنها جميعاً، فقام علي فقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فقال:

«إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا» فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»[1].

---

(١) نقلناه ـ ملخصاً من تاريخ الطبري: ٢/٣١٩ ـ ٣٢١. ويراجع في هذا النص تاريخ ابن الأثير: ٢/٤١ وشرح نهج البلاغة: ١٣/٢١٠ ـ ٢١١ كما يراجع في مصادره وأسانيده كتاب الغدير: ٢/٢٥٢ ـ ٢٦٠.

إن هذا النص النبوي قد تضمن ثلاث صفات لعلي:

١ ـ أخ.

٢ ـ وصي.

٣ ـ خليفة.

ومن حقنا أن نتساءل فنقول: لماذا منح النبي علياً هذه الصفات الثلاث دون غيرها؟ ولماذا اختار لذلك أول اجتماع يعقد بعد البعثة؟

وإذا كانت المؤازرة والمؤاخاة ضرورية له لأنه بحاجة ـ فعلاً ـ إلى الأخ الظهير والوزير؛ فلماذا أضاف إليها الوصاية والخلافة بلفظيهما هذين؟ وما علاقة الوصاية والخلافة بإنذار عشيرته ودعوة بني قومه إلى الإسلام؟

ولتوضيح الإجابة على هذه التساؤلات يجب أن لا ننسى:

إن النبي (ص) في خطابه هذا يعلن لأول مرة بداية دولة جديدة وعهد جديد ومجتمع جديد.

وإن كل كيان يراد له البقاء والدوام لا بد له ـ في وجوده واستمراره ـ من رئيس أعلى يقود الأمة، ويوجه الدفة، ومن نائب له يلجأ الناس إليه أن ألمّت بالرئيس ملمة.

= ومن المؤسف والمضحك أن يطمس الحافظ بن كثير الدمشقي في كتابه البداية والنهاية: ٣/ ٤٠، بعض ألفاظ هذا الحديث فيقول على لسان النبي (ص): «فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وكذا وكذا» ثم يروي على لسان النبي (ص) أيضاً: «إن هذا أخي وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوه». فما هو هذا «الـ كذا وكذا»؟! هل نسيه ابن كثير وهو الحافظ أم نسيه من روى عنه ابن كثير؟!
كما أن من المؤسف المثير للعجب أن يثبت الدكتور محمد حسين هيكل هذا الحديث في الطبعة الأولى من كتابه حياة محمد: ١٠٤ ثم يحذفه من الطبعات التالية، من دون الإشارة إلى هذا الحذف وأسبابه!!

والنبي (ص) في هذا الموقف كان يهدف إلى إفهام هؤلاء الحضّار أنّ المسألة ـ بدينها ودنياها ـ ليست مسألة زعامة يتفيأ هو بنفسه ظلالها، أو رئاسة يتمتع بها ما دام حياً، وإنما هي رسالة سماوية خالدة لن تموت بموته ولن تنتهي بنهاية عمره، بل ستبقى بقاء السماوات والأرض، وسيكون لها من بعده من يضطلع بمهماتها ويقوم بأمرها، وهو هذا الفتى الذي يعلن استعداده للتضحية والفداء والمؤازرة، وهو علي بن أبي طالب.

وهذا كله عند التأمل والتدقيق واضح وصريح ـ كل الصراحة ـ في النص النبوي السالف الذكر.

ولما لم يجد ذوو الغرض مناصاً من الاعتراف بصحة هذا النص سنداً ودلالة، بادروا إلى الشك في معنى الخلافة الواردة في الحديث، مدعين أن النبي لو كان يقصد من ذلك تعيين الخليفة بعد وفاته لما اكتفى بقوله: «خليفتي فيكم» بل لأضاف إليه «من بعدي» ليكون نصاً جلياً قاطعاً.

والحقيقة أننا لا نجد فرقاً في المقام بين التعبيرين.

وإذا كان «خليفتي فيكم من بعدي» صريحاً في الدلالة، فإن «خليفتي فيكم» كذلك أيضاً، لأن معناه: أن علياً هو الذي يخلفني فيكم لو أصابني مكروه، وهذا نص على الخلافة بعد الموت، ويؤكد هذا المعنى ذكر النبي لكلمة «وصيي»، والوصاية في الإسلام إنما يقصد بها ما بعد الموت، حيث يقوم الوصي بما طلب منه الموصي أن يقوم به، ولو كان الأمر يتعلق بما قبل الموت لقال «وكيلي» ولم يقل «وصيي»، لأن الوكالة هي التعبير الإسلامي عمن يُطلَب منه تنفيذ بعض الأعمال نيابة عن إنسان موجود على قيد الحياة.

وإذن، فالنص صريح في أن النبي (ص) قد اختار من اليوم الأول للدعوة مَن يخلفه بعد وفاته ويكون وصياً عنه في رعاية شؤون المسلمين، حتى لا تصبح السفينة بمجرد موت ربانها تحت رحمة الموج والأعاصير.

وإنها البداية التي انطلقت مع أول صوت انبعث بالدعوة في محيطها الضيق وفي أيامها الأولى، واستمر منطلقاً في تأكيد هذه البداية حتى اليوم الأخير من عمر رسول الإسلام.

وإنها كذلك الوسام الكبير الباهر الذي منحته السماء لعلي ليكون «أخا» رسول الله (ص) في حياته و«وصيه» و«خليفته» بعد وفاته، وليصبح الإمام الشرعي الأول في سلسلة الإمامة السماوية المنصوصة في تاريخ الإسلام.

النص الثاني

حديث المنزلة

أخرج مسلم بسنده: إن النبي (ص) قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[١].

ويحدثنا ابن سعد عن المناسبة التي أعلن فيها النبي (ص) هذه الجملة الذهبية الرائعة، فيخرج بسنده عن «البراء بن عازب وزيد بن أرقم قالا: لما كان عند غزوة جيش العسرة وهي تبوك؛ قال رسول الله (ص) لعلي بن أبي طالب: إنه لا بد من أن أقيم أو تقيم، فخلفه. فلما فصل رسول الله (ص) غازياً قال ناس: ما خلف علياً إلا لشيء كرهه منه، فبلغ ذلك علياً فاتبع رسول الله (ص) حتى انتهى إليه فقال له: ما جاء بك يا علي؟ قال: لا يا رسول الله إلا أني سمعتُ ناساً يزعمون أنك إنما خلفتني لشيء كرهته مني. فتضاحك رسول الله (ص) وقال: يا علي أما ترضى أن تكون مني كهارون من موسى غير أنك لست بنبي»[٢].

وفي نص المحب الطبري فقال: «يا رسول الله ما تخلفت عنك في

---

(١) صحيح مسلم: ٧/ ١٢٠ وتاريخ الطبري: ٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤ والعقد الفريد: ٥/ ١٠٠ ـ ١٠١ وذخائر العقبى: ٦٣ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ١٠٩ و٢١١.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٥.

غزاة قط قبل هذه، قد زعم المنافقون أنك خلفتني استثقالاً، فقال: كذبوا ولكن خلفتك لما ورائي»[١].

ولا يسع الباحث عندما يروي هذا الحديث الشريف إلا أن يقف عنده متأملاً فاحصاً، فإن هذا الحديث ـ على إيجاز ألفاظه ـ يشير إلى عدة معانٍ قد لا تبدو جلية أمام النظرة العجلى، ولكنها تتجلى كل الجلاء إذا ما أمعن القارىء النظر قليلاً في أبعاد الكلمات ومداليلها البعيدة الغور.

إن الحديث يشير إلى أن علياً:

أ ـ وزير رسول الله، لأن هارون وزير موسى، ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾.

ب ـ أخو رسول الله، لأن هارون أخو موسى، ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾.

ج ـ شريك رسول الله، لأن هارون كان كذلك، ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾.

د ـ خليفة رسول الله، لأن هارون كذلك أيضاً، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾.

هـ ـ اشتقاق الإمامة من النبوة، لأن ضمير «أنت» في الحديث تعبير عن الإمامة، وضمير الياء في «مني» تعبير عن النبوة، وحرف الجر هنا بمعنى النشوء والوجود، ولئلا يفهم من هذا النشوء والاشتقاق تساوي الدرجة بكل معانيها وجوانبها استثنى النبي (ص) النبوة فجعلها خارج حدود التساوي والمشاركة وقال: «إلا أنه لا نبي بعدي».

---

(١) الرياض النضرة: ٢/ ١٦٢.

ولما كان موسى قد طلب من ربه أن يجعل له وزيراً من أهله ـ كما دلتنا الآية الشريفة ـ فإن ذلك يدل على أن الخلافة والوزارة للنبي إنما تكون بجعلٍ من الله تعالى وليست باختيار الناس وانتخابهم.

وهكذا تكشف لنا النظرة الفاحصة تلك الأبعاد التي يمتد إليها حديث المنزلة، وهي أبعاد لا يصح أن تفسر على أساس مجرد التكريم والتبجيل لعلي (ع)، وإنما كان وراءها هدف كبير هو تنبيه الأمة وتعريفها بمن سيخلف النبي بعد وفاته في رئاسة الدولة وقيادة السفينة وتوجيه الدفة.

وإن إشعار هذا الحديث بمشاركة علي للنبي ـ وليست بطبيعة الحال مشاركة تجارية في عقار أو صناعة أو زراعة ـ يعني بها المشاركة في حمل الأعباء الإسلامية وانجاز المهمات المرتبطة بهذا الدين، مع التأكيد على عدم كونها مشاركة في النبوة بما هي رسالة ووحي ومقام سماوي معين.

ولعل مما يوضح أهمية هذا الحديث ودلالاته وأبعاده أن نعرف ـ كما مرت الإشارة إليه ـ إن مناسبة إعلان النبي لهذه المنزلة كانت عندما خلف علياً نائباً عنه وقائماً مقامه في المدينة المنورة حين خروجه (ص) لغزوة تبوك.

وقد رفض بعض الحاقدين على علي أن يجد في هذه المناسبة ما يثبت لعلي فضيلة بهذا الحديث أبداً، لأن النبي قد صحب معه جلّ الصحابة والمؤمنين «ولم يتخلف عنه إلا النساء والصبيان أو من هو معذور لعجزه عن الخروج أو من هو منافق[1]»، وليس في استخلاف

(١) منهاج السنة لابن تيمية: ٤/ ٨٧.

إنسان على مثل هؤلاء الناس أي معنى من معاني التكريم!

ولكن المتأمل الواعي الموضوعي سيخرج بنتيجة أخرى ـ غير نتيجة هؤلاء المشككين ـ عند دراسة ظروف هذا الحديث وما يحيط بها من ملابسات.

فالمدينة المنورة عاصمة الدولة ومقر النبوة.

وعندما يفارق رئيس الدولة عاصمته إلى مكان بعيد ـ كتبوك ـ وبوسائل بدائية للمواصلات تستغرق مدة طويلة من الزمن ولحرب قد لا يعلم متى ستنتهي ومتى يتسنى له الرجوع منها[١]، فإن اختيار هذا الرئيس لنائب يخلفه على العاصمة ـ وبخاصة تلك العاصمة المحاطة بالأخطار والمنافقين والأعداء المتحفزين للوثوب متى سنحت الفرصة ـ يوضح لنا المعنى الكبير الخطير في هذا الاختيار والانتقاء، ويفسر لنا مراد النبي (ص) من قوله لعلي في هذه المناسبة: «لا بد من أن أقيم أو تقيم».

وقوله (ص) أيضاً: «خلفتك لما ورائي».

وإذا كان هنا من التعليقات ما يثير العجب أو يبعث على الضحك فهو قول ابن تيمية: «كان هذا الاستخلاف أضعف من الاستخلافات المعتادة من (أي من النبي)، لأنه لم يبق في المدينة رجال من المؤمنين أقوياء يستخلف عليهم أحداً كما كان يبقى في جميع مغازيه»[٢].

ونحن نقول: إن التعليل الذي علل به ابن تيمية ضعف هذا الاستخلاف لهو الدليل الناصع على أهمية هذا الاستخلاف ودوره

---

(١) يقول ابن جرير الطبري: «وكان رسول الله (ص) قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها... إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس بعد الخشفة وشدة الركان وكثرة العدو ليتأهب الناس لذلك اهبته» تاريخ الطبري: ٣/١٠١.

(٢) منهاج السنة: ٤/٨٨.

الخطير، فإن خلو المدينة المنورة من المؤمنين الأقوياء ـ باعتراف، ابن تيمية ـ وإن تخلف «مَن تخلفَ من المنافقين وأهل الريب»[١] فيها ـ باعترافه أيضاً ـ، وقد جعل لهذا الاستخلاف معنى كبيراً لا يشبه معاني الاستخلاف السابقة.

أما التشكيك في هذه الفضيلة بانكار استخلاف النبي لعلي (ع) على المدينة في غزوة تبوك واعتبار محمد بن مسلمة هو الخليفة عليها في هذه الغزوة كما حاول بعض الكاتبين[٢] فمحاولة فاشلة كل الفشل ومردودة أبلغ رد.

إن الطبري لم يذكر محمد بن مسلمة خليفة عن النبي في هذه الغزوة[٣]، وإن خليفة قد ذكر محمد بن مسلمة ثلاث مرات في طبقاته ولم يشر إلى هذا الاستخلاف[٤]، أما ابن هشام فقد تناقض في هذا الموضوع وتعددت رواياته: فهو يروي ـ تارةً ـ أن النبي قد استخلف محمد بن مسلمة، وهو يروي ـ تارة أخرى ـ أنه (ص) قد استخلف سباع بن عرفطة، وهو يروي ـ ثالثة ـ «أنه خلف علياً فيها وأمره بالإقامة فأرجف به المنافقون... فأخذ عليٌ سلاحه وخرج إلى الجرف فحدثه بما يقول المنافقون فقال (ص): كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي... أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[٥].

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ١٠٣.
(٢) مجلة الرسالة الإسلامية لديوان الأوقاف / العدد/ ٥١/ الصفحة ١٦ ـ ١٨ «نواب الرسول على المدينة».
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٣.
(٤) طبقات خليفة: ١/ ١٨٥ و٢٦١ و٣١٥.
(٥) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٦٢.

وأما ابن عبد البر فإنه وإن روى استخلاف النبي لمحمد بن مسلمة على المدينة في بعض غزواته، ولكنه لم يستطع تحديد تلك الغزوة، فقيل إنها كانت غزوة قرقرة الكدر وقيل عام تبوك[١].

والغريب العجيب في الأمر أن موضوع استخلاف محمد بن مسلمة على المدينة في تبوك إنما يُروى عن محمد نفسه دون غيره من الصحابة[٢]، ومحمد هذا غير مصدق في روايته لأنه عاش بعد مقتل عثمان بدون إمام، فلم يبايع علياً ولم يحضر معه الجمل أو صفين أو النهروان، ولذلك فقد حُظي عند موته بصلاة مروان بن الحكم على جنازته[٣]!!

ولعل ابن حجر هو المؤرخ الوحيد الذي كان لديه من الجرأة ما يكشف فيه السر ويحدد واقع الأمر كما كان عليه يومذاك، حيث ذكر أن محمد بن مسلمة هو الذي رغب بالتخلف عن حضور غزوة تبوك فأذن له النبي بالتخلف بالمدينة المنورة[٤]، كما تخلف كل المنافقين الذين استأذنوا النبي في التخلف واختلاق الأعذار!!.

وشتان بين التخلف والاستخلاف!

(١) الاستيعاب: ٣/ ٣١٦.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ١٩.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٩ والاستيعاب: ٣/ ٣١٦ والإصابة: ٣/ ٢٦٤.
(٤) الإصابة: ٣/ ٣٦٤.

النص الثالث

حديث الغدير

في السنة الأخيرة من عمر النبي (ص) واثر عودته من حجة الوداع نزل الله تعالى على عليٍّ وسامه الأكبر ومنحه المقام الأسمى وجعله إمام لمسلمين والأولى بهم من أنفسهم.

وقد روى ذلك من الصحابة والتابعين وغيرهم عدد كبير، ومن لعلماء والحفاظ والمحدثين من غير الشيعة الإمامية أعداد أكبر على مر لقرون ـ كما مرت الإشارة إليه في الفصل الأول ـ.

ورعايةً للاختصار نجتزىء من الحديث الشريف بمحل الشاهد منه ما يرتبط مباشرة بالنص على الإمامة وتعيين الإمام:

يقول الرواة:

في طريق العودة من حجة الوداع وعند غدير خم قام النبي (ص) بد صلاة الظهر خطيباً في المسلمين، وكان مما قاله:

يا أيها الناس! يوشك أن أُدعى فأُجيب، وإني مسؤول وانكم سؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك بلغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله خيراً.

إلى أن قال:

إن الله مولاي. وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم.

فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار.

وينتهي النبي (ص) من كلامه فيتدافع الناس نحو علي مهنئين قائلين: «بخ بخ لك يا علي، أصبحت مولانا ومولى كل مؤمن ومؤمنة».

ثم ينزل جبريل بالوحي الإلهي قائلاً: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

هذه هي خلاصة حديث الغدير وظروفه، وهذه هي ألفاظ العهد كما رواها الأثبات، وقد جاءت صريحة كل الصراحة في تثبيت فكرة «الإمامة» ذات الولاية العامة والمسؤولية المطلقة وفي تعيين «الإمام» المسؤول بعد وفاة النبي (ص).

وحسبنا دليلاً على هذه الصراحة فهم المسلمين ذلك ومبادرتهم ـ نتيجة لهذا الفهم ـ إلى تهنئة علي والبخبخة له بهذه المناسبة الغراء.

وطلع علينا المتفلسفون بعد حين من الدهر فقالوا ـ بعد أن أدركوا صحة الحديث وعدم امكان نكرانه «بأنه لم يكن نصاً في المطلوب، لأن لفظ «مولى» في اللغة العربية» اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو الرب، والمالك، والسيد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق، والمنعَم عليه»(١). ولما كان هذا اللفظ كثير المعاني فلا نعلم ماذا عنى النبي به على وجه التحديد وأي معنى من هذه المعاني كان يريد.

ويكفينا في تفنيد هذه المدعيات والمزاعم أن ندقق ملياً في الأمور الآتية:

---

(١) النهاية لابن الأثير: ٤/ ٢٣١.

١ ـ نزول آية قبل قيام النبي (ص) باعلان هذه الولاية، فقد روى عدد من المفسرين والمؤرخين أن الله تبارك وتعالى قد أوحى لنبيه ـ وهو خارج من مكة بعد حجة الوداع ـ قوله عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[١].

٢ ـ نزول النبي (ص) وسط الصحراء في هجير الظهر لإعلان هذه الولاية[٢].

٣ ـ تفريع الولايات الثلاث في كلام النبي (ص): الله مولاي.

أنا مولى المؤمنين، من كنت مولاه فهذا علي مولاه[٣].

٤ ـ إنهاء الخطبة بالدعاء لعلي: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار»[٤] وانه لدعاء لا ينسجم مطلقاً مع غير الولاية العامة وأمرة المؤمنين.

٥ ـ نزول آية الإكمال المارة الذكر: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾...

---

(١) سورة المائدة ـ ٦٧. ويراجع في نزول الآية في هذه المناسبة بالذات: الدر المنثور: ٢/٢٩٨ وفتح القدير: ٢/ ٦٠ وكتب أخرى مذكورة بتفاصيلها في الغدير: ١/١٩٦ ـ ٢٠٩.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٤/ ٣٦٨ و٣٧٢.

(٣) أسد الغابة: ٤/ ٢٨ والبداية والنهاية: ٥/ ٢٠٩.

والصواعق المحرقة: ٢٥ ومصادر أخرى مذكورة في تضاعيف المجلد الأول من الغدير.

(٤) سنن ابن ماجة: ١/ ٤٣ والبداية والنهاية: ٥/ ٢١٠ ووفيات الأعيان: ٤/ ٣١٨ والصواعق المحرقة: ٢٤ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٧٢ و١٩/ ٢١٧ و٢٢٤ و٢٠/ ٢٢١ والملل والنحل: ١/ ١٦٣.

الخ[1] الدالة على حدوث أمر خطير أكمل الله به الدين وأتم النعمة.

٦ ـ تهنئة الحاضرين لعلي بالصيغة السالفة الذكر[2].

إن التدقيق في هذه الجوانب الستة يجعلنا نؤمن بكل جزم ويقين أن المقصود لم يكن إلفات نظر المسلمين إلى أن علياً «ناصر» محمد أو «محب محمد» أو «تابع» محمد أو «ابن عم» محمد أو «صهر» محمد. وليست مسألة «النصرة» أو «المحبة» أو «المصاهرة» ـ لو أراد النبي التحدث عنها ـ بحاجة إلى ما أحاط بالغدير من ظروف ومناسبات، وإلى ما أنزل الله من آيات بينات، وإلى تلك الصيغ الخاصة في التهنئة والتبريك، بل إن ذلك بأجمعه لن يكون له معنى مقبول لولا إرادة الإمامة والبيعة والاستخلاف.

وربما يكون الدكتور أحمد محمود صبحي قد قارب الحقيقة أو أصابها في ما برر به إنكار المنكرين لهذا الحديث إذ قال:

«لما كان أهل الظاهر والسلفيون يوالون معاوية فإنه لم يكن لديهم

(١) سورة المائدة ـ ٣. ويراجع في نزول الآية بهذه المناسبة: تاريخ بغداد: ٨/ ٢٠٩ والدر المنثور: ٢/ ٢٥٩ وتفسير ابن كثير: ٢/ ١٤ وكتب مذكورة في الغدير: ١/ ٢١٠ ـ ٢١٧.

(٢) وفي لفظ البراء بن عازب كما في البداية والنهاية: ٧/ ٣٤٩ «فقال عمر بن الخطاب: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت اليوم ولي كل مؤمن» وفي رواية الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ٨/ ٢٩٠ «فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مسلم» وفي نص ابن حجر في صواعقه المحرقة: ٢٦ «الذي فهمه أبو بكر وعمر ـ وناهيك بهما ـ من الحديث فإنهما لما سمعاه قالا له: أمسيت يا ابن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة».

ويراجع في تهنئة المسلمين لعلي: الملل والنحل: ١/ ١٦٣ والنهاية: ٤/ ٢٣١ وأسد الغابة: ٤/ ٢٨ ووفاء الوفا: ٣/ ١٠١٨.

مفر من اختيار إما ترك هذه الموالاة أو القدح بشتى الوسائل في الحديث. وبالرغم من أنه من المفروض أن تخضع العقائد للنصوص، إلاَّ إن كثيراً من أصحاب المذاهب قد أخضعوا الأحاديث لأهوائهم ومذاهبهم»[١].

وهكذا يظهر من استعراض النصوص النبوية السالفة الذكر أن النص على الإمام صريح العبارة قطعي الدلالة، وان رسول الإسلام لم يترك الأمة هملاً ولم يفارق مسؤوليته السماوية الكبرى دون أن يطمئن عليها بتعيين من ينوب عنه في قيادة المسيرة وريادة الطريق.

ولهذا لم يجد كاتب موضوعي ـ بين القدماء ـ كابن أبي الحديد مجالاً لإنكار ذلك فقال:

«كان هناك تعريض وتلويح وقول غير صحيح»[٢].

كما أن عباس محمود العقاد ـ بين المعاصرين ـ لم يجد بداً من أن يقول:

«يلوح لنا أن النبي ـ (ص) ـ كان يحب علياً ويحببه إلى الناس ليمهد له سبيل الخلافة»[٣].

ويكون فحوى كلام هذين الكاتبين ـ على اختلاف زمنيهما ـ أن محمداً (ص) لم يترك الأمر لاختيار الناس بمحض أذواقهم، ولم يسكت تجاه هذه المسألة المصيرية بشكل مطلق، وإنما كان له «تعريض» و«تلويح» و«كناية» و«قول غير صريح» «يمهد» به لعلي «سبيل الخلافة».

---

(١) نظرية الإمامة: ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٥٩.
(٣) عبقرية الإمام: ١٣١.

وإن ذلك ـ في نظرنا على الأقل ـ كافٍ في الدلالة على المطلوب، وإن تكن دلالة «الكناية» و«التلويح» على حد قولهم.

وكان لهذه النصوص من سلامة السند وتواتر النقل وجلاء المراد ما لا يقدح فيه اختلاف الألفاظ وتعدد المناسبات. بل إن هذا الاختلاف والتعدد ليدل ـ بلا ريب ـ على استمرار التصميم السماوي الممثل بالكلام النبوي على تذكير المسلمين بهذه الحقيقة حتى لا تغرب عن أذهانهم ساعة الحاجة ويوم التنفيذ.

❀ ❀ ❀

وخلاصة الأمر:

فإن هذا الإمام المنصوص المعين من قبل النبي (ص) قد أصبح في آخر عام ٣٥ من الهجرة وبيعة جماهيرية واسعة الأطراف، هو الخليفة المنتخب والرئيس المرتضى لقيادة موكب الإسلام، فاجتمعت الإمامة الدينية والخلافة الدنيوية في شخص علي بالذات لأول مرة في تاريخ هذا الدين.

ومن هنا:

لم يكن لغائب أن يردَّ.

ولا لحاضر أن ينكث.

ولا لمدسوس أن يتردد.

الإصلاح
ومكافحة التخريب

... وكانت خطوة علي في الاصلاح والعدل والمساواة وإلغاء التصنيف الطبقي صريحة وحازمة وبمنتهى الجد والصرامة والحزم...

وعندما تبدأ مسيرة عليّ على هذا المنهج أترى تلك الارستقراطية المتعالية المتكبرة التي أماتها الإسلام وانتعشت بعد وفاة النبي (ص) ستستسلم وتتنازل وتسكت؟

وهكذا ركض الراكضون خلف «الجمل» فكان المقتدى والامام لهم في البصرة.

وهكذا اندفع المندفعون وراء «معاوية» فكان الخليفة والقائد لهم في صفين.

ولكن الزبد سيذهب جفاء على كل حال، ولن يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس. ولهذا كان لعلي أن يخلد خلود الشمس ولأعدائه أن يذوبوا كما يذوب السراب الخادع.

❀ ❀ ❀

أصبح علي ـ منذ اليوم ـ رئيس الدولة.

وبمجرد انتهاء مراسيم البيعة وأفراحها الشعبية الغامرة تسلَّم هذا القائم بالأمر مهامَّ مسؤوليته.

وبادر ـ سلام الله عليه ـ فور تحمله المسؤولية إلى تنفيذ منهجه الخاص المعبر عن منهج الإسلام، وبكل سرعة وحزم.

لقد كان الاصلاح الإداري بحاجة ماسة إلى عزل أولئك الولاة النفعيين الذين لم يكن لهم همٌّ في الحياة سوى السلب والنهب وكنز الذهب والفضة والتسلط المرير على رقاب المسلمين.

وكان الاصلاح الاجتماعي بحاجة ملحة أيضاً إلى تحطيم المفهوم القبلي الذي غذَّته العنعنات والعصبيات، ابتداءً باعلان سيطرة المهاجرين على الأنصار وادعاء قريش حق التحكم برقاب العباد إبان وفاة رسول الله (ص)، وانتهاءً بسيطرة بني أمية على الحكم وهم الذين يمثلون أفظع ألوان العصبية وأعنف مشاعر التعالي والغطرسة القبلية المقيتة.

وكان الاصلاح الاقتصادي بحاجة ماسة كذلك إلى إرجاع قطائع عثمان لأصحابها الشرعيين، وتوزيع الثروة بشكل عادل، وإلغاء التصنيف الطبقي للناس، ومصادرة الأموال التي نهبها المدللون من صندوق الدولة ليتمتعوا بها على حساب الجماهير الجائعة المحرومة، وإعادة تنظيم بيت المال (الميزانية) على أسلوب جديد سليم ومستقيم.

وهكذا بدأت المسيرة.

❀ ❀ ❀

وقد تمثل الاصلاح الإداري في مرحلته الأولى بعزل كل ولاة عثمان وعمّاله على الأمصار.

وجاء الناصحون ـ من غاشين ومحبين ـ يطلبون من عليٍّ التريث في هذه الخطوة والإبقاء على هؤلاء العمّال لمدة سنة واحدة، وأن يكتب لهم بابقائهم في أعمالهم كي لا يثيروا القلاقل ولا يختلقوا المشاكل، فلم يكن من علي إلاّ جوابٌ واحد لكل هؤلاء الناصحين: «والله لا أدهن في ديني ولا أعطي الدنيَّ من أمري»[1].

وهذا هو الموقف المنطقي المنسجم مع علي ومنهجه وسيرته.

وإن إبقاء هؤلاء الولاة والكتابة لهم بذلك معناه ـ بصريح العبارة ـ اعتراف هذا الخليفة بأهليتهم للولاية وشمولهم بثقته ورضاه واعتماده على حسن تصرفهم وسلوكهم وإقراره بتدينهم وإيمانهم.

وهذا ما لا يفعله عليٌّ ولا يقره وإن كلَّفه ذلك دنياه وبقية حياته.

❁ ❁ ❁

وقد تجلى الاصلاح الاجتماعي في أولى خطواته بإلغاء القيم العشائرية السائدة في المجتمع، والعودة إلى قيم الإسلام الأساسية القائمة على المساواة العامة الشاملة. فلا تفاضل بين قوم وقوم وجنس وجنس، ولا شأن أبداً للعرق أو اللون أو العمر أو أي امتياز آخر من الامتيازات العرفية التي كان يتمايز بها الناس، ولا تصنيف للطبقات والفئات الاجتماعية، ولا تنابز بالألقاب، ولا تفاخر بالزينة والأموال

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٤٠.

والأولاد. وإنما التفاضل والشأن والأهمية في مدى التمسك بمنهج الإسلام الذي يسير عليه عليّ وفي العمل البنّاء والجهد المخلص والنية الصادقة القائمة على تقوى الله عزَّ وجل وإطاعة رسوله (ص).

❀ ❀ ❀

وقد برز الإصلاح الاقتصادي ماثلاً في عدة خطوات كان أولها ارجاع كل قطائع عثمان التي اغتصبت من المسلمين وأعطيت ـ هبة ـ لبعض المدللين، حيث أعادها عليّ إلى وضعها الحقيقي حقاً عاماً يشترك فيه العموم ويعم خيره الجميع(١).

وكان من جملة خطوات هذا الإصلاح «الاقتصادي» إعلان المساواة التامة بين كل المسلمين في العطاء بلا طبقية ولا تفضيل، والعودة إلى ما كان يفعله رسول الله (ص) في الأموال العامة من توزيع عادل بين الناس ورعاية كاملة للمصالح العليا والمنافع الرئيسة.

وهذه هي القاعدة الأساسية التي جاء بها الإسلام ولا قاعدة غيرها في هذا الشأن.

وكانت هي الخط المتبع في عهد الخليفة أبي بكر، فقد حاول ـ خلال سنوات حكمه ـ أن يسير على هذا المنهج وأن لا يزيغ عنه قدر الإمكان.

ولكن الخليفة عمر حينما آلت إليه الخلافة رأى أن يضع لذلك منهجاً جديداً قائماً على التفاضل في العطاء «ففضل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٣٩.

المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم، وفضل الصريح على المولى»[(١)].

ويروي ابن أبي الحديد عن ابن الجوزي بعض الأرقام في هذا الصدد فيقول:

فرض الخليفة لنفسه إثنا عشر ألفاً.

ولأزواج النبي (ص)، لكل واحدة عشرة آلاف.

ولكل بدريّ من المهاجرين خمسة آلاف.

ولكل بدريّ من الأنصار أربعة آلاف.

ولمن شهد أُحداً وما بعدها إلى الحديبية أربعة آلاف.

ولمن شهد المشاهد بعد الحديبية مع النبي (ص) ثلاثة آلاف.

ولمن شهد المشاهد بعد وفاة رسول الله (ص) درجات: ألفين وخمسمائة، وألفين، وألفاً وخمسمائة، وألفاً... إلى مائتين[(٢)].

وقد حدثنا الطبري بمثل ذلك أو قريب منه، وزاد:

للعباس بن عبد المطلب خمسة وعشرون ألفاً وقيل إثنا عشر ألفاً[(٣)].

وعندما مات الخليفة عمر وآلت الخلافة إلى عثمان أصبح دفع المال جزافاً بلا قاعدة ولا تقنين ـ أياً كانت تلك القاعدة وذلك القانون ـ ويقول عليّ في وصف ذلك.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٨/ ١١١.
(٢) المصدر نفسه: ١٢/ ٢١٤ ـ ٢١٥.
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٦١٤.

«إلى أن قام ثالث القوم، نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الابل نبتة الربيع»(١).

وبالنظر إلى ضيق المجال عن استيعاب بحث هذه المسألة ـ هنا ـ فإننا نروي جريدة ببعض الثروات التي حصل عليها أفراد من الناس في تلك الفترة لعلها تغني عن التطويل والتفصيل.

عثمان (الخليفة):

كان له يوم قُتل عند خازنه ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم وخمسون ومائة ألف دينار(٢)، وكانت قيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلّف خيلاً كثيراً وإبلاً(٣).

طلحة:

كانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك، وبناحية سراة أكثر مما ذكرنا(٤)، وترك من النقود ثلاثين ألف ألف درهم ومن العين ألفي ألف ومائتي ألف درهم، وقُوِّمتْ أصوله وعقاره ثلاثين ألف ألف درهم(٥).

الزبير:

خلف إحدى عشرة داراً بالمدينة ودارين بالبصرة وداراً بالكوفة

(١) نهج البلاغة: ١/ ٣٥.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٥٣.
(٣) (٤) مروج الذهب: ٢/ ٢٢٢.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١٥٨.

وداراً بمصر، ويقدر بعض المؤرخين تركته بخمسين ألف ألف ومائتي ألف[١].

عبد الرحمن بن عوف:

ترك بعد موته ألف بعير ومائة فرس وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ رُبْعُ ثَمنْ ماله أربعة وثمانين ألفاً[٢]، وكان فيما خلّفه ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه[٣].

زيد بن ثابت:

خلف من الذهب والفضة ما كان يُكسر بالفؤوس، غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار[٤].

سعد بن أبي وقاص:

ترك يوم مات مائتي ألف وخمسين ألف درهم[٥].

يعلى بن أمية:

خلَّف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار[٦].

إن هذه المعلومات السالفة الذكر كافية ـ كل الكفاية ـ في إعطاء

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٠٦ ـ ١٠٨.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٢٢٢.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٩٦.
(٤) مروج الذهب: ٢/ ٢٢٣.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١٠٥.
(٦) مروج الذهب: ٢/ ٢٢٣.

صورة واضحة للقارىء عن مدى الإثراء غير المشروع الذي غمر أفراداً من الناس على حساب مجموع المسلمين.

وكانت خطوة علي في المساواة والعدل وإلغاء التصنيف الطبقي صريحة وحازمة وبمنتهى الجد والصراحة والحزم الذي لا يتزلزل ولا يتراجع ولا يلين، وقال في الناس كلمته المدوية:

«ولو كان المال لي لسويتُ بينهم فكيف وإنما المال مال الله»[١].

وعندما يطالبه بشيء من المال مَنْ لا يستحقه ينفجر الإمام في وجهه قائلاً:

«إن هذا المال ليس لي ولا لك، وإنما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم»[٢].

❀ ❀ ❀

وحينما تبدأ مسيرة علي على هذا المنهج أترى تلك الارستقراطية المتعالية المتكبرة التي أماتها الإسلام وانتعشت بعد وفاة النبي (ص) ستستسلم وتقر هذا المنهج[٣]؟!

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٢٤٢.

(٢) نهج البلاغة: ١/ ٤٦١.

(٣) يروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ٧/ ٤٠ ـ ٤١: إن علياً قال لطلحة والزبير بعد خروجهما عليه: «نشدتكما الله هل جئتماني طائعين للبيعة ودعوتماني إليها وأنا كاره لها؟ قالا: نعم، فقال: غير مجبرين ولا مقسورين فأسلمتما لي بيعتكما وأعطيتماني عهدكما؟ قالا: نعم... ألا تخبرانني: أدفعتكما عن حق وجب لكما فظلمتكما إياه؟ قالا: معاذ الله، قال: فهل استأثرت من هذا المال لنفسي بشيء؟ قالا: معاذ الله: قال أفوقع حكم أو حق لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه؟ قالا: معاذ الله، قال: فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟ قالا: خلافك عمر بن الخطاب في القِسَمْ، إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا وسوّيت بيننا وبين ما لا يماثلنا... فقال: ... وأما القسم =

هل ستتنازل عن كل ما حصلت عليه من قطائع غير مشروعة لتعود إلى مستحقيها من أفراد المسلمين؟!

هل ستسكت على إبعادها عن كل عمل إداري ومركز حكومي وولاية ذات منافع وموارد؟!

هل ستستقبل مساواة عليّ لها بغيرها من أفراد الناس بالزغاريد والرياحين؟!

هل ستحاسب نفسها وتعيد إلى الخزينة كل المال الحرام الذي حصلت عليه في غفلة من تطبيق أحكام الإسلام؟!

هل... وهل...

والجواب على كل هذه التساؤلات بديهي ومنحصر بكلمة واحدة: كلا.

ولكن هذه الارستقراطية المتغطرسة تعلم ـ حق العلم ـ أن علياً سيفعل كل ذلك وسيجبرها على الرضوخ لحكم الشرع مهما كلف الأمر ومهما كانت الظروف.

وإذن. فلا بد لها أن تتحرك بسرعة، وبسرعة فائقة جداً، لتصدّ التيار قبل اندفاعه ولتقف في وجه «البلاء» قبل استفحاله، ولتستغل سذاجة الناس ـ بل بلاهة بعضهم ـ قبل أن يعوا الدرس الجديد فيتمردوا على أولئك الأسياد فلا ينظرون إليهم سوى نظرة السخرية والازدراء والاحتقار.

وحيث أن تحركها لا يمكن أن يكون مفضوح الدوافع مكشوف

= والأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادىء بدء، قد وجدت أنا وأنتما رسول الله (ص) يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به».

الأهداف فلا بد من غطاء مزركش تُغَطّى به الحركة، وصبغ ملوّن يخفي لون التمرد القذر، وعطر فواح يمنع وصول رائحة الخيانة العفنة إلى الأنوف.

وبدأت الارستقراطية تبحث عن الغطاء الملائم والصبغ الفاحم والعطر المحقق للمطلوب.

ووجدت أنه لن يكون لديها غلاف على مستوى الحاجة خيراً من دم عثمان.

إن دم عثمان يجمع الأمويين بكل ما لديهم من أنصار ومرتزقة، وكثيراً من القرشيين الحاقدين أو الحاسدين بكل ما وراء هذا الكثير من تابعين وموالين، ومحبي عثمان بكل ما عندهم من بساطة وسذاجة وجهل بالحقائق.

وعندما يجتمع هؤلاء جميعاً ويجمعون على تأييد حركة التمرد فإن أمل النجاح سيكون قوياً، واحتمال النصر سيصبح على درجة معقولة من الرجحان.

ثم سيضاف ـ وإنهم ليعلمون ـ كل الحاقدين من ذوي التراث والاضغان الجاهلية المنكوبين بسيف الإسلام الذي كان يحمله علي طيلة حروب الدعوة في حياة النبي (ص) ممن قتل هذا الخليفة الجديد أحباءهم وأرحامهم وذوي قرباهم في سبيل كلمة التوحيد[1].

وهكذا اتحد هؤلاء جميعاً ومن كل الأصناف والفئات السالفة الذكر في كتلة واحدة ليس لها أي هدف إلا القضاء على أفكار العدل

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٠٠.

والمساواة التي يؤمن بها علي ـ لأنها أفكار الإسلام ـ ويريد تطبيقها بكل جد وإخلاص.

وكان معاوية بما لديه من حاشية ذكية ومستشارين مخلصين واتباع جهلة طيعين معقد الأمل لهذا التجمع الارستقراطي الكبير، ولكن معاوية هذا ـ بحكم علمه بما يحيط سلوكه وإسلامه وتاريخه من شكوك وعلامات استفهام[١] ـ لم يكن قادراً على أن يقود التمرد في مرحلته الأولى، وإنما يجب أن تكون القيادة اليوم لواحد أو أكثر من ذوي «الرتوش» الملونة الخادعة للأبصار ومن أصحاب «السوابق» المعروفين في تاريخ الإسلام.

وبذل معاوية وأعوانه جهداً مكثفاً وسريعاً في سبيل العثور على تلك «العينات» المطلوبة، فإذا بطلحة والزبير و«الأم» المسكينة هم الثالوث القائد لحركة الدفاع عن الارستقراطية المذعورة المهدّدة.

وبدأت الحركة الجديدة عملها على قدم وساق لصدِّ المدِّ الإسلامي المتدفق ومنعه من التقدم والاندفاع.

ولتكن الحرب إحدى هذه العراقيل المنشودة.

ولتكن أعمال العصابات بكل ما فيها من غارات مفاجئة على العزّل والآمنين إحدى تلك الوسائل المطلوبة أيضاً.

(١) يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٦١ عن معاوية ما نصه: كان معاوية في أيام عثمان «شديد التهتك، موسوماً بكل قبيح، وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلاً خوفاً منه، إلا أنه كان يلبس الحرير والديباج، ويشرب في آنية الذهب والفضة، ويركب البغلات ذوات السروج المحلاة بها، وعليها جلال الديباج والوشي... ونقل الناس عنه في كتب السيرة أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام».

وليكن الإرهاب والعنف. والغدر والفجور، من جملة تلك الأساليب الارستقراطية كذلك.

وهكذا ركض الراكضون خلف «الجمل» فكان المقتدى والإمام لهم في البصرة:

وهكذا اندفع المندفعون وراء «معاوية» فكان الخليفة والقائد لهم في صفين.

وهكذا أصبح «دم» عثمان هو الطلاء الصارخ الذي يخفي تحته المتمردون نياتهم السوداء لتنطلي على الناس الساذجين.

وهكذا كان «قميص» عثمان[١] هو البرقع الذي يُغطّي به «البغاة الناكثون القاسطون» خروجهم وبغيهم فلا يكاد يراه الأتباع البسطاء المخدوعون.

وهذا هو الفهم الصحيح للمسألة كما أعلنه المؤمنون الصادقون على لسان البطل عمار بن ياسر إذ قال في ضمن خطاب له:

«أيها الناس! اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم ابن عفان ويزعمون أنه قُتل مظلوماً، والله ما طلبتهم بدمه، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرؤوها وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قُتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً»[٢].

۞ ۞ ۞

---

(١) ومن طرائف هذا القميص ما يرويه ابن أبي الحديد في شرح النهج ٦/ ٣٢٢ قال: «لما نصب معاوية قميص عثمان على المنبر وبكى أهل الشام حوله، قال: قد هممت أن أدعه على المنبر، فقال له عمرو: إنه ليس بقميص يوسف، إنه إن طال نظرهم إليه وبحثوا عن السبب وقفوا على ما لا تحب أن يقفوا عليه».

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٩.

وجدير بنا ـ وقد انتهى البحث إلى هذه «البؤرة» الحساسة ـ أن نتمهل قليلاً فنتساءل:

مَنْ هم قتلة عثمان؟

وما هو دور هؤلاء المطالبين بدمه في الدفاع عنه يوم كان حياً محاصراً من قبل الثوار؟

وهل كان لعلي دور أو بعضٌ من دور في قتل الخليفة كي يُطالب اليوم بدمه المطلول؟

وإنها لأسئلة ذات أهمية كبرى في تحديد واقع المسؤولية ـ تاريخياً ـ وفي معرفة الدخائل والنيات الحقيقية لأولئك الدجالين المتباكين على الحاكم المقتول والمتلفعين بقميصه والمدعين الطلب بثأره من علي.

ولكي تخرج الصورة على درجة كبيرة من الجلاء والنقاء، لا بد لنا أن نبدأ الحديث من أول فصل من فصول هذه المأساة ومنذ اليوم الأول لقرع طبول الثورة.

كانت التصرفات السيئة التي حدثت في عهد عثمان، والأعمال الطائشة والاقطاع الذي ما أنزل الله به من سلطان والتعسف الذي لم ير الناس مثله في عهود الجاهلية فضلاً عن الإسلام، والانحراف الشامل في كل جوانب الحياة العامة. كان كل ذلك قد حرّك روح الثورة في نفوس المسلمين وأذكى نار التمرد، ولم يكن هؤلاء الثوار أو المتمردون إلاّ صحابة الرسول وخيار الناس، وقد أخرج الطبري بسنده أن «أصحاب رسول الله (ص) كتب بعضهم إلى بعض أن أقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد»[١].

---

(١) المصدر نفسه: ٤/٣٣٦.

وتجمعت وفود المسلمين من ها هنا وها هنا في المدينة المنورة لمفاوضة الخليفة وفرض تصحيح الأوضاع عليه والعودة بالمسيرة الإسلامية إلى طريقها الأولى بإعادة كل حق لصاحبه وتعويض كل ذي حق عن حقه.

وليس غرضنا هنا أن نبحث أسباب الثورة وعواملها وأن نستعرض خطواتها العملية خطوة خطوة، ولكن المقصود هو استعراض دور الإمام (ع) في هذه الثورة، لنتعرف بحقيقة «البغي» الذي قاده الناكثون والقاسطون في محاربة علي بحجة كونه قاتل عثمان أو المسؤول عن دمه.

يروي البلاذري:

«إن المصريين وردوا المدينة فأحاطوا ـ وغيرهم ـ بدار عثمان في المرة الأولى... فقال له ابن عمر وغيره: ليس لهم إلاّ علي بن أبي طالب، فلما أتاه قال: يا أبا الحسن ائت هؤلاء القوم فادعهم إلى كتاب الله وسنة نبيّه، قال: نعم إن أعطيتني عهد الله وميثاقه على أنك تفي لهم بكل ما أضمنه عنك، قال: نعم، فأخذ عليّ عليه عهد الله وميثاقه على أوكد ما يكون وأغلظ، وخرج إلى القوم، فقالوا: ما وراءك؟ قال: لا بل أمامي، تُعْطَوْنَ كتاب الله وتُعْتَبُون من كل ما سخطتم. فعرض عليهم ما بذل عثمان، فقالوا: أتضمن ذلك عنه؟ قال: نعم، قالوا: رضينا، وأقبل وجوههم وأشرافهم مع عليّ حتى دخلوا على عثمان وعاتبوه فأعتبهم من كل شيء، فقالوا: اكتب بهذا كتاباً، فكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبدالله عثمان أمير المؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين. إنَّ لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيِّه، يُعْطَى المحروم، ويؤمن الخائف، ويُرَد المنفي،

ولا تجمر البعوث، ويوفر الفيء، وعلي بن أبي طالب ضمين للمؤمنين والمسلمين على عثمان بالوفاء بما في هذا الكتاب». وأشهد الخليفة عدداً من الشهود على كتابه هذا.

«وقال علي بن أبي طالب لعثمان: اخرج فتكلم كلاماً يسمعه الناس ويحملونه عنك، وأشهِد الله على ما في قلبك، فإن البلاد قد تمخضت عليك ولا تأمن أن يأتي ركب آخر من الكوفة أو من البصرة أو من مصر فتقول: يا علي اركب اليهم، فإن لم أفعل قلتَ: قطع رحمي واستخف بحقي. فخرج عثمان فخطب الناس فأقرَّ بما فعل واستغفر الله منه وقال: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: من زلَّ فليُنِب، فأنا أول من اتعظ، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليردوني برأيهم، فوالله لو ردّني إلى الحق عبد لاتّبعته، وما عن الله مذهب إلاّ إليه. فسرَّ الناس بخطبته واجتمعوا إلى بابه مبتهجين بما كان منه. فخرج إليهم مروان فزبرهم وقال: شاهت وجوهكم، ما اجتماعكم؟ أمير المؤمنين مشغول عنكم، فإن احتاج إلى أحد منكم فسيدعوه، فانصرفوا. وبلغ علياً الخبر فأتى عثمان وهو مغضب فقال: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلاّ بإفساد دينك وخديعتك عن عقلك، وإني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائذ بعد مقامي هذا لمعاتبك. وقالت له امرأته نائلة بنت الفرافصة: قد سمعت قول علي بن أبي طالب في مروان، وقد أخبرك أنه غير عائد إليك، وقد أطعت مروان ولا قدر له عند الناس ولا هيبة. فبعث إلى علي، فلم يأته»[١].

وفي رواية أخرى عن علي نفسه بعد انقطاعه عن عثمان: «جاءني عثمان البارحة فجعل يقول: إني غير عائد وإني فاعل، قال: فقلت له:

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٦٢ ـ ٦٥، ويراجع في ذلك تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦٠ ـ ٣٦٣.

بعدما تكلمتَ به على منبر رسول الله (ص) وأعطيت من نفسك، ثم دخلت بيتك، وخرج مروان إلى الناس فشتمهم على بابك!»[١].

وفي نص آخر عن هذا اللقاء:

«فقال علي: إني قد كنت كلمتك مرة بعد مرة، فكل ذلك تخرج فَتُكلم، ونقول وتقول، وذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية، أطعتهم وعصيتني. قال عثمان: فإني أعصيهم وأُطيعك»[٢].

وعلى الرغم من فشل محاولات علي بأجمعها في إقناع الخليفة بالثبات على رأي واحد، وعلى الرغم من تصميم عليّ على مقاطعة عثمان وعلى عدم التدخل في هذا الموضوع بعد اتضاح فشل هذا التدخل، فإن التأزم الشديد الذي بلغته المشكلة قد فرض على أبي الحسن إعادة الكرة وبذل مزيد من الجهد مجدداً، بأمل انقاذ الموقف من التدهور الفظيع الذي آل إليه.

ويروي الطبري صورة من الموقف فيقول:

«كتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله، فلما خاف القتل شاور نصحاءه... فأشاروا إليه أن يرسل إلى علي بن أبي طالب فيطلب إليه أن يردهم عنه ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه إمداد، فقال: إن القوم لن يقبلوا التعليل... وقد كان مني في قدمتهم الأولى ما كان، فمتى اعطهم ذلك يسألوني الوفاء

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٨.

به، فقال مروان بن الحكم: يا أمير المؤمنين! مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب فأعطهم ما سألوك...».

«فأرسل إلى علي فدعاه، فلما جاءه قال: يا أبا حسن إنه قد كان من الناس ما قد رأيت، وكان مني ما قد علمت، ولست آمنهم على قتلي، فارددهم عني، فإن لهم الله عزَّ وجل أن اعتبهم من كل ما يكرهون وان اعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي. فقال له علي: الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك... وقد كنت أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله لترجعن عن جميع ما نقموا، فرددتهم عنك، ثم لم تف لهم بشيء من ذلك، فلا تغرني هذه المرة من شيء، فإني معطيهم عليك الحق، قال: نعم فأعطهم فوالله لأفينّ لهم. فخرج علي إلى الناس فقال: أيها الناس إنكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه، إن عثمان زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره، وراجع عن جميع ما تكرهون، فاقبلوا منه ووكدوا عليه. قال الناس: قد قبلنا، فاستوثق منه لنا فإنّا والله لا نرضى بقول دون فعل. فقال لهم علي: ذلك لكم».

«ثم دخل عليه فأخبره الخبر، فقال عثمان: اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة، فإني لا أقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد، فقال له علي: ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك، قال: نعم، ولكن أجّلني في ما بالمدينة ثلاثة أيام، قال علي: نعم. فخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن يردّ كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه، ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق، وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار. فكفَّ المسلمون عنه ورجعوا، إلى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه، فجعل يتأهب للقتال

ويستعد بالسلاح. . . فلما مضت الأيام الثلاثة وهو على حاله لم يغير شيئاً مما كرهوه ولم يعزل عاملاً ثار به الناس. . .»[١].

ومع ذلك كله فلم يمتنع علي من رعاية عثمان ومن منع الثوار من الوصول إلى نهاية تهديدهم، فكان هو الذي يرسل الماء إلى عثمان[٢]، وكان هو الذي يأمر بحماية باب عثمان بأولاد المهاجرين والصحابة كي لا يقتحم الثوار الدار[٣]، وإلى آخر مواقفه الغر البيضاء التي كانت تمليها عليه نفسه الملائكية السامية، مما لا مجال لشرحه بالتفصيل في هذه الصفحات.

واستمرت محاولات علي حتى بعد عثور المصريين على كتاب الخليفة المرسل إلى عامله على مصر بأن يصلب هؤلاء الثوار الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف[٤]. ولم يجد علي مناصاً ـ بعد هذا التأزم في الموقف ـ من أن يدخل على عثمان في آخر محاولة لتدارك الأمر[٥]. ولكن إطاعة الخليفة لمروان وتمسكه الأعمى به كان قد بلغ الغاية التي لا ينفع معها نصح أو إرشاد أو أي حل سلمي يمكن أن يطفي النائرة.

وهكذا انهار الموقف، ووقعت الواقعة، وقتل عثمان.

وكان علي يقول معلقاً على هذه الأحداث:

«ما يريد عثمان أن ينصحه أحد، اتخذ بطانة أهل غشّ ليس منهم

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦٩ ـ ٣٧١.
(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٦٨ ـ ٦٩، وقريب منه في تاريخ الطبري: ٤/ ٣٨٥.
(٣) أنساب الأشراف أيضاً: الجزء والصفحة نفسها.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٥ و٣٦٧ و٣٦٨ و٣٧٣ و٣٧٤ و٣٧٦.
(٥) تاريخ الطبري أيضاً: ٤/ ٣٧٤.

أحدٌ إلاَّ وقد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها»(١).

وقال معلقاً أيضاً على هذه الفتنة في مناسبة أخرى:

«والله ما زلت أذبُّ عنه حتى إني لأستحيي، ولكن مروان ومعاوية وعبدالله بن عامر وسعيد بن العاص هم صنعوا به ما ترى، فإذا نصحته وأمرته أن ينحِّيهم استغشني حتى جاء ما ترى»(٢).

وقال مرة أخرى في هذا الموضوع:

«ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملا ناضحاً بالغرب، أُقبل وأُدبر، بعث إلي أن أخرج، ثم بعث إلي أن أقدم، ثم هو الآن يبعث إليَّ أن أخرج. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً»(٣).

ويقول ملخصاً موقفه بايجاز:

«وما كنت لأعتذر من أني كنت أنقم عليه أحداثاً، فإن كان الذنب إليه ارشادي وهدايتي له فرب ملوم لا ذنب به»(٤).

❀ ❀ ❀

وعندما نعود إلى الأسئلة الثلاثة التي طرحناها آنفاً نجد أن الجواب عن دور علي في هذه المسألة قد اتضح بما لا مزيد عليه:

إنه لم يكن قاتل عثمان، ولا من المحرضين على قتله، وإنه لبريء من دمه كل البراءة. بل كان ـ وبصراحة متناهية ـ هو المدافع الوحيد عن عثمان.

---

(١) تاريخ الطبري نفسه: ٤/٤٠٦.
(٢) المصدر نفسه: ٤/٣٧٨.
(٣) نهج البلاغة: ١/٤٦٨.
(٤) نهج البلاغة أيضاً: ٢/٣٤.

وهذا هو ما تجليه النصوص التاريخية لمختلف المؤرخين كل الجلاء.

ولا أظن أن مسألة تاريخية أجمع فيها الرواة وتسالموا كمسألة دفاع علي عن عثمان وذبّه عنه ورغبته في المحافظة على حياته بشرط التوبة من كل المساوىء والسيئات والعودة إلى طريق الحق والصواب.

وإنه لموقف صريح لا لبس فيه ولا التواء ولا غموض.

ولم يبق لدينا من الأسئلة إلا واحد لم نجب عليه هو:

ما هي مواقف أولئك البارزين من ذوي الحل والعقد ممن رفعوا راية المطالبة بدمه بعد قتله ونشروا قميصه الأحمر الملطخ بالدم ليثيروا به أعصاب بسطاء الناس.

❀ ❀ ❀

ولئلا يطول بنا الحديث ويتشعب فليكن السؤال بهذا النص:

ما هي مواقف عائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص من عثمان؟

وهل حاول هؤلاء ـ وقد كان لديهم ما كان من مال وجاه وصولة ودولة ـ أن يدفعوا الأذى عن هذا الرجل الذي قتل مظلوماً بزعمهم؟

وإذا كانوا قد ألبّوا على عثمان أو لم يدافعوا عنه على الأقل فلماذا خرجوا على إمام زمانهم وخلعوا طاعته بحجة المطالبة بذلك الدم الذي إن لم يكونوا سفكوه فقد وقفوا موقف المتفرج عليه؟

ولماذا ولمصلحة من غرروا بالبسطاء والسذج ممن اتبعوهم، فسالت الأودية بالدماء وضجت الصحراء بالأجساد الممزقة والأشلاء الموزعة؟

ولنقرأ بشيء من التأمل والإمعان هذه الشذرات الملخصة المستلة من كتب التاريخ عن موقف كل واحد من هؤلاء «الأقطاب» الخمسة من عثمان ليكون الجواب على تلك الأسئلة على لسان القارىء وبين شفتيه فلا يعود يخدعه تأويل المؤولين وتخريج المخرجين:

موقف السيدة عائشة من عثمان

«كانت عائشة تقرصه كثيراً»[١].

«نادت عائشة: إن عثمان أبطل الحدود وتوعد الشهود»[٢].

«إن عائشة أغلظت لعثمان وأغلظ لها»[٣].

«لقبته بالطاغية»[٤].

«أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله (ص) فنصبته في منزلها، وكانت تقول للداخلين عليها: هذا ثوب رسول الله (ص) لم يبل وعثمان قد أبلى سنته»[٥].

«أول من سمى عثمان نعثلاً: عائشة... وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً»[٦].

«قالت عائشة: يا مروان وددت والله إنه (أي عثمان) في غرارة من غرائري هذه وإني طوقت حمله حتى القيه في البحر»[٧].

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٦٨.
(٢) المصدر نفسه: ٥/ ٣٤.
(٣) المصدر نفسه أيضاً: ٥/ ٣٤.
(٤) أنساب الأشراف: ٥/ ٧٥.
(٥) شرح نهج البلاغة: ٥/ ٢١٥. وقريب منه في ٣/ ٩.
(٦) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢١٥.
(٧) أنساب الأشراف: ٥/ ٧٥.

«لما قتل عثمان... قالت: بعداً لنعثل وسحقاً»[(١)].

قالت «لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة: أبعده الله، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[(٢)].

ولما علمت بيعة الناس لعلي «رجعت إلى مكة فضُربَتْ لها قبتها في المسجد الحرام وقالت: يا معشر قريش إن عثمان قد قتل، قتله علي بن أبي طالب، والله لأنملة أو قالت لَلَيلة من عثمان خير من علي الدهر كله»[(٣)]، «فقال عبيد: إن أول من طعن عليه وأطمع الناس فيه لأنت ولقد قلت: اقتلوا نعثلاً فقد فجر، فقالت عائشة: قد والله قلتُ وقال الناس، وآخر قولي خير من أوله! فقال عبيد: عذر والله ضعيف يا أم المؤمنين»[(٤)].

وعلى الرغم من كل هذا التحريض على عثمان فقد خرجت على جملها إلى البصرة تطالب بدمه، وجعلت من نفسها ذلك الرمز الكبير لحركة النكث والناكثين.

وإذا كان لم يردعها أي اعتبار من الاعتبارات التي كانت تعرفها حق المعرفة، فلقد كان المفروض بها أن يردعها نباح كلاب الحوأب، وهي التي سمعت رسول الله (ص) يقول: «أيتكن صاحبة الجمل الأذنب، تنبحها كلاب الحوأب، فتكون ناكبة عن الصراط. ثم قال لعائشة: إياك أن تكونيها»[(٥)].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢١٥.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢١٦.
(٣) أنساب الأشراف: ٥/ ٩١.
(٤) الإمامة والسياسة: ١/ ٤٩، وقريب منه في تاريخ الطبري: ٤/ ٤٥٩ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٢١٦.
(٥) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢١٧ ـ ٢١٨، ويراجع تاريخ الطبري: ٤/ ٤٥٧ و٤٦٩ وشرح نهج البلاغة: ٩/ ٣١٠ ومجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٤.

موقف طلحة من عثمان:

«حاصر الناس عثمان، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر ببني تيم وغيرهم، وأعانه على ذلك طلحة بن عبيدالله»(١).

«لم يكن أحد من أصحاب النبي (ص) أشد على عثمان من طلحة»(٢).

«قال عثمان: اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله فإنه حمل على هؤلاء وألّبهم»(٣).

«قال عليّ لطلحة: أنشدك الله ألاّ رددت الناس عن عثمان، قال: لا والله حتى تعطي بنو أمية الحق من أنفسها»(٤).

«مرَّ مجمع بن جارية الأنصاري بطلحة بن عبيدالله فقال: يا مجمع ما فعل صاحبك؟ قال: أظنكم والله قاتليه! فقال طلحة: فإن قُتل فلا مَلَك مقرّب ولا نبي مرسل»(٥).

«منع طلحة عثمان من أن يدخل عليه الماء العذب»(٦).

«كان طلحة من أشد الناس تحريضاً عليه»(٧).

«إن طلحة كان يوم قتل عثمان مقنعاً بثوب قد استتر به عن

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٦٨.
(٢) المصدر نفسه: ٥/ ٨١.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٧٩.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٠٥.
(٥) أنساب الأشراف: ٥/ ٧٤.
(٦) المصدر نفسه: ٥/ ٩٠.
(٧) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٣٥.

أعين الناس، يرمي الدار بالسهام... وإنه لما امتنع على الذين حصروه الدخول من باب الدار، حملهم طلحة إلى دار لبعض الأنصار فأصعدهم إلى سطحها، وتسوروا منها على عثمان داره فقتلوه»[١].

«قال مروان بن الحكم يوم الجمل: والله لا أترك ثأري وأنا أراه، ولأقتلنَّ طلحة بعثمان فإنه قتله، ثم رماه بسهم فأصاب مأبضه فنزف الدم حتى مات»[٢].

«روى المدائني: أن طلحة منع من دفن عثمان ثلاثة أيام»[٣].

قال علي لطلحة لما اجتمعا بين الصفين في حرب الجمل: «يا أبا محمد ما الذي أخرجك؟ قال: الطلب بدم عثمان، قال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان»[٤].

يقول علي في طلحة:

«والله ما استعجل متجرداً للطلب بدم عثمان إلا خوفاً من أن يُطلبَ بدمه، لأنه مظنته، ولم يكن في القوم أحرص عليه منه، فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلتبس الأمر ويقع الشك ووالله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث: لئن كان ابن عفان ظالماً ـ كما كان يزعم ـ لقد كان ينبغي له أن يوازر قاتليه أو ينابذ ناصريه. ولئن كان مظلوماً لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهنهين عنه والمعذّرين فيه، ولئن كان في شك

(١) المصدر نفسه: ٩/ ٣٦.
(٢) المصدر نفسه أيضاً: ٩/ ٣٦.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٦.
(٤) مروج الذهب: ٢/ ٢٤٨.

من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركد جانباً ويدع الناس معه. فما فعل واحدة من الثلاث»[١].

موقف الزبير من عثمان:

«إن الزبير كان يقول: اقتلوه ـ أي عثماناً ـ فقد بدَّل دينكم. فقالوا: إن ابنك يحامي عنه بالباب، فقال: ما أكره أن يقتل عثمان ولو بُدىء بابني. إن عثمان لجيفة على الصراط غداً»[٢].

قال علي للزبير وهما في ساحة الحرب بين الصفين[٣].

«ما حملك يا أبا عبدالله على ما صنعت؟ قال: اطلب بدم عثمان، قال: أنت وطلحة وليتماه، وإنما توبتك من ذلك أن تقيد به نفسك وتسلمها إلى ورثته»[٤]. وفي نص آخر: «قال له علي: ويحك يا زبير ما الذي أخرجك[٥]؟ قال: دم عثمان، قال: قتل الله أولانا بدم عثمان»[٦]. وفي نص ثالث: أن علياً «قال للزبير: أتطلب مني دم عثمان وأنت قتلته!

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٢) شرح النهج: ٩/ ٣٦.

(٣) ومن طرائف ما يروي المؤرخون عن هذا اللقاء: ان علياً قال للزبير: «يا زبير أتذكر يوم مررت مع رسول الله (ص) في بني غنم، فنظر إلي فضحك وضحكت إليه فقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال لك رسول الله (ص): «صه، إنه ليس يزهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم»، فقال: «اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرتُ مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبداً» تاريخ الطبري: ٥/ ٥٠٢.

(٤) شرح النهج: ٢/ ١٦٧.

(٥) يروي الطبري في تاريخه: ٤/ ٤٧٥ أن رجلاً جاء إلى طلحة والزبير «وهما في المسجد بالبصرة فقال: نشدتكما بالله في مسيركما أعهد إليكما فيه رسول الله (ص) شيئاً؟ فقام طلحة ولم يجبه، فناشد الزبير فقال: لا، ولكن بلغنا أن عندكم دراهم فجئنا نشارككم فيها».

(٦) مروج الذهب: ٢/ ٢٤٧.

سلط الله على أشدنا عليه اليوم ما يكره»[١].

يقول عبد الملك بن مروان في رسالة إلى مصعب بن الزبير يذكر فيها أباه الزبير:

«حتى إذا صارت الأمور إلى صاحبها عثمان... بغاه الغوائل، وأعدله المخاتل، حتى نال منه حاجته. ثم دعا الناس إلى علي وبايعه، فلما دانت له أمور الأمة وأجمعت له الكلمة، أدركه الحسد القديم لبني عبد مناف، فنقض عهده، ونكث بيعته بعد توكيدها»[٢].

يقول الزبير عندما علم أن علياً لا يوليه شيئاً: «هذا جزاؤنا من علي! قمنا في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل وهو جالس في بيته»[٣].

ويقول مالك الأشتر عن الزبير وصاحبه طلحة: «فإن زعما أنهما يطلبان بدم عثمان فليقيدا من أنفسهما فإنهما أول من ألّب عليه وأغرى الناس بدمه»[٤].

موقف معاوية من عثمان:

«لما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد انبعث عليه من الناس، كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فابعث إليّ من قِبَلَك مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول. فلما جاء معاوية

(١) تاريخ الطبري: ٤/٥٠٩.
(٢) شرح النهج: ١١/١٨ ـ ١٩.
(٣) الإمامة والسياسة: ١/٤٩.
(٤) شرح نهج البلاغة: ١/٣١١.

الكتاب تربّص به»[١]. ثم «بعث يزيد بن أسد القسري جد خالد بن عبدالله بن يزيد أمير العراق وقال له: إذا أتيت ذا خُشُب فأقم بها ولا تتجاوزها ولا تقل: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب. قال: فأقام بذي خشب حتى قتل عثمان، فاستقدمه حينئذ معاوية فعاد إلى الشام بالجيش الذي كان أرسل معه. وإنما صنع ذلك معاوية ليُقتَل عثمان فيدعو إلى نفسه»[٢].

لما نعي عثمان إلى معاوية واطلع على تفصيل الحادث «ضاق معاوية صدراً بما أتاه وندم على خذلانه عثمان» وقال شعراً جاء فيه هذا البيت:

ندمت على ما كان من تبعي الهوى
وقصري فيه حسرة وعويل[٣]

يكتب عليّ إلى معاوية:

«قد أسهبت في ذكر عثمان، ولعمري ما قتله غيرك ولا خذله سواك، ولقد تربّصت به الدوائر، وتمنيت له الأماني»[٤].

ويكتب ابن عباس إلى معاوية:

«فاقسم بالله لأنت المتربص بقتله، والمحب لهلاكه، والحابس الناس قبلك عنه... ولقد أتاك كتابه وصريخه يستغيث بك ويستصرخ، فما حفلت به... فقتل كما كنت أردت... فإن يك قُتِل مظلوماً فأنت أظلم الظالمين»[٥].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٦٨/٤.
(٢) شرح النهج: ١٥٤/١٦.
(٣) وقعة صفين: ٧٩.
(٤) شرح نهج البلاغة:
(٥) شرح نهج البلاغة: ١٥٥/١٦.

ويكتب شبث بن ربعي لمعاوية:

«إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك: قُتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه... وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر، وأحببت له القتل، لهذه المنزلة التي أصبحتَ تطلب»(١).

ويقول معاوية لأبي الطفيل الكناني: «أكنت فيمن حضر قتل عثمان؟ قال: لا ولكني فيمن حضر فلم ينصره، قال: فما منعك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة؟ قال: منعني ما منعك إذ تربّص به ريبَ المنون وأنت بالشام، قال: أوما ترى طلبي بدمه نصرة له؟ قال: بلى ولكنك وإياه كما قال الجعدي:

لا ألفينَّك بعد الموت تندبني
وفي حياتي ما زودتني زادا(٢)

موقف عمرو بن العاص من عثمان:

«كان عمرو بن العاص على مصر عاملاً لعثمان... فعزله... فلما قدم عمرو بن العاص المدينة جعل يطعن على عثمان... يأتي علياً مرة فيؤلبه على عثمان، ويأتي الزبير مرة فيؤلبه على عثمان، ويأتي طلحة مرة فيؤلبه على عثمان، ويعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان. فلما كان حصر عثمان الأول خرج من المدينة حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين... فبينا هو جالس... إذ مرَّ بهم راكب... فناداه عمرو: ما فعل الرجل؟ يعني عثمان، قال: قتل. قال: أنا أبو عبدالله! إذا حككتُ

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٣١٩.

قرحة نكأتها، إن كنت لأحرض عليه، حتى اني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل»[١].

قاطع عمرو بن العاص عثماناً وهو يخطب في المسجد قائلاً: «اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت نهابير (أي مهالك) وركبناها معك فتب إلى الله نتب... وخرج عمرو بن العاص حتى نزل منزله بفلسطين فكان يقول: والله إن كنتُ لألقى الراعي فاحرّضه عليه»[٢].

يقول الحسن بن علي (ع) لعمرو بن العاص في حديث طويل:

«وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سعَّرتَ عليه الدنيا ناراً، ثم لحقت بفلسطين، فلما أتاك قتله قلت: أنا أبو عبدالله إذا نكأت قرحة أدميتها. ثم حبست نفسك إلى معاوية، وبعت دينك بدنياه»[٣].

«كان عمرو بن العاص ممن يحرض على عثمان ويغري به»[٤].

يروي الواقدي أن عمراً دعا ولديه محمداً وعبدالله فقال لهما: «قد كان ما قد بلغكما من قتل عثمان وبيعة الناس لعلي... أما علي فلا خير عنده... وهو غير مشركي في شيء من أمره. فقال عبدالله... أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك... وقال محمد... لا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر. قال عمرو: أما أنت يا عبدالله فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي وأسلم في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي أنبه لي في دنياي وشر لي في آخرتي. ثم... قدم على معاوية فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان،

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦٠ و٣٦٦، وقريب منه أو مثله في أنساب الأشراف: ٥/ ٧٤ والاستيعاب: ٣/ ٧٣، والبداية والنهاية: ٧/ ١٧٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٩١.

(٤) المصدر نفسه: ٢/ ١٤٣.

فقال عمرو بن العاص: أنتم على الحق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم، ومعاوية لا يلتفت إلى قول عمرو... فدخل عمرو على معاوية فقال: والله لتعجب لك! إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني! أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس من ذلك ما فيها... ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا. فصالحه معاوية وعطف عليه»[١].

وعلى الرغم من كل هذه النصوص التاريخية الواضحة الدلالة فإن شيخ الوضاعين سيف بن عمر يزعم بأنه «لما أحيط بعثمان خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام وقال: والله يا أهل المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قَتْلُ هذا الرجل إلا ضربه الله عزَّ وجل بذلٍّ، من لم يستطع نصره فليهرب. فسار وسار معه ابناه»[٢]. ثم زاد سيف في كذبته فأضاف إلى ذلك: إن عمراً لما بلغه مقتل عثمان قال: «رحم الله عثمان ورضي الله عنه وغفر له... ثم ارتحل راجلاً يبكي كما تبكي المرأة، ويقول: واعثماناه! أنعي الحياء والدين، حتى قدم دمشق»[٣].

وهذا نموذج واحد من نماذج التلفيق في روايات هذا الكذاب الكبير!

وهكذا يتجلى من هذه النصوص التاريخية التي لا تقبل الرد أن هؤلاء الخمسة «الكبار» هم قتلة عثمان، وهم الراغبون في القضاء عليه، وهم المشجعون على كل ما وقع.

وإذن. فلماذا يُطالَبُ علي ـ دون غيره ـ بدم عثمان؟ ولماذا يكون هؤلاء «الخمسة» بالذات هم قادة الخارجين على عليّ وزعماء الناكثين والقاسطين؟

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٥٦٠ ـ ٥٦١.
(٢) المصدر نفسه: ٤/٥٥٨.
(٣) المصدر نفسه أيضاً: ٤/٥٥٩.

ولقد اتضح الجواب بأجلى ما يتضح به جواب، حيث بان لكل ذي مسكة من معرفة أن الطلب بدم عثمان لم يكن هدفاً لهؤلاء القتلة، وإنما كان الغطاء لأهدافهم المبطنة، والغلاف للنيات المكتومة، والتبرير للخروج على إمام الزمان العادل وخليفة الوقت الشرعي كما أسلفنا الإشارة إليه في صدر هذا الفصل.

وهكذا بدأت الارستقراطية المغلوبة «تضع العصي في الدواليب» على حد التعبير الصحفي المعاصر، تمهيداً للانقضاض على هذا العهد الجديد قبل أن تمتد جذوره بعيداً في الأرض.

وعندما تنكشف الدوافع الحقيقية لكل هؤلاء «الخارجين» «المتمردين» «البغاة» نجد قراءة المستقبل جلية في الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه عدد من العلماء والحفاظ عن النبي (ص) أنه أمر المسلمين «بقتال ثلاثة مع علي: بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين»[١].

«وفي رواية أخرى: «إن النبي (ص) قال لأصحابه يوماً: إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله. فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله؟ فقال: لا، فقال عمر: أنا يا رسول الله؟ فقال: لا، بل خاصف النعل، وأشار إلى علي (ع)»[٢].

ويقول ابن أبي الحديد تعليقاً على ذلك:

«قد ثبت عن النبي (ص) أنه قال له (ع): ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين. فكان الناكثون أصحاب الجمل لأنهم نكثوا بيعته (ع). وكان القاسطون أهل الشام بصفين. وكان المارقون الخوارج في

(١) يراجع في هذا الحديث: الاستيعاب: ٣/ ٥٣ وتاريخ بغداد: ٨/ ٣٤١ و١٣/ ١٨٧ ومجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٨ وشرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠١ و٨/ ٢٩٧ و١٣/ ١٨٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٧٧ و٣/ ٢٠٧.

النهروان. وفي الفرق الثلاث قال الله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وقال النبي (ص): يخرج من ضئضئي هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية[١].

وهكذا وقع ما وقع وكان ما كان...

وما أظن القارىء بحاجة إلى وصف عسكري لهذه المعارك بعد أن تكفلت كل مصادر التاريخ روايتها، بالتفصيل حيناً، وبالمبالغة في بعض الأحيان. وليس المجال ـ هنا ـ متسعاً لذلك، ولكن يجب أن لا يفوتنا التنبيه على أن عدد قتلى الجمل وصفين من الطرفين قد بلغ (١١٣,٠٠٠) قتيل في أوسط التقديرات وكان من جملتهم عدد من أفاضل الصحابة خرجوا مع علي لحرب البغاة فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ونالوا درجة الشهادة في سبيل الله والعقيدة.

وسيقف القادة الخمسة الذين قادوا هاتين الحربين موقفاً طويلاً بين يدي الله، ليقدموا الحساب الدقيق والعسير على ما أراقوا من دم، وأثاروا من فتنة، وخلعوا من طاعة، وسببوا من آلام وويلات وانقسامات لم تزل بقاياها تهز الكيان الإسلامي حتى اليوم.

وذهب هذا الزبد الطافي جفاء كما وعد الله، ولم يمكث في الأرض إلا ما نفع الناس، وكان لعلي من الحق أن يخلد خلود الشمس فآتاه الله ذلك، وكان لأعدائه من العدل بهم أن يذوبوا ويتلاشوا فذابوا كما يذوب السراب الخادع وتلاشوا كما يتلاشى الضباب تحت ضربات الضحى المتدفق بالنور.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ١٨٣.

الخاتمة

وهكذا باءت كل محاولات الحقد الأسود بالفشل الذريع، لأن علياً بهالته السماوية المشرقة، وإمامته الشرعية المنصوصة، وخلافته الشعبية العادلة، وعبقريته المبدعة المذهلة، وملكاته العظيمة الأخاذة، إن علياً هذا كان في نظر الواعين من المسلمين والمميزين من المؤمنين فوق كل الاتهامات الدنيئة التي أرجف بها المرجفون، وأسمى من جميع المواقف الأنانية التي وقفها النفعيون، وأكثر التماعاً واشراقاً من ذلك الضباب الذي نفثه المصلحيون الناكثون القاسطون.

وعندما عجزت تلك الأساليب بأجمعها عن المس بعلي، وعن تحطيم كيانه الذي بدأ يقدم عطاءه العادل وغذاءه النافع للناس، لم يجد هؤلاء بداً من العمل الجاد الدؤوب للتخلص ـ بأي أسلوب كان ـ من هذا الخصم الألد الخطير الذي لا يطاول ولا يحاول ولا يقابل.

وتمَّ تنفيذ هذه المؤامرة القذرة السوداء فجر اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ، فسقط بطل الإسلام جريحاً في المحراب المقدس في بيت الله الحرام مسجد الكوفة وشفتاه تتمتمان: فزت ورب الكعبة. ثم صعدت روحه إلى السماء طاهرة نقية راضية مرضية في ليلة الحادي والعشرين من الشهر نفسه[١].

---

(١) المحبر: ١٧ والمعارف، ٢٠٩ ومروج الذهب: ٢٩١/٢ والارشاد: ١٠ وشرح نهج البلاغة: ٨٢/٤ و١١٦/٦ و١٢٢.

وسارع المؤرخون والرواة إلى تحميل الخوارج «المارقين» وزر هذه الجريمة الشنعاء، لأن منفذها عبد الرحمن بن ملجم كان من رجال هذا الحزب المشؤوم. ثم أصبح ذلك من مسلّمات التاريخ جيلاً بعد جيل.

ولكن هذه «المسلَّمة» التاريخية على اشتهارها الكبير لم تسلم من الشك ولم تنج من علامات الاستفهام.

وكان أول المشككين بهذه المسلمة رجلاً من معاصري علي وأصحابه المقرَّبين ومن عقلاء عصره وأذكيائه المعروفين هو أبو الأسود الدؤلي عالم النحو واللغة الشهير، فقد أشار هذا الرجل بأصابع الاتهام إلى بني أمية عامة ومعاوية خاصة بمقتل الإمام، وفي ذلك يقول من جملة مرثية له:

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ فلا قرَّت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا وخيّسها ومَنْ ركب السفينا[1]

ولعلَّ مما يزيد هذا الشك عمقاً وثباتاً ما يحدثنا به الحافظ ابن حجر العسقلاني من وجود علاقة حسنة بين ابن ملجم وعمرو بن العاص حاكم مصر، وذكر: أن ابن ملجم عندما ذهب إلى مصر أمر عمرو بانزاله «بالقرب منه، لأنه كان من قراء القرآن!! وكان فارس قومه المعدود فيهم بمصر!!»[2].

ثم كان الكاتب المعاصر أحمد عباس صالح آخر من عرفنا من هؤلاء المشككين، وقد أسهب في بيان ذلك وشرحه، وكان مما قاله في هذا الصدد:

---

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي ـ شرح السكري: ١١٧.
(٢) لسان الميزان: ٣/ ٤٤٠.

«الروايات تكاد تجمع على أن الخوارج هم وراء الجريمة، فقد فكروا ودبروا أن ينتدب ثلاثة منهم فيقتلوا علياً ومعاوية وعمرو بن العاص في ساعة واحدة... وليس هناك شك في أن الخوارج اختصموا علياً وحاربوه، وليس هناك شك في أنهم كانوا يكتمون له العداوة والكره. ولكن لماذا لم يقتل علي إلا حين استطاع أن يجمع كلمة أنصاره، وأن يكمل عدته لقتال معاوية وأنصاره؟».

«ثم لماذا تنجح الخطة بالنسبة لعلي ولا تنجح بالنسبة لعمرو بن العاص وبالنسبة لمعاوية»؟!

«ثم أليس الاغتيال أسلوباً من أساليب معاوية، سواء بالسيف أو السم؟».

«وكان موعد الاغتيال في صلاة الصبح».

«أما قاتل معاوية فزعموا أنه طعنه ولكنه لم يصبه لأنه كان دارعاً في رواية، وفي أخرى: أنه أصابه إصابة خفيفة في جذعه.

«وأما قاتل عمرو فلم يصبه لأنه في هذا اليوم بالذات لم ينزل للصلاة لوعكة ألمَّت به».

أما قاتل علي فقد تربص له... حتى إذا خرج يدعو الناس للصلاة ضربه بالسيف في جبهته... وسقط الإمام مضرجاً في دمائه.

«أليس الأمر يدعو للتفكير والتأمل»[1]!!

❀ ❀ ❀

(١) اليمين واليسار في الإسلام: ١٠١.

وليس لنا ما نقوله تعليقاً على ذلك كله إلاّ الاستشهاد بقول ربِّ العزة عزَّ وجل:

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

صدق الله العلي العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإمام الحسن بن علي عليه السلام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ستُعنى هذه الرسالة باستعراض سيرة الإمام الثاني من أئمة الهدى، حبيب المصطفى، وسيد شباب أهل الجنة، الحسن بن علي بن أبي طالب (ع).

ولقد حملتْ هذه السيرة ـ وأيم الحق ـ من الوضاءة والقدسية والأريج ما تجلت فيها وضاءة الإسلام وقدسية القرآن وعطر النبوة بأسمى ما عرف الإنسان من نقاء وقدسية وأريج.

وحيث أنه لم يكن بمقدور هذه الصفحات المحدودة أن تحمل إلى القارىء هذه السيرة بأكملها، فقد اكتفيت باستعراض الحلقات الرئيسة والنقاط الأساسية منها، منذ ولادة الإمام في بيت النبوة ونشأته في أحضان جده الأعظم (ص)، مروراً بما عاصره هذا الفتى من أحداث ووقائع في أيام خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وما مارس من مهام وواجبات في أيام خلافة أبيه، وانتهاءً بما وقع بعد بيعة المسلمين له بالخلافة أثر استشهاد علي (ع)، من تمرد معاوية وحزبه عليه، ومن وقوع الحرب بينهما، ومن زوابع الفتن والمشاكل التي فرضت الصلح فرضاً بعدما انسدت كل الأبواب عدا هذا الباب، ومن معاهدة الصلح وشروطها وما فعل كل منهما في الوفاء بما ورد في تلك المعاهدة من شروط وعهود.

❀ ❀ ❀

ولا مناص لي ـ وأنا بعدُ في مقدمة الكتاب ـ من الاعتراف بكل موضوعية وصدق بأني لم آتِ بجديد في بحث صلح الإمام مع معاوية، فقد سبقني إلى ذلك ـ بكل تفصيل وشرح وتحليل ـ سماحة عمي الإمام المغفور له الشيخ راضي آل ياسين قدَّس الله سره في كتابه القيم الجليل «صلح الحسن» الذي بحث فيه هذا الجانب من تاريخ الإمام فأوعى ولم يدع فيه زيادة لمستزيد، بل لست مغالياً أو مبالغاً لو ادعيت أن كل باحث في هذا الموضوع مغترف منه ومتأثر به وعيال عليه.

❀ ❀ ❀

والله المسؤول ـ أولاً وأخيراً ـ أن يسدِّد الخطى على الطريق، ويمدّ بمزيد من التوفيق، إنه خير مسدد وموفق ومعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

العراق ـ بغداد ـ الكاظمية

محمد حسن آل ياسين

الإمام الحسن بن علي (ع)

منذ ولادته حتى استشهاد أبيه (ع)

ويطل الإمام الحسن على الدنيا الإسلامية رجلاً عظيم الهيبة، جليل الشأن، أثيل المجد، كريم اليد، عف اللسان، قوي الجنان، صلب العود، عذب المنطق، حلو الشمائل، تشير إليه الأيدي باكبار، وتنطق باسمه الأفواه بإجلال، وتتطلع إليه العيون بتقديس، وتنعقد حوله الحلقات بتقدير. فهو ملء الأسماع والأبصار، ومهوى القلوب والأفئدة.

كان اليوم الخامس عشر من شهر رمضان في سنة ثلاث للهجرة(١) يوماً مشهوداً في تاريخ العش السعيد الذي جمع النورين: نور علي ونور فاطمة.

لقد كانت الفرحة فيه غامرة، والوجوه مستبشرة، والقلوب مفعمة بالحبور الذي لا يحد والبهجة التي لا توصف.

وكيف لا. وهذه فاطمة الزهراء حبيبة محمد ووحيدته(٢)، وسيدة نساء العالمين، وزوجة سيد الوصيين وأمير المؤمنين، تنتظر الحدث السعيد.

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٤٩ وتاريخ بغداد: ١/ ١٤٠، وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٩.

(٢) يراجع [المجلد الأول من هذه الموسوعة] «النبوة»: [ص: ١٤٦ ـ ١٤٨] ـ فقد رجحنا فيه أن النبي (ص) لم يكن له من البنات غير فاطمة، وأن زينباً ورقية وأم كلثوم لم يكنَّ من صلبه بل هنَّ بنات خديجة من زوجيها السابقين.

وما هي إلا ساعات، وإذا بالبشرى تصل إلى النبي (ص) باطلالة سبطه الأول المبارك.

وسارع رسول الله (ص) إلى دار فاطمة، فَدُفِع إليه هذا المولود الحبيب، فأخذه بيديه، وأذَّن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، ثم قال لعلي: «أي شيء سميتَ ابني؟ قال: ما كنتُ لأسبقك بذلك، فقال: ولا أناسابق ربي به. فهبط جبريل فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: علي منك بمنزلة هارون من موسى ولكن لا نبيَّ بعدك فسمِّ ابنك هذا باسم ولد هارون، فقال: وما كان اسم ابن هارون يا جبريل؟ قال: شُبّر، فقال (ص): إن لساني عربي، فقال: سَمِّه الحسن»[1]، فسماه حسناً، وكنّاه أبا محمد.

وفي اليوم السابع من ولادة الحسن الزكي أمر النبي (ص) أن يُعَقَّ عنه بكبشين، وأن يُحْلق رأسه ويتصدّق بزنة الشعر فضة، ثم طلى رأسه بيده المباركة بالطيب والخلوف. وختنه لسبعة أيام أيضاً[2].

وبدأت أيام العمر الميمون تمر بهذا الوليد السعيد وهو يتقلب في أحضان جده الأعظم (ص) ويقضي ساعات ليله ونهاره بين آية كريمة وحديث شريف ومَلَكٍ مقرب ونبي مرسل، ويعيش خلال ذلك في بيت محمد ـ وهو مختلف الملائكة ومعدن العلم ومهبط الوحي ـ عيش الرغد والرفاء والهناء.

ولا نريد أنْ ندخل في خضم البحث التاريخي الذي نروي فيه

---

(١) ذخائر العقبى: ١١٨ ـ ١٢٠ وتاريخ الخميس: ١/ ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٢) الاستيعاب: ١/ ٣٦٨ وذخائر العقبى: ١١٨ ـ ١٢٠ وشرح نهج البلاغة ١٦/ ٩ ـ ١٠.

يوميات حياة هذا الطفل الأثير تحت ظلال جده الوارفة ورعايته الكريمة، ولكننا نروي بضع نصوص ووقائع لتكون انموذجاً لتلك اليوميات:

١ ـ شوهد النبي (ص) ذات يوم والحسن على عاتقه وهو يقول: «اللهم إني أُحبُّه فأَحِبّه»[١].

٢ ـ كان النبي (ص) يضم الحسن إلى صدره ويقول: «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»[٢].

٣ ـ أتى الحسن يوماً يركض حتى قعد في حجر رسول الله (ص) فجعل يعبث بيديه بلحية جده «ورسول الله (ص) يفتح فمه ثم يدخل يده في فمه ويقول: اللهم إني أحبه فأحبه وأحب مَنْ يحبه. يقولها ثلاث مرات»[٣].

٤ ـ «وكان رسول الله (ص) يخطب، إذ جاء الحسن والحسين ـ (ع) ـ عليهما قميصان أحمران، يمشيان يعثران، فنزل رسول الله (ص) من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه»[٤].

٥ ـ «كان رسول الله (ص) جالساً فأقبل الحسن والحسين، فلما رآهما (ص) قام لهما واستبطأ بلوغهما إليه، فاستقبلهما وحملهما على كتفيه وقال: نعم المطيُّ مطيكما ونعم الراكبان أنتما»[٥].

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٣٣ وصحيح مسلم: ٧/ ١٣٠.
(٢) سنن ابن ماجة: ١/ ٥١، ومثله في صحيح مسلم: ٧/ ١٢٩ و١٣٠ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٦١.
(٣) حلية الأولياء: ٢/ ٣٥.
(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٦٥٨.
(٥) ذخائر العقبى: ١٣٠.

٦ ـ كان النبي (ص) يوماً على المنبر «والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[١].

٧ ـ كان النبي (ص) يصلي، فجاء الحسن وهو صبي صغير فرأى جدّه ساجداً، فربما «يصير على ظهره أو رقبته فيرفعه رفعاً رفيقاً، فلما صلى صلاته قالوا: يا رسول الله إنك لتصنع بهذا الصبي شيئاً لا تصنعه بأحد، فقال: إن هذا ريحانتي وإن ابني هذا سيد، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[٢].

٨ ـ تقول السيدة عائشة: «خرج النبي (ص) غداة وعليه مرط مرجّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٣].

وفي نص آخر: إن هذه الآية قد نزلت على النبي (ص) في بيت أم سلمة، فدعا النبي علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[٤].

٩ ـ لما نزل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ خرج رسول الله (ص) «وعليه مرط من شعر أسود، وكان احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن، وفاطمة

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٣٢ و٩/ ٧١.
(٢) حلية الأولياء: ٢/ ٣٥.
(٣) صحيح مسلم: ٧/ ١٣٠.
(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٦٦٣.

تمشي خلفه، وعليّ خلفها، وهو يقول: إذا دعوتُ فأمّنوا، فقال اسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا... الخ[١].

١٠ ـ مرض الحسن والحسين (ع) ذات يوم «فعادهما رسول الله (ص) في أناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرتَ على ولدك، فنذر عليٌّ وفاطمة وفضة جارية لهما إنْ شفاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام، فَشُفِيا، وما معهم شيء. فاستقرض عليّ... ثلاثة أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم ووضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فأثروه، وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء. وأصبحوا صائمين، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم، فآثروه. وجاءهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك».

«فلما أصبحوا أخذ علي (ع) بيد الحسن والحسين ودخلوا على الرسول (ص)، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، قال: ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها، فساءه ذلك، فنزل جبريل (عليه الصلاة والسلام) وقال: خذها يا محمد هنّاك الله في أهل بيتك»[٢] فقرأ عليه من سورة الدهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا * يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ

(١) تفسير الرازي: ٨/ ٨٠، ويراجع مسند الإمام أحمد: ١/ ١٨٥.
(٢) تفسير الرازي: ٣٠/ ٢٤٤.

وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

❀ ❀ ❀

وهكذا تتوالى على الحسن السبط المجتبى هذه الأوسمة السماوية المقدسة بتدفق مستمر وتسلسل لا يعرف الانقطاع والتوقف، حتى لتكاد تكون يوميات طفولته الصاعدة وصباه الطالع. وأنها لتتنزل ـ تارة ـ على شكل قرآن مجيد خالد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتتلألأ ـ مرة ـ على لسان رسول صادق أمين ما ينطق عن الهوى وما يلفظ عن الحب الأعمى.

وواضح أن الهدف من كل ذلك لم يكن مجرد إعلانٍ يثير الانتباه أو إضاءة تخلب الأبصار، وإنما كان ذلك إعلاماً للمسلمين أجمعين بقدسية أهل البيت (ع)، وكرامتهم على الله، وكونهم حملة أعباء الرسالة وسفن النجاة وحفاظ الشرع وأئمة الدين وخلفاء الله في بلاده وحججه على عباده، مما لا مجال لاستيعابه وشرحه بالتفصيل في هذه الدراسة المختصرة.

وتأكيداً لهذه الفكرة وتعميقاً لها في نفوس المسلمين أُثِرَتْ عن النبي (ص) خلال السنوات الأخيرة من عمره الشريف نصوص أخرى في تكريم سبطه الزكي الحبيب وإبراز شأنه الكبير في المسيرة الإسلامية، ودوره المهم المنتظر في صيانة وحدة هذه الأمة وتدعيم عقيدتها وتأمين بقائها والحفاظ على دينها.

كقوله (ص): «من أحب الحسن والحسين فقد أحبَّني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»(١).

---

(١) سنن ابن ماجة: ١/ ٥١.

وقوله (ص) لعلي وفاطمة والحسن والحسين: «أنا سلم لمن سالمتم وحرب لمن حاربتم»[١].

وقوله (ص): «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[٢].

وقوله (ص): «إن الحسن والحسين هما ريحانتاي من الدنيا»[٣].

وقوله (ص) على المنبر: «إن ابني هذا سيد يصلح الله على يديه بين فئتين عظيمتين»[٤] أو «بين فئتين من أمتي»[٥].

وكان آخر هذه النصوص ما روته الزهراء (ع) من «إنها أتت بالحسن والحسين أباها رسول الله (ص) في شكواه التي مات فيها فقالت: تورثهما يا رسول الله، فقال: أما الحسن فله هيبتي وسؤددي، وأما الحسين فله جرأتي وجودي»[٦].

❀ ❀ ❀

وفوجىء المسلمون ـ في ذلك الصباح الأسود الحزين ـ بوفاة رسول السماء وقائد المسيرة ونبي الدين ورئيس الدولة، فكان لذلك المصاب من هول الوقع وقسوة الأثر ما لا يستطيع القلم شرحه وبيانه في كلمات.

وكانت مصيبة أهل البيت ـ (ع) ـ بهذه الفاجعة أشد وطأً وأفظع ألماً وأعظم تأثيراً، لعلمهم بما ستؤول إليه أمور الدين وشؤون المسلمين

(١) سنن ابن ماجة: ١/ ٥٢.
(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٦٥٦ و٦٦١.
(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٦٥٧.
(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٦٥٨ وسنن أبي داود: ٢/ ٥١٩ ـ ٥٢٠.
(٥) سنن أبي داود: ٢/ ٥١٩.
(٦) ذخائر العقبى: ١٢٩.

من بلبلة كبيرة، وفوضى خطيرة، واختلاف حاد قد يعرّض هذا البناء العظيم للتصدع والاهتزاز.

وكانت صدمة سبطي رسول الله (ص) بهذا الحادث الجلل أشد وقعاً وحزناً وجزعاً وهلعاً، فقد كانت صلتهما بجدهما صلة فريدة لم نجد لها مثيلاً بين صلات الأجداد بالأسباط والأحفاد، ولا عجب ـ إذن ـ إذا كانا ينفجران بالبكاء والنحيب كلما تذكرا تلك العواطف المدهشة التي كان يغمرهما جدهما بها في كل صباح ومساء، خصوصاً وأن عمرهما يومذاك كان في أوله ومقتبله، حيث لم يتجاوز الحسن السابعة إلا شهوراً، ولهذا لم يكن لديهما من السيطرة على الأحزان والشجون ما يكون لدى الكبار من الناس الصابرين المحتسبين

ولعل من أبرز ما شاهده الإمام الحسن في تلك الأيام ـ وهو ذلك الفتى اليافع الغض الاهاب: ما فعلته العنعنات والعصبيات القبلية من حجب الخلافة عن صاحبها الشرعي المنصوص عليه، وهو أبوه، ومن الامتناع عن تطبيق نص جده على الخليفة من بعده، وهو ذلك النص الصحيح الصريح. فأصبحت الخلافة ـ منذ اليوم ـ مفتاح المشاكل وباب المنازعات وصندوق البارود الجاهز للانفجار في كل حين.

ولا أريد الدخول في سرد تفاصيل ما وقع في تلك الأيام العصيبة السوداء التي تلت وفاة رسول الله (ص)، فإن ذلك مما لا يتسع له المجال المحدود الذي التزمنا به في هذه السلسلة، كما أنه قد يثير من الاحن والحزازات ما نحن في غنى عنه بل أحوج ما نكون إلى تجاوزه ونسيانه في يومنا الحاضر.

ولكن ذلك لن يكون مانعاً من الإشارة إلى بضعة وقائع عاشها الحسن وعاصرها وهو في تلك السن الغضة والفتوة اليانعة، ولا بد أنها

قد تركت من بصمات الألم والحزن في نفسه ما لا يزول أثره على مرِّ الأيام ولا يندمل جرحه على كر السنين.

ولقد كان من أول ما شاهد بعد حجب الخلافة عن صاحبها أن كل بني هاشم وكثيراً من المهاجرين وكل الأنصار أو جلهم لم يبايعوا الخليفة الجديد، وأن الحكومة الجديدة لم تجد بداً من استعمال وسائل الإرهاب والبطش والإكراه لحمل الناس على البيعة مما مرَّ تفصيله في كتابنا السابق (الإمام علي بن أبي طالب ـ (ع) ـ فلا نكرر ولا نعيد.

ولكن الشيء الذي لا مناص من ذكره هنا لارتباطه بتسلسل البحث ما شاهد الحسن من تعرُّض البيت الذي يسكنه علي وفاطمة ـ وهو بيت النبوة والإمامة ـ إلى ذلك الإرهاب المشار إليه، ومن اتيان بعض الناس بقبس نارٍ بقصد إحراق الدار وإجبار من كان فيها ـ وفي طليعتهم علي والزبير ـ على البيعة والطاعة[1].

ثم شاهد بعد ذلك كيف وضعت السلطة يدها على أرضٍ كان رسول الله (ص) قد وهبها لابنته الزهراء، وتُعْرَفُ بـ «فدك»[2]، وكيف أن الزهراء قد ذهبت إلى الخليفة تطالبه بملكها وتشجب تلك المصادرة التي لم يكن لها أي مبرر مقبول أو سبب مشروع، وكيف استدلت ـ سلام الله عليها ـ في رد ادعاءات السلطة بعدد من الآيات الكريمة التي تثبت وراثة الأولاد للآباء على وجه العموم ووراثة أولاد النبيين لآبائهم على وجه

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٢٠٢ و٢٠٥ و٢٠٨ وتاريخ اليعقوبي: ٢/١٠٥ وشرح نهج البلاغة: ١/١٧٤ و٢/٢٣ و٤٦ ـ ٤٧ و٥٦ و٦/١١ و٤٦ ـ ٤٧ و٥١ وتاريخ أبي الفدا: ١/١٥٦.

(٢) يراجع في موضوع فدك شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٠٩ ـ ٢٨٦ فقد أورد ابن أبي الحديد المعتزلي هناك بحثاً مفصلاً جمع فيه سائر الأقوال والآراء وما تساجل به المؤيدون والمعارضون حول هذا الموضوع.

الخصوص، وكيف أن ذلك كله لم يُجدِ نفعاً ولم يلق سمعا، بل أصرّ الخليفة على موقفه كل الإصرار، «فهجرته فاطمة»[١]، «وماتت وهي غضبى»[٢]، ورسول الله (ص) يقول: «مَنْ أغضبها أغضبني»[٣] و«يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»[٤].

ويروي ابن قتيبة أن الخليفة أبا بكر وعمر استأذنا للدخول على الزهراء للاعتذار منها عما وقع «فلم تأذن لهما. فأتيا علياً فكلّماه، فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها حوّلت وجهها إلى الحائط، فسلّما عليها فلم تردّ السلام. فتكلم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحبُّ إليَّ من قرابتي، وانك لأحب إليَّ من عائشة ابنتي... فقالت: أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله (ص) تعرفانه وتفعلان به؟ قالا: نعم، فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: «رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني»، قالا: نعم سمعناه من رسول الله (ص)، قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونّكما إليه. فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة.. ثم خرج باكياً[٥].

ويقول ابن أبي الحديد المعتزلي تعليقاً على ذلك:

---

(١) يراجع في ذلك: صحيح البخاري: ٥/ ١٧٧ ومسند أحمد: ١/ ٦ و٩ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٤٦ والبداية والنهاية: ٥/ ٢٨٥ و٦/ ٣٣٣ ووفاء الوفا: ٢/ ٩٩٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٤٩.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٣٦.

(٤) صحيح مسلم: ٧/ ١٤١ وسنن ابن ماجة: ١/ ٦٤٤ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٩٨ وسنن أبي داود: ١/ ٤٧٨ ومسند أحمد: ٤/ ٣٢٨ وحلية الأولياء: ٢/ ٤٠.

(٥) الإمامة والسياسة: ١/ ١٣ ـ ١٤.

«والصحيح عندي أنها ماتت وهي واجدة على أبي بكر وعمر»[١].

وخلاصة القول:

فقد كان لهذه المشاهدات المرّة الأليمة التي تزاحمت متدافعة على هذا الصبي آثارها العميقة وانعكاساتها البالغة على نفسه الغضة، ولقد تشابكت عليه ذات يوم وهو يرى الخليفة جالساً على منبر جده (ص) فأخذت بأقطار صبره وأطراف حلمه واتزانه، فلم يستطع تحملاً ولم يطق صبراً فقام إليه قائلاً: «انزل عن منبر أبي، فقال أبو بكر: صدقتَ، والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبي»[٢].

ثم كان مما زاد في آلام هذا الفتى ألماً وفي أشجانه شجناً أن يُفْجَع بأمه الزهراء البتول وهو في هذا العمر المبكر، فيحرم حنانها وبرها وحدبها وهو في أشد الحاجة إليه، وربما كان مما يضاعف الحزن في نفسه احساسه بعنف تلك الفجائع والمصائب التي لاقتها أمه في هذه الفترة القصيرة ـ وإنها وأيم الحق لأكثر من الطاقة وأعظم من قدرة الإنسان في التحمل ـ ولكن سيدة نساء العالمين قد قابلت كل ذلك بصبر دونه الجبال الراسيات، وبجلد دونه الأطواد الشامخات، حتى قضت نحبها ولحقت بربها وأبيها، وفارقت هذه الأرض وهي مهضومة الحق، كسيرة النفس، منهدّة الركن، عاجّة بالغضب والأذى من أولئك الذين بايعوا محمداً (ص) على السمع والطاعة، ثم لم يكن من مردود لذلك السمع والطاعة إلاّ القهر والإرهاب لآل محمد بعد وفاته وإلاّ ذلك العنف والتهديد بالبطش والنار لودائع الرسالة وبقية النبوة.

وهكذا تنتهي هذه الفترة المريرة والمرحلة القاسية، والحسن يتنقل

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٥٠.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٤٢ ـ ٤٣.

فيها من ألم إلى ألم ومن فجيعة إلى فجيعة ومن محنة إلى محنة، ولكنه ـ وعلى الرغم من ذلك كله ـ لم يكن إلاّ من أولئك الصابرين الذين إذاأصابتهم مصيبة قالوا: إنالله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

❀ ❀ ❀

ودارت الأيام دورتها الرتيبة المنتظمة كما اعتادها الناس.

وما هي إلا سنوات، وإذا بالحسن قد تخطى مرحلة الطفولة والصبا صعداً نحو الشباب المتدفق الريان، وإذا برجولته الفذة قد تفتحت فيه كأروع ما تتفتح رجولة الرجال نضجاً وسمواً وفتنة، وإذا به ذلك النموذج المتفرد بين الناس بما يحمل من سمات الجمال في الخَلق والكمال في الخُلق، ملء الأسماع والأبصار والأفئدة.

ولا عجب في ذلك ولا غرو، فقد كان هذا كله مقتبساً من رسول الله (ص) بحكم ذلك الإرث النسبي الكريم، ومعزواً إليه ببركة ذلك الشبه المدهش الفريد.

وقد روى البخاري والترمذي بسنديهما: إنه «لم يكن أحد أشبه بالنبي (ص) من الحسن بن علي»(١).

كما روى ابن حبيب أن فاطمة الزهراء (ع) كانت إذا رقصت الحسن قالت:

وابأبي شبه أبي غير شبيه بعلي(٢)

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٣٣ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٥٩.
(٢) المحبر: ٤٦.

كذلك روى ابن أبي الحديد المعتزلي: إن الحسن كان أشبه الناس برسول الله (ص) خَلقاً وخُلقاً[١]. وإنه كان «أصبح الناس وجهاً، كان يُشَبّه برسول الله (ص)»[٢]، وأنه «أوسع الناس صدراً، وأسجحهم خلقاً»[٣]، وإن واحداً لم يحك عنه «لفظاً فاحشاً ولا كلمة ساقطة»[٤].

وزاد بعض الرواة في وصف ملامحه قائلاً:

«كان أبيض مشرّباً بحمرة، أدعج العينين ، سهل الخدين، كث اللحية، ذا وفرة، كأن عنقه ابريق فضة، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، من أحسن الناس وجهاً.. جعد الشعر، حسن البدن»[٥].

وكان لا مناص لهذا الرجل الغض الشباب والرائع الجمال والمتدفق بالحيوية والنشاط، من التقدم نحو عتبة الزوجية الصالحة، لأنها شريعة الله وسنة الحياة.

وهكذا كان.

وعندما نصل في تاريخ الإمام الحسن إلى هذه الفقرة من البحث تطل علينا أم العظائم مكشرة بأنيابها القذرة ووجهها الموحش، وهي تقدم لنا صورة ناطقة لذلك التضليل الإعلامي المعادي لتاريخ الإمام، وتفضح بشكل ملموس دسائس الوضاعين والكذابين ومن تابعهم بخبث أو بلاهة، فتبرزها ماثلة للعيان.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٢٨٠ وورد ذلك أيضاً في تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠١.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٧٧.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢١.
(٤) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٢٧١.
(٥) ذخائر العقبى: ١٢٧ ـ ١٢٨.

لقد لفق هؤلاء ما شاؤوا وشاعت لهم أحقادهم في هذه المسألة، وشارك في ذلك الأمويون ـ باعتبارهم الأعداء التقليديين ـ والعباسيون ـ باعتبار أن معظم قادة الثورات ضدهم كان حسنياً ـ وتنافسوا جميعاً فيما بينهم في الارتفاع بأرقام زوجات الإمام كما أوحت مخيلاتهم الشريرة.

وقد شارك المستشرقون ـ بحكم حقد أكثرهم على الإسلام وقادة مسيرته ـ في هذه الحملة الشرسة الظالمة، حتى بلغ الحد بلا منس ـ كنموذج منهم ـ إلى القول بكل صلف بأن الإمام قد «أنفق خير سني شبابه في الزواج والطلاق، فأحصي له حوالى المائة زيجة عداً، وألصقت به هذه الأخلاق السائبة! لقب المطلاق»[1].

ويقول دوايت دونلدسن عن زوجات الإمام:

«روي أن عددهن كان بين الثلاثمائة والتسعمائة»[2].

وبين هذين المستشرقين ومثلهما عدد غير قليل من المسلمين وياللأسف.

وهكذا ضاعت الحقيقة وسط ضباب الأكاذيب والأباطيل. ولغرض الوصول إلى النتيجة المتيقنة والوقوف على الحقيقة الثابتة، نستقرئ ـ في أدناه ـ كل المصادر المعنية بتاريخ الامام، نسألها جلية الأمر، ونروي عنها أسماء هاتيك الزوجات وأنسابهن، لنجد مدى الصدق أو الكذب في تلك الأرقام السالفة الذكر:

١ ـ أم بشر (أو بشير) بنت أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري:

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية: ٧/ ٤٠٠ ـ ٤٠٢.

(٢) عقيدة الشيعة: ٩٠.

كانت قد تزوجت قبل ذلك سعيد بن عبد الرحمن، ثم تزوجت عبد الرحمن بن عبدالله، ثم كان الحسن ثالث الأزواج.

وهي أم زيد بن الحسن وأختيه أم الحسن وأم الحسين[١].

٢ ـ امرأة من ثقيف: وهي أم ولده عمرو[٢].

٣ ـ أم كلثوم بنت الفضل بن العباس بن عبد المطلب[٣].

٤ ـ امرأة من بنات عمرو بن اهتم المنقري[٤].

٥ ـ حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر[٥].

٦ ـ خولة بنت منظور بن زبان الفزارية.

وكانت زوجة محمد بن طلحة وولدت له، ولما قتل عنها محمد يوم الجمل تزوجها الحسن وبقيت عنده حتى أسنّت، وقد مات عنها.

وهي أم الحسن بن الحسن[٦].

٧ ـ جعدة بنت الأشعث بن قيس:

وهي التي سقته السم[٧].

---

(١) المحبر: ٤٤٦ ـ ٤٤٧ والمعارف: ٢١٢ وتاريخ اليعقوبي: ٢/٢٠٣ والإرشاد: ١٩٩ شرح نهج البلاغة: ٢١/١٦.

(٢) المعارف: ٢١٢ وشرح نهج البلاغة: ٢١/١٦.

(٣) المحبر: ٤٣٩.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٢١/١٦.

(٥) ثلاث رسائل للجاحظ: ٥٩ وشرح نهج البلاغة: ١٣/١٦ و٢١.

(٦) المعارف: ٢١٢ وتاريخ اليعقوبي: ٢/٢٠٣ والإرشاد: ١٩٩ وشرح نهج البلاغة: ٢١/١٦ والدر المنثور: ١٨٧.

(٧) مقاتل الطالبيين: ٥٠ وشرح نهج البلاغة: ٢١/١٦.

«ويقال أن اسمها سكينة، ويقال عائشة، ويقال شعثا. والصحيح أن اسمها جعدة»[١].

٨ ـ بنت السليل بن عبدالله أخي جرير بن عبدالله البجلي:

وربما كانت هي أم عبدالله بن الحسن[٢].

٩ ـ أسماء بنت عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي:

وكانت تحت عبيدالله بن عمر، ثم خلف عليها الحسن بن علي[٣].

١٠ ـ امرأة من بني شيبان من آل همام بن مرة[٤].

١١ ـ امرأة من كلب[٥].

١٢ ـ عائشة الخثعمية[٦].

١٣ ـ هند بنت سهيل بن عمرو: كانت قد تزوجت عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، ثم تزوجت عبدالله بن عامر بن كريز، وعندما طلقها عبدالله كتب معاوية يخطبها لولده يزيد، فخطبها الحسن في الوقت نفسه، ففضلته على يزيد وتزوجته[٧].

وربما يستشف من رواية المدائني[٨] أن طلاق هند من زوجها

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٩.
(٢) مقاتل الطالبيين: ٨٩.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/٣٧ وشرح نهج البلاغة: ٥/٢٣٥، وعبّر عنها في شرح النهج: ١٦/٢١ «امرأة من بنات علقمة بن زرارة»، وفي الجملة سقط وتصحيف..
(٤) شرح نهج البلاغة: ١٦/٢١.
(٥) شرح نهج البلاغة: ١٦/٢١.
(٦) تهذيب تاريخ ابن عساكر: ٤/٢١٦.
(٧) المحبر ٤٥٠ وشرح نهج البلاغة: ١٦/١٣ و٢١.
(٨) شرج نهج البلاغة: ١٦/١٢.

عبدالله بن عامر لم يكن طلاقاً جارياً على ما اعتاده الناس في مثل هذه الحالات، وقد يكون له سرّ خفي كسرٌ طلاق أُرينب بنت إسحاق من زوجها عبدالله بن سلام[١]. ولعل مبادرة معاوية لخطبة هند ليزيد تضع أيدينا على مفتاح ذلك السر الدفين الذي كان وراء هذا الطلاق، وظني أن الإمام الحسن كان على علم تام بتلك المؤامرة الدنيئة التي أرادوا بها التفريق بين المرء وزوجه تحقيقاً لشهوات يزيد ومآربه القذرة، ولذلك بادر ـ سلام الله عليه ـ إلى خطبتها ليرد كيد هؤلاء إلى نحورهم وليعيد سيدهم من هذه اللعبة الشيطانية صفر اليدين.

١٤ ـ أما «أم إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله التيمي» فلسنا واثقين من أمر زوجيتها للحسن أبداً.

فقد روى بعض المؤرخين إنها كانت زوجة له، وإنها ولدت طلحة بن الحسن والحسين الأثرم بن الحسن وفاطمة بنت الحسن[٢].

وروى بعض آخر: إنها زوجة الحسين بن علي (ع)، وانها ولدت له فاطمة التي تزوجها الحسن بن الحسن فأنجبت منه عبدالله المحض[٣].

وبهذا العدد (١٤) نأتي إلى ختام مجموع ما عثرنا عليه في المراجع التاريخية في موضوع زوجات الإمام الحسن (ع)، ومع ذلك فليس هذا العدد مما نقطع به أو نتيقنه، بل إن فيه من المبالغة والتزيُّد ما لا يخفى على المحقق المدقق.

---

(١) يراجع في قصة ارينب وأسلوب حمل زوجها على طلاقها ليتزوجها يزيد لأنه أحبها وكيف أنقذ الإمام الحسن الموقف بزواجه منها ثم طلاقه إياها لتحل لزوجها وتعود إليه: كتاب الإمامة والسياسة: ١/١٧٨ ـ ١٨٤.

(٢) المحبر: ٦٦ و٤٤٢ والمعارف: ٢١٢ والإرشاد: ١٩٩ و٣٠٣ وشرح نهج البلاغة: ١٦/٢١.

(٣) الإرشاد: ٢٦٩ والدر المنثور: ٢٨٣ و٣٦١.

فقد رأينا الشك في كون «أم إسحاق التيمية» زوجة للحسن أو الحسين.

وقد رأينا ذكر (امرأة من كلب)، ولم يسمها أحد، وبنو كلب ـ كما ذكر النسابون ـ بطن من بجيلة، وبهذا الاسم أيضاً بطن من خثعم[1]، وفي القائمة ـ كما مر ـ بنت السليل البجلية وعائشة الخثعمية، ولا بد أن أحدهما هي المعنية بـ (امرأة من كلب).

ولما كان أولاد بجيلة وخثعم أخوة ـ كما روى علماء النسب[2] ـ فربما تكون بنت السليل البجلية هي عائشة الخثعمية بالذات.

وهكذا ينزل الرقم من (١٤) إلى (١٢) أو (١١).

كما أننا لا نثق الثقة التامة بما ذكره الرواة على الاجمال كـ (امرأة من بني شيبان) و(امرأة من بنات عمرو بن اهتم) وما شاكل هذه العبارات المجملة المبهمة.

وإذن، فالمتيقن من كل ذلك لا يتجاوز العشرة أبداً!.

وهل في هذا الرقم (١٠) ما يستدعي تلك العبارات النابية والتعليقات القاسية من المؤرخين؟.

وهل في الزواج من (١٠) من النساء في ذلك التاريخ ما يبعث على الاستغراب والعجب؟.

فلقد كان لعمر بن الخطاب من الزوجات في مجموع سني حياته عشرة[3].

---

(١) نهاية الأرب للقلقشندي: ٣٧٣.

(٢) نهاية الأرب: ١٦٢.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/١٩٨ ـ ١٩٩.

وكان لعلي بن أبي طالب تسعة[١].

وكان لعثمان بن عفان ثمانية[٢]

وهل يبقى بعد ذلك ما يبرر استعمال تلك الألفاظ البذيئة والجمل القذرة، لولا بذاءة قائليها وقذارة نفوسهم؟!.

ولو عدنا إلى القائمة السالفة الذكر لندققها بمنظار آخر يقوم على التمييز بين البكر والثيب والصغيرة والكبيرة من هؤلاء النساء وعلى دراسة ظرف كل سيدة منهن عندما تزوج بها الإمام لوجدنا أن دوافع الزواج هذا لم يكن شهوة بحتة وجنساً محضاً وإنْ أباحه الله وحلله لعباده.

فخولة بنت منظور الفزارية كان قد قتل عنها زوجها يوم الجمل بين يدي علي (ع)، وبإمكاننا القول إن هذا الزواج تعويض لها عن ترملها وفجيعتها بفقد زوجها في سبيل أبي الحسن. وللحسن في ذلك أسوة بجده رسول الله (ص) في زواجه من حفصة بنت عمر وزينب بنت خزيمة اللتين قتل زوجاهما في بدر، فضمهما إلى أمهات المؤمنين تعويضاً عما أصيبا به من ترمل بسببه.

وهند بنت سهيل بن عمرو كانت قد طلقت من زوجها بخديعة من معاوية - كما مر - لأن يزيد رآها وأحبها، وكان زواج الإمام انقاذاً لها من هذه الشبكة الخبيثة والمؤامرة المحكمة، ولهذا قال الحسن لزوجها فيما قال له: «ألا أنزل لك عنها..»[٣]،

وأم بشر الانصارية تزوجت مرتين قبل زواج الحسن بها، وربما كان لزواجه هذا سبب إنساني لم نقف عليه.

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/١٥٣ - ١٥٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٤٢٠ - ٤٢١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٦/١٣.

وهكذا يظهر أن زواج الإمام بهذا العدد من النساء لم يكن استجابة لدوافع الجنس ومطالب الشهوة، وإنما تضافرت عليه عوامل إنسانية متعددة، فشكلت بمجموعها هذا العدد الذي استعرضناه فيما مر.

وعندما تتجلى حقيقة المسألة بمثل هذا الثبات والوضوح ألا يحق لناأن نصرخ مستفهمين عن مصدر تلك الأرقام الخيالية الهائلة، وأن نتساءل ـ بملء الفم ـ عن تلك الموضوعية المدعاة التي كان يغلف بها المستشرقون دسائسهم اللئيمة ليخرجوها على الملأ وقد افترضوا لها اسم البحث العلمي المحايد! وهل كان من عطاء المنهجية المزعومة أن يرسلوا أعداد (المائة) و(ما بين الثلاثمائة والتسعمائة) إرسال المسلمات؟

أما مطلقات الإمام التي ارتفع بعددهن الحاقدون صعداً وزعموا لهن من الكثرة والوفرة ما استحق به الحسن لقب «المطلاق»[1] فلم يثبت لدينا منهن، بل لم نعرف منهن، إلا السيدات التالية أسماؤهن:

١ ـ امرأة من بني شيبان من آل همام بن مرة:

وكان السبب في طلاقها ميلها إلى رأي الخوارج[2]

٢ ـ حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر:

وكان السبب في طلاقها أن المنذر بن الزبير كان يهواها «فأبلغ الحسن عنها شيئاً فطلقها»[3].

٣ ـ أم كلثوم بنت الفضل بن العباس بن عبد المطلب[4].

---

(١) تاريخ أبي الفدا: ١/ ١٨٣.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢١.
(٣) ثلاث رسائل للجاحظ: ٥٩ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٣.
(٤) المحبر: ٤٣٩.

٤ ـ عائشة الخثعمية:

وكان السبب في طلاقها إظهارها الفرح بوفاة علي (ع)[١].

وليس في هذا العدد المذكور وفي الأسباب الموجبة للطلاق ما يدعو إلى تلك المبالغات والمغالطات وإلى ذلك التزمير والتطبيل، لولا سوء الغرض وخبث النفس وفساد الطوية.

❀ ❀ ❀

ويطل الإمام الحسن ـ بعد هذا كله ـ على الدنيا الإسلامية رجلاً عظيم الهيبة، جليل الشأن، أثيل المجد، كريم اليد، عف اللسان، قوي الجنان، صلب العود، عذب المنطق، حلو الشمائل، تشير إليه الأيدي باكبار، وتنطق باسمه الأفواه بإجلال، وتتطلع إليه العيون بتقديس، وتنعقد حوله الحلقات بتقدير، فهو ملء الأسماع والأبصار، ومهوى القلوب والأفئدة.

ونزولاً عند هذا الأمر الواقع رأى أولئك الستة الذين عيَّنهم الخليفة عمر في مجلس الشورى أن لا مناص من حضور الحسن بن علي للمذاكرة والمشاورة معه، فاستدعوه وأحضروه[٢].

ونزولاً عند هذا الأمر الواقع أيضاً رأى أولئك المسلمون المتطلعون إلى فتح منطقة طبرستان ـ ذات الموقع المهم في نشر الرسالة الإسلامية في إيران ـ إن نجاحهم في هذا المسعى متوقف على مشاركة عدد من الصحابة البارزين وعلى رأسهم الإمام الحسن، فطلبوا منه ومن أخيه الحسين وعبدالله بن عباس وحذيفة بن اليمان الحضور معهم على رأس الجيش الإسلامي لتقوية معنوياته وتدعيم صموده، فذهب الإمام

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر: ٤/ ٢١٦.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ٢٤.

إلى هناك بدافع الانتصار للإسلام ورسالته، ويَسر الله عليه وعلى المسلمين فتح تلك المنطقة المهمة في سنة ٣٠ هـ[١].

ولما ثار المسلمون على عثمان ثورتهم العارمة، وصمموا على قتله بعد فشل كل جهود التهدئة واصطدامها بمروان وآل مروان، دعا عليٌّ (ع) ولديه الحسن والحسين وقال لهما: «اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه»[٢].

وقد روى هذا الموقف وأكده عدد من المؤرخين القدامى المشهورين حتى أصبح من بديهيات التاريخ[٣].

كما روى موقف علي من عثمان ومدافعته الجادة عنه ومحاولاته المتكررة لحمايته من القتل معظم المعنيين برواية أحداث هذه الثورة، حتى أصبح ذلك من أوضح مواقف التاريخ أيضاً، كما شرحناه بمصادره في سيرة (الإمام علي بن أبي طالب (ع))[٤].

ولن يضير هذا الاجماع بعد انعقاده ولن يخل في كونه إجماعاً مخالفة بعض الكذابين والوضاعين ومزوري الحقائق كسيف بن عمر ومن كان على شاكلته، إذ زعموا أن الحسن كان يتهم أباه بالتحريض على قتل عثمان وأنه قال لعلي يوماً في خلال حديث بينهما: «لقد قتلت رجلاً كان يسبغ الوضوء لكل صلاة»[٥]،

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري: ٣٣٠ وتاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٦٩ ـ ٧٠.

(٣) أنساب الأشراف: ٥/ ٧٤ و٩٣ و٩٥ وتاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٠ و٣٥٣ و٣٨٥ و٣٨٨ و٣٩٢ ومروج الذهب: ٢/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٤) الإمام علي بن أبي طالب ـ سيرة ذاتية وت اريخ: ١٤٥ ـ ١٥٤.

(٥) أنساب الأشراف: ٥/ ٨١، ويراجع أنساب الأشراف: ٢/ ٢١٦ ـ ٢١٧ وتاريخ الطبري: ٤/ ٤٥٤ و٤٥٦ و٤٥٨.

وليست من كذبة افتضح أمرها في التاريخ أبرز من هذه الكذبة وأجلى زيفاً وبطلاناً.

ولقد أنكر بعض الكتاب مشاركة الحسن والحسين في الدفاع عن عثمان، باعتبار أن الخليفة كان مستحقاً للقتل بسوء فعله، وباعتبار أن قتلته جمهرة من الصحابة المؤمنين الذين لا يُشَكُّ في حسن إيمانهم وبثورة قادها عدد من المسلمين المخلصين الذين لا يُرتاب في صحة إسلامهم وسلامة نواياهم. ولهذا فإن علياً وولديه لن يدافعا عن إنسان منحرف كعثمان وأمام ثوار كأولئك المعروفين بالدين والإيمان.

ولا مراء لدينا في أن هذا الكلام سليم وجميل، ولكنه يحمل أحد جانبي الحقيقة فقط.

أما «مجموع» الحقيقة الذي يجب علينا إعلانه ـ على رغم كل العواطف والمشاعر ـ فهو أن علياً كان ينقد سلوك عثمان وينعى عليه تصرفاته السيئة، وبعنف في بعض الأحيان، ولكنه كان يحارب بشدة ـ في الوقت نفسه ـ فتح باب قتل الخليفة إذا ما أساء التصرف أو خرج على تعاليم الشريعة، لأن فتح هذا الباب قد يؤدي إلى الضرر والفوضى بأكثر مما يؤدي إلى الإصلاح والتقويم. ومن هنا كان يرى ـ (ع) ـ ضرورة بذل الجهود ـ مهما كانت صعبة ومضنية ـ لاصلاح ذلك الخليفة واجباره على التراجع عن أفعاله السيئة، بعيداً عن البطش والقتل وسفك الدماء.

وقد روى لنا علي ـ فيما أُثِرَ عنه في نهجه البليغ ومصادر التاريخ ـ هذه الحقيقة بكاملها، ونجتزىء من ذلك كله بالفقرات الآتية:

«والله ما زلت أذب عنه حتى أني لأستحيي»[١].

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣٧٨.

«والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً»[١].

«وما كنت لأعتذر من أني كنت أنقم عليه أحداثاً»[٢].

وكان علي يقول لعثمان في أيام الثورة ناصحاً إياه: «الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك»[٣].

ومهما يكن من أمر.

فقد فشلت تلك المساعي والجهود، ووقعت الواقعة، ونفذ الثوار تهديدهم وأسفرت الثورة عن خليفة قتيل، ودم مطلول، ومنصب شاغر ينتظر الكفء الذي يشغله ويصلح ما فسد منه.

وتمت البيعة لعلي من قبل المهاجرين والأنصار في المدينة المنورة، ثم تهافت المسلمون على بيعته في كل مكان من أرجاء العالم الإسلامي، ولم يتخلف عن ذلك سوى معاوية وأتباعه ومن كان على دينه، مما شرحناه في الكتاب السابق بالتفصيل.

وتجمَّع أصحاب المصالح والمنافع الدنيوية التي تعرضت للخطر في هذا العهد الجديد عهد الحكم الإسلامي الصحيح والتطبيق الحرفي لشريعة الله، فأعلنوا نكثهم للبيعة وخروجهم على الإمام الشرعي المنصوص والخليفة العادل المنتخب، فكان ذلك كما وعد رسول الله (ص) عندما قال مخاطباً علياً: «ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين»[٤].

---

(١) نهج البلاغة: ١/ ٤٦٨.

(٢) نهج البلاغة: ٢/ ٣٤.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٦٩.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ١٨٣، ويراجع في الحديث: الاستيعاب: ٣/ ٥٣ وتاريخ بغداد: ٨/ ٣٤١ و١٣/ ١٨٧ ومجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٨.

ولم يجد عليّ بدأ من الخروج إلى العراق والذهاب إلى البصرة حيث تجمّع الناكثون لمحاربتهم وتأديبهم ووضع الحد الحاسم لتمردهم وبغيهم وتطبيق حكن الله تعالى في البغاة عليهم.

وحيث أن طريقه إلى البصرة لم يكن يمر بالكوفة، فقد أرسل رسلاً من قبله إلى والي الكوفة أبي موسى الأشعري لإقناعه بالرضوخ للأمر والخروج مع الناس إلى هذه الحرب الشرعية. ولكن أبا موسى لم يقتنع ولم يجب، بل استمر في غلوائه مصراً على قعوده وعلى تثبيط الناس عن الخروج.

ولما بلغ ذلك علياً دعا ابنه الحسن وأمره بالخروج إلى الكوفة للقيام بهذه المهمة، مهمة تعديل موقف الوالي وإيقاظ مشاعر الناس للمشاركة في حرب البغاة.

ولبّى الحسن أمر علي - وهو إمامه وأبوه - وتوجه إلى الكوفة، وبصحبته عمار بن ياسر، ومعه كتاب من أبيه، «فخرج أبو موسى فلقي الحسن فضمه إليه»[1] فأقبل الحسن على أبي موسى «فقال: يا أبا موسى، لمَ تثبِّط الناس عنَّا فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء»[2].

واجتمعت الجماهير المسلمة في مسجد الكوفة، وتُلي عليها كتاب عليّ فأصغت إليه بمسامع قلوبها ومجامع أفئدتها، ثم قام الحسن خطيباً «فوضع يده على عمود يتساند إليه، وكان عليلاً من شكوى به، فقال:

«الحمد لله العزيز الجبار، الواحد القهار، الكبير المتعال، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٢.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٣.

أحمده على حسن البلاء، وتظاهر النعماء، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدة ورخاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، امتنَّ علينا بنبوته، واختصه برسالته، وأنزل عليه وحيه، واصطفاه على جميع خلقه، وأرسله إلى الأنس والجن، حين عُبدت الأوثان، وأُطيع الشيطان، وجُحد الرحمن، فصلى الله عليه وعلى آله، وجزاه أفضل ما جزى المسلمين».

وأما بعد: فإني لا أقول لكم إلا ما تعرفون، إن أم المؤمنين علي بن أبي طالب ـ أرشد الله أمره، واعزَّ نصره ـ بعثني إليكم، يدعوكم إلى الصواب، وإلى العمل بالكتاب، والجهاد في سبيل الله، وإن كان في عاجل ذلك ما تكرهون، فإن في أجله ما تحبون إن شاء الله. ولقد علمتم أن علياً صلى مع رسول الله (ص) وحده، ثم شهد مع رسول الله (ص) جميع مشاهده، وكان من اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الإسلام ما قد بلغكم، ولم يزل رسول الله (ص) راضياً عنه، حتى غمضه بيده، وغسّله وحده والملائكة أعوانه والفضل ابن عمه ينقل إليه الماء، ثم أدخله حفرته، وأوصاه بقضاء دينه وعداته وغير ذلك من أموره، كل ذلك من مَنِّ الله عليه، ثم والله ما دعا إلى نفسه، ولقد تداكّ الناس عليه تداكّ الإبل الهيم عند ورودها، فبايعوه طائعين، ثم نكث منهم ناكثون بلا حدث أحدثه، ولا خلاف أتاه، حسداً له وبغياً عليه. فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته، والجد والصبر والاستعانة بالله، والخفوف إلى ما دعاكم إليه أمير المؤمنين. عصمنا الله وإياكم بما عصم به أولياءه وأهل طاعته، وألهمنا وإياكم تقواه، وأعاننا وإياكم على جهاد أعدائه. واستغفر الله العظيم لي ولكم»[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٢ ـ ١٣ ويقول الراوي: «ولما سقط عني من قوله أكثر، ولقد حفظت بعض ما سمعت».

ثم خطب مرة أخرى في اجتماع حاشد من اجتماعات الكوفة يومذاك فقال:

«أيها الناس» إنا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله وإلى أفقه مَنْ تَفقَّه من المسلمين، وأعدل من تعدّلون، وأفضل من تفضّلون، وأوفى من تبايعون، مَنْ لم يعبه القرآن ولم تجهِّله السنة ولن تقعد به السابقة، إلى من قربه الله تعالى إلى رسوله قرابتين: قرابة الدين وقرابة الرحم، إلى من سبق الناس إلى كل مأثره، إلى من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون، فقرب منه وهم متباعدون، وصلى معه وهم مشركون، وقاتل معه وهم منهزمون، وبارز معه وهم محجمون، وصدقه وهم يكذّبون، إلى من لم ترد له رواية، ولا تكافأ له سابقة، وهو يسألكم النصر ويدعوكم إلى الحق، ويأمركم بالمسير إليه، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعته، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه، ومثّلوا بعماله، وانتهبوا بيت ماله، فاشخصوا إليه رحمكم الله، فمروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر، واحضروا بما يحضر به الصالحون»[١].

وكان مما خطب به في الكوفة أيضاً قوله:

«أيها الناس، إنه قد كان في مسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما قد بلغكم، وقد أتيناكم مستنفرين، لأنكم جبهة الأنصار ورؤوس العرب، وقد كان من طلحة والزبير بعد بيعتهما وخروجهما بعائشة ما بلغكم.. وأيم الله لو لم ينصره منكم أحد لرجوتُ أن يكون فيمن أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية، فانصروا الله ينصركم»[٢].

ومما قاله الإمام الحسن للناس في خطاب آخر:

(١) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ١١.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ٦٢ ـ ٦٣ وقريب منه في الجمل: ١٣٢ ـ ١٣٣.

«يا أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لئن يليه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا واعينونا على ما ابتُلينا به وابتليتم»(١).

ثم قال لأبي موسى والي الكوفة:

«اعتزل عملنا لا أمّ لك وتنحّ عن منبرنا»(٢).

ثم توجّه إلى الناس قائلاً:

«أيها الناس، إنني غادٍ فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر، ومن شاء فليخرج في الماء»(٣).

وكان لهذه الخطب البليغة دورها الكبير في شحذ الهمم وتنشيط العزائم وإثارة العواطف لصالح هذه الحرب الدينية التي أشعل نارها النفعيون المصلحيون الناكثون للبيعة والخارجون على الشرع والنظام العام.

ولقد كان لاعتماد الإمام أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة في هذه الخطب أثره البليغ في النفوس ومفعوله العميق في القلوب والأفئدة، «فنفر معه تسعة آلاف، فأخذ بعضهم البر، وأخذ بعضهم الماء، وعلى كل سبع رجل. أخذ البر ستة آلاف ومائتان، وأخذ الماء ألفان وثمانمائة»(٤).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٥.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٦ والجمل: ١٣٦ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢١.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٥.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٥.

ولم ينته دور الإمام الحسن في حرب الجمل بهذه الخطب البليغة المثيرة وباستنفار المسلمين للمساهمة في صدّ البغاة الناكثين، بل استمر في مسؤوليته الإعلامية التوجيهية، في هذه الحرب لدحر الدعايات المضادة والدعوات الكاذبة، ولفضح تلك الأضاليل والأباطيل التي انخدع بها أتباع «الجمل» البسطاء فلم يدركوا أبعاد ذلك التحرك النفعي العفن.

ويذكر لنا المؤرخون ـ كمثلٍ على ذلك ـ أن عبدالله بن الزبير خطب يوماً في معسكر أهل الجمل بالبصرة بهدف تحريض أصحابه على الحرب، فاتهم علياً بقتل عثمان، وبإكراه الناس على بيعته، وذكره بسوءٍ كعادته، فبلغ ذلك مسامع الحسن فقام خطيباً «فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

«أيها الناس، قد بلغتنا مقالة ابن الزبير، وقد كان أبوه يتجنى على عثمان الذنوب، وقد ضيق عليه البلاد حتى قتل، وإن طلحة راكز رايته على بيت ماله وهو حي. وأما قوله: إن علياً ابتز الناس أمرهم، فإن أعظم حجة لأبيه زَعْمُ أنه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه، فقد أقر بالبيعة وادعى الوليجة، فليأت على ما ادعاه ببرهان وأنّى له ذلك. وأما تعجبه من توردوا أهل الكوفة على أهل البصرة، فما عجبه من أهل حق تودوا على أهل باطل، ولعمري ـ والله ـ ليعلمن أهل البصرة، وميعاد ما بيننا وبينهم اليوم، نحاكمهم إلى الله تعالى فيقضي الله بالحق وهو خير الفاصلين»(١).

❀ ❀ ❀

(١) الجمل: ١٧٥.

وهكذا كان دور الإمام الحسن (ع) أيضاً في حرب ابيه علي (ع) مع القاسطين معاوية وأشياعه، في صفين، تلك الحرب التي أزهقت أرواح عشرات الألوف من المسلمين، حتى ضجت الصحراء بالأشلاء وامتلأت بطون الذئاب الكاسرة بلحوم القتلى حتى التخمة، وسيلقى معاوية وكبار قادته أقسى الحساب عن ذلك بين يدي الله تعالى، كما لقي مثل ذلك الحساب من محكمة التاريخ على رغم سائر المتعصبين من ضالين ومضلّلين.

أجل. هكذا كان دور الحسن أيضاً في حرب صفين، ومن حسن الحظ أن تحتفظ المصادر بنموذج من تلك الخطب البليغة التي قاد بها الإمام مسيرة الإعلام العقيدي خلال الحرب، رداً على مزاعم الأعداء ودعاواهم الباطلة.

روى نصر بن مزاحم أن الحسن قام خطيباً في حرب صفين يحرض الناس على الجهاد فقال: «الحمد لله لا إله غيره، وحده لا شريك له، وأُثني عليه بما هو أهله». ثم قال: «إن مما عظم الله عليكم من حقه، وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره، ولا يؤدى شكره، ولا يبلغه صفة ولا قول، ونحن إنما غضبنا لله ولكم، فإنّه مَنَّ علينا بما هو أهله أن نشكر فيه آلاءه وبلاءه ونعماءه، قولاً يصعد إلى الله فيه الرضا، وتنتشر فيه عارفة الصدق، يصدق الله فيه قولنا، ونستوجب فيه المزيد من ربنا، قولاً يزيد ولا يبيد، فإنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم، واستحكمت عقدتهم. فاحتشدوا في قتال عدوّكم: معاوية وجنوده، فإنه قد حضر. ولا تخاذلوا فإن الخذلان يقطّع نياط القلوب، وإن الإقدام على الأسنّة نجدة وعصمة، لأنه لم يتمنع قوم قط إلاّ رفع الله عنهم العلة، وكفاهم حوائج الذلة، وهداهم إلى معالم الملة»[١].

(١) وقعة صفين: ١١٣ ـ ١١٤.

ولما فعل أبو موسى الأشعري فعلته البلهاء النكراء في التحكيم، وكثر اللغط في هذا الموضوع، أمر عليّ ولده الحسن بأن يقوم خطيباً فيتكلم في أمر أبي موسى وعمرو بن العاص، فقام الحسن فتكلم فقال:

«أيها الناس، قد أكثرتم في أمر أبي موسى وعمرو، وإنما بُعثا ليحكما بالقرآن دون الهوى، فحكما بالهوى دون القرآن، فمن كان هكذا لم يكن حكماً، ولكنه محكوم عليه، وقد كان من خطأ أبي موسى أن جعلها لعبدالله بن عمر، فأخطأ في ثلاث خصال: خالف ـ يعني أبا موسى ـ أباه عمر إذ لم يرضه لها ولم يره أهلاً لها وكان أبوه أعلم به من غيره، ولا أدخله في الشورى إلا على لا شيء له فيها، شرطاً مشروطاً من عمر على أهل الشورى، فهذه واحدة. وثانية: لم يجمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمامة ويحكمون على الناس. وثالثة: لم يستأمر الرجل في نفسه ولا علم ما عنده من ردّ أو قبول»[1].

وكان الإمام مجلياً في كلامه هذا كل التجلي، فقد دحض مزاعم أبي موسى وابن العاص ومن لفَّ لفهما أبلغ دحض، واستدل على فساد ذلك بالحجج ذاتها التي زعموها طريقاً للاستخلاف وشرطاً للقيام بأمر المسلمين، إذ استدلوا على أهلية عثمان للخلافة بادخال عمر إياه في الشورى وترشيحه لتبوأ هذا المركز، كما استدلوا على صحة خلافة من استخلف قبل ذلك برضا المهاجرين والأنصار بهم قادة وحكاماً على الناس.

وجاء الحسن ليضع النقاط على الحروف، فطعن في التحكيم أولاً:

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

بأنه حكم بالهوى دون القرآن، لأن القرآن الكريم صريح في وجوب حرب البغاة ومقاتليهم حتى يذعنوا لأمر الله، قال تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾، ولما كان أمر الله متمثلاً في ذلك الظرف بالإمام الحق والخليفة الشرعي علي بن أبي طالب (ع) فليس من الحكم بالقرآن خلعه واختيار غيره ولا مهادنة الباغي والسكوت عن بغيه كما فعل الحكمان.

ثم طعن بالتحكيم ثانياً:

بأن اختيار عبدالله بن عمر للخلافة باطل من أساسه، لأن أباه لم يره أهلاً لها كما زعموا عند بيعة عثمان، ولم يجمع عليه المهاجرون والأنصار كما ادعوا يوم حجبوا الخلافة عن علي بعد وفاة النبي (ص)، ولم يستشر الرجل ليعلم ما عنده من رد أو قبول.

❀ ❀ ❀

ويشرف عهد علي (ع) على الختام بإعداد تلك المؤامرة الغادرة لقتله على يد ذلك العتل الكافر اللئيم عبد الرحمن بن ملجم، وبسيف الحقد الجاهلي الأسود حقد الناكثين والقاسطين والمارقين.

أجل. يشرف ذلك العهد السماوي على الختام، وعلي (ع) يعد العدة لحرب التصفية النهائية مع معاوية واتباعه الخارجين على إمام زمانهم، وبمقدار ارتباط هذا الإعداد والتأهب بالإمام الحسن فقد «جاء في الأخبار أنه عقد للحسن ابنه (ع) على عشرة آلاف»[1].

ولكن قضاء الله تعالى لا يرد، وقدره المقدر لا يدفع، فوقعت

(١) شرح نهج البلاغة: ٧/ ٩٣.

الواقعة، وهوى علي في محرابه شهيداً في سبيل الله، وصعدت روحه إلى بارئها تشكو الغدر الدنيء واللؤم الكافر.

واتجهت الإمامة الشرعية والخلافة الزمنية نحو الإمام الحسن (ع) دون غيره من الناس لأنه صاحبها ـ نصاً ـ والمؤهل لتحمل أعبائها ـ كفاءةً ومقدرة ـ .

واستجد في الساحة الإسلامية أحداث وأحداث مما تكفل الفصل القادم ببحثه والتحدث عنه بالتفصيل.

الحسن (ع)
في إمامته وخلافته

وهكذا التقت للمرة الثانية في تاريخ الإسلام ـ بعد خلافة علي ـ إمامة السماء الشرعية بخلافة الأرض الزمنية في شخص رجل واحد: الإمامة الشرعية باعتبارها رئاسة دين، والخلافة الزمنية باعتبارها رئاسة دولة.

وهكذا اتحد من جاء عليه النص من رسول الله (ص) بمن دلف الناس إليه يبايعونه على السمع والطاعة.

كان صباح اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان، حزيناً أبلغ ما يكون الحزن، كئيباً أشد ما تكون الكآبة. فلم يسمع المسلمون في الكوفة عند الفجر ذلك الصوت المدوي بذكر الله وهو ينادي: «الله أكبر. الله أكبر»، ولم تتلقف آذانهم دعوته المباركة في الساعة المبكرة وهو يهتف بهم: «حيّ على الصلاة. حيّ على الفلاح. حيّ على خير العمل»، ولم تكتحل عيونهم بذلك الوجه الملائكي الجميل، وجه عليّ، وهو قائم يصلي في المحراب بخشوعه وخضوعه وانصهاره في الله، يناجي ربه بكلماته، ويتمتم مع نفسه بدعواته.

إنها الوحشة بأفظع معانيها وأقسى آثارها على النفس.

وفي خلال هذه المشاعر المؤلمة التي كانت تعصف بأفئدة أولئك

المسلمين، فتكاد تقضي على ما بقي فيها من طاقات الصبر والجلد والتحمل، يطل عليهم ريحانة رسول الله (ص) وسيد شباب أهل الجنة، فيتوجه نحو محراب أبيه ليملأ الفراغ ويسد الثلمة، وينادي المنادي: «قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة»، وإذا بالأمل يدبّ في النفوس دبيب الشفاء في جسم المريض، وإذا بأولئك الطيبين المخلصين من صحابة الإسلام وبُناته يتذكرون ـ وقد حرمهم وقع الفاجعة لذة التذكار ـ ما كان يتحدث به محمد (ص) عن سبطه هذا، وما ينص عليه من إمامته وولايته على الأمة، وما يكرّر ويؤكد من إعلان حبه إياه وتولهه فيه.

وتصطف الصفوف في نظام، ويجتمع الشمل من جديد، ويتوجه الجميع إلى الله تعالى لأداء الفريضة المكتوبة.

وينتهي الإمام من فرضه، فيبادر إلى منبر أبيه ليؤبن ذلك الفقيد العظيم بما يستحق من كلمات التأبين، مما لا يمكن أن يقال في شأن غيره من الناس ـ كل الناس ـ فيقول:

«ألا أنه قد مضى في هذه الليلة رجل لم يدركه الأولون، ولن يرى مثله الآخرون، من كان يقاتل وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، والله لقد توفي في الليلة التي قبض فيها موسى بن عمران، ورفع فيها عيسى بن مريم، وأنزل القرآن»[١].

وهكذا فليكن التأبين باختصار ألفاظه وأبعاد معانيه.

«رجل، ولكنه لم يسبقه الأولون ولا يدركه الآخرون. وإنسان ولكنه بين جبرئيل وميكائيل، وهل هذا إلا الإنسان الملائكي. ترفع

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩٠، وقريب منه: في تاريخ الطبري: ٥/ ١٥٧ ومقاتل الطالبيين: ٥١ ـ ٥٢ وشرح نهج البلاغة: ٧/ ٢١٩ و١٦/ ٣٠.

روحه يوم يرفع عيسى، ويموت يوم يموت موسى، وينزل إلى قبره يوم ينزل القرآن إلى الأرض. مراحل كلها بين ملك مقرّب ونبي مرسل وكتاب منزل، فما شأن مكارم الدنيا إلى جنب هذه المكرمات الكرائم»[١].

ودوّى البكاء والنشيج في أرجاء المسجد وجنباته، والحسن يؤبن أباه بهذه الكلمات الخالدات.

وسرعان ما دوّى على أثر ذلك صوت جهوري أصيل النبرة عريق المنبت، هو صوت عبيدالله بن العباس بن عبد المطلب، يدعو الناس إلى بيعة الحسن[٢]، قائلا: «معاشر الناس، هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه»[٣].

ولم يكن عبيدالله في قوله هذا مدفوعاً بشيء من عاطفة جامحة أو قربى متعصبة أو محبة عمياء.

فالحسن ابن النبي حقاً:

وحسبنا في الاستدلال على ذلك: قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، ولم يكن المقصود بالأبناء هنا ـ باجماع المسلمين ـ إلا الحسن والحسين[٤].

وكان النبي (ص) قد سمّى الحسن (ع) (ابنه) في عدة أحاديث،

(١) صلح الحسن: ٥٧.
(٢) مقاتل الطالبيين: ٥٢.
(٣) الإرشاد: ١٩٢.
(٤) شرح نهج البلاغة: ١١/٢٦.

تداول المسلمون روايتها، وأجمعوا على صحتها، مما لا يحتاج إلى تفصيل وتطويل[١].

وقد أكّد الحسن نفسه مسألة البنوة هذه في فقرات قالها بعد فراغه من تأبين أبيه جاء فيها:

«أنا الحسن بن محمد (ص)، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله عزَّ وجل باذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا[٢]».

ولن يضير بعد هذه النصوص الشريفة من قرآن وسنّة أن يقول المزيفون للحقائق: «بنونا بنو أبنائنا»[٣]، لأن ذلك من وحي التزلف أو التعصب للعباسيين ضد أبناء عمهم العلويين، من دون أن يكون له سند من كتاب أو حديث.

والحسن وصي أبيه حقاً:

ولعلي وصية كبرى لابنه الحسن، تضمنها نهج البلاغة[٤].

وله أيضاً وصية أخرى املاها قبل وفاته بيوم واحد، وقد رواها عدد من المؤرخين[٥]، ونص بعضهم على أن علياً قال للحسن: «أنت

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٣٢ و٩/ ٧١ وسنن أبي داود: ٢/ ٤٢٣ و٥١٩ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٥٧ ـ ٦٥٨.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٥٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١١/ ٢٨، ويراجع ما رد به هناك على هذه الفكرة القبلية المنافية لأحكام الإسلام. كما يراجع بحث هذه المسألة بنصوصها النبوية الشريفة وشواهدها الشعرية الكثيرة في كتاب الغدير: ٧/ ١٢٢ ـ ١٢٩.

(٤) نهج البلاغة: ٢/ ٣٧ ـ ٥٧ (شرح الشيخ محمد عبده).

(٥) تاريخ الطبري: ٥/ ١٤٧ ومقاتل الطالبيين: ٣٨ والكامل لابن الأثير: ٣/ ١٩٦.

ولي الأمر وولي الدم»[١].

وأمر عليّ أن يصلي الحسن بالناس[٢] ـ وإنها الوصية الثالثة ـ وقديماً زعم الزاعمون أن الأمر بإقامة الصلاة معناه الخلافة.

أما ما رواه الطبري وآخرون من أن علياً قد سئل قبل وفاته: «إن فقدناك ـ ولا نفقدك ـ فنبايع الحسن؟ فقال: ما آمركم ولا أنهاكم»[٣] فلا نعرف مدى سنده وحقيقة أمره، ولكنه لو صح فلا مانع منه ولا يدل على عدم الإيصاء، وذلك لأن علياً كان يعرف حراجة الظرف يومذاك ودقة الموقف واختلاف نفسيات الناس، فترك الخيار لهم في التصرف، فإن أرادوا إطاعة النص في المبايعة للحسن فذاك، وإن عزفوا عن الحسن فقد سبق لهم أن عزفوا عن أبيه ونصه الجلي في عهود الخلفاء السابقين.

والحسن بعد ذلك وقبله إمام بنص رسول الله:

كقوله (ص) مخاطباً الحسن والحسين: «أنتما الإمامان ولأمكما الشفاعة»[٤]

وقوله (ص) مشيراً إلى الحسين: «هذا إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة»[٥].

وقوله (ص): «أنا سيد النبيين، وعلي سيد الوصيين، وإن أوصيائي بعدي إثنا عشر»[٦].

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٢٩٨.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٣٠٦ ومطالب المسؤول: ١/ ١٨٤.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ١٤٦ ـ ١٤٧.
(٤) نزهة المجالس: ٢/ ٤٧٦.
(٥) منهاج السنة: ٤/ ٢٠٩.
(٦) ينابيع المودة: ٤٤٧ و٤٨٦.

وعلى كل حال:

فقد لاقت دعوة عبيدالله أصداءها القوية في نفوس الناس، وبخاصة عند أولئك الذين عاصروا العهد النبوي الذهبي وسمعوا من لسان ذلك الرجل الذي لا ينطق عن الهوى تلك الشهادات والنصوص في حق الحسن (ع).

وبادر الجميع إلى البيعة طائعين قائلين: «ما أحبّه إلينا وأحقّه بالخلافة»(١).

وهكذا التقت للمرة الثانية في تاريخ الإسلام بعد خلافة علي «إمامة السماء الشرعية بخلافة الأرض الزمنية في شخص رجل واحد: الإمامة الشرعية باعتبارها رئاسة دين، والخلافة الزمنية باعتبارها رئاسة دولة».

وهكذا اتحد من جاء عليه النص من رسول الله (ص) بمن دلف الناس إليه يبايعونه على السمع والطاعة.

وكان لا بدَّ للحسن من القبول والنزول على هذا الاندفاع الشبيه بالإجماع على بيعته.

وواضح أن إقامة الحجة على الإمام بالمبادرة إلى البيعة والاستعداد للنصرة ملزمة له بالرضوخ والقبول وعدم الاعتذار مهما كانت الظروف والمبرّرات، كما سلف لنا بيانه بالتفصيل في كتابنا السابق عن أمير المؤمنين (ع).

= ويراجع في أن الأئمة إثنا عشر: صحيح البخاري: ٩/١٠١ وصحيح مسلم ٦/٣ وسنن الترمذي: ٤/٥٠١ وسنن ابن داود: ٢/٤٢١.

(١) مقاتل الطالبيين: ٥٢ وشرح النهج: ١٦/٣١.

وهكذا تمت البيعة للحسن في مسجد الكوفة.

ثم بايعته الكوفة كلها، وتبعتها البصرة والمدائن والعراق[١] بأجمعه، كما بايعه الحجاز[٢] واليمن[٣] وبلاد فارس[٤].

ولم يتخلف عن بيعته إلا معاوية وأتباعه ومن والاه.

❀ ❀ ❀

وبدأ الحسن عمله في إدارة الدولة.

وأمّر الأمراء، وعيّن الولاة «ووجّه عُمّاله إلى السواد والجبل»[٥].

وأخذت الخلافة الجديدة تشق طريقها نحو تنظيم شؤون الناس على ضوء التطبيق الحرفي للمنهج الإلهي العادل.

وكان من جملة مبادرات الإمام في أول عهده بالأمر زيادة أفراد الجيش في عطائهم[٦]، وذلك لعلمه بعنف الحاجة التي كانوا يعانونها بعد تلك الحروب الطاحنة بين الخلافة الشرعية المتمثلة بعلي وبين الناكثين (أتباع الجمل) والقاسطين (أتباع معاوية) والمارقين (الخوارج على أمر الله) وللتمهيد لإعادة تنظيمه والتيسير عليه استعداداً لتطورات الأوضاع المقبلة والصدامات المحتملة مع أعداء الله.

وكان من جملة المبادرات الحازمة الصارمة أمره بقتل جاسوسين

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ١٦٢.
(٢) تاريخ الطبري ٥/ ١٤٠.
(٣) تاريخ الخميس: ٢/ ٢٨٩.
(٤) الاستيعاب: ١/ ٣٦٩.
(٥) مروج الذهب: ٢/ ٣٠٢.
(٦) مقاتل الطالبيين: ٥٥ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٣٣.

كانا يرسلان لمعاوية بأخبار الخلافة وأنباء الكوفة والبصرة[١]، حيث عُدَّ ذلك دليلاً على الموقف الصلب تجاه مؤامرات الأعداء ومكائدهم لتعويق مسيرة الحكم وإجراءات العهد الجديد في تطبيق حكم الله والتطور نحو الغد الأفضل والأرغد.

وبعد أن انتهت مراسيم البيعة في العالم الإسلامي وفرغ الإمام من وضع الأسس الرئيسة لمسيرة الدولة، قرر أن يدعو معاوية إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون، فكتب له كتاباً قال في أواخره:

«إن علياً لما مضى لسبيله ـ رحمة الله عليه يوم قبض ويوم مَنَّ الله عليه بالإسلام ويوم يبعث حياً ـ ولآني المسلمون الأمر بعده، فأسأل الله أن لا يزيدنا في الدنيا الزائلة شيئاً ينقصنا به في الآخرة مما عنده من كرامة. وإنما حملني على الكتاب إليك الإعذار فيما بيني وبين الله سبحانه وتعالى في أمرك، ولك في ذلك إن فعلته الحظ الجسيم والصلاح للمسلمين».

«فدع التمادي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم أني أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أوّاب حفيظ ومن له قلب منيب، واتق الله، ودع البغي، واحقن دماء المسلمين، فوالله ما لك من خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به، فادخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك، ليطفىء الله النائرة بذلك، ويجمع الكلمة، ويصلح ذات البين».

«وإن أنت أبيت إلا التمادي في غيك نهدت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»[٢].

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٥٢ والإرشاد: ١٩٣ وشرح النهج: ١٦/ ٣١.
(٢) مقاتل الطالبيين: ٥٦ ـ ٥٧ وشرح النهج: ١٦/ ٢٤ و٣٤.

وأرسل الإمام كتابه هذا مع رسولين هما جندب بن عبدالله الأزدي والحارث بن سويد التيمي، وقد أدّيا الرسالة وسلّما الكتاب لمعاوية، فلم يكن لدى معاوية من جواب سوى القول: «ارجعا فليس بيني وبينكم إلا السيف»[١].

وعاد الرسولان فأخبرا الإمام بجواب معاوية من إصرار على التمرد وإعلان للحرب، فكان على الحسن أن يعدّ للأمر عدّته قبل أن يفاجأ بالعدوان.

وهكذا عاد معاوية ـ ثانية ـ إلى إعلان الحرب على إمام زمانه.

ولكن تلك الحجة المهلهلة التافهة ـ حجة المطالبة بدم عثمان ـ لم يبق لها مجال في هذا التمرد الجديد.

وإذن. فما هو البرقع الذي سيبرقع معاوية به بغيه الثاني؟

وتمخضت الأدمغة المفكرة ـ دماغه وأدمغة مستشاريه ـ عن نسيج جميل الطلاء لذلك البرقع المتهرىء الممزق.

فكان مما كتب به معاوية إلى الحسن جواباً على الرسالة السالفة الذكر:

قد علمتَ أني أطول منك ولاية، وأقدم منك لهذه الأمة تجربة، وأكثر منك سياسة، وأكبر منك سناً... فادخل في طاعتي»[٢].

وهكذا كان الطلاء الجديد قائماً على ادعاء أن معاوية «أطول ولاية» و«أقدم تجربة» و«أكثر سياسة» و«أكبر سناً» من الحسن بن علي.

(١) شرح النهج: ١٦/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٥٨ وشرح النهج: ١٦/ ٣٦.

وإذا كان معاوية هو الأطول والأقدم والأكثر والأكبر، فلن يضير أتباعه أن يكون صاحبهم هو الذي قال فيه النبي (ص) «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»[١]

وهكذا صارت مقاييس الخلافة كمقاييس الأزياء أو الكمال الجسماني «أطول» و«أكبر» و«أقدم» و«أكثر».

وكانت خلاصة ذلك كله: إصرار معاوية على التمرد وعلى تكرار البغي.

ثم سارع هذا الباغي إلى جمع الجنود، وتكتيل الحشود، ولم يترك لخصمه وقتاً كافياً للاعداد.

وزحف بجيشه نحو العراق مبادراً إلى العدوان، ومعلناً ـ بالعمل بعد القول ـ بغيه وخروجه على إمام زمانه.

❁ ❁ ❁

ولم يجد الحسن بداً من التأهب للخروج بغية ردّ العدوان وصدّه، وكان هذا من أبسط واجبات الرجل الذي يتحمل مسؤولية قيادة الدولة وإدارة شؤونها العليا.

وخطب في الناس ـ استعداداً للخروج ـ خطبة مؤثرة يحثهم فيها على الجهاد والصبر عليه، قال في أثنائها:

«أما بعد، فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد: اصبروا إن الله مع الصابرين، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون»[٢].

---

(١) وقعة صفين: ٢١٦ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٣٢ و١٥/ ١٧٦.
(٢) مقاتل الطالبيين: ٦١ وشرح النهج: ١٦/ ٣٨.

وأدرك الحسن فور انتهائه من خطابه أن الناس سيتقاعسون عن الخروج وانهم ليسوا على استعداد للصبر على آلام الحرب، لأنهم «سكتوا فما تكلم منهم أحد ولا أجاب بحرف»[1].

وكان لتقاعس الناس أسباب وأسباب، ولعل في طليعتها:

١ - إن الناس قد أنهكتهم الحروب عاماً بعد عام وأخذت منهم أخذاً عظيماً. فقد خاضوا ثلاث حروب طاحنة في قرابة سنتين أو تزيد قليلاً، بدء بحرب الجمل، ومروراً بحرب صفين، وانتهاء بحرب النهروان. ولذلك كان الجيش متعباً ومفككاً ومكدوداً إلى أبعد الحدود.

ولعل هذه النقطة بالذات كانت من أهم أسباب استعجال معاوية بالخروج إلى حرب الحسن بأمل الاجهاز على جيشه المتعب المشار إليه قبل أن يستجم ويستعيد تنظيمه وقوته وقدرته.

٢ - إن المجتمع الكوفي الذي كان يعيش فيه الحسن لم يكن مجتمعاً موحد الصف مجتمع الكلمة، بل كان يعج بأصناف شتى من الناس، منهم أتباع بني أمية (الرتل الخامس) وكان عددهم غير قليل، وقد كاتبوا معاوية «سراً في أمورهم واتخذوا عنده الأيادي»[2]، وكتب لهم معاوية يعدهم بالمال والمغريات، كما كان من جملتهم الخوارج وهم أعداء الحسن وأعداء أبيه من قبل، والحمراء وهم الموالي والعبيد من أبناء أسرى الفرس في حروب الإسلام معهم في سني الفتح.

(١) المصدران السابقان.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ٢٩٥.

ويقول الشيخ المفيد وهو يعدّد أهواء أفراد الجيش وأهواء المجتمع الذي كان منه هذا الجيش:

«أخلاط من الناس: بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم محكّمة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شكّاك، وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين»[١].

وعندما يكون المجتمع الذي سينبثق منه الجيش المحارب على مثل هذا التفرق والتمزق والاختلاف، ابتداء بالرتل الخامس المتربص بالحسن وانتهاء بالحمراء الذين يخضعون للمزايدات المالية كفرق المرتزقة التي تحارب اليوم بعض الدول المعاصرة. فكيف يمكن للقائد أن يعتمد عليه، وكيف يركن له في الاستبسال في الجهاد والإخلاص في الفداء.

ومهما يكن من أمر فقد خطب الحسن ـ كما أسلفنا ـ وأعلن الخروج إلى الجهاد، ثم بادر إليه متوجهاً إلى النخيلة حيث اتخذها مركزاً موقتاً لتجمّع المحاربين.

ثم توجه منها إلى المدائن حيث اختارها مقراً لقيادته في هذه الحرب الضروس التي لا يعلم نتائجها إلا الله، وكان اختيار المدائن نقطة للتجمع والإمداد اختياراً موفقاً لأهميتها التامة في القيام بهذه المهمة، لأنها تجمع مختلف الطرق من فارس والكوفة والبصرة والحجاز واليمن.

ولما كان معاوية قد عجّل بالمسير نحو العراق، كان على الحسن أن يرسل فرقة من جيشه لمقابلة جيش معاوية وإيقافه عند حده، وكان من أُولى خطوات ذلك: تعيين قائد لهذه الفرقة الميدانية المقاتلة، وقد اختار

(١) الإرشاد: ١٩٣.

لهذه المهمة ابن عمه عبيدالله بن عباس لتوفر ثلاث ميزات فيه:

١ - إن جيش معاوية الذي تسلل إلى اليمن - أيام خلافة علي وولاية عبيدالله عليها - بقيادة بسر بن أرطأة كان قد قتل طفلين لعبيدالله، فكان هذا القائد صاحب ثأر شخصي من معاوية فضلاً عن كل الاعتبارات الأخرى.

٢ - إن عبيدالله كان أول داع لمبايعة الحسن يوم وفاة أبيه وأول مبادر إلى البيعة حينذاك، وكان متحمساً كل التحمس لهذه البيعة.

٣ - وبالنظر إلى وجود عدد من رؤوس القبائل والوجوه الكوفيين في جيش الحسن، فلم يكن يريد الحسن أن يثير الحساسيات لدى هؤلاء الرؤساء إذا ما اختار واحداً منهم بالذات للقيادة، وسيكون اختيار ابن عم الخليفة خارجاً عن دائرة هذه الحساسيات.

وكانت هذه الميزات الثلاثة مجتمعة سبباً في اختيار هذا الرجل لهذا المركز الخطير والمهمة الصعبة.

وكان المفروض أن يجتمع لدى الحسن في نفيره للحرب عدد كبير من المقاتلين يعدّ بمئات الألوف من العراق فقط، وإذا طالت مدة الحرب فإن البلاد الإسلامية الأخرى ستمد الجيش - بطبيعة الحال - بالمزيد والمزيد من الجنود والحشود.

وعلى عجل أرسل الحسن تحت قيادة عبيدالله إثني عشر ألفاً من الجند - في أوسط الروايات[1] - لملاقاة الجيش الغازي بقيادة معاوية، وكان قد دخل الأرض العراقية وبدأ التوغل فيها باتجاه الكوفة.

وضمت هذه الفرقة (الاثنا عشر ألفاً) كل العناصر الخيّرة والشريرة

(١) تاريخ الطبري: ٥/١٥٩ وتاريخ اليعقوبي: ٢/١٩١ ومقاتل الطالبيين: ٦٢.

التي سبق لنا ذكرها، فكان فيهم من يمثل التنظيم الأموي السري، والخارجي، ومجموعة من ضعاف النفوس وضعاف الإيمان، وليس من المنطقي في حالة النفير العام أن يقوم القائد بعملية انتقاء أو فرز أو تمحيص، تماماً كما هو شأن الجيوش اليوم عندما يدعي المكلفون أو الاحتياط للالتحاق بوحداتهم حسب الظروف الطارئة، فليست هناك دولة من دول العالم المعاصر تنتقي جنودها ـ وهي في حالة حرب ـ على ضوء النوايا والدوافع والأهداف.

وهكذا كان جيش الحسن خليطاً من كل الناس، وحافلاً بكل الأهواء، وجامعاً لكل المخلصين والمنافقين.

وبدأ عملاء بني أمية عملهم في داخل صفوف الجيش مستعملين كل وسائل التخويف والارهاب والحرب النفسية.

وكان من جملة أسلحتهم النافذة البارعة تلك الإشاعات التي يبثونها هنا وهناك ويوزعونها همساً على هذا وذاك، للتشكيك بجدية هذه الحرب، وبمدى استجابة الناس للمشاركة فيها، وبمقدار ما يمكن أن تسفر عنه من نصر أو هزيمة.

ويبدو أن معاوية ومستشاريه كانوا قد أعدوا العدة لطرح فكرة الصلح بين الطرفين في الساعات الحاسمة، وكان على الجهاز التخريبي المندس في جيش الحسن مهمة التبشير بهذه الفكرة وإعداد النفوس لتقبلها بل لفرضها على الحسن إذا ما رفضها، تماماً كما فعل معاوية مع علي عندما طلب التحكيم وكما تمَّ فرضه على علي من قبل عناصر من داخل جيشه كما هو معلوم.

ولهذا كان على عناصر بني أمية المندسين في الجيش الحسني أن تشيع فكرة الصلح وأن تهمس باستمرار أن الحسن يكاتب معاوية على

الصلح، وهم بذلك يعدون الأذهان لتقبل الفكرة، ويمنعون الجيش من المحاربة، ويحطمون بذلك كل المعنويات المطلوبة في مثل هذه المواقف الحاسمة.

وبقي القائد عبيدالله بن العباس حائراً تجاه تلك الأراجيف العاصفة من جهة، وتجاه تخاذل المعنويات من جهة أخرى.

وفي خلال ساعات حيرته يصله ـ كتاب من معاوية يقترح عليه فيه أن يترك القيادة ويلتحق به مقابل «ألف ألف درهم» يعطي نصفها نقداً ونصفها الأخير عند دخول معاوية الكوفة[١].

واستسلم ابن عباس لنوازع نفسه الأمارة بالسوء، ونسي في تلك اللحظات ثأره بولديه عند معاوية، وبيعته لإمامه، بل نسي حتى العصبية القبلية التي تشده بالخليفة الشرعي.

وسرعان ما ركب فرسه وساقها نحو معسكر معاوية ليعلن الهزيمة ويقبض من الثمن ما اتفق عليه، «وأصبح الناس ينتظرون أن يخرج فيصلي بهم.. فطلبوه فلم يجدوه فصلى بهم قيس بن سعد بن عبادة»[٢].

وعندما شاع في الجيش المهزوز بالاشاعات والممزق بالانقسامات فرار قائده إلى معسكر العدو، سارع كثير من الجنود زرافات ووحداناً إلى الفرار أسوة بقائدهم (البطل!) ويقدر بعض المؤرخين عدد الفارين بثمانية آلاف[٣].

وتسلم القيادة بعد فرار ابن عباس بطل عقيدي صلب الرأي

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩١ ومقاتل الطالبيين: ٦٤ وشرح النهج: ١٦/ ٤٢.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٦٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩١.

حديدي العزم قوي الشكيمة ذلك هو قيس بن سعد بن عبادة ـ وكان الحسن قد عينه للقيادة إذا ما ألمت بالقائد ملمة ـ فجمع أشتات البقية الباقية من العسكر وقام فيهم خطيباً، وكان مما قال:

«أيها الناس، لا يهولنكم ولا يعظمنّ عليكم ما صنع هذا الرجل.. إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط. إن أباه عم رسول الله (ص) خرج يقاتله ببدر.. وأن أخاه ولاه علي أمير المؤمنين على البصرة فسرق مال الله ومال المسلمين... وإن هذا... صنع الآن هذا الذي صنع»[1].

ووصلت هذه الأنباء المؤلمة إلى الكوفة حيث العاصمة التي تتهيأ للزحف، وإلى المدائن حيث يتجمع فيها الجيش وكل المجاهدين الذين سيقدمون من الأطراف لتكون نقطة الانطلاق والمدد لحرب كان يفترض لها أن تكون صعبة المراس طويلة الأمد.

وصلت الأنباء إلى هاتين الجهتين فهزتهما هزاً عنيفاً، وكان الرتل الخامس بما لديه من مال وذكاء قد تلقف هذه الحادثة ليستغلها أعنف استغلال بأمل زيادة البلبلة والتمزق في صفوف جيش الحسن وأنصاره بما يشاع ـ على ضوئها ـ من أراجيف وبما يهمس به من أكاذيب وبما سيسفر عنه كل ذلك من زعزعة الثقة بالنفس وتحطيم الأمل بالنصر وفي القضاء على وحدة الصف وتماسك الجبهة أمام عدو شرس وخطير.

لقد كانوا يشيعون في المدائن «إن قيس بن سعد (قائد قوة الميدان بعد ابن عباس) قد صالح معاوية وصار معه»[2].

(١) مقاتل الطالبيين: ٦٥.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩١.

ويشيعون في مسكن: «إن الحسن قد صالح معاوية وأجابه»[١]:

ثم تنتشر إشاعة أخرى في المدائن: «إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا»[٢]. وتنفجر إشاعة رابعة تقول: «هذا أميركم قد بايع، وهذا الحسن قد صالح، فعلام تقتلون أنفسكم»[٣].

ثم أرسل معاوية وفداً من ثلاثة من أعوانه إلى الحسن للتفاوض[٤]، وقيل إنهما رسولان[٥]، ويقال إنهم عرضوا عليه كتباً تسلمها معاوية من عدد من الخونة في الكوفة[٦]. واطلع عليها الحسن ولكنها لم تفاجئه لمعرفته بحقيقة الناس واختلاف أهوائهم ومشاربهم. وخرج الرسولان أو الثلاثة من الخيمة وبدأ كل منهما يحدث صاحبه بصوت جهير «يسمعون الناس أن الله قد حقن بابن رسول الله الدماء وسكن به الفتنة وأجاب إلى الصلح. فاضطرب العسكر، ولم يشك في صدقهم»[٧].

وتلقف الخوارج الموجودون في داخل المعسكر هذه الاشاعات فثارت ثائرتهم على الصلح وثار معهم النفعيون وضعاف النفوس.

وسرعان ما عمت الفوضى وشاعت البلبلة وفقد الجيش وحدته ونظامه وانضباطه.

---

(١) المصدر نفسه: ٢/ ١٩١.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ١٥٩.

(٣) مقاتل الطالبيين: ٦٥.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩١.

(٥) مقاتل الطالبيين: ٦٦.

(٦) ولعلها الكتب المذكورة في الإرشاد: ١٩٤ ـ ١٩٥ إذ قال: «وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالسمع والطاعة له في السر، واستحثوه على المسير نحوهم وضمنوا له تسليم الحسن إليه عند دنوهم من عسكره أو الفتك به».

(٧) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩١.

وفكر الحسن ملياً فيما يجب عليه أن يفعل.

«وتراءت له من وراء أفقه الحزين، صور ممتعة من طفولته المباركة وصباه الباكر الكريم، فتطلع منها إلى أيامه البيض الحافلة بالنور في المدينة المنورة، يوم كان يدرج فيها بموقعه الممتاز، ويوم كان يتلقف الوحي منذ لحظاته الأولى، ويتعلم كلمات الله من لسان نبي الله (ص)، ويتخرج بعلمه على مصدر العلم».

«وذكر يوم كان طفلاً بين يدي أمه فاطمة (ع) ودخل عليها أبوها سول الله (ص) ورآه يلعب، فقال لها: إن الله تعالى سيصلح على يدي ابنك هذا، بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

«وذكر جده قد أخذه معه إلى منبره، فهو يقبل على الناس مرة، وعليه مرة، ويقول: إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين».

«ويرجع الحسن إلى نفسه فيقول:

«ترى! هل أراد رسول الله (ص) أن أصالح اليوم أهل الشام؟

«نعم. إن رسول الله (ص) قال ذلك يقيناً دون شك.

«وإن هذه الفتنة هي الفتنة التي عناها فيما لوَّح إليه في أحاديثه الشريفة، ولا فتنة أعظم من فتنة تشق المسلمين انشقاقهم هذا»[١].

خصوصاً وأن الامكانات العسكرية المتاحة لم تكن توحي ـ كما

(١) صلح الحسن: ١٦٩ ـ ١٧٣. وأحاديث الإصلاح على يدي الحسن مذكورة في صحيح البخاري: ٥/ ٣٢ و٩/ ٧١ وسنن أبي داود: ٢/ ٤٢٣ و٥١٩ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٥٨.

أسلفنا ـ بأمل نصر أكيد أو صمود فعَّال أو عمل ذي أضرار مباشر بالعدو القوي المدجج.

لقد «كان للحسن في مسكن بقية من جيش، لا تجد المعنويات سبيلها إليه إلا بالمعجزة، بعد النكبة التي أصيب بها هذا المعسكر بخيانة قائده، وفرار ثمانية آلاف من أفراده» كما مرَّ.

«وفي المدائن، مجموعة من أشباح، كشفت الارجافات العدوة المربكة عن نواياها، فإذا بها لا تفتأ تتلقف الفتن، وتهم بالعظائم، ولا ترجى لميدان حرب».

«وهذه هي الناحية المعنوية على واقعها» الجلي الواضح.

«وأما النسبة العددية فقد كان أكبر عدد بلغه جيش الحسن (ع) فيما زحف به إلى لقاء عدوه عشرين ألفاً أو يزيدها، وكان جيش معاوية الذي عسكر به على حدود العراق ستين ألفاً»[١].

وبقي جيش معاوية خلال أيام المحنة على عدده الثابت بالتمام والكمال. وانفرط عقد جيش الحسن بما فعلت فيه الخيانة والرشوة والأطماع وأعمال الغدر فنالت منه عمليات الفرار والتمرد كل منال.

وإذا كانت الظروف المعنوية والعسكرية على هذه الشاكلة:

«فليكن الحسن هو ذلك المخلوق الذي ادخره الله للاصلاح لا للحرب، وللسلام لا للخصام. وليكن الغرس الذي أنبته الله للمسلمين لا لنفسه، وللدين لا للسلطان. وليكن نصيبه من هذا الموقف في الباقي دون الفاني، وفي الخالد دون الزائل، وفي الله دون الناس»[٢].

(١) صلح الحسن: ١٧٣.
(٢) صلح الحسن: ١٧٤.

وإذن فليكن الصلح.

وقد يتساءل متسائل فيقول:

إذا كان الحسن قد أصبح على هذه الشاكلة من الوضع العسكري المتدهور، ومن هذه الفئة الصغيرة المفككة من المقاتلين، ومن تلك الظروف المعنوية السيئة التي تحيط بأنصاره وجنده، فإن من حقه أن يرضى بفكرة الصلح ويتنازل لقبولها، حقناً للدماء، وانقاذاً لما يمكن انقاذه من بقايا الإسلام والمسلمين.

ولكن معاوية وهو ذو الجيش القوي المتين المتماسك، والعدة الجيدة الفاخرة، والاخطبوط التخريبي القادر على التحرك والتأثير في داخل صفوف عدوه. إن معاوية هذا لماذا اختار طريق الصلح ولماذا اقترحه باديء ذي بدء، وهل يدعو إلى الصلح من ضمن الغلبة وعلم بالنصر؟

والجواب: إنه كانت لمعاوية دوافع متعددة تلح عليه بطلب الصلح، وليس منها ـ بطبيعة الحال ـ ما يمت إلى رغبة في حقن الدماء أو طلب لرضا الله في توحيد كلمة المسلمين. وإن في تاريخه الحافل بالمآسي والملطخ بالدماء الزكية القانية مايدل على بعد الرجل عن هذه المشاعر السلمية، سواء منها ما ارتبط بدين أو ارتبط بالدوافع الإنسانية.

وربما كان من أبرز دوافعه إلى الصلح دافعان رئيسان:

الأول: تصوره بأنه سيحصل بتنازل الحسن له عن الخلافة والحكم الدنيوي على لقب قد يخدع الناس به إذ يفسره لهم بأنه تنازل ذي الحق الشرعي عن حقه، فيصبح (خليفة) للمسلمين بالمعنى الديني ـ لا الدنيوي ـ لهذه الخلافة.

وبذلك يتخلص - ولأول مرة في تاريخه الحافل - من ألقاب السوء التي كانت تطارده لقبا بعد لقب.

ولقد كان الرجل مبتلياً بسوء الألقاب طيلة حياته، ولا يكاد ينجو من واحد منها حتى يبتلى بآخر مثله، والمصيبة في ذلك أنها ألقاب اقتبسها المسلمون من كتاب الله وسنة رسوله فلقبوه بها لأنه المصداق الشرعي لها بكل صدق وجلاء.

لقد كان في أول البعثة النبوية يحمل لقب (الكافر) أو (المشرك) باعتباره غير مقر برسالة الإسلام ومن فئة عباد الأصنام.

ولما حاول التخلص من هذا اللقب يوم فتح مكة منحه رسول الله (ص) اللقب الجديد فكان (الطليق) ابن (الطليق).

وعندما تمرد على إمام زمانه وخليفة عصره الشرعي علي بن أبي طالب لم يكن ينطبق عليه من الألقاب القرآنية إلا لقب (الباغي)(١) تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وتصديقاً لقول رسول الله (ص) لعمار بن ياسر: (تقتلك الفئة الباغية) وقد قتله أصحاب معاوية بصفين.

وهنا - وفي أشد ساعات محنة الحسن - أراد أن يتخلص من هذا اللقب بالصلح وبإيهام الناس أن الخليفة الشرعي قد تنازل له عن حقه الشرعي وليس عن الأمر الدنيوي فقط.

(١) وقد أشار الإمام الحسن إلى هذا اللقب في رسالته المارة الذكر إلى معاوية إذ قال له: «اتق الله ودع البغي».

وسنرى أنه لم يحصل بعد هذا الصلح على لقب إلا لقب صاحب الجلالة (الملك) باعتباره المقصود بـ (الملك العضوض) الذي تناقل روايته المحدثون ـ كما سيأتي: الثاني من الدوافع:

إنه «كان يهاب موقع الحسن ابن رسول الله (ص) في الناس، ومقامه الروحي الفريد في العقيدة الإسلامية، فيتقي حربه بالصلح». ثم يحتاط لنفسه من مستقبل الحرب بينه وبين الحسن لو تسنى له قتل الحسن والحسين وأنصار آل محمد وبقية الإسلام، فإن له من الجرأة أن «يلقي مسؤوليتها على الحسن نفسه، ويقول للناس غير كاذب: إني دعوت الحسن للصلح، ولكنه أبى إلا الحرب، وكنت أريد له الحياة ولكنه أراد لي القتل، وأردت حقن الدماء ولكنه أراد هلاك الناس»[١].

وهكذا دلف الطرفان للصلح، ولكل منهما دافع أو دوافع.

أحدهما ـ يريده: للتخلص من لقب البغي الذي يطارده.

وللتحكّم في رقاب المسلمين رضوا أم أبوا.

ولإيهام الناس بأن صاحب الحق الشرعي قد تنازل له عن (هذا الحق الشرعي).

وثانيهما ـ يريده:

للحفاظ على بقية الكتاب وشعلة الإسلام. ولدق المسامير في نعش الحكم الأموي، ولكسب معركة النصر الدبلوماسي إذا ما خسر النصر العسكري.

وعلى الرغم من ادعاءات مزوري التاريخ من أن الحسن كان هو

---

(١) صلح الحسن: ٢٥٦.

البادىء بطلب الصلح، فقد ثبت تاريخياً أن معاوية هو البادىء وهو المبادر وهو الملح المستمر في الإلحاح.

يروي البخاري:

إن الرسولين اللذين بعثهما معاوية إلى الحسن كان قد أوصاهما: «اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه، فأتياه فدخلا عليه فتكلّما وقالا له... إنه يعرض عليك كذا وكذا ويطلب إليك ويسألك، قال (أي الحسن): فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به، فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به»[١].

كما يروي البخاري أيضاً: إن هذين الرسولين قالا لمعاوية: «نلقاه فنقول له الصلح»[٢].

ويروي الطبري:

«أرسل معاوية إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختوم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك»[٣].

❀ ❀ ❀

وخلاصة القول:

فقد نجحت المفاوضات، واشترط الحسن ما يستدعيه الموقف، واتفق الطرفان على تلك الشروط، التي يمكن تلخيصها أو جمعها من مجموع النصوص التاريخية بما يأتي:

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ٢٣١.
(٢) صحيح البخاري: ٩/ ٧١.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ١٦٢، وقريب منه في الكامل: ٣/ ٢٠٣.

شروط الصلح

الشرط الأول ـ تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله وبسنة رسوله[١].

الشرط الثاني ـ أن يكون الأمر للحسن من بعده[٢]، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين[٣]، وليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد[٤].

الشرط الثالث ـ أن يترك معاوية سبَّ أمير المؤمنين وأن لا يذكر علياً إلا بخير[٥].

الشرط الرابع ـ استثناء ما في بيت مال الكوفة فلا يشمله تسليم الأمر. وكذلك استثناء خراج دار ابجرد[٦] لتفريقه في بني هاشم وأولاد من قتل مع أمير المؤمنين في حربي الجمل وصفين.

الشرط الخامس ـ أمان الناس حيث كانوا من أرض الله، وأن أصحاب علي وشيعته حيث كانوا آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وأن لا يتعقب عليهم شيئاً ولا يتعرض لأحد منهم بسوء[٧]، وأن لا يبتغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من بيت

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٢ والصواعق المحرقة: ٨١.
(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٥٠ و١٥٦.
(٣) عمدة الطالب: ٥٢.
(٤) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٢ والصواعق المحرقة: ٨١.
(٥) تاريخ الطبري: ٥/ ١٦٠ ومقاتل الطالبيين: ٦٧ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢٠٣ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٤٤.
(٦) تاريخ الطبري: ٥/ ١٦٠ والأخبار الطوال: ٢١٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢٠٣.
(٧) مقاتل الطالبيين: ٦٦ ـ ٦٧ والأخبار الطوال: ٢١٨ وتاريخ الطبري: ٥/ ١٦٨ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٢ والصواعق المحرقة: ٨١.

رسول الله (ص) غائلة سراً ولا جهراً[١].

ويبدو من بعض النصوص التاريخية أن هناك ملحقاً لهذه الاتفاقية فيه أبرز أسماء أصحاب الحسن وقادة جيشه ممن اشترط لهم الأمان في هذه الاتفاقية[٢].

و«كتب معاوية جميع ذلك بخطه، وختمه بخاتمه، وبذل عليه له العهود المركبة والإيمان المغلظة، وأشهد على ذلك جميع رؤساء الشام»[٣].

❀ ❀ ❀

ولا بد لنا قبل الحديث عن موقف هذين المتعاهدين أو المتصالحين من معاهدة الصلح وعن مدى تنفيذهما لما ورد فيها من شروط والتزامات أن نقف قليلاً عند لفظ (الأمر) الذي تنازل عنه الحسن وتعهد بتسليمه إلى معاوية.

هل هو «الخلافة» كما ادعى بعضهم؟

هل هو «البيعة» كما زعم بعض آخر؟

أم هو «الإمامة» كما توهم ابن قتيبة وأغرق في توهمه؟

ولعل من الموضوعية ـ كل الموضوعية ـ التي لا غنى عنها في مثل هذا الوضع الشائك الملغم بالتأويلات والتخرصات أن نرجع إلى المتعاقدين ـ نفسيهما ـ لنستقرىء كلامهما ونستنبط من تصريحاتهما وما أُثر عنهما معنى «الأمر» المتعاقد عليه بينهما.

---

(١) الصواعق المحرقة: ٨١.

(٢) جاء في شرح النهج: ١٦/١٨ «طلب زياد رجلاً من أصحاب الحسن، ممن كان في كتاب الأمان فكتب إليه الحسن... أما بعد: فقد علمت ما كنا أخذنا من الأمان لأصحابنا... الخ.

(٣) الأخبار الطوال: ٢١٨.

فمعاوية في خطابه في الكوفة يعلن أنه لم يقاتل الناس في سبيل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء فريضة الحج وإنما قاتلهم «ليتأمّر» عليهم و«يلي رقابهم»(١).

ومعاوية يعلن ـ أيضاً ـ بعد الصلح هدفه منه فيقول: «رضينا بها ملكاً»(٢).

ومعاوية نفسه يقول في مناسبة أخرى: «إني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا»(٣).

ومعاوية نفسه يعترف في مناسبة أخرى: «والله إنه لملك»(٤).

والحسن ـ وهو الطرف الآخر في الاتفاقية ـ يقول في خطاب له ومعاوية يسمع: «وليس الخليفة من سار بالجور، ذلك ملك ملكاً يمتع به قليلاً ثم تنقطع لذّته وتبقى تبعته»(٥).

والحسن يصارح شيعته في الكوفة فيقول لهم: «ما أردت بمصالحتي إلا أن أدفع عنكم القتل»(٦).

وإلى كثير وكثير من أمثال هذه النصوص رواها المؤرخون عن الحسن وعن معاوية وهما أدرى بما اتفقا عليه. وكله صريح على أنهما لم يفهما من «الأمر» المتعاقد عليه سوى حكم الدنيا والملك المحض، بعيداً عن كل بيعة شرعية وإمامة دينية وخلافة إسلامية.

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٥.
(٢) البداية والنهاية: ٦/ ٢٠٠.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٣٦.
(٤) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٣٤.
(٥) مقاتل الطالبيين: ٧٣ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٤٩.
(٦) الأخبار الطوال: ٢٢١.

وهذا المعنى هو الذي فهمه الناس أيضاً يومذاك ـ أو الأذكياء من الناس ـ واعتبروه هو الهدف في التعاقد بين الحسن ومعاوية.

فسعد بن أبي وقاص لم يجد ما يُحيي به معاوية عندما دخل عليه إلا أن يقول: «السلام عليك أيها الملك»(١).

وأبو هريرة لم يجد ما يبرر به حكم الشام إلا أن يطرح على الناس فكرة «الخلافة بالمدينة والملك بالشام»(٢).

وابن عباس لم يجد ما يرضي به معاوية من الثناء إلا أن يقول: «ما رأيت أحداً أخلق للملك من معاوية»(٣).

وسفينة لم يجد ما يبرر به حكم معاوية إلا أن يقول: «الخلافة ثلاثون ثم تكون ملكاً»(٤).

وصعصعة بن صوحان العبدي لم ير بدأ من مصارحة معاوية بقوله:

«أنّى يكون الخليفة من مَلك الناس قهراً، ودانهم كبراً، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً»(٥).

وهكذا يتجلى بكل وضوح أن «الأمر» في هذه المعاهدة هو أمر الدولة وشؤونها الإدارية، وليس الخلافة الشرعية ولا الأمانة الدينية كما زعم بعض الزاعمين. وهو بنفسه «الأمر» الذي عنته الآية الشريفة:

---

(١) كامل ابن الأثير: ٣/ ٢٠٥.
(٢) البداية والنهاية: ٦/ ٢٢١.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٣٧.
(٤) البداية والنهاية: ٦/ ٢٢٠ وتاريخ أبي الفدا: ١/ ١٨٣.
(٥) مروج الذهب: ٢/ ٣٤٠.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(١) حيث يكون «الأمر» الذي أمر الله تعالى نبيه بمشاورة الناس فيه هو كيفية إدارة الدولة وأسلوب تنظيم مسيرة الحكم، وليس النبوة نفسها أو الإمامة ذاتها كما ادعى بعض المدعين.

وإذا اتضح لنا ذلك بهذا الجلاء صحَّ منا أن نقف متريثين فاحصين عند شروط الصلح شرطاً شرطاً لنرى مدى وفاء الطرفين بها وبما ألزما به نفسيهما من عهود ومواثيق في تنفيذ المعاهدة وتطبيق التزاماتها.

۞ ۞ ۞

الموقف من الشرط الأول

وكان هذا الشرط يتضمن فقرتين:

الأولى ـ تسليم الحسن الأمر إلى معاوية.

وقد وفى الإمام بذلك فسلم الأمر بإجماع المؤرخين واتفاق الرواة والمحدثين.

الثانية ـ أن يعمل معاوية بكتاب الله وسنة رسوله، ويبدو أن معاوية كان مصمماً على عدم تنفيذ ذلك، فقد صعد منبر مسجد الكوفة بعد توقيع الصلح وقال مخاطباً جموع المسلمين:

«يا أهل الكوفة، أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمتُ أنكم تصلون وتزكون وتحجون. ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وألي رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون»(٢).

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٢) شرح النهج: ١٦/ ١٥، وقريب منه في مقاتل الطالبيين: ٧٠.

ثم أردف قائلاً: «وكل شرط شرطته فتحت قدميَّ هاتين»[١].

وفي نص آخر: «إلا أنَّ كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدميَّ هاتين لا أفي به»[٢].

وعندما يجعل معاوية كل «العهود المؤكدة والإيمان المغلّظة» تحت قدميه فإنه بذلك ليعلن بملء فمه أنه لن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله. لأن كتاب الله الخالد يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أما من خان العهود وتمرد على الإيمان فهو مصداق قوله تعالى في محكم كتابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

وحسبنا ذلك وحده دليلاً على عدم الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله وعلى عدم وفائه بهذه الفقرة التي اشترطت عليه ذلك.

ولن يتسع المجال هنا ـ ونحن نريد التلخيص والاختصار ـ أن نستعرض كل مخالفات معاوية لكتاب الله وسنة رسوله، وقد تكفلت عدة دراسات ببحث هذا الموضوع، وفي طليعتها النصائح الكافية لمن يتولى معاوية للمرحوم الشيخ محمد بن عقيل الحضرمي والجزآن العاشر والحادي عشر من كتاب الغدير في الكتاب والسنّة والأدب للمرحوم الشيخ عبد الحسين الأميني، وكلاهما مطبوع أكثر من مرة.

❁ ❁ ❁

(١) شرح النهج: ١٦/ ١٥ ولم يشأ الطبري أن يذكر عبارة معاوية بوضعه العهود والايمان تحت قدميه فقال: لم ينفذ للحسن من الشروط شيئاً «تاريخ الطبري: ٥/ ١٦٣».

(٢) مقاتل الطالبيين: ٦٩.

الموقف من الشرط الثاني

لقد نقض معاوية هذا الشرط علناً وجهاراً عندما نصب ولده يزيد على رقاب الناس وأكرههم على الرضوخ لذلك.

وكانت لمعاوية في سبيل تأمير يزيد محاولتان: أولاهما في حياة الإمام الحسن ولم تنجح، والثانية بعد قتل الحسن وفراغ المجال أمام المؤامرة.

وروى المؤرخون أن أولى المحاولتين كانت باقتراح من المغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة ـ وفي قصة طويلة لا مجال لسردها في هذا المختصر ـ وكان مما قاله المغيرة ليزيد: «انه ذهب أعيان أصحاب النبي (ص) وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً! وأعلمهم بالسنة والسياسة!»، ثم كان مما قاله معاوية للمغيرة: «ومن لي بهذا؟»، قال: «أنا أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك».

وتواطأ معاوية مع رؤساء الوفود المناصحين له أن يخطبوا ويذكروا فضل يزيد!. «فلما اجتمعت عند معاوية وفود الأمصار.. دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري فقال له: إذا جلست على المنبر وفرغت من بعض موعظتي وكلامي! فاستأذن للقيام، فإذا أذنا لك فاحمد الله تعالى وأذكر يزيد وقل فيه الذي يحق له من حسن الثناء عليه ثم أدعني إلى توليته. ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبيد الله بن مسعدة الفزاري وثور بن معن السلمي وعبدالله بن عصام الأشعري فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك وأن يصدّقوا قوله. فقام هؤلاء النفر خطباء يشيدون بيزيد».

وفوجيء الأحنف بن قيس زعيم تميم بهذا الكلام المفجع فقام

خطيباً وكان مما قال: «إن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ولا يبايعون ليزيد ما دام الحسن حيّاً».

ثم زاد الأمر إيضاحاً فقال:

«وقد علمت يا معاوية أنك لم تفتح العراق عنوة ولم تظهر عليه مقصاً، ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك... والله إن وراء الحسن خيولاً جياداً، واذرعاً شداداً، وسيوفاً حداداً. وإن تدن له شبراً من غدر تجد وراءه باعاً من نصر. وانك تعلم من أهل العراق أنهم ما أحبوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما».

وفهم معاوية أن الأمر لن يتم ليزيد ما دام الحسن حياً فصمَّم على التخلص منه بأية صورة.

ثم كرَّ كرته الثانية بعد وفاة الحسن، وشنَّ حملة شعواء على كل المسلمين الطيبين تمهيداً لهذه البيعة، وفعل الأفاعيل، وساس الناس بالعنف والإرهاب، وبلغت الحال به حدّ «عزل مروان عن المدينة حين عجز عن أخذ البيعة على أهلها ليزيد» وفشل في إخضاعها لشهوة المحاكم بأمره[١].

وكان ذلك هو النقض الصريح للشرط الثاني من شروط اتفاقية الصلح.

❀ ❀ ❀

(١) رجعنا فيما مر إلى: تاريخ الطبري: ٥/ ٣٠١ ـ ٣٠٤ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩٥ ـ ١٩٦ و٢٠٣ والإمامة والسياسة: ١/ ١٥٢ ـ ١٥٩ و١٦٠ ـ ١٦٥ ومروج الذهب: ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٣٠ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٢ والبداية والنهاية: ٨/ ٧٩.

الموقف من الشرط الثالث

يقول المؤرخ أبو الحسن المدائني وهو يصور الوضع العام لسلوك الدولة بعد صلح الحسن: «كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته. فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته»[١].

ويقول ابن أبي الحديد نقلاً عن الجاحظ: «إن معاوية كان يختم خطبته بقوله: اللهم إن أبا تراب ـ يعني علياً ـ أحد في دينك! وصدَّ عن سبيلك! فالعنه لعناً وبيلاً! وعذبه عذاباً أليماً! وكتب بذلك إلى الآفاق فكانت هذه الكلمات يشار بها على المنابر»[٢].

ثم يروي ابن أبي الحديد بضعة نماذج من أساليب معاوية في سب علي والتشهير به فيقول:

«إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي (ع) تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يُرغَبُ في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير»[٣].

وذكر ـ مثالاً على ذلك ـ ما وضعه عروة بن الزبير من أن رسول الله (ص) قال لعائشة وقد أقبل العباس وعلي: «إن سرّك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا»[٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١١/ ٤٤.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٥٦ ـ ٥٧.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٦٣.
(٤) المصدر نفسه: ٤/ ٦٤.

أقول: وما أدري لماذا يكون النظر لأهل النار موجباً لسرور أم المؤمنين!

ويتابع ابن أبي الحديد روايته فيقول:

«وأما عمرو بن العاص، فرُوي عنه الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما[١] مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنما وليّي الله وصالح المؤمنين»[٢].

وأما أبو هريرة فإنه لما قدم العراق بصحبة معاوية بعد صلح الحسن «جاء إلى مسجد الكوفة... وقال... والله لقد سمعت رسول الله (ص) يقول: إن لكل نبي حرماً، وإن حرمي بالمدينة ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها، فلما بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولاّه إمارة المدينة»[٣].

وروى ابن أبي الحديد أيضاً «إن معاوية بذل لسمرة بن جندب[٤] مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب:

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٧ وصحيح مسلم: ١/ ١٣٦ ومسند أحمد: ٤/ ٢٠٣، وقد خجل الجميع من التصريح فقالوا: «آل أبي فلان» وإن لمَّح البخاري إلى المقصود فقال: «زاد عنبسة... ولكن لهم رحم».

(٢) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٦٤.

(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٦٧. ويعلق ابن أبي الحديد المعتزلي عند ذكر أبي هريرة قائلاً: «أبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضي الرواية. ضربه عمر بالدرة وقال: قد أكثرت من الرواية وأحر بك أن تكون كاذباً على رسول الله (ص).

(٤) يراجع في جرائم سمرة بن جندب وعدد مَنْ قَتَلَ من المسلمين الصالحين كتاب تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ وإن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف، فقبل وروى ذلك»[١].

إلى كثير مما رواه هذا المؤرخ وغيره في سنة معاوية[٢] في سب علي، وفي الاهتمام الغريب العجيب في تدعيم هذه السنة، وفي دفع الأموال الطائلة ـ أموال الشعب المسلم الجائع الفقير ـ في سبيل ذلك.

وعندما قال ابن عباس لمعاوية: «ألا تكف عن شتم هذا الرجل؟ قال: ما كنت لأفعل حتى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير»[٣].

وعندما قال له قوم من بني أمية: «إنك قد بلغت ما أمّلت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل؟ فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلاً»[٤].

وكانت وصية معاوية المؤكدة للمغيرة بن شعبة واليه على الكوفة قوله: «ولست تاركاً إيصاءك بخصلة لا تترك شتم علي وذمّه»[٥]. وفي رواية الطبري: «ولست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تتحمّ عن شتم علي وذمّه»[٦].

---

(١) شرح النهج: ٤/ ٧٣.
(٢) ومن عنف عمق هذه السنة: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كف عن شتم علي «فقال الناس: ترك السنة» شرح النهج: ١٣/ ٢٢٢.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٢٢.
(٤) المصدر نفسه: ٤/ ٥٧.
(٥) الكامل لابن الأثير: ٣/ ٢٣٤.
(٦) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٥٣.

وخلاصة القول ـ ولا نريد الإطالة ـ إن معاوية قد نقض هذا الشرط من شروط المعاهدة على رغم «الإيمان المغلظة» التي أعطاها للحسن.

وحسبنا أن نقول:

إن ابن أبي سفيان بعمله هذا كان أول من فتح باب سب الصحابة في تاريخ الإسلام، وسيتحمل ـ يوم غد ـ حساب أوزار هذا الباب المفتوح من ذلك اليوم.

وعند الله تجتمع الخصوم.

۞ ۞ ۞

الموقف من الشرط الرابع

يروي الطبري أن أهل البصرة قد حالوا بين الحسن وبين خراج دار أبجرد المنصوص عليه في الشرط الرابع وقالوا: «فيئنا»[١]، ويقول ابن الأثير: إن هذا المنع كان بأمر معاوية نفسه[٢].

وعندما يقف الباحث المنصف على اسستثناء هذا الخراج والنص عليه في صلب المعاهدة يعلم مدى التجني الذي وقع فيه بعض المؤرخين عندما زعموا أن الحسن قد باع مقام الخلافة بهذا المبلغ.

وشتّان بين الاستثناء الذي يشترطه صاحب الحق وبين البيع الذي لا يجيده إلا طلاب الدنيا والمتكالبون على الملك.

ولهذا يقول ابن أبي الحديد: إن المال الذي قرر الحسن والحسين أخذه إنما هو «من جملة حقهما من بيت المال، فإن سهم ذوي القربى

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ١٦٥.

(٢) الكامل: ٣/ ٢٠٣.

منصوص عليه في الكتاب العزيز، ولهما غير سهم ذوي القربى سهم آخر للإمام من الغنائم»[١].

❀ ❀ ❀

الموقف من الشرط الخامس

يقول المؤرخ أبو الحسن المدائني متحدثاً عن موقف معاوية بعد الصلح من أصحاب الحسن وشيعته وشيعة أبيه:

«كان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي (ع)، فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضمَّ إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف... فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم، فلم يبق بها معروف منهم»[٢].

«وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: ألا يجيزوا لأحدٍ من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه أهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع.. ثم كتب إلى عماله: أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر.. فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في

(١) شرح نهج البلاغة: ١١/ ٣٤٩.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١١/ ٤٤ ـ ٤٦.

أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة... فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها... ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه. وشفع ذلك بنسخة أخرى: مَن اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره... فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر... وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراؤون والمستضعفون، الذين يظهرون الخشوع والنسك، فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم، ويقربوا مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل..» إلخ.

وكان من جملة ضحايا معاوية وقتلاه:

الصحابي الجليل المعروف بالفضل والزهد والتقوى وكثرة العبادة حجر بن عدي الكندي(١). فقد قتل ـ وبرفقته ستة من أصحابه ـ بأمر معاوية في مرج عذراء في غوطة دمشق. وقبورهم هناك معلومة ومشهورة إلى اليوم.

وكانت جريمتهم الكبرى أنهم يوالون علياً ويردّون السب عنه.

وقد سبق وصولهم إلى ضواحي دمشق وصول شهادة حرّرها مرتزقة زياد بن أبيه وأرسلوها إلى معاوية، وقد جاء فيها: «أن حجر بن عدي خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة،

---

(١) يراجع في ترجمة حجر وتفاصيل حادث استشهاده: تاريخ الطبري: ٥/ ٢٥٣ ـ ٢٧٧ والاستيعاب ـ هامش الإصابة ـ : ١/ ٣٥٥ ـ ٣٥٨ والكامل لابن الأثير: ٣/ ٢٣٣ ـ ٢٤٢ والبداية والنهاية: ٨/ ٥٠ ـ ٥٥ وأسد الغابة: ١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦ والإصابة: ١/ ٣١٣ ـ ٣١٤.

وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة... وكفر بالله عزَّ وجل»[١]، وكان ممن وقَّع على هذه الصحيفة (الفاجرة) عمر بن سعد وعمرو بن الحجاج الزبيدي وشمر بن ذي الجوشن وشبث بن ربعي وحجار بن أبجر وزجر بن قيس وأضرابهم، وكانوا سبعين رجلاً[٢].

وما أن بلغت هذه الشهادة معاوية حتى كتب إلى زياد أن يشد حجراً في الحديد ويرسله إليه[٣]. فحمل وحمل معه بعض المجاهدين الآخرين من أصحابه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وصاروا بهم إلى مرج عذراء، وجاءهم رسول معاوية في رهط من جلاوزته، فقال لحجر: «إن أمير المؤمنين! أمرني بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولي لأبي تراب، وقتل أصحابك، إلا أن ترجعوا عن كفركم! وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه»، فقال حجر وأصحابه: «إن الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعوننا إليه، ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحب إلينا من دخول النار»[٤].

وهكذا قتل حجر بن عدي في موقف تاريخي خالد لا مجال لسرد تفاصيله[٥] وقتل معه:

شريك بن شداد الحضرمي[٦].

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٦٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٥٦ والكامل: ٣/ ٢٤٣.

(٤) مروج الذهب: ٢/ ٣٠٨.

(٥) وتجد التفصيل في المراجع السابقة وبخاصة تاريخ الطبري: ٥/ ٢٥٤ ـ ٢٧٩. ويروي الطبري: أنه لما حضرت معاوية الوفاة «جعل يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حجر يوم طويل».

(٦) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧٧.

وصيفي بن فسيل الشيباني[١].

وعبد الرحمن بن حسان العنزي[٢].

وقبيصة بن ضبيعة العبسي[٣].

وكدام بن حيان العنزي[٤].

ومحرز بن شهاب التميمي[٥].

كما قتل في تلك الفترة من مشاهير صحابة محمد (ص): عمرو بن الحمق الخزاعي[٦]، ونصب معاوية رأه «ودير به في السوق»[٧]. وأوفى ابن حصن[٨].

إلى عشرات بل مئات من اضرابهم ممن طمس الحكم الأموي على أسمائهم فلن نعد نعرفها.

وكان لكل واحد ممن ذكرنا قصة رائعة من قصص الصمود والثبات والبطولة مع عمال معاوية وولاته الجلادين السفاحين، أعرضنا عن ذكرها لما تستدعيه من التطويل الذي لا يناسب حجم هذا الكتاب وهذه السلسلة[٩].

❀ ❀ ❀

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٦٦ و٢٦٧ و٢٧٦ ـ ٢٧٧.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧٧، ويقول ابن الأثير في الكامل: ٣/ ٢٤٢ «إنه دفن حياً».
(٣) (٤) (٥) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٧٧.
(٦) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٦٥.
(٧) المحبر: ٤٩٠.
(٨) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٩) تاريخ الطبري: ٥/ ٢٥٩ ـ ٢٨٥ والكامل: ٣/ ٢٣٣ ـ ٢٤٣.

وخلاصة القول:

فقد تجلى لنا من كل ما سلف بيانه أن معاوية قد خاس بكل وعوده ومواثيقه، وجعل عهود الله وأيمانه المغلظة تحت قدميه، وبرز أمام المسلمين على واقعه العاري المجرد من كل الألوان والرتوش.

كما تجلى لنا أيضاً بكل وضوح مدى نجاح الحسن ـ وهو نجاح كبير جداً ـ في وضع هذه الشروط الخمسة التي علم أنها ستكشف للناس المغرر بهم حقيقة معاوية المتمردة على كل دين أو شرع أو عرف أو عهد أو ميثاق.

وهكذا أصبح:

«أول رأس يطاف به في الإسلام رأس أحد أولئك الشيعة الصابرين، وبأمر معاوية يطاف به.

وأول انسان يدفن حياً في الإسلام منهم، وبأمره يفعل به ذلك.

وأول امرأة تسجن في الإسلام منهم، وهو الآمر بسجنها.

وأول شهداء يقتلون صبراً في الإسلام منهم، وهو الذي قتلهم.

واستقصى معاوية بنود المعاهدة كلها بالخلف. فاستقصى إيمانه المغلظة بالحنث ومواثيقه المؤكدة التي واثق الله عليها بالنقض.

فأين هي الخلافة الدينية يا ترى»[1]؟

❀ ❀ ❀

وهنا يحين وقت إيراد المهم بل الرئيس في هذا الموضوع.

---

(١) صلح الحسن: ٣٦٢.

لماذا آثر الحسن المهادنة والصلح مع معاوية ولم يستمر في الحرب قدماً حتى نهاية الشوط ونيل الشهادة؟

وإذا كان الصلح هو الملجأ المقبول والصحيح في مثل هذه المواقف فلماذا لم يصالح الحسين يزيد، مع علمه بعدم إمكان النصر بل استحالة الغلبة في تلك الحرب غير المتكافئة؟

ولما كان صلح الحسن واستشهاد الحسين يمثلان موقفين متضادين ـ كل التضاد ـ فكيف يتسنى لنا تصحيح هذين الموقفين؟ وهل يمكن أن يكون الحق حقاً في كلا الجانبين المتضادين؟

وإنه لسؤال، أو أسئلة وجيهة كل الوجاهة، لما تحمل في طياتها من البحث عن «سر الموقف» في المسألة كلها.

ولا بد ـ لمعرفة الجواب عن هذا كله ـ من تمهيد ندرس فيه ظرف الإمامين الحسن والحسين (ع) من سائر جوانبه وأبعاده، ظرف كل منهما من جهة أعدائه وخصومه، وظرف كل منهما أيضاً من جهة أنصاره وأتباعه.

الأعداء والخصوم:

وحسبنا في كل ذلك ـ ونحن نروم التلخيص والاختصار ـ أن نعلم أن رأس أعداء الحسن هو معاوية.

ولمعاوية ـ كما يعلم كل مطلع على التاريخ ـ خطره الكبير وأهميته البالغة، وذلك لما كان يتمتع به من ذكاء وتحيّل وقدرة على التضليل من جهة، ولعدم التزامه بالقيود الدينية والأحكام الشرعية التي يجب على المسلم الالتزام بها من جهة أخرى.

وإذا كان علي (ع) قد أوجز صفات معاوية في قوله: «والله ما

معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر»[١]، فإن المؤرخين قد شرحوا لنا ذلك بكل تفصيل وجلاء، على الرغم من كل ما فعل الأمويون والعائشون على موائدهم من طمس لمعالم التاريخ وتشويه لحقائقه وإخفاء لكثير من شؤونه وجوانبه.

فلقد وضع معاوية ـ كما أسلفنا ـ قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين، لاختلاق الأخبار ووضع الأحاديث ونسج الأكاذيب، وروى نفطويه في تاريخه: «إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم»[٢].

ولن يهمنا في المقام ماتمّ تلفيقه في فضائل الصحابة، وما حيك بالباطل في الثناء على بعض من لا يستحق الثناء، لأن له مجالاً غير مجالنا هذا.

ولكن الذي يهمنا ـ هنا ـ هو أن نعرف موقف معاوية من الإسلام ـ وهو دين الله ـ ومن محمد ـ وهو رسول الله ـ ومن التعاليم ـ وهي أحكام الله الواجبة الاتباع.

١ ـ يروي الزبير بن بكار عن المطرف بن المغيرة بن شعبة قال: «دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه. إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتماً، فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: مالي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني جئت من عند أكفر الناس واخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنك بلغت سناً يا أمير المؤمنين! فلو

(١) نهج البلاغة: ١/ ٤١٥.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١١/ ٤٦.

أظهرت عدلاً وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى اخوتك! من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيئاً تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه. فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تَيم فعدل وفعل ما فعل فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل: أبو بكر. ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشة (يعني رسول الله (ص) ليصاح به كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله. فأي عمل يبقى وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك! لا والله إلا دفناً دفناً»[(١)].

٢ - «إن النعمان بن بشير الأنصاري جاء في جماعة من الأنصار إلى معاوية، فشكوا إليه فقرهم وقالوا: لقد صدق رسول الله (ص) في قوله لنا: ستلقون بعدي أثرة، فقد لقيناها. قال معاوية: فماذا قال لكم؟ قالوا: قال لنا: «فاصبروا حتى تردوا عليّ الحوض» قال: فافعلوا ما أمركم به عساكم تلاقونه غداً عند الحوض كما أخبركم».

ويقول ابن أبي الحديد تعليقاً على هذا الخبر:

«وهذا الخبر هو الذي يكفر كثير من أصحابنا (يعني المعتزلة) معاوية بالاستهزاء به»[(٢)].

ويقول في مكان آخر من كتابه:

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٢، وورد أصل الخبر والحديث بين النعمان ومعاوية في تاريخ الخلفاء: ١٣٥.

«قد طعن كثير من أصحابنا في دين معاوية، ولم يقتصروا على تفسيقه، وقالوا عنه: إنه كان ملحداً لا يعتقد النبوة»[١].

٣ ـ أنكر أبو الدرداء على معاوية لبسه الحرير وشربه في آنية الذهب والفضة، وقال له: «إني سمعت رسول الله (ص) يقول: إن الشارب فيها ليجرجر في جوفه نار جهنم» فقال له معاوية: أما أني فلا أرى بذلك بأساً. فقال أبو الدرداء: من عذيري من معاوية! أنا أخبره عن الرسول (ص) وهو يخبرني عن رأيه»[٢].

وعلى هذه الوتيرة عدد ضخم من النصوص التاريخية الصريحة في استهزاء معاوية بالرسالة والأحكام والرسول (ص) نفسه.

ومن هنا نفهم مغزى قول النبي (ص) حينما صرّح وصارح المسلمين آمراً إياهم: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه» أو «فاضربوا عنقه» كما مرَّ في هذا الكتاب.

وهكذا يكون «رأس» أعداء الحسن رجلاً مجاهراً بالعداء للإسلام، وخطراً ـ أشد ما تكون الخطورة ـ على الرسالة وأحكام الشريعة، لا لأنه غير متدين وغير ملتزم فحسب، وإنما لأنه يخطط لـ «دفن» اسم رسول الله (ص) ويعلن الاستهزاء بما أثر عنه من أحكام وأحاديث، وفي ذلك رد مباشر على القرآن الكريم وعلى أمر الله تعالى فيه بقوله جل وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

أما «رأس» أعداء الحسين فقد كان مفضوحاً ـ كل الفضيحة ـ بمجونه وفسقه وفجوره، كما كان أغبى من أن يخطط لشيء، وأجهل من أن يجعل لنفسه هدفاً خطيراً شرّيراً كهدف أبيه.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٢٩.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٣٠.

وكان لـ «رأس» أعداء الحسن من الحاشية والمستشارين الأذكياء الدهاة مجموعة ضخمة يحسب لها ألف حساب.

أما «رأس» أعداء الحسين فكانت حاشيته مجموعة من الرجال المتقنين لصنع الخمر وشربها، وشد الدفوف وضربها، وإيقاع الغناء وترجيعه، وشراء القيان والتمتع بها، واتقان تهيئة أجواء اللهو والعربدة وإجادة القيام بهما.

وشتان بين هذين «الرأسين».

ومن هنا كان ظرف الحسن من عدوه ظرفاً خطيراً وفظيعاً جداً، لما كان يجسد هذا العدو من أخطار، بحكم ما توفر لديه من طاقات وإمكانات لا تحد لشراء الضمائر وإفساد النفوس وشل حركة الخصم والإيقاع به بلا حدود.

أما ظرف الحسين فكان ظرفاً مملوء بالإرهاب الغبي والعنف البليد والشراسة الرعناء والعدوان العاري المفضوح.

ولهذا كان عمر بن عبد العزيز في أول شبابه لا يعلم إن كان عليّ من أهل بدر[١]، وما ذاك إلا لأن معاوية قد أحسن التخطيط.

ولكن عمر بن عبد العزيز هذا لم يكن يجهل الحسين، لأن يزيد لم يستطع الإخفاء والتستر على جرائمه.

الأنصار والأتباع

أما ظرف الحسن من جهة أنصاره وأتباعه فحسبنا منه ما علمناه من أمر الجيش الذي أخذ مواقعه من صفوف الجهاد ثم فر ثلثاه ونفرت به

(١) شرح نهج البلاغة: ٤/٥٨ ـ ٥٩.

الدسائس المعادية، فإذا هو رهن الفوضى والتمرد والتمزق، وإذا به الجيش الذي فقد أي أمل في نجاح وأية ثقة في نصر.

وبذلك كان هؤلاء الأتباع الذين صحبوا الحسن إلى معسكراته كمجاهدين، ثم نكث أكثرهم البيعة وفروا إلى عدوهم مستسلمين أو خرجوا على إمامهم متمردين، كانوا شراً من أولئك الذين نكثوا بيعة الحسين قبل أن يواجهوه وأن يخرجوا معه.

وها هم المؤرخون قد أجمعوا على رواية مدى عنف ذلك التمرد الذي قام به أفراد من جيش الحسن، إذ «نفروا ونهبوا سرادق الحسن (ع) حتى نازعوه بساطاً كان تحته»[١]: «وجاءه جراح بن سنان الأسدي ـ أحد بني نصر بن قعين ـ في مظلم ساباط»[٢]، وكان قد كمن له هناك «فجرحه بمغول في فخذه.. فنزف نزفاً شديداً واشتدت به العلة»[٣]، و«مضى الحسن مثخناً حتى دخل المدائن»[٤].

وكان المعنى الجلي لهذا الواقع الأليم أنه لم يعد بامكان الحسن أن يعتمد على هذا الجيش بعد أن انتشرت الفوضى في جنباته، وأفقدت الموقف قابلية الاستمرار والصمود كما أشير إليه سابقاً.

أما الحسين فقد مهد لحربه ـ بعد أن نخلت حوادث الخيانة أنصاره ـ جيشاً من أروع جيوش التاريخ إخلاصاً في النية وتفادياً في الطاعة وإن قل عدداً، فلم يكن بين أفراده من يُحتمل فيه الانتقاض على الحسين ومحاولة قتله، أو الشك في إخلاصه لإمامه واستبساله في الدفاع عنه.

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ١٥٩ و٧/ ١٦٨.
(٢) المحبر: ١٩. وفي نص تاريخ بغداد: ١/ ١٤٠ «فطعنه في خاصرته».
(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩١.
(٤) الأخبار الطوال ٢١٧.

وهكذا يتجلى الفرق الكبير والبون الشاسع بين ظرف الحسن وظرف الحسين.

ولم يكن من الاحتمال البعيد ما قدره الإمام الحسن احتمالاً قريباً ـ فيما لو اشتبك مع عدوه في حرب يائسة كهذه ـ أن تجر المعركة بذيولها أكبر كارثة على الإسلام، وأن تبيد بمكائدها آخر نسمة تنبض بفكرة التشيع لأهل البيت (ع)، ولمعاوية قابلياته الممتازة وإمكاناته الكبيرة لتنفيذ هذه الخطة وتصفية الحساب التاريخي الطويل مع بني هاشم.

أما الحسين فقد كُفي هذا الاحتمال حين كان خصمه الغلام المترف، وبما ضمنه سيف الإرهاب الذي طارد الناس فحفظ في غيابات السجون وأكناف المهاجر وكهوف الجبال وبطون الصحاري سيلاً من المؤمنين الأبطال الذين كانوا يحملون مبادىء أهل البيت، وكانوا يؤتمنون على إيصال هذه المبادىء إلى الأجيال بعدهم.

ولهذا مضى الحسين في تصميمه مطمئناً على رسالته وعلى أهدافه وعلى مستقبلهما من أعدائه.

ولكن الحسن لم يحظ بمثل هذا الاطمئنان على مخلفاته المعنوية المقدسة، وفي أعدائه معاوية وحاشيته المخيفة وخططهم الناصبة الحقود، التي لا حدَّ لفظاعتها في العداوة والحقد.

وأخيراً، فقد أفاد الحسين ـ كل الإفادة ـ من جنايات معاوية في غاراته الظالمة على بلاد الله الآمنة المطمئنة، وفي موقفه من شروط صلح الحسن، وفي قتله الحسن بالسم، وفي بيعته لابنه يزيد، وفي أشياء كثيرة أخرى، بما زاد حركته في وجه الأموية قوة ومعنوية وانطباقاً صريحاً على المشاعر ووجهة النظر الإسلامية في الرأي العام.

وأفاد ـ إلى ذلك أيضاً ـ من مزالق خصمه الشاب المأخوذ بالقرود والخمور خليفة معاوية، فكانت تلك بأجمعها عوامل تعينه وتتحرك معه في تنفيذ أهدافه.

أما الحسن فقد أعيته ـ كما مر ـ ظروفه من أصحابه والمتظاهرين بنصرته وظروفه من أعدائه والمتآمرين عليه بالسر والعلن، فحالت بينه وبين الاستمرار في الحرب.

لذلك رأى لزاماً أن يطور طريقة عمله وجهاده ضد خصمه وأن يفتتح الحرب الجديدة من طريق أخرى تسمى «الصلح».

وما كانت الألغام التي وضعها الحسن في الشروط التي أخذها على معاوية إلا وسائله الدقيقة التي حكمت على معاوية وأحابيله بالفشل الذريع والفضيحة الشنيعة في التاريخ.

ومن الصعب حقاً أن نميز ـ بعد هذا كله ـ أي الأخوين (ع) كان أكبر أثراً في جهاده، وأشد نفوذاً إلى أهدافه، وأبعد إمعاناً في التشهير بأعدائه[1].

وهكذا يتضح مما مر تفصيله:

إن باب الشهادة كان مغلقاً بوجه الحسن، لأن موته ـ هو ـ بعد موت كل من سيصمد معه من بقايا الإسلام من المؤمنين الصادقين، وأمام عدو غادر ماكر كمعاوية، وربما بيد أناس كان يضمهم جيشه ويتظاهرون بكونهم معه. إن موته ـ بهذا الشكل ـ كان أضيع موتة عرفها التاريخ.

أما الحسين فلم يكن أمامه إلا الشهادة، لأنها الطريق نحو

(١) صلح الحسن: ٣٧١ ـ ٣٧٤.

المستقبل المنشود، والفتيل الذي سيشعل المجتمع الإسلامي ناراً بوجه الطغاة.

وربما يتجلى لنا هذا المعنى أكثر فأكثر إذا علمنا أن الشهادة ليست عملية انتحارية يقوم بها المجاهد في سبيل الله كما يقوم بشرب السم من يريد التخلص من الحياة.

إن الشهادة في الفهم الإسلامي الصحيح عملية بناء:

والشهادة التي ليس لها أي أثر في بناء الغد المأمول وصنع الحياة المرجوة ليست شهادة أبداً.

وعلى ضوء ظروف الحسن كان واضحاً جداً أن شهادته في تلك الحالة لا تنطوي على أي مردود سوى تدعيم موقف عدوه وتحقيق مآربه الشريرة، ولذلك فليس لها أي معنى أو مبرر.

أما على ضوء ظروف الحسين فإننا نجد أن حياته في تلك الحالة لا تنطوي على أي مردود سوى تدعيم موقف عدوه وتحقيق مآربه الشريرة أيضاً، ولذلك فليس لها أي معنى أو مبرر.

ومن هنا أبى الحسن الشهادة لأنها بمثابة انتحار.

ومن هنا أبى الحسين الحياة لأنها بمثابة إقرار بالواقع الفاسد.

وإيثار الحسن الصلح والمهادنة هو بنفسه إيثار الحسين الموت والشهادة، لأنهما بذلك كانا يرفعان قواعد البناء ويضعان أسس صنع الحياة.

وهكذا «كانا (ع) وجهين لرسالة واحدة، كل وجه منهما في موضعه منها وفي زمانه من مراحلها، يكافىء الآخر في النهوض بأعبائها، ويوازنه بالتضحية في سبيلها».

«وكانت شهادة الطف حسنية أولاً، وحسينية ثانياً، لأن الحسن أنضج نتائجها ومهد أسبابها»[١] كما يأتي في الكتاب القادم إن شاء الله تعالى.

وهكذا أصبح الصلح ـ بحكم كونه الطريق الوحيد للنصر القادم من بعيد ـ سلاحاً جديداً ومبيداً بيد الإمام الحسن شهره في وجه عدوه ـ من حيث لا يشعر ذلك العدو بخطورة هذا السلاح ـ فقتله به شر قتلةٍ ولكن بعد حين. وعلم الناس حينذاك معنى جواب الإمام حين سئل عن أسباب الصلح وفوائده وعوائده فقال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

وعندما انهار حكم بني أمية تحت ضربات ثارات الحسين التي كانت من أصداء صلح الحسن ونتائجه عرف الناس مغزى تمثل الإمام الحسن بآية ليلة القدر، فقد ظهر بنتيجة الحساب والتدقيق أن حكم بني أمية قد امتد ألف شهر، وكان الصلح ـ باعتبار ما انطوى عليه من رضا الله وباعتبار أن الحسن قد رضي به تقرباً إلى الله ـ خيراً من حكم الضلال والطغيان الذي يمتد ألف شهر، كما أن هذا الصلح بما سيفضح به معاوية وبما سيعريه به أمام الأمة سيضع حداً لحكم هذه الأسرة المشؤومة والشجرة الملعونة فلا يمتد أكثر من ألف شهر.

وكان هذا الجواب من الإمام ـ على ايجازه واقتضابه ـ أبلغ من أي شرح وتفصيل لو وعى الواعون يومذاك خطط أبي محمد وأهدافه البعيدة المدى.

ولما كانت الظروف التي رافقت الصلح على جانب كبير من الدقة والحساسية والصعوبة، فإن الإمام لم يتح له أن يشرح أسرار دوافع

(١) السيد عبد الحسين شرف الدين/ مقدمة صلح الحسن: ١٢ ـ ١٣.

الصلح ونتائجه المتوقعة، لأن ذلك سينبه العدو على ما هو غافل عنه وغير ملتفت إليه، ولعل من الممكن أن يتراجع معاوية حينذاك عن طلب الصلح فيخسر الحسن هذا المكسب الكبير المتاح، وهذا السلاح الماضي الفتاك.

ولكن ذلك لم يمنع الإمام من إشارات مقتضبة إلى أسرار تلك الدوافع والبواعث كان يرد بها على أولئك المستفسرين أو الغاضبين من أصحابه.

سأله مرة أحد أصحابه قائلاً:

«يا ابن رسول الله لم هادنت معاوية وصالحته، وقد علمتَ أن الحق لك دونه، وأن معاوية ضال طاغ؟».

فقال الإمام مجيباً في جملة رد طويل:

«علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله (ص) لبني ضمرة وبني أشجع، ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفار بالتنزيل، ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل... ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل»[١].

ويقول في جواب سائل آخر:

«لو كنت بالحزم في أمر الدنيا وللدنيا اعمل وانصب، ما كان معاوية بأبأس مني وأشد شكيمة، ولكان رأيي غير ما رأيتم»[٢].

ويقول في جواب سائل ثالث:

---

(١) البحار: ٤٤/ ٢.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٥١.

قد «صالحت بقيا على شيعتنا خاصة من القتل، فرأيت دفع هذه الحروب إلى يوم ما»[١].

ويقول في جواب سائل رابع: «ما أردت بمصالحتي معاوية إلا أن أدفع عنكم القتل»[٢].

❁ ❁ ❁

وأدرك معاوية بعد فترة من الزمن أن الحسن قد خدعه الخديعة العظمى في هذا الصلح ـ والحرب خدعة كما جاء في الحديث الشريف[٣] ـ وأنه قد سقط في هوة عميقة سحيقة الغور بتوقيع تلك الشروط، وإنه مهما حاول التخلص من قيودها والتمرد عليها فإن عهود الله التي أعطاها للحسن ستلاحقه في كل آن، وإن الفضيحة من نقض الايمان بعد توكيدها لن تبارحه أبداً، فلم يطق صبراً على ذلك ولم يعد في مقدوره أن يتحمل.

وتكشف ذكاؤه المزعوم ودهاؤه الذي طبل له المرتزقة عن أخس وسيلة وأحط خطة عرفها أسلوب الحكم والحاكمين على مر التاريخ، ألا وهو دس السم للإمام والتخلص منه نهائياً وإلى آخر الدهر.

ورأى معاوية أن خير من يقوم بهذه المهمة ويضمن نجاحها هي صاحبة الضمير الميت والنفاق الموروث جعدة بنت الأشعث ابن قيس زوجة الإمام، كما كان خير من يقوم بالوساطة بينه وبينها ذلك الرجل البعيد عن الدين والخلق والشرف، المعروف بـ «الوزغ ابن الوزغ» على لسان رسول

(١) الأخبار الطوال: ٢٢٠.

(٢) الأخبار الطوال: ٢٢١.

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ٢٤٤ و٩/ ٢١ وصحيح مسلم: ٣/ ١١٤ وسنن أبي داود: ٢/ ٤١ وسنن الترمذي: ٤/ ١٩٤ وسنن ابن ماجة: ٢/ ٩٤٥ ومسند أحمد: ١/ ٨١.

الله (ص) وطريده من المدينة مدة حياته، ألا وهو مروان بن الحكم.

واطمع معاوية جعدة ـ إن هي قامت بهذه المهمة القذرة ـ أن يدفع لها مائة ألف درهم ويزوجها من يزيد. فأطاعت الأمر، وسقت زوجها وإمامها وخليفتها الشرعي السم القتال، فقضى الحسن نحبه صابراً محتسباً، وباء معاوية وشركاؤه بهذا الإثم الفظيع فيما باؤا به من آثام، ثم عادت جعدة ـ بعد ذلك ـ صفر اليدين من الزواج بيزيد، ولم تحظ بغير المال السحت فقط(١).

وعندما أشرف الحسن على الموت أوصى ـ كما يروي أبو الفرج ـ «أن يدفن مع رسول الله (ص)، فمنع مروان بن الحكم من ذلك، وركبت بنو أمية في السلاح، وجعل مروان يقول: يا رب هيجا هي خير من دعه، أيدفن عثمان في أقصى البقيع ويدفن الحسن في بيت رسول الله (ص)، والله لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمل السيف، فكادت الفتنة تقع»، وروى: أن «عائشة ركبت بغلاً واستنفرت بني أمية: مروان بن الحكم ومن كان هناك منهم ومن حشمهم»، وقال القائل: «فيوماً على بغل ويوماً على جمل»(٢).

ويروي اليعقوبي: أن القاسم بن محمد بن أبي بكر أتى عمته عائشة فقال لها: «يا عمة ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر، أتريدين أن يقال يوم البغلة الشهباء»(٣).

---

(١) يراجع في القضايا السالفة: المنتخب من ذيل المذيل ـ ذيول تاريخ الطبري: ٥١٤ ومروج الذهب: ٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ومقاتل الطالبيين: ٧٣ ـ ٧٤ والاستيعاب: ١/ ٣٧٤ والكامل لابن الأثير: ٣/ ٢٢٨ وذخائر العقبى: ١٤١ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٤٩ ـ ٥١ وتاريخ أبي الفدا: ١/ ١٨٣ والبداية والنهاية: ٨/ ٤٢ ـ ٤٣ والإصابة: ١/ ٣٣٠.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٧٤ ـ ٧٥ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٥٠ ـ ٥١.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠٠.

ولكن المفيد في روايته يقول: إن الحسن قد أوصى أخاه الحسين أن يحمل سريره إلى قبر جده (ص) لتجديد العهد به وبزيارته وأن يرد بعد ذلك إلى البقيع فيدفن إلى جوار جدته فاطمة بنت أسد، كما روى أن الحسن قد نبه أخاه إلى أن القوم «يظنون أنكم تريدون دفني عند رسول الله (ص) فيجلبون في ذلك ويمنعونكم منه، وبالله أقسم عليك ألا تهريق في أمري محجمة دم».

ويضيف المفيد راوياً: ان آل مروان لما تجمعوا وأمامهم السيدة عائشة على بغلها قال الحسين مخاطباً هؤلاء الغوغاء: «والله لولا عهد الحسن إليّ بحقن الدماء وأن لا أهريق في أمره محجمة دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم، وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا»(١).

ثم أخذ الحسين جثمان أخيه ودفنه في البقيع كما أوصاه أخوه، ولقد غصّ البقيع بالناس «ولو طرحت فيه إبرة ما وقعت إلا على رأس انسان»(٢)، و«مكث الناس يبكون على الحسن بن علي (ع) سبعاً ما تقوم الأسواق»(٣)، و«حدّ نساء بني هاشم عليه سنة» بعد أن أقاموا النوح عليه شهراً(٤).

ووقف محمد بن الحنفية على جثمان أخيه مؤبناً فكان مما قال:

«رحمك الله أبا محمد، فوالله لئن عزت حياتك لقد هدت وفاتك، ونعم الروح روح عمر به بدنك، ونعم البدن بدن ضمه كفنك، ولم لا تكون كذلك وأنت سليل الهدى وحلف أهل التقوى وخامس أصحاب الكساء، غذتك كف الحق، وربيت في حجر الإسلام، وارضعتك ثديا

(١) الإرشاد: ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٢) المنتخب من ذيل المذيل ـ ذيول تاريخ الطبري ـ : ٥١٤ والإصابة: ١/ ٣٣٠
(٣) و(٤) المنتخب من ذيل المذيل ذيول تاريخ الطبري: ٥١٤.

الإيمان، فطب حياً وميتاً، فعليك السلام ورحمة الله، وإن كانت أنفسنا غير قالية لحياتك، ولا شاكة في الخيار لك»[١].

وكتب عامل المدينة إلى معاوية يعلمه نبأ وفاة الإمام، «فلما أتاه الخبر أظهر فرحاً وسروراً حتى سجد وسجد من كان معه. فبلغ ذلك عبدالله بن عباس ـ وكان بالشام يومئذ ـ فدخل على معاوية، فلما جلس قال معاوية: يا ابن عباس هلك الحسن بن علي، فقال ابن عباس: نعم هلك إنّا لله وإنا إليه راجعون، ترجيعاً مكرراً، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته... ولقد مات وهو خير منك، ولئن أصبنا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه جده رسول الله (ص).. ثم شهق ابن عباس، وبكى من حضر في المجلس، وبكى معاوية، فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم،.. ثم قال: يا ابن العباس أصبحت سيد قومك من بعده، فقال ابن عباس: أما ما أبقى الله أبا عبدالله الحسين فلا»[٢].

وليس لنا ما نختتم به الكلام تعليقاً على فعلة معاوية الشنعاء وجريمته النكراء بقتل سبط رسول الله (ص) وأحد سيدي شباب أهل الجنة إلا أن نردد قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

صدق الله العلي العظيم.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠٠، وقريب من هذا النص في مروج الذهب: ٢/ ٣٠٤.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/١٥٩ ـ ١٦٠، وبعضه في تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠١ والأخبار الطوال: ٢٢٢ ومروج الذهب: ٢/ ٣٠٥.

ملاحق الكتاب

الملحق الأول: ـ نص المناظرة التي جرت في مجلس معاوية بين الإمام الحسن (ع) وكبار رجال الدولة الأموية.

الملحق الثاني: ـ صورة الكتاب الذي أنشأه الخليفة العباسي المعتضد بالله في شأن بني أمية.

أورد ـ في أدناه ـ نصين تاريخيين مهمين يكادان يكونان وثيقتين حافلتين بالمعلومات القيّمة والأسرار الدفينة، التي لا مناص للراغب في الوقوف على الحقائق الموضوعية من الاطلاع عليها والتأمل فيها، ليتعرف أكثر فأكثر على واقع أولئك الرجال الذين لعبوا تلك الأدوار التخريبية الكبرى في صدر الإسلام، لحرف المسيرة عن طريقها القويم، ولاغتصاب السلطة من أصحابها الشرعيين.

وقد رويتُ هذين النصين كما وردا في المصادر المعتمدة، وبدون إثقال الهوامش بالشروح والتعاليق، لعلمي بأن فيهما الكفاية والغنى عن كل تطويل وتفصيل.

الملحق الأول

صورة المناظرة التي جرت في مجلس معاوية بين الإمام الحسن (ع) وكبار رجال الدولة الأموية:

«روى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات قال: اجتمع عند معاوية: عمرو بن العاص، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعتبة بن أبي سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علي (ع) قوارص، وبلغه عنهم مثل ذلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن الحسن قد أحيا أباه وذكره، وقال فصُدّق، وأمر فأطيع، وخفقت له النعال، وإن ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوءنا.

قال معاوية: فما تريدون؟ قالوا: ابعث عليه فليحضر لنسبَّه ونسبَّ أباه، نعيّره ونوبخه، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرره بذلك، ولا يستطيع أن يغير علينا شيئاً من ذلك. قال معاوية: إني لا أرى ذلك ولا أفعله، قالوا: عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن، فقال: ويحكم لا تفعلوا! فوالله ما رأيته قط جالساً عندي إلاَّ خفتُ مقامه وعيبه لي، قالوا: ابعث إليه على كل حال. قال: إن بعثت إليه لانصفنّه منكم.

فقال عمرو بن العاص: أتخشى أن يأتي باطله على حقنا، أو يربى قوله على قولنا؟ قال معاوية: اما اني إن بعثت إليه لآمرته أن يتكلم بلسانه كله، قالوا: مُرْهُ بذلك. قال أما إذ عصيتموني، وبعثتم إليه وأبيتم

إلا ذلك فلا تمرضوا له في القول، واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم العائب، ولا يلصق بهم العار، ولكن اقذفوه بحجره، تقولون له: إن أباك قتل عثمان، وكره خلافة الخلفاء من قبله.

فبعث إليه معاوية، فجاءه رسوله، فقال: إن أمير المؤمنين يدعوك.

قال: مَنْ عنده؟ فسماهم له. فقال الحسن (ع): ما لهم خرَّ عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. ثم قال: يا جارية، ابغيني ثيابي، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم، وأدرأ بك في نحورهم، وأستعين بك عليهم، فاكفنيهم كيف شئت وأنّى شئت، بحول منك وقوة، يا أرحم الراحمين.

فلما دخل على معاوية، أعظمه وأكرمه، وأجلسه إلى جانبه، وقد ارتاد القوم وخطروا خطران الفحول، بغياً في أنفسهم وعلواً، ثم قال: يا أبا محمد، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني.

فقال الحسن (ع): سبحان الله، الدار دارك، والاذن فيها إليك، والله إن كنتَ أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم، إني لأستحيي لك من الفحش. وإن كانوا غلبوك على رأيك، إني لأستحيي لك من الضعف، فأيهما تقرر، وأيهما تنكر؟ أما إني لو علمتُ بمكانهم جئتُ معي بمثلهم من بني عبد المطلب، وما لي أن أكون مستوحشاً منك ولا منهم، إن وليي الله، وهو يتولى الصالحين.

فقال معاوية: إني كرهت أن أدعوك، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له، وإن لك منهم النَّصَفَ ومني، وإنما دعوناك لنقررك أن عثمان قتل مظلوماً، وإن أباك قتله، فاستمع منهم ثم أجبهم، ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك.

❀ ❀ ❀

فتكلم عمرو بن العاص، فحمد الله وصلى على رسوله، ثم ذكر علياً (ع)، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله، وقال: إنه شتم أبا بكر وكره خلافته، وامتنع من بيعته، ثم بايعه مكرهاً، وشرك في دم عمر، وقتل عثمان ظلماً، وادعى من الخلافة ما ليس له.

ثم ذكر الفتنة يعيّره بها، وأضاف إليه مساوىء، وقال: إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك على قتلكم الخلفاء، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء، وحرصكم على الملك، واتيانكم ما لا يحل. ثم انك يا حسن، تحدث نفسك إن الخلافة صائرة إليك، وليس عندك عقل ذلك ولا لبه، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك، وتركك أحمق قريش، يُسْخَر منك ويُهزأ بك، وذلك لسوء عمل أبيك. وإنما دعوناك لنسبك وأباك. فأما أبوك فقد تفرد الله به وكفانا أمره، وأما أنت فإنك في أيدينا نختار فيك الخصال، ولو قتلناك ما كان علينا اثم من الله، ولا عيب من الناس، فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا؟ فإن كنتَ ترى أنا كذبنا في شيء فأردده علينا فيما قلنا، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان.

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فقال: يا بني هاشم، إنكم كنتم أخوان عثمان، فنعم الولد كان لكم، فعرف حقكم، وكنتم أصهاره فنعم الصهر كان لكم، يكرمكم، فكنتم أول من حسده، فقتله أبوك ظلماً، لا عذر له ولا حجة، فكيف ترون الله طلب بدمه، وأنزلكم منزلتكم، والله إن بني أمية خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية، وإن معاوية خير لك من نفسك.

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان، فقال: يا حسن، كان أبوك شر قريش لقريش، أسفكها لدمائها، وأقطعها لأرحامها، طويل السيف واللسان، يقتل الحي، ويعيب الميت، وانك ممن قتل عثمان، ونحن قاتلوك به، وأما رجاؤك الخلافة فلست في زندها قادحاً، ولا في ميراثها راجحاً،

وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان، وإن في الحق أن نقتلك وأخاك به، فأما أبوك فقد كفانا الله أمره، وأقاد منه، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان.

ثم تكلم المغيرة بن شعبة، فشتم علياً، وقال والله ما أعيبه في قضية يخون، ولا في حكم يميل، ولكنه قتل عثمان. ثم سكتوا.

❀ ❀ ❀

فتكلم الحسن بن علي (ع)، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله (ص)، ثم قال: أما بعد يا معاوية، فما هؤلاء شتموني ولكنك شتمتني، فحشاً ألفْتَه وسوء رأي عُرفتَ به، وخلقاً سيئاً ثبتَّ عليه، وبغياً علينا، عداوة منك لمحمد وأهله، ولكن اسمع يا معاوية، واسمعوا فلأقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم.

أنشدكم الله أيها الرهط، أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم، صلى القبلتين كليهما وأنت يا معاوية بهما كافر تراها ضلالة، وتعبد اللات والعزى غواية!

وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما بيعة الفتح وبيعة الرضوان، وأنت يا معاوية بإحداهما كافر، وبالأخرى ناكث!

وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً، وإنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم، تسرون الكفر، وتظهرون الإسلام، وتُستمالون بالأموال!

وأنشدكم الله ألستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله (ص) يوم بدر، وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه، ثم لقيكم يوم أُحد ويوم الأحزاب، ومعه راية رسول الله (ص)، ومعك ومع أبيك راية الشرك، وفي كل ذلك يفتح الله له ويفلح حجته وينصر دعوته، ويصدق

حديثه، ورسول الله (ص) في تلك المواطن كلها عنه راض، وعليك وعلى أبيك ساخط!

وأنشدك الله يا معاوية، أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر، وأنت تسوقه، وأخوك عتبة هذا يقوده، فرآكم رسول الله (ص)، فقال: «اللهم العن الراكب والقائد والسائق».

أتنسى يا معاوية الشعر الذي كتبته إلى أبيك لما همَّ أن يسلم، تنهاه عن ذلك:

يا صخر لا تسلمنَّ يوماً فتفضحنا
بعد الذين ببدر أصبحوا فرقا
خالي وعمي وعم الأم ثالثهم
وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركننَّ إلى أمر تكلفنا
والراقصات به في مكة الخرقا
فالموت أهون من قول العداة: لقد
حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

والله لما أخفيتُ من أمرك أكبر مما أبديت.

وأنشدكم الله أيها الرهط، أتعلمون أن علياً حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله (ص) فأنزل فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1]. وأن رسول الله (ص) بعث أكابر أصحابه إلى بني قريظة فنزلوا من حصنهم فهزموا، فبعث علياً بالراية، فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله، وفعل في خيبر مثلها.

---

(١) سورة المائدة: ٨٧.

ثم قال: يا معاوية أظنك لا تعلم إني أعلم ما دعا به عليك رسول الله (ص) لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني خزيمة، فبعث إليك ابن عباس، فوجدك تأكل، ثم بعثه إليك مرة أخرى فوجدك تأكل، فدعا عليك الرسول بجوعك ونهمك إلى أن تموت.

وأنتم أيها الرهط: نشدتكم الله، ألا تعلمون أن رسول الله (ص) لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردها:

أولها: يوم لقي رسول الله (ص) خارجاً من مكة إلى الطائف، يدعو ثقيفاً إلى الدين، فوقع به وسبه وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده، وهمَّ أن يبطش به، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه.

والثانية يوم العير، إذ عرض لها رسول الله (ص) وهي جائية من الشام، فطردها أبو سفيان، وساحل بها، فلم يظفر المسلمون بها ولعنه رسول الله (ص)، ودعا عليه، فكانت وقعة بدر لأجلها.

والثالثة يوم أُحد، حيث وقف تحت الجبل، ورسول الله (ص) في أعلاه وهو ينادي: أُعلُ هبل! مراراً، فلعنه رسول الله (ص) عشر مرات، ولعنه المسلمون.

والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلعنه رسول الله (ص) وابتهل.

والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قريش فصدوا رسول الله (ص) عن المسجد الحرام، والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، ذلك يوم الحديبية، فلعن رسول الله (ص) أبا سفيان، ولعن القادة والأتباع، وقال: «ملعونون كلهم، وليس فيهم من يؤمن»، فقيل: يا رسول الله، أفما يرجى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة؟ فقال: «لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد».

والسادسة يوم الجمل الأحمر.

والسابعة يوم وقفوا لرسول الله (ص) في العقبة ليستنفروا ناقته، وكانوا إثني عشر رجلاً، منهم أبو سفيان. فهذا لك يا معاوية.

❀ ❀ ❀

وأما أنت يا ابن العاص، فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً، من عهر وسفاح، فتحاكم فيك أربعة من قريش، فغلب عليك جزارها، ألأمهم حسباً، وأخبثهم منصباً، ثم قام أبوك فقال: أنا شانيء محمد الأبتر، فأنزل الله فيه ما أنزل.

وقاتلت رسول الله (ص) في جميع المشاهد، وهجوته وآذيته بمكة، وكدته كيدك كله، وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة.

ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة، لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة. فلما أخطأك ما رجوت ورجعك الله خائباً، وأكذبك واشياً، جعلت حدك على صاحبك عمارة بن الوليد، فوشيت به إلى النجاشي، حسداً لما ارتكب مع حليلتك، ففضحك الله وفضح صاحبك.

فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام. ثم انك تعلم، وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله (ص) بسبعين بيتاً من الشعر، فقال رسول الله (ص): «اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة» فعليك إذاً من الله ما لا يحصى من اللعن.

وأما ما ذكرتَ من أمر عثمان، فأنت سعرت عليه الدنيا ناراً، ثم لحقت بفلسطين، فلما أتاك قتله، قلتَ: أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها. ثم حبست نفسك إلى معاوية، وبعت دينك بدنياه، فلسنا نلومك على بغض، ولا نعاتبك على ود، وبالله ما نصرت عثمان حياً ولا

غضبت له مقتولاً، ويحك يا ابن العاص! ألستَ القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي:

تقول ابنتي أين هذا الرحيل ... وما السَّيرُ مني بمستنكر
فقلت: ذريني فإني امرؤ ... أريد النجاشي في جعفر
لأكويه عنده كيةً ... أقيم بها نخوة الأصعر
وشانىء أحمد من بينهم ... وأقْوَلُهم فيه بالمنكر
وأجري إلى عتبة جاهداً ... ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أنثني عن بني هاشم ... وما اسطعت في الغيب والمحضر
فإن قبل العتب مني له ... وإلا لويت له مشفري

فهذا جوابك، هل سمعته!.

❀ ❀ ❀

وأما أنت يا وليد، فوالله ما ألومك على بغض عليّ، وقد جلدك ثمانين في الخمر، وقتل أباك بين يدي رسول الله صبراً، وأنت الذي سماه الله الفاسق، وسمى علياً المؤمن، حيث تفاخرتما فقلت له: اسكت يا علي، فأنا أشجع منك جناناً، وأطول منك لساناً، فقال لك علي: اسكت يا وليد فأنا مؤمن وأنت فاسق.

فأنزل الله تعالى في موافقة قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[١]، ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضاً: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[٢]. ويحك يا وليد! مهما نسيت، فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه:

---

(١) سورة السجدة: ١٨.
(٢) سورة الحجرات: ٦.

أنــزل الله والــكــتــاب عــزيــز | فــي عــلــي وفــي الــولــيــد قــرآنــا
فــتــبــوَّى الــولــيــد إذ ذاك فــســقــاً | وعــلــي مــبــوأُ إيــمــانــا
لــيــس مــن كــان مــؤمــنــاً عــمــرك | الله كــمــن كــان فــاســقــاً خــوانــا
سوف يــدعــى الــولــيــد بــعــد قــلــيــل | وعــلــي إلــى الــحــســاب عــيــانــا
فــعــلــي يــجــزى بــذاك جــنــانــاً | ووليــد يــجــزى بــذاك هــوانــا
رب جــد لــعــقــبــة بــن أبــانٍ | لابــس فــي بــلادنــا تــبّــانــا

وما أنت وقريش؟ إنما أنت علج من أهل صفورية، وأقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه.

❀ ❀ ❀

وأما أنت يا عتبة، فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك، وما عندك خير يرجى، ولا شر يتقى، وما عقلك وعقل أَمَتكَ إلاَّ سواء، وما يضر علياً لو سببته على رؤوس الأشهاد!

وأما وعيدك إياي بالقتل، فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك! أما تستحيي من قول نصر بن حجاج فيك:

يــا لــلــرجــال وحــادث الأزمــان | ولــســبــة تــخــزي أبــا ســفــيــان
نــبــئــت عــتــبــة خــانــه فــي عــرســه | جبس لــئــيــم الأصــل مــن لــحــيــان

وبعد هذا ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه، فكيف يخاف أحد سيفك، ولم تقتل فاضحك؟ وكيف ألومك على بغض علي، وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة، وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد!

وأما أنت يا مغيرة، فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة: استمسكي، فإني طائرة عنك،

فقالت النخلة: وهل علمت بك واقعة علي فاعلم بك طائرة عني!

والله ما نشعر بعداوتك إيانا، ولا اغتممنا إذ علمنا بها، ولا يشق علينا كلامك وإن حد الله في الزنا لثابت عليك، ولقد درأ عمر عنك حقاً، الله سائله عنه!

ولقد سألتَ رسول الله (ص): هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها؟ فقال: «لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا»، لعلمه بأنك زانٍ.

وأما فخركم علينا بالإمارة: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[1].

❀ ❀ ❀

ثم قام الحسن فنفض ثوبه، وانصرف، فتعلق عمرو بن العاص بثوبه، وقال: يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله فيّ وقذفه أمي بالزنا وأنا مطالب له بحد القذف.

فقال معاوية: خل عنه لا جزاك الله خيراً. فتركه.

فقال معاوية: قد أنبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته، ونهيتكم أن تسبوه فعصيتموني، والله ما قام حتى أظلم علي البيت، قوموا عني، فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم، وعدو لكم عن رأي الناصح المشفق. والله المستعان»[2].

❀ ❀ ❀

(١) سورة الإسراء: ١٦.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٨٥ ـ ٢٩٤.

الملحق الثاني

صورة الكتاب الذي أنشأه الخليفة العباسي أبو العباس المعتضد بالله في شأن بني أمية، سنة ٢٨٤ هـ:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله العلي العظيم، الحليم الحكيم، العزيز الرحيم، المنفرد بالوحدانية، الباهر بقدرته، الخالق بمشيئته وحكمته، الذي يعلم سوابق الصدور، وضمائر القلوب، لا يخفى عليه خافية، ولا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات العلا، ولا في الأرضين السفلى، قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وضرب لكل شيء امداً، وهو العليم الخبير. والحمد لله الذي برأ خلقه لعبادته، وخلق عباده لمعرفته، على سابق علمه في طاعة مطيعهم، وماضي أمره في عصيان عاصيهم، فبين لهم ما يأتون وما يتقون، ونهج لهم سبل النجاة، وحذرهم مسالك الهلكة، وظاهر عليهم الحجة، وقدم إليهم المعذرة، واختار لهم دينه الذي ارتضى لهم، وأكرمهم به، وجعل المعتصمين بحبله والمتمسكين بعروته أولياءه وأهل طاعته، والعاندين عنه والمخالفين له أعداءه وأهل معصيته، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة، وأن الله لسميع عليم.

والحمد لله الذي اصطفى محمداً رسوله من جميع بريته واختاره لرسالته، وابتعثه بالهدى والدين المرتضى إلى عباده أجمعين، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين، وتأذّن له بالنصر والتمكين. وأيده بالعز

والبرهان المتين، فاهتدى به من اهتدى، واستنقذ به من استجاب له من العمى، وأضل من أدبر وتولى، حتى أظهر الله أمره، وأعز نصره، وقهر من خالفه، وانجز له وعده، وختم به رسله، وقبضه مؤدياً لأمره، مبلغاً لرسالته، ناصحاً لأمته، مرضياً مهتدياً إلى أكرم مآب المنقلبين، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين، وعباده الفائزين، فصلى الله عليه أفضل صلاة وأتمها، وأجلها وأعظمها، وأزكاها وأطهرها، وعلى آله الطيبين.

والحمد لله الذي جعل أمير المؤمنين وسلفه الراشدين المهتدين ورثة خاتم النبيين وسيد المرسلين والقائمين بالدين، والمقومين لعباده المؤمنين، والمستحفظين ودائع الحكمة، ومواريث النبوة، والمستخلفين في الأمة، والمنصورين بالعز والمنعة، والتأييد والغلبة، حتى يظهر الله دينه على الدين كله ولو كره المشركون.

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعة من العامة من شبهة قد دخلتهم في أديانهم، وفساد قد لحقهم في معتقدهم، وعصبية قد غلبت عليها أهواؤهم، ونطقت بها ألسنتهم، على غير معرفة ولا روية، وقلدوا فيها قادة الضلالة بلا بينة ولا بصيرة، وخالفوا السنن المتبعة، إلى الأهواء المبتدعة، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، خروجاً عن الجماعة، ومسارعة إلى الفتنة وإيثاراً للفرقة، وتشتيتاً للكلمة وإظهاراً لموالاة من قطع الله عنه الموالاة، وبتر منه العصمة، وأخرجه من الملة، وأوجب عليه اللعنة، وتعظيماً لمن صغّر الله حقه، وأوهن أمره، وأضعف ركنه، من بني أمية الشجرة الملعونة، ومخالفة لمن استنقذهم الله به من الهلكة، وأسبغ عليهم به النعمة، من أهل بيت البركة والرحمة، قال الله عزَّ وجل: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فأعظم أمير المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك، ورأى في ترك إنكاره حرجاً عليه في

الدين، وفساداً لمن قلده الله أمره من المسلمين، وإهمالاً لما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين وتبصير الجاهلين، وإقامة الحجة على الشاكين، وبسط اليد على العاندين.

وأمير المؤمنين يرجع إليكم معشر الناس بأن الله عزَّ وجل لما ابتعث محمداً بدينه، وأمره أن يصدع بأمره، بدأ بأهله وعشيرته، فدعاهم إلى ربه، وأنذرهم وبشرهم، ونصح لهم وأرشدهم، فكان من استجاب له وصدق قوله واتبع أمره نفر يسير من بني أبيه، من بين مؤمن بما أتى به من ربه وبين ناصر له وإن لم يتبع دينه، إعزازاً له واشفاقاً عليه، لماضي علم الله فيمن اختار منهم ونفذت مشيئته فيما يستودعه إياه من خلافته وارث نبيه، فمؤمنهم مجاهد بنصرته وحميته. يدفعون من نابذه. وينهرون من عاره وعانده، ويتوثقون له ممن كانفه وعاضده. ويبايعون له من سمح بنصرته، ويتجسسون له أخبار أعدائه، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأي العين، حتى بلغ المدى، وحان وقت الإهتداء، فدخلوا في دين الله وطاعته وتصديق رسوله، والإيمان به، بأثبت بصيرة، وأحسن هدى ورغبة، فجعلهم الله أهل بيت الرحمة، وأهل بيت الدين ـ أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ـ ومعدن الحكمة، وورثة النبوة وموضع الخلافة، وأوجب لهم الفضيلة، وألزم العباد لهم الطاعة.

وكان ممن عانده ونابذه، وكذبه وحاربه من عشيرته، العدد الأكثر، والسواد الأعظم، يتلقونه بالتكذيب والتثريب، ويقصدونه بالأذية والتخويف، ويبادونه بالعداوة، وينصبون له المحاربة، ويصدون عنه من قصده، وينالون بالتعذيب من اتبعه. وأشدهم في ذلك عداوة وأعظمهم له مخالفة، وأولهم في كل حرب ومناصبة، لا يرفع على الإسلام راية إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسها، في كل مواطن الحرب، من بدر وأُحد والخندق والفتح. . . أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بني أمية، الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله في عدة مواطن، وعدة

مواضيع، لماضي علم الله فيهم وفي أمرهم، ونفاقهم وكفر أحلامهم، فحارب مجاهداً، ودافع مكابداً، وأقام منابذاً حتى قهره السيف، وعلا أمر الله وهم كارهون، فتقوّل بالإسلام غير منطو عليه، وأسر الكفر غير مقلع عنه، فعرفه بذلك رسول الله (ص) والمسلمون، وميز له المؤلفة قلوبهم، فقبله وولده على علم منه، فمما لعنهم الله به على لسان نبيه (ص)، وأنزل به كتاباً قوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ ولا اختلاف بين أحد أنه أراد بها بني أمية.

ومنه قول الرسول (ص) وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقود به ويزيد ابنه يسوق به: «لعن الله القائد والراكب والسائق». ومنه ما يرويه الرواة من قوله: يا بني عبد مناف تلقفوها تلقف الكرة. فما هناك جنة ولا نار. وهذا كفر صراح يلحقه به اللعنة من الله كما لحقت ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾. ومنه ما يروون من وقوفه على ثنية أحد بعد ذهاب بصره، وقوله لقائده: هاهنا ذببنا محمداً وأصحابه. ومنه الرؤيا التي رآها النبي (ص) فوجم لها، فما رُئي ضاحكاً بعدها، فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، فذكروا أنه رأى نفراً من بني أمية ينزون على منبره. ومنه طرد رسول الله (ص) الحكم بن أبي العاص لحكايته إياه، وألحقه الله بدعوة رسوله آية باقية حين رآه يتخلج، فقال له: «كن كما أنت»، فبقي على ذلك سائر عمره، إلى ما كان من مروان في افتتاحه أول فتنة كانت في الإسلام، واحتقا به لكل دم حرام سفك فيها أو أريق بعدها.

ومنه ما أنزل الله على نبيه في سورة القدر: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، من ملك بني أمية. ومنه أن رسول الله (ص) دعا بمعاوية ليكتب بأمره بين يديه، فدافع بأمره، واعتل بطعامه، فقال النبي: «لا أشبع الله بطنه»، فبقي لا يشبع، ويقول: والله ما أترك الطعام شبعاً، ولكن إعياء. ومنه أن رسول الله (ص) قال: «يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يحشر

على غير ملتي»، فطلع معاوية. ومنه أن رسول الله (ص)، قال: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه». ومنه الحديث المرفوع المشهور أنه قال: «إن معاوية في تابوت من نار في أسفل درك منها ينادي يا حنان يا منان. الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين».

ومنه انبراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً. وأقدمهم إليه سبقاً، وأحسنهم فيه أثراً وذكراً، علي بن أبي طالب. ينازعه حقه بباطله. ويجاهد أنصاره بضلاله وغواته، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه، من إطفاء نور الله وجحود دينه. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. يستهوي أهل الغباوة، ويموه على أهل الجهالة بمكره وبغيه، الذين قدم رسول الله (ص) الخبر عنهما، فقال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار»، مؤثراً للعاجلة، كافراً بالآجلة، خارجاً من ربقة الإسلام، مستحلاً للدم الحرام، حتى سفك في فتنته وعلى سبيل ضلالته ما لا يحصى عدده من خيار المسلمين الذابين عن دين الله والناصرين لحقه، مجاهداً لله، مجتهداً في أن يعصى الله فلا يطاع، وتبطل أحكامه فلا تقام، ويخالف دينه فلا يدان. وأن تعلو كلمة الضلالة، وترتفع دعوة الباطل، وكلمة الله هي العليا، ودينه المنصور، وحكمه المتبع النافذ، وأمره الغالب، وكيد من حادَّه المغلوبُ الداحض، حتى احتمل أوزار تلك الحروب وما اتبعها، وتطوق تلك الدماء وما سفك بعدها، وسن سنن الفساد التي عليه اثمها واثم من عمل بها إلى يوم القيامة. وأباح المحارم لمن ارتكبها، ومنع الحقوق أهلها، واغتره الإملاء، واستدرجه الإمهال، والله له بالمرصاد.

ثم مما أوجب الله له به اللعنة، قتلُه من قتل صبراً من خيار الصحابة والتابعين وأهل الفضل والديانة، مثل عمرو بن الحمق وحجر بن

عدي، فيمن قتل من أمثالهم، في أن تكون له العزة والملك والغلبة، ولله العزة والملك والقدرة، والله عزَّ وجل يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. ومما استحق به اللعنة من الله ورسوله ادعاؤه زياد بن سمية، جرأة على الله، والله يقول: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ورسول الله (ص)، يقول: «ملعون من ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه»، ويقول: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، فخالف حكم الله عزَّ وجل وسنة نبيه (ص) جهاراً، وجعل الولد لغير الفراش، والعاهر لا يضره عهره، فأدخل بهذه الدعوة من محارم الله ومحارم رسوله في أم حبيبة زوجة النبي (ص) وفي غيرها من سفور وجوه ما قد حرمه الله، وأثبت بها قربى قد باعدها الله، وأباح بها ما قد حظره الله، مما لم يدخل على الإسلام خلل مثله، ولم ينل الدين تبديل شبهه.

ومنه إيثاره بدين الله، ودعاؤه عباد الله إلى ابنه يزيد المتكبر الخمّير، صاحب الديوك والفهود والقرود، وأخذه البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعيد والإخافة والتهدد والرهبة، وهو يعلم سفهه ويطلع على خبثه ورهقه، ويعاين سكرانه وفجوره وكفره. فلما تمكن منه ما مكنه منه، ووطّأه له، وعصى الله ورسوله فيه، طلب بثارات المشركين وطوائلهم عند المسلمين، فأوقع بأهل الحرة الواقيعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش، مما ارتكب من الصالحين فيها، وشفى بذلك عبد نفسه وغليله، وظن أن قد انتقم من أولياء الله، وبلغ النوى لأعداء الله، فقال مجاهراً بكفره ومظهراً لشركه:

ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسلْ
قد قتلنا القوم من ساداتكم
وعدلنا ميل بدر فاعتدل

فـــأهـــلـــوا واســـتـــهـــلـــوا فـــرحـــاً
ثـــم قـــالـــوا: يـــا يـــزيـــد لا تـــشـــل
لـــســـت مـــن خـــنـــدف إن لـــم انـــتـــقـــم
مـــن بـــنـــي أحـــمـــد مـــا كـــان فـــعـــل
ولـــعـــت هـــاشـــم بـــالـــمـــلـــك فـــلا
خـــبـــر جـــاء، ولا وحـــي نـــزل

هذا هو المروق من الدين، وقول من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى كتابه ولا إلى رسوله، ولا يؤمن بالله ولا بما جاء من عند الله.

ثم من أغلظ ما انتهك، وأعظم ما اخترم سفكه دم الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (ص) مع موقعه من رسول الله (ص) ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل، وشهادة رسول الله (ص) له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة، اجتراء على الله، وكفراً بدينه، وعداوة لرسوله، ومجاهدة لعترته، واستهانة بحرمته، فكأنما يقتل به وبأهل بيته قوماً من كفار أهل الترك والديلم، لا يخاف من الله نقمة، ولا يرقب منه سطوة، فبتر الله عمره، واجتث أصله وفرعه، وسلبه ما تحت يده، وأعد له من عذابه وعقوبته ما استحقه من الله بمعصيته.

هذا إلى ما كان من بني مروان من تبديل كتاب الله وتعطيل أحكامه واتخاذ مال الله دولاً بينهم، وهدم بيته، واستحلال حرامه، ونصبهم المجانيق عليه، ورميهم إياه بالنيران، لا يألون له احراقاً وإخراباً، ولما حرم الله منه استباحة وانتهاكاً، ولمن لجأ إليه قتلاً وتنكيلاً، ولمن آمنه الله به إخافة وتشريداً.

واعلموا أيها الناس، إن الله عزَّ وجل إنما أمر ليُطاع، ومثَّل ليُمتثل، وحكم ليقبل، وألزم الأخذ بسنة نبيه (ص) ليتبع، وإن كثيراً ممن ضل فالتوى، وانتقل من أهل الجهالة والسفاه ممن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم

ارباباً من دون الله، وقد قال الله عزَّ وجل: ﴿فَقَاتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾.

فانتهوا معاشر الناس عما يسخط الله عليكم، وراجعوا ما يرضيه عنكم، وأرضوا من الله بما اختار لكم، وألزموا ما أمركم به، وجانبوا ما نهاكم عنه، واتبعوا الصراط المستقيم، والحجة البينة، والسبل الواضحة، وأهل بيت الرحمة، الذين هداكم الله بهم بديئاً. واستنقذكم بهم من الجور والعدوان أخيراً. وأصاركم إلى الخفض والأمن والعز بدولتهم وشملكم الصلاح في أديانكم ومعايشكم في أيامهم، والعنوا من لعنه الله ورسوله، وفارقوا من لا ينالون القربة من الله إلا بمفارقته.

اللهم العن أبا سفيان بن حرب ومعاوية ابنه، ويزيد بن معاوية. ومروان بن الحكم وولده، اللهم العن أئمة الكفر، وقادة الضلالة، وأعداء الدين، ومجاهدي الرسول، ومغيري الأحكام، ومبدلي الكتاب، وسفاكي الدم الحرام.

اللهم إنا نتبرأ إليك من موالاة أعدائك، ومن الاغماض لأهل معصيتك، كما قلت: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

يا أيها الناس، اعرفوا الحق تعرفوا أهله، وتأملوا سبل الضلالة تعرفوا سابلها فإنه إنمايبين عن الناس أعمالهم، ويلحقهم بالضلال والصلاح آباؤهم، فلا يأخذكم في الله لومة لائم، ولا يميلن بكم عن دين الله استهواء من يستهويكم وكيد من يكيدكم، وطاعة من تخرجكم طاعته إلى معصية ربكم»[١].

---

(١) تاريخ الطبري: ١٠/ ٥٥ ـ ٦٢.

الإمام الحسين بن علي عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ستُعنى هذه الرسالة باستعراض سيرة الإمام الثالث من أئمة الهدى، ريحانة الرسول، وسيد شباب أهل الجنة، أبي عبدالله الحسين بن علي بن أبي طالب ـ (ع) ـ .

وكان لهذه السيرة الكريمة من قدسية المبادىء وسمو الأهداف وعظمة التضحية وأريج الشهادة؛ ما جعل منها ـ بحقٍّ ـ سيرة المسلم الأفضل والإنسان الأمثل، الذي تجسمت فيه العقيدة بأنصع صفحاتها، والدين بأروع عطائه، وعزة النفس بأعظم ما عرفها تاريخ البشرية العريق.

ولما كانت هذه الصفحات المعدودات غير قادرة على الإلمام بكل جوانب تلك السيرة المعطرة؛ وكل حلقاتها الذهبية الوضاءة، لم نجد بدّاً من الاقتصار على أبرز تلك الجوانب وأكثرها ارتباطاً بحياتنا المعاصرة،بما تمنح من عزم؛ وتعطي من درس؛ وتذلّل من مشاق النضال وعقباته.

وبدءاً بمولده الشريف في بيت الرسالة والقرآن، وما أُثِر عن جده المصطفى (ص) فيه من أحاديث، وما تضمنته تلك الأحاديث من قراءة غيبيّة لما سيلقاه هذا السبط من بعض المحسوبين على هذه الأمة.

ومروراً بما عاش الحسين من أحداث عصره منذ وفاة جدّه الأعظم (ص) حتى بيعة أبيه بالخلافة، وبما شهده العالم الإسلامي أيام

خلافة عليّ (ع) من خيانة الناكثين وتمرد القاسطين وخروج المارقين، ثم ما وقع بعد بيعة عامّة المسلمين لأخيه الحسن (ع) من امتناع بعضٍ عن البيعة؛ ومن اجتماع أتباع الشيطان على حرب إمام زمانهم؛ ومن اضطرار الإمام الحسن إلى الصلح مع معاوية لأسباب موضوعية سبق الحديث عنها بالتفصيل في كتابنا «الإمام الحسن بن علي ـ(ع) ـ»؛ ومن توقيع الطرفين على معاهدة الصلح التي أنهت الحربَ ولم تُنْهِ البغي والفساد في الأرض؛ ومن نقض معاوية لتلك المعاهدة حرفاً حرفاً وبنداً بنداً؛ ذلك النقض الذي بلغ غايته في الشناعة والفظاعة بدسِّ السم للإمام الحسن (ع) وبتنصيب الفاسق الفاجر ـ يزيد ـ سلطاناً على المسلمين.

وانتهاءً بإعلان الحسين ثورته الكبرى على الواقع الفاسد، للعودة إلى لبّ الدين وجوهر الإسلام من جديد، وما جرى خلالها من أحداث مريرة ومآسٍ مفجعة ووقائع دامية.

وكانت لنا أثناء ذلك وقفة متأنّية بحثنا فيها أسباب ثورة الحسين على يزيد ومسوّغاتها العقيدية، لنرى هل كان ذلك منه خروجاً على الخليفة الشرعي الواجب الطاعة ـ كما يزعم وعّاظ السلاطين ـ أو أنه مطالبة بحقٍّ له مشروع؟، وهل كان المراد بالحق المشروع هو حق أهل البيت في الإمامة ـ دون سواهم ـ كما يعتقد الشيعة الإمامية، أو أنه حق خاص بالحسين على كل الفروض أو الاجتهادات في المسألة؟

❀ ❀ ❀

والله المسؤول ـ أولاً وأخيراً ـ أن يسدّد الخطأ على الطريق، ويمدّ بمزيدٍ من العون والتوفيق، إنه خير مسدّد وموفّق ومعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإمام الحسين بن علي عليه السلام

بين ولادته وإمامته

«إنه الحسين.. وقد احتضنته من أطرافه سمات الرسالة، وتلألأت في قسماته هالات الإمامة، وسطع جبينه بإشراقة النور النبوي الدافق الخلاّب.

«إنه الكائن السماوي على صورة إنسان الأرض، والملاك الروحي الماثل أمام العين بمادة الجسد»...

«إنه المزيج الفريد بين المادة والروح، والسماء والأرض، والبشر والملائكة».

❀ ❀ ❀

في ذلك اليوم المشرق الوضّاء الدافق بالبهاء والنور؛ يوم الخامس من شهر شعبان[1]، سنة أربع من الهجرة[2]، استقبل بيتُ النبوة المطهّر؛

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٧٨ والإرشاد: ٢٠٣ والمعجم الكبير: ٣/١٢٦ والاستيعاب: ١/٣٧٧ وأسد الغابة: ٢/١٨ وذخائر العقبى: ١١٨ والبداية والنهاية: ٨/١٤٩ وسير أعلام النبلاء: ٣/١٨٨ ومجمع الزوائد: ٩/١٩٤.

ولا يتنافى هذا التاريخ مع ما ورد في تاريخ بغداد: ١/١٤١ من أنه وُلد لليالٍ خلون من شعبان، وماورد في الإصابة: ١/٣٣١ من ولادته في شعبان.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٧٨ والإرشاد: ٢٠٣ والمعجم الكبير: ٣/١٢٦ وتاريخ بغداد: =

ثاني السبطين والريحانتين، فعمَّت الفرحة وغمرت البهجة ودوَّت الأرجاء بأصداء البشر والحبور.

وبادر النبي (ص) فور سماعه النبأ السارّ إلى دار حبيبته الزهراء، فأخذ هذا الوليد الجديد بيديه الكريمتين؛ واحتضنه بساعديه المباركين، فأذّن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، وسمّاه حسيناً، وكناه أبا عبدالله، وأمر بأن يُعقّ عنه بكبشٍ ويوزّع لحمه على الفقراء، وأن يُحلَق شعرُ رأسه ويُتصدّق بزنته فضّة؛ وأن يُطْلى رأسُه بالخَلُوق. ثم يُختَن في اليوم السابع من ولادته(١).

ونشأ هذا المولود المبارك في ظلال جدِّه الوارفة ـ كما نشأ أخوه من قبل ـ نشأةً فريدة متميزة؛ لم يعرفها تاريخ الأطفال والصبيان في الأرض، ولم يُشاهَدُ مثلها في حياة الأسباط والأحفاد بين الناس، على الرغم من أن الحسين لم يُكتَب له من العيش في كنف جدّه الأعظم ـ (ص) ـ إلاّ سُنيّاتٍ يسيرة من العمر، ولكنها كانت فيما حفلت به وانطوت عليه سنياتٍ تفضل القرون، وتربو في شرفها وقدسها على العصور.

إنها السنوات التي كانت أسمارها التكبير والتهليل، وأحاديثها آيات

١/ ١٤١ وأسد الغابة: ٢/ ١٨ وذخائر العقبى: ١١٨ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٨٨ والبداية والنهاية: ٨/ ١٤٩ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٩٤.

ولم يصح لدينا ما رُويَ في أصول الكافي: ١/ ٤٦٣ وعن الواقدي في الاستيعاب: ١/ ٣٧٧ من كونها السنة الثالثة من الهجرة، بل إن كل القرائن التاريخية ومعظم النصوص على خلافها.

(١) يراجع في ذلك، المعارف: و٢١٣ ومقاتل الطالبيين: ٧٨ والمعجم الكبير: ١/ ٢٩٢ و٣/ ١٥ ـ ١٩ و١٠٠ ـ ١٠١ والاستيعاب: ١/ ٣٧٧ وأسد الغابة: ٧/ ١٨ وذخائر العقبى: ١١٨ ـ ١٢٠.

وحي السماء، وزوّارها ملائكة الله، ونغماتها تراتيل القرآن، ونبض ساعاتها العمل المضني والجهاد الدؤوب في سبيل الله.

وأثِرت عن النبي (ص) في سبطه الكريم الثاني، خلال تلك السنوات المعدودات، من كلمات الحب والمودّة؛ وأحاديث التكريم والتعظيم ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ولا تميل به نزعات العاطفة عن قصد السبيل ـ ما لا مجال لاستيعابه في هذا المختصر؛ ولا تتسع لسرده هذه الصفحات.

وإذا كان النبي (ص) قد عبَّر في تلك النصوص عن منتهى الحبِّ للحسين وغاية التولُّه فيه ـ وإنه الصادق المصدّق في كل ما يقول ـ فإن ذلك وحده لم يكن غاية الهدف ونهاية المقصد، بل كان في تلك النصوص كما يدلُّ لفظُ بعضٍ منها وكما يُشعِر سياق بعضٍ آخر وأسلوبه؛ ما يوحي بأن الغرض المنشود شيءٌ وراء ذلك وفوق ذلك، وإنه ـ باختصار ـ إثارة انتباه الأمة ولفت نظرها إلى ما لهذا السبط الأثير من شأن خطير ودور مدّخَر في تاريخ العقيدة الإلهية والمسيرة الإسلامية في أيامها الحُبالى المقبلة.

ويكفينا هنا ـ ونحن ملتزمون بالتلخيص والإيجاز ـ أن نورد على سبيل التمثيل بضعة نصوص من تلك الأحاديث الشريفة المتواترة المتظافرة، لتكون الشاهد العدل على صواب ما قلناه:

١ ـ «خرج النبي (ص) من بيت عائشة فمرَّ على بيت فاطمة فسمع حسيناً يبكي فقال: ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني»[(١)].

٢ ـ «كان النبي ـ (ص) ـ يعوّذ الحسن والحسين: أعوذ بكلمات الله

(١) المعجم الكبير: ٣/ ١٢٤ وذخائر العقبى: ١٤٣.

التامة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عينٍ لامّة. ويقول: هكذا كان يُعَوّذ إبراهيم ابنَيْه إسماعيل وإسحاق (ع)»[1].

٣ ـ «كان رسول الله (ص) يصلّي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا أرادوا أن يمنعوهما أشار إليهم أن دعوهما. فإذا قضى الصلاة وضعهما في حجره؛ وقال: مَنْ أحبَّني فليحبّ هذين»[2].

٤ ـ كان (ص) يقول: «إن الحسن والحسين هما ريحانتاي من الدنيا»[3].

٥ ـ «سُئل رسول الله (ص): أيّ أهل بيتك أحبّ إليك؟ قال: الحسن والحسين. وكان يشمهما ويضمهما إليه»[4].

٦ ـ قال أبو هريرة: «سمعتُ رسول الله (ص) يقول: مَنْ أحبَّ الحسن والحسين فقد أحبَّني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»[5].

٦ ـ كان (ص) يقول: «مَنْ أحبّني وأحبَّ هذين وأباهما وأُمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»[6].

٨ ـ قال (ص) في الحسن والحسين: «هذان إبناي وإبنا ابنتي، اللهم إني أُحِبُّهما فأحبَّهما وأحبَّ مَنْ يحبُّهما»[7].

---

(١) ذخائر العقبى: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) مجمع الزوائد: ٩/ ١٧٩.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٣٣ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٥٧ وحلية الأولياء: ٥/ ٧٠ ـ ٧١ وأسد الغابة: ٢/ ١٩ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٨١.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٦٨ والبداية والنهاية: ٨/ ٢٠٥.

(٥) سنن ابن ماجة: ١/ ٥١ وتاريخ بغداد: ١/ ١٤١ والمعجم الكبير: ٣/ ٤٠ و٤١ والبداية والنهاية: ٨/ ٢٠٥ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٧٩.

(٦) مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٧٧ والمعجم الكبير: ٣/ ٤٣.

(٧) سنن الترمذي: ٥/ ٦٥٧ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٨٠.

٩ ـ «قال رسول الله (ص) في الحسن والحسين: مَنْ أحبَّهما أحببتُه، ومَنْ أحببتُه أحَبَّه الله، ومن أحبَّه الله أدخله جنات النعيم. ومَن أبغضهما أو بغى عليهما أبغضتُه، ومَنْ أبغضته أبغضه الله، ومَنْ أبغضه الله أدخله عذاب جهنم، وله عذاب مقيم»(١).

١٠ ـ قال النبي (ص) مخاطباً عليّاً وفاطمة والحسن والحسين (ع): «أنا حربٌ لمن حاربتم، وسلم لمن سالمتم»(٢). وفي لفظ آخر «... لمن حارَبَكم... لمن سالَمَكم»(٣).

١١ ـ قال النبي (ص): «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»(٤).

١٢ ـ قال النبي (ص): «حسينٌ منِّي وأنا من حسين. أحَبَّ الله مَنْ أحبَّ حسيناً. حسين سبط من الأسباط»(٥).

١٣ ـ قالت السيدة عائشة: «خرج النبي (ص) غداة وعليه مرط مرجَّل من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال:

---

(١) المعجم الكبير: ٣/ ٤٣.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٦٩٩ وسنن ابن ماجة: ١/ ٥٢ ومسند أحمد بن حنبل: ٢/ ٤٤٢ والمعجم الكبير: ٣/ ٣١ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٧١.

(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٢٠٥.

(٤) مسند أحمد بن جنبل: ٣/ ٦٢ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٥٦ وسنن ابن ماجة: ١/ ٤٤ والمعجم الكبير: ٣/ ٢٥ ـ ٣٠ وحلية الأولياء: ٥/ ٧١ وتاريخ بغداد: ٩/ ٢٣١ والبداية والنهاية: ٨/ ٢٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٨٩ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٥) مسند أحمد بن حنبل: ٤/ ١٧٢ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٥٨ وسنن ابن ماجة: ١/ ٥١ والمعجم الكبير: ٣/ ٢٢ وأسد الغابة: ٢/ ١٩ والبداية والنهاية: ٨/ ٢٠٦ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٨١.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[١].

وكانت هذه الآية قد نزلت على النبي (ص) في بيت أُمّ سلمة، فدعا النبي عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً فجلّلهم بكساءٍ وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهِبْ عنهم الرجس وطَهّرْهم تطهيرا»[٢].

١٥ ـ لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. خرج رسول الله (ص) «وعليه مرط من شعرٍ أسود، وكان احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها، وهو يقول: إذا دعوتُ فأمّنوا. فقال أُسقف نجران: يا معشر النصارى؛ إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزالَه بها، فلا تُباهِلُوا فتهلكوا... الخ»[٣].

❀ ❀ ❀

هذا غيض من فيض من النصوص النبوية المأثورة في الحسين (ع)، وقد رواها الحفّاظ المشهورون والمحدّثون المعروفون، بل لا نجد كتاباً من كتب الحديث والأثر؛ ومصدراً من مصادر السيرة والتاريخ؛ لم يورد بعضاً من تلك النصوص الشريفة المقدسة.

وإذا كان عددٌ منها قد تضمَّن النصّ الصريح على الحبِّ الكبير

(١) صحيح مسلم: ٧/ ١٣٠.
(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٦٦٣ والمعجم الكبير: ٣/ ٤٦ ـ ٤٧.
(٣) تفسير الرازي: ٨/ ٨٠، وقريب منه في صحيح مسلم: ٧/ ١٢١ ومسند أحمد بن حنبل: ١/ ١٨٥.

والمودّة الفائقة؛ وعلى حثّ المسلمين على مثل ذلك الحب وتلك المودّة للحسين. . .

فإن فيها بضعة نصوص لا يمكن أن يكون المراد بها هو التعبير عن محض الودّ والتولُّه ـ مهما بلغ عمق ذلك وشأوه ـ وليس من الموضوعية في شيء أن يمرَّ الباحث عليها مسرعاً فلا يقف عندها وقفة المتأمّل الواعي والمتدبّر المستوعب، خصوصاً وأن قائلها سيد البلغاء وأفصح الفصحاء، وليس من شأن مَنْ يكون بهذه المثابة من الفصاحة والبلاغة أن يرسل الكلام على عواهنه؛ أو يستعمل الألفاظ في غير قصد تامٍّ لمعانيها المحدّدة ومداليلها الأصيلة.

وإذن. . .

لقد كان النبي (ص) مريداً كل الإرادة ما يعنيه قوله: «أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم»، بل كان يشير بذلك ـ قاصداً متعمداً ـ إلى جوانب من الحرب والسلم ما تزال في ضمير الغيب، وكأنه أراد بقولته هذه تنبيه الأمة وارشادها إلى ما يجب عليها فعله عندما يحارب هؤلاء وعندما يسالمون، بل إن فيها الأمر الضمني للمسلمين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ بأن يقفوا دائماً مع أهل البيت في خندق واحد. . . في سلمهم إذا سالموا، وفي حربهم إذا حاربوا.

ولقد كان (ص) مريداً كل الإرادة ـ أيضاً ـ ما يعنيه قوله في الحسن والحسين: «ومن أبغضهما أو بغى عليهما أبغضتُه، ومن أبغضتُه أبْغضَه الله». وإنها لإشارة منه ـ بقصدٍ وعمد ـ إلى ذلك الغد المقبل الذي سوف يعج بالفتن الدامية ويموج بالأحداث المرعبة، وتنبيه آخر للأمة ألاّ تقف موقف المبغض لهذين الإمامين وفي صفّ الباغين عليهما. وبذلك يكون هذا الحديث الشريف إخباراً نبويّاً عن غيبٍ يتعرّض فيه الإمامان إلى «البغي عليهما» من بعض من يزعم أنه من المسلمين، وتأكيداً لحديث

الحرب والسلم السالف الذكر؛ ولكن بأسلوب آخر من الصياغة والتعبير.

وأخيراً وليس آخراً، لقد كان (ص) مريداً كل الإرادة ـ أيضاً ـ ما يعنيه قوله: «حسين مني وأنا من حسين» في جميع دلالات لفظه وأبعاد مضمونه. وإذا كان واضحاً كل الوضوح أن يكون السبط من الجد؛ نسباً وحسباً؛ ووجوداً وخِلقة؛ ووراثة ولحمة، وهو معنى الفقرة الأولى: «حسين منِّي». فكيف يُقْبَل في العقول أو يصح في منطق الأشياء أنْ ينعكس الأمر وتنقلب الصورة؛ فيكون الجد من الحفيد، كما هو منطوق الفقرة الثانية: «وأنا من حسين»؟!

ولقد علّمتنا اللغة العربية أن الحرف «مِنْ» يكون تارة بمعنى ابتداء الغاية؛ وأخرى بمعنى بعض، فأيّ واحدٍ من هذين المعنيين هو المراد بقوله: «من حسين»؟

ولمّا كان التبعيض غير مرادٍ قطعاً في هذا المورد بل لا معنى له مطلقاً، لبداهة أن الجدّ لا يكون بعضَ الحفيد.

فلا بدَّ أن يكون المراد ـ لا محالة ـ هو المعنى الآخر؛ أي ابتداء الغاية.

وهنا تبرز في الحديث قراءة غيبيّة للأحداث هي من أعظم ما أخبر به الرسول الأكرم (ص) من مغيّبات، بل من أكثرها إثارة للدهشة ودلالةً على صحة الرسالة. فلقد حمل هذا النص ذو الكلمات الثلاث: «أنا من حسين» حقيقة تاريخية كبرى أو مجموعة من الحقائق التاريخية لم يعرفها الناس إلاّ بعد مثولها للعيان، وقد استغرق ذلك حيناً طويلاً من الدهر تجاوز القرن من الزمان.

وكان معنى هذه الكلمات الثلاث باختصار: إن الأيام المقبلة ستتجلّى عن عهدٍ يصبح فيه الدين غريباً كما بدأ، وأن ذلك العهد سيوجّه

سهامه ـ بالدرجة الأولى ـ نحو نبيّ الإسلام بالذات[1]، وأن العقيدة ستهتز في نفوس كثيرٍ من الناس حتى تصبح لديهم أثراً بعد عين؛ أو لقلقة لسانٍ لا تمتّ إلى القلب بصلة.

وحينذاك سيثور الحسين ثورته ويبطش بطشته، ويعطي للمصباح الذي أوشك أن ينطفىء زيتاً جديداً، هو دمه ودماء الغرّ البهاليل من آله وأصحابه، فيعود متلألئاً متّقداً كما كان، تستضيء بنوره الإنسانية في كل زمان ومكان.

وبذلك يعود محمد إلى الحياة من جديد، ونعني به محمداً ذا الرسالة الباقية ما بقي الدهر، ومحمداً الرسولَ الواجبَ الطاعة والاتّباع.

وتتحقق إذْ ذاك مقولة «أنا من حسين» بكل جلاء ووضوح.

ويصبح معنى «مِنْ» هنا هو ابتداء الغاية كما سلف ذكره:

«ابتداء» في المسيرة من حيث وقفتْ أو تقهقرتْ بعد دكّ عروش التمرد والتخريب، نحو «غايةٍ» يتجسّد فيها الهدف وهو إعلاء كلمة الله في الأرض.

وهكذا كان. . .

---

(١) يراجع في تصريح معاوية بالعمل على دفن اسم النبي (ص) ومحو ذكره: مروج الذهب: ٣/ ٣٦٢ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٢٩ ـ ١٣٠، وفي استهزائه بالحديث النبوي: شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٢ وتاريخ الخلفاء: ١٣٥.

وتوالت على الحسين من جدّه الأعظم (ص) في تلك المدّة القصيرة من حياتهما المشتركة، من كلمات الإشادة والتعظيم؛ والتنبيه والتنويه، ما يصح أن نسمّيه «يوميات» الحياة الحسينية في عهد النبوة، ممّا لا مجال لسرده بتفصيله كما أسلفنا. حتى أوشك يوم الفراق الأليم على الحلول، وآذنت المنية باختطاف محمدٍ من دنيا الإسلام والمسلمين.

وفي تلك اللحظات الحساسة الرهيبة يروي المحدّثون أن «فاطمة ابنة رسول الله (ص) أتتْ بالحسن والحسين إلى رسول الله (ص) في شكواه التي توفي فيها فقالت: يا رسول الله هذان إبناك فورّثْهما شيئاً، فقال: أمّا حسنٌ فله هيبتي وسؤددي، وأما حسينٌ فله جرأتي وجودي»[1].

وسرعان ما فارق محمد هذه الأرض، ولم يكن قد مرَّ على تقسيم الميراث النبوي بين الحسن والحسين إلاّ أيام.

وعصفت بالمجتمع الإسلامي ـ وما زال جديداً غضاً ـ من الأعاصير والأهوال والفتن والمحن ما هزّه بعنفٍ، وما أودى بكثير من الجهد الذي بذله رسول الإسلام في سبيل بناء وحدته ودعم تماسكه، وحمايته من التمزق والتفرق والانقسام. وكان ما كان. . .

ولسنا هنا بصدد البحث فيما وقع بعد وفاة النبي (ص) مما تضيق

---

(١) مجمع الزوائد: ٩/ ١٨٥.

عنه هذه الصفحات، بل لسنا في صدد الحديث عنه لما يثيره في النفوس من آلام مريرة نحن في أشد الغنى عن ذكرها أو في أشدّ الحاجة إلى تناسيها، وبخاصة في هذا اليوم الذي تكالب فيه أعداء الإسلام ـ بكل فصائلهم وبكل ما أُوتوا من ضراوة وخبث ـ على هذه الأمة المبضّعة الموزّعة، ليزيدوا في تفتيتها وتشتيتها تمهيداً للإجهاز عليها؟ لسلخها من الإسلام أو سلخ الإسلام منها إن صحّ التعبير.

وعاش الحسين تلك الأحداث والمآسي بأعنف ما يعيشها الفتى الذكي الواعي؛ المرهف الحسّ، المتيقظ الذهن؛ المدرك لكل ما يحيط به ويدور حوله.

وبدءاً بحجب الخلافة عن صاحبها الشرعي المنصوص عليه؛ حينما احتجوا بالشورى وأنكروا النصَّ ليسلبوها من عليّ بالذات، ثم احتجوا في الوقت نفسه بنص رسول الله (ص) على كون «الأئمة من قريش» وأنكروا الشورى ليمنعوا سعد بن عبادة من ترشيح نفسه لها.

ومروراً بفرض البيعة على الناس بالتهديد والوعيد والبطش والإرهاب، ثم عدَّ كلّ رافضٍ لتلك الخلافة مرتداً مهدور الدم مباح العرض والمال[(١)].

ومروراً ـ كذلك ـ بتلك المحاولة اللئيمة الحاقدة لإحراق دار عليّ ـ وفيها عليّ وفاطمة والحسنان والزبير وآخرون ـ لإجبارهم على البيعة؛ وكراههم على التسليم بالأمر الواقع[(٢)].

ومروراً ـ أيضاً ـ باغتصاب فدك من فاطمة الزهراء (ع) وقد ملّكها

---

(١) يراجع في ذلك بحثنا: «نصوص الردة في تاريخ الطبري/ نقد وتحليل» [ص: ٣١٧ ـ المجلد الثالث عشر من هذه الموسوعة].

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٢ و٢٠٥ و٢٠٨ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٠٥ وشرح نهج البلاغة: ١/ ١٧٤ و٢/ ٢٣ و٤٦ ـ ٤٧ و٥٦ و٦/ ١١ و٥١ وتاريخ أبي الفدا: ١/ ١٥٦.

أبوها هذه الأرض هبةً منه لها في حياته[١]، ولم تكن ميراثاً جاءتْ تطالب به بعد وفاته[٢].

وانتهاءً بذلك اليوم الكئيب الذي فقد فيه الحسين أُمه الزهراء، بعد مدة وجيزة من فجيعته بجدّه الأعظم (ص).

لقد عاش الحسين هذه المآسي كلها، وتجرّع مرارتها وآلامها حتى الثمالة. ولم يكن لديه ـ عندما تتكاثف الأحزان على قلبه الغضّ الطريّ ـ سوى البكاء عون؛ والصّبرِ مفزع، وإلاّ أخوه وشقيقتاه شركاء في هذه المصائب الفادحة المتوالية.

واندفع ذات يوم وقد عصر الهمُّ صدره؛ وأنفد الألم صبره، إلى الخليفة عمر بن الخطاب وهو على المنبر فقال له: «انزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك». وأدرك عمر بنباهته وذكائه عنف ثورة الحسين وشدة اندفاعه، فأخذه برفق وأجلسه معه على المنبر برهة من الوقت، ثم انطلق به إلى منزله فسأله: «مَنْ عَلّمَكَ؟» فقال له الحسين: «والله ما علّمنيه أحدٌ». فجعل عمر يلاطفه بالكلام ويقول له: «إنما أنْبَتَ ما ترى في رؤوسنا اللهُ ثم أنتم»![٣]، وفي نصّ ابن أبي الحديد: «وهل أنْبَتَ الشعرَ على الرأس غيرُكم»[٤].

---

(١) يراجع في موضوع فدك: شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٠٩ ـ ٢٨٦. فقد أورد فيه ابن أبي الحديد جميع الأقوال والآراء في هذا الموضوع وما تساجل به المؤيدون والمعارضون.

(٢) يبدو أن الميراث الذي قيل إنه لا يشمل الأنبياء فلا تُورث تركاتهم؛ إنما يختص بميراث أولادهم منهم، ولا يعمّ بقية الورّاث، ولهذا ورثت السيدتان عائشة وحفصة حصتهما من بيت زوجهما رسول الله (ص) فدفنتا فيها أبويهما إلى جانب الرسول (ص).

(٣) تاريخ بغداد: ١/ ١٤١ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٩١ والإصابة: ١/ ٣٣٢.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٢/ ٦٦.

وتمرُّ الأيام وتكرُّ الأعوام.

وما هي إلاّ سنوات حتى تربَّع الحسين أريكة الشباب، فخلب العقول والألباب، رجولةً تفيض من جوانبه، وعلماً ينطف من نواحيه، وهَدْياً يتجسّد فيه هديُ الإسلام، وخُلُقاً مستمداً بالوراثة من جدّه صاحب الخلق العظيم، وكمالاً لا يفوقه إلاّ كمالُ ربِّ الكمال، وجمالاً تضيق بتحديده أوصاف الجمال.

إنه الحسين الرجل، وقد احتضنته من أطرافه سمات الرسالة، وتلألأت في قسماته هالات الإمامة، وسطع جبينه بإشراقة النور النبوي الدافق الخلاّب.

إنه الكائن السماوي على صورة إنسان الأرض، والملاك الروحي الماثل أمام العين بمادة الجسد.

ولا عجب ـ إذن ـ أن يكون الحسين هذا قبلة الأسماع والأبصار، وملتقى العواطف والمشاعر، لأنه المزيج الفريد بين المادة والروح؛ والسماء والأرض، والبشر والملائكة.

وخرج الحسين من دار أبيه ليستقرَّ في داره الخاصة التي أصبحت مطمحاً لحاجات الطالبين؛ وموئلاً لاستغاثات المستغيثين.

واشتهر بالجود حتى لم يدع زيادة لمستزيد.

وتزوّج خلال ذلك على كتاب الله تعالى وسنّة رسوله (ص) ما شاء أن يتزوج، وقد عرفنا له في مسيرة حياته الأزواج الآتية أسماؤهنَّ.

١ ـ شاهزنان:[١] بنت كسرى ملك الفرس، وهي أُم الإمام السجاد زين العابدين علي بن الحسين (ع).

٢ ـ ليلى بنت أبي مُرَّة بن عروة بن مسعود، الثقفيَّة، وهي أُم عليّ المعروف بالأكبر، المولود في أيام خلافة عثمان[٢].

٣ ـ أُم إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله، التيمية، وهي والدة فاطمة بنت الحسين[٣].

٤ ـ الرباب بنت امرىء القيس بن عديّ، الكلبية، وهي أُمّ عبدالله بن الحسين وسكينة[٤]، وقد توفيت بعد مقتل الحسين بعام[٥].

٥ ـ عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل[٦].

٦ ـ حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر[٧].

وذكر بعض المؤرخين ولداً للحسين اسمه جعفر وقال: إن أُمّه قضاعيّة[٨]، ولم تعرف هذه القضاعيّة على وجه التفصيل.

❀ ❀ ❀

(١) الإرشاد: ٢٦٩. وقيل في اسمها غير ذلك، وسترد التفاصيل في سيرة «الإمام علي بن الحسين (ع)».

(٢) مقاتل الطالبيين: ٨٠ ـ ٨١ والإرشاد: ٢٦٩.

(٣) المحبر: ٤٤٢ والإرشاد: ٢٦٩ والدر المنثور: ٢٨٣.

(٤) المحبر: ٣٩٦ ومقاتل الطالبيين: ٨٩ ـ ٩٠ والإرشاد: ٢٦٩.

(٥) الدر المنثور: ٢٠٣.

(٦) الدر المنثور: ٣٢٠.

(٧) المحبر: ٤٤٨.

(٨) الإرشاد: ٢٦٩.

وأصبح للحسين الرجل ـ منذ اليوم ـ أثر بارز في الحياة العامة للمجتمع ـ ووجود فاعل في الساحة الإسلامية في كلِّ مجالاتها وعلى امتداد آفاقها، ترمقه الأبصار بالإكبار والتقدير، وتشير إليه الأكفُّ بالهيبة والتقديس، ويرجع إليه الناس في المواقف الصعبة والشؤون المعقّدة، فيجدون فيه المفزع القادر على تذليل تلك الصعاب، والعون القادر على حلّ تلك العُقد.

ومن أمثلة ذلك فيما روى المؤرخون:

١ ـ جاءه المسلمون ذات يوم، وقد عزموا على التوجه إلى منطقة طبرستان الإيرانية لفتحها ونشر راية الإسلام فيها، يلتمسون منه الذهاب معهم ـ كما التمسوا ذلك من أخيه الحسن وعبدالله بن عباس وحذيفة بن اليمان ـ لعلمهم بما لهذا الحضور من أثر كبير على المقاتلين في ثبات جأشهم وشدة عزيمتهم وارتفاع معنوياتهم.

ولبَّى الإمام الطلب وخرج مع المجاهدين المسلمين، سعياً وراء إعلاء كلمة الله في تلك الربوع. وكتب الله تعالى لعباده النصر المؤزَّر وفتح لهم الفتح المبين في هذه المعركة، وتمَّ تطهير تلك الأرجاء من أدران الكفر وأرجاس الشرك في سنة ٣٠ هـ[١].

٢ ـ عندما ثار المسلمون على عثمان، وقرَّ قرارهم على قتله بعد فشل جهود الصلح والتهدئة، أمر عليٌّ (ع) ولديه الحسن والحسين بالوقوف على باب عثمان ليمنعا وصول أحد من الثوار إليه[٢].

وقد بحثنا ـ فيما سبق ـ هذا الموضوع من مختلف جوانبه، وفنّدنا

(١) فتوح البلدان: ٣٣٠ وتاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٦٩ ـ ٧٤ و٩٣ و٩٥ وتاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٠ و٣٥٣ و٣٨٥ و٣٨٨ و٣٩٢ ومروج الذهب: ٢/ ٢٣٢.

نفي النافين وشكوك المشككين في وقوف الإمامين بوجه الثوار، لمنعهم من اقتحام الدار ، فلا نكرر ولا نعيد[١].

٣ ـ بويع عليّ بالخلافة بعد أن أجهز المسلمون الثائرون على عثمان فقتلوه.

وكان عليٌّ (ع) قد رضخ للأمر الواقع بعد تمنُّع وتردد، فبايعه المسلمون في كل أصقاعهم باستثناء «القاسطين» معاوية وأتباعه.

ثم تجمعت الأرستقراطية المتغطرسة في حلف شيطاني لئيم ضمَّ «الناكثين» و«القاسطين» لمحاربة الإمام الشرعي الواجب الاتّباع.

وكانت حرب الجمل في البصرة أُولى تلك الحروب.

ولم يجد عليٌّ وسيلة لحسم الموقف أفضل من خروجه بنفسه إلى العراق؛ وإلى البصرة بالذات، ليضع حداً لهذا التمرُّد الخسيس؛ بالحكمة والموعظة الحسنة أولاً؛ ثم بالسيف إنْ لم يكن حسم بدونه.

وشارك الحسين في هذه الحرب تنفيذاً لحكم الله تعالى في مقاتلة البغاة، كما شاركت فيها البقية الطاهرة من صفوة المهاجرين والأنصار، فولاّه أبوه أمر ميسرة الجيش[٢]، فركب فرس رسول الله (ص) المعروف بـ (المُرْتَجِز)[٣]، وأُبلي خير البلاء، وذكر بعض المؤرخين أنه شدَّ على (الجمل) فقطع يده اليسرى وعَقَرَه[٤]، وكان (الجمل) في هذه الحرب هو الرمز الذي جمع المتمردين من ناكثي البيعة وناقضي العهد وبغاة الأمة، ولذلك كان عقر هذا الجمل بمثابة القضاء على الصنم الأكبر الذي تحلّق

(١) كتابنا الإمام علي: ١٤٥ ـ ١٥٤ وكتابنا الإمام الحسن: ٤٩ ـ ٥٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٩٣.

(٣) وقعة الجمل: ٣٥.

(٤) وقعة الجمل: ٤٤.

حوله هؤلاء النفعيون والمخدوعون، أي بمثابة النهاية لتلك الحرب الضروس.

٤ ـ ثم شارك بعد ذلك في حرب الفئة الباغية بصفِّين، إعداداً لها وخوضاً في غمراتها، كما شاركت فيها النخبة من بقية البدريين والصحابة الأوفياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ فلم يَشُبْ صفاء قلوبهم زيغٌ أو نفاق؛ ولم يدنّس سلامة إيمانهم مطمع أو إغراء.

وروى المؤرخون أن علياً (ع) وقف خطيباً في النُّخَيْلة ـ قرب الكوفة ـ يخبر أصحابه بتوجهه إلى لقاء معاوية ومتابعيه، ويشجعهم على المضيّ معه والجهاد في سبيل الله تحت لوائه. فقام الحسن بن علي (ع) بعده فخطب في الناس، «ثم قام الحسين بن علي خطيباً: فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

«يا أهل الكوفة؛ أنتم الأحبة الكرماء، والشّعار دون الدثار. جدُّوا في إحياء ما دثر بينكم، وإسهال ما توعَّر عليكم، وأُلفة ما ذاع منكم. ألا إنَّ الحربَ شرُّها ذريع، وطعمها فظيع، وهي جُرَع مُتَحَسّاةٌ، فمن أخذ لها اهبتها، واستعدَّ لها عدّتها، ولم يألم كلومها عند حلولها، فذاك صاحبها. ومَنْ عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها، فذاك قَمِنٌ ألا ينفع قومه وأن يهلك نفسه. نسأل الله بعونه أنْ يدعمكم بأُلفته»(١).

❀ ❀ ❀

وفي الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ؛ ارتفعت روح عليّ (ع) إلى علّيين، وخفَّ للقاء ربه نقيَّ الذيل طاهر الثوب عظيم

(١) وقعة صفين: ١١٤ ـ ١١٥.

الأجر، شهيداً في الله؛ في شهر الله؛ في بيت الله، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وآلت الخلافة إلى الحسن بن علي (ع) نصّاً وبيعة: نصّاً من جدّه (ص) وأبيه، وبيعةً من جمهور المسلمين في العراق والحجاز واليمن وبلاد فارس، ولم يمتنع عنها إلاّ مَنْ شاء أن يموت ميتةً جاهلية.

وجدَّتْ بوجه هذه الخلافة الشرعيّة الراشدة أحداث وخطوب، لعبت فيها الأطماع والأنانيات دورها الكبير. ولم يجد الحسن (ع) بداً من قبول المهادنة مع معاوية على شروط اشترطها وعهودٍ طلب من عدوّه التعهد بها.

ودخل معاوية الكوفة على أثر هذا الصلح نشواناً بخمرة النصر الدنيويّ الموقّت.

وخرج موكب الحسنين (ع) من الكوفة ومعهما البقية من أهل البيت ومَنْ يمتُّ إليهم قافلين إلى المدينة[١]، فرحين برضا الله وكريم العاقبة وراحة الضمير.

واستقرَّ المقام بالحسين هناك حتى وقعت الواقعة وألمّت الفجيعة بموت أخيه الحسن (ع) بسمٍّ دسَّه معاوية ـ بواسطة مروان بن الحكم ـ إلى جعدة زوج الحسن فسَقَتْهُ إياه[٢]، فكانت فيه منيته وذهابه إلى ربّه؛ ولحاقه بركب جدّه وأبيه وأُمّه في رحاب الخلد، مع الشهداء والصدّيقين والأنبياء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ١٦٥.

(٢) يراجع في ذلك: مروج الذهب: ٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ومقاتل الطالبيين: ٧٣ ـ ٧٤ والاستيعاب: ١/ ٣٧٤ والمنتخب من ذيل المذيل ـ ذيول تاريخ الطبري: ٥١٤ والكامل: ٣/ ٢٢٨ وذخائر العقبى: ١٤١ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٤٩ ـ ٥١ والبداية والنهاية: ٨/ ٤٢ ـ ٤٣ وتاريخ أبي الفدا: ١/ ١٨٣ والإصابة: ١/ ٣٣٠.

الإمام الحسين بن علي عليه السلام

في إمامته وثورته

«وإذا كانت للباطل في دنيانا الزائلة قد ينتصر فيها مؤقتاً على الحق، فإن للحق صولات تدع الباطل هشيماً تذروه الرياح...

«وبقي الحسين ـ على مرِّ القرون ـ ذلك المثال الأوحد الفريد، وقد أراد الله تعالى له أن يظلّ الأوحد الذي لم يُشاكَل والفريد الذي ليس له نظير:

«إنه الشهيد... ولكنه المنتصر.

والقتيل... ولكنه الفاتح.

والميت... ولكنه «الحي الخالد».

❀ ❀ ❀

أصبح الحسين (ع) منذ اليوم الإمام الشرعي للمسلمين. وقد ثبتت الإمامة الشرعية له:

بنصِّ رسول الله (ص) على ذلك، وهو الصادق الأمين المصدّق.

وبنصِّ سلفه ـ أعني أخاه الحسن (ع) ـ عليه، وهو الأسلوب الذي درجت الكثرة الكاثرة من المسلمين على قبوله والرضا به في تعيين الخلفاء جيلاً بعد جيل.

وباعتراف عدوّه اللدود بذلك، والحق ما شهدت به الأعداء.

أمّا النصُّ النبويُّ:

فقد تكفّلته روايات عدة رواها المشاهير من الصحابة ودوَّنتها كتب الحديث:

مثل قوله (ص): «الأئمة من قريش» وكونهم إثنى عشر[١].

وقوله (ص) مخاطباً الحسن والحسين: «أنتما الإمامان ولأُمَّكما الشفاعة»[٢].

وقوله (ص): «أنا سيد النبيين، وعلي سيد الوصيين، وأن أوصيائي بعد إثنا عشر»[٣].

وقوله (ص) في حديث مطوّل: «عليٌّ أخي ووزيري ووارثي ووصيي وخليفتي في أُمّتي ووليُّ كل مؤمن بعدي، ثم ابني الحسن، ثم الحسين، ثم تسعة.. الخ»[٤].

ويضاف إلى ذلك كله تلك النصوص النبوية العامة الدالة على قدسية الحسين وسمو مكانته في دنيا العقيدة، مثل كونه: ثاني سيّدي شباب أهل الجنة[٥].

---

(١) صحيح البخاري: ٩/١٠١ وصحيح مسلم: ٦/٣ وسنن أبي داوود: ٢/٤٢١ وسنن الترمذي: ٤/٥٠١.

(٢) نزهة المجالس: ٢/٤٧٦.

(٣) ينابيع المودة: ٤٤٧ و٤٨٦.

(٤) رواه ابن الحموية في السمط الأول في الباب الثامن والخمسين من كتابه فرائد السمطين المخطوط، ونقل ذلك عنه في كتاب الغدير: ١/١٥٠ ـ ١٥٢.

(٥) تقدم تخريج هذا الحديث في الفصل السابق من هذا الكتاب.

ورابع الأربعة الذين باهل النبي (ص) بهم نصارى نجران، ونزلت فيهم آية المباهلة[١].

وخامس الخمسة الذين شملهم الكساء المقدّس، ونزلت فيهم آية التطهير[٢].

وأحد العترة الذين أمر النبي (ص) الأُمة بالتمسك بهم بقوله ـ في لفظ الترمذي ـ : «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. ولن يتفرّقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[٣]. وفي لفظ الإمام أحمد: «إني أُوشك أنْ أُدْعى فأُجيب، وإني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله عزَّ وجل وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروني بم تخلفوني فيهما»[٤].

وأمّا نصُّ سلفه عليه:

فهو ـ **أولاً** ـ ما ورد في معاهدة الصلح من عودة الأمر إلى الحسين بعد الحسن[٥].

---

(١) مرَّ بيان ذلك فيما سبق من هذا الكتاب.

(٢) صحيح مسلم: ٧/ ١٣٠ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٦٣ و٦٩٩.

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٦٦٣.

(٤) مسند أحمد بن حنبل: ٣/ ١٧، ويراجع الجزء نفسه: ١٤ و٢٦ و٥٩.

(٥) فتوح ابن أعثم: ٥/ ١٤ و٢٧٨ والامامة والسياسة: ١/ ١٥٠ و١٥٦ ومقتل الخوارزمي: ١/ ١٨٢ وعمدة الطالب: ٥٢ وتاريخ الخميس: ٢/ ٢٩٠..

وهو ـ ثانياً ـ وصية الحسن لمّا أدركته الوفاة؛ إلى الحسين خاصةً دون سائر الأخوة؛ وعهده إليه[١].

وأمّا اعتراف عدوّه بذلك:

فحسبنا منه ما جاء في معاهدة الصلح المبرمة بين الحسن (ع) ومعاوية؛ من تعهد الثاني بأن يكون الأمر للحسن من بعده، فإنْ حدث بالحسن حدثٌ فلأخيه الحسين[٢]، وليس لمعاوية أنْ يعهد به إلى أحد[٣]، و«كتب معاوية جميع ذلك بخطه، وختمه بخاتمه، وبذل عليه له العهود المركّبة والأيمان المغلّظة، وأشهد على ذلك جميع رؤساء الشام»[٤].

وانطلاقاً من هذه الحقيقة الساطعة؛ وإيماناً بهذه الإمامة المسلّمة، اجتمع لفيف من المسلمين من أهل الكوفة في دار سليمان بن صرد الخزاعي رضوان الله عليه حينما بلغهم نبأ وفاة الإمام الحسن (ع)، وكتبوا إلى الحسين كتاباً يعزونه فيه بأخيه، جاء فيه بعد البسملة:

«للحسين بن علي من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين: سلام عليك، فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أمّا بعد: فقد بلغنا وفاة الحسن بن علي... تقبل الله حسناته، وألحقه بنبيّه، وضاعف لك الأجر في المصاب به، وجبر بك المصيبة من بعده، فعند الله تحتسبه، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. ما أعظم ما أُصيب به هذه الأمة عامة، وأنت وهذه الشيعة خاصة، بهلاك ابن الوصي وابن بنت النبي، علم الهدى ونور البلاد، المرجوّ لإقامة الدين؛ وإعادة سِيَرِ الصالحين. فاصبر رحمك الله

(١) الإرشاد: ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٢) فتوح ابن أعثم: ١٤/٥ و٢٧٨ والإمامة والسياسة: ١/ ١٥٠ و١٥٦ ومقتل الخوارزمي: ١/ ١٨٢ وعمدة الطالب: ٥٢ وتاريخ الخميس: ٢/ ٢٩٠.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٢ والصواعق المحرقة: ٨١.
(٤) الأخبار الطوال: ٢١٨.

على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور، فإن فيك خلفاً ممن كان قبلك، وإن الله يُؤتي رشده من يُهدى بهديك. ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك؛ المسرورة بسرورك، السائرة بسيرتك؛ المنتظرة لأمرك. شرح الله صدرك، ورفع ذكرك، وأعظم أجرك، وغفر ذنبك، وردَّ عليك حقّك»[١].

وهذا الكتاب ـ كما يرى القارىء المتدبر ـ أقرب إلى كونه كتاب بيعةٍ وتسليم، منه إلى كونه كتاب تعزية ومواساة، كما أنه صريح كل الصراحة في إيمان مُرسِليه بكون الحسين هو الخلف عن السلف في الإمامة؛ وهو صاحب الحق في الخلافة الدنيوية وولاية الأمر، ولذلك دعوا الله في الختام بأنْ يردّ عليه حقّه، وما يعنون بهذا الحقّ إلاّ تلك الخلافة المغصوبة والولاية المصادَرَة بالجور والباطل.

❀ ❀ ❀

وهنا لا بدّ لنا من الإشارة إلى أن الحسين في مجمل موقفه من نظام حكم ابن هندٍ كان ملتزماً ـ بكل صدق وأمانة ـ بمنطوق معاهدة الصلح المبرمة بين أخيه الحسن ومعاوية.

وعلى الرغم من إخلال معاوية بكل شروط الصلح ونقضها شرطاً شرطاً ـ كما مرَّ تفصيله سابقاً ـ كان سيدا شباب أهل الجنة عند عهودهما وعقودهما وفاءً وتطبيقاً، تنفيذاً للقاعدة الإسلامية القائلة: المؤمنون عند شروطهم.

ويروي بعض المؤرخين أن حُجر بن عَدي وعُبيدة بن عمرو دخلا على الحسين ـ بعد صلح الحسن ـ يقترحان عليه الثورة على معاوية،

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠٣.

فقال لهما الحسين: إنّا قد عاهدنا ولا سبيل إلى نقض ذلك[(١)].

كما رُوي أن الحسين قال لبعض من راجعه في هذا الشأن: ليكنْ كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام هذا الإنسان حيّاً، يعني معاوية[(٢)].

وروى الذهبي: «أن أهل الكوفة كانوا يكتبون إلى الحسين يدعونه إلى الخروج إليهم زمن معاوية، كل ذلك يأبى»[(٣)].

وجاء في رسالة أهل الكوفة المجتمعين في دار سليمان بن صرد إلى الحسين إثر وفاة الإمام الحسن ـ وقد تقدّم نصُّها ـ قولهم فيها: «المنتظرة لأمرك»، وما أمره المنتظر من قِبَل هؤلاء إلا إعلان الثورة لإعادة الحق إلى نصابه.

وقال المفيد محمد بن محمد بن النعمان بعد إيراد شيء ممّا سلف ذكره:

«فامتنع عليهم، وذكر أنَّ بينه وبين معاوية عهداً وعقداً لا يجوز له نقضه حتى تمضي المدّة»[(٤)]، وسمّى المفيد ذلك العهد «هدنة» وذكر أن انقضاء مدتها مرهون بموت معاوية[(٥)].

ولكن معاوية ـ وقد خاس بكل عهوده التي أعطاها ـ لم يكتف بكل ما فعل وارتكب، ولم يشبع نهمَه ما نال من ملك وسلطان، فكانت أُمُّ موبقاته تنصيب ابنه يزيد أميراً على المسلمين.

(١) الأخبار الطوال: ٢٢٠.
(٢) الأخبار الطوال: ٢٢١.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٩٧.
(٤) الإرشاد: ٢٠٦.
(٥) الإرشاد: ٢٠٥.

ويروي المؤرخون أنه حاول ذلك لأول مرّة في حياة الحسن (ع)، إمعاناً في تحدّي الإمام وما عاهده به؛ وفي الخروج على ما أشهد الله عليه من إيمان وشروط، ولكنه لم يفلح في تلك المرّة ولم ينجح مسعاه.

وكانت خلاصة هذه المحاولة الأولى: إن معاوية قرّر عزل المغيرة بن شعبة واليه على الكوفة منذ سنة إحدى وأربعين للهجرة ـ وتولية سعيد بن العاص مكانه، فأُخْبِر المغيرة بذلك فذهب إلى الشام ناوياً إفساد خطّة عزله، فدخل على يزيد «فعرَّض له بالبيعة. فأدّى ذلك يزيدُ إلى أبيه، فردَّ معاوية المغيرة إلى الكوفة، وأمره أن يعمل في بيعة يزيد»(١)، وقال له: «تَحَدّثْ مع مَنْ تثق إليه في ذلك، وترى ونرى. فودّعه ورجع إلى أصحابه، فقالوا: مه، قال: لقد وضعتُ رِجْلَ معاوية في غرزٍ بعيد الغاية على أُمّة محمدٍ، وفتقت عليهم فتقاً لا يُرْتَق أبداً»(٢)!!

ثم «شخص المغيرة إلى الكوفة... وعمل في بيعة يزيد. وأوفد في ذلك وفداً إلى معاوية»(٣) ويقول ابن الأثير: أنه «أوفد عشرة، ويقال: أكثر من عشرة، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية فزيّنوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها. فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم. ثم قال لموسى: بكَم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفاً، قال: لقد هان عليهم دينهم».

«وقيل: أرسل أربعين رجلاً... فلمّا دخلوا على معاوية قاموا

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٠١/٥.
(٢) الكامل: ٢٤٩/٣.
(٣) تاريخ الطبري: ٣٠١/٥ ـ ٣٠٢، وقريب منه في البداية والنهاية: ٧٩/٨ وتاريخ الخلفاء: ١٣٧.

خطباء... وقال لهم: ننظر ما قدتم له، ويقضي الله ما أراد، والأناةُ خيرٌ من العجلة. فرجعوا».

«وقوي عزم معاوية على البيعة ليزيد»[١].

ثم قام معاوية ـ وهو في صدد التمهيد لهذا الأمر الخطير ـ بمكاتبة زياد يستشيره فيما عزم عليه، فتخوّف زيادٌ ذلك لما يعلمه في يزيد من كونه «صاحب رَسْلةٍ وتهاون، مع ما قد أُولِعَ به من الصيد»، وإن فيه «هَناتٍ ينقمها الناس عليه». فـ «كتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة وألاّ يعجل. فقبل ذلك معاوية»[٢].

كذلك «كتب إليه مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبدالله بن عامر يأمرونه أن يتأنّى في أمر يزيد وأن لا يعجل»[٣].

وتظاهر معاوية بقبول هذه النصائح كذباً وخداعاً، ولكنه لم يكفّ عن متابعة الموضوع واستمرار التمهيد له، فدعا رؤوس القبائل والزعماء من كل حدب وصوب للحضور إلى الشام، وأوعز إلى الرؤساء المناصحين له أن يخطبوا ويذكروا فضل يزيد، ليضع الحضّار في موقف محرج قد يؤدي بهم إلى الرضا أو عدم الانكار لذلك في الأقل.

«فلمّا اجتمعتْ عند معاوية وفود الأمصار... دعا معاوية الضحّاك بن قيس الفهري فقال له: إذا جلستُ على المنبر وفرغتُ من بعض موعظتي وكلامي، فاسْتأذِنْ للقيام، فإذا أذنّا لك فاحمد الله تعالى واذكرْ يزيد وقل فيه الذي يحقُّ له من حُسن الثناء عليه، ثم ادعُني إلى توليته.

---

(١) الكامل: ٣/ ٢٤٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣ والكامل: ٣/ ٢٥٠ والبداية والنهاية: ٨/ ٧٩.

(٣) فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٢٥.

«ثم دعا عبدَ الرحمن بن عثمان الثقفي؛ وعبيدَالله بن مسعدة الفزاري؛ وثورَ بن معن السلمي؛ وعبدَالله بن عصام الأشعري، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحّاك وأن يصدّقوا قوله:

«فقام هؤلاء النفر خطباء يشيدون بيزيد»!!!

وفوجىء الأحنف بن قيس زعيم تميم البصرة ـ وكان من جملة الرؤساء الحاضرين ـ بهذا الكلام المفجع المفزع، فقام خطيباً في القوم معلناً رفضه لهذه المؤامرة واستنكاره المطلق لذلك، وكان ممّا قال:

«إن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ولا يبايعون ليزيد ما دام الحسن حيّاً».

ثم زادَ الأمر شرحاً وإيضاحاً فقال:

«وقد علمتَ يا معاوية إنك لم تفتح العراق عنوةً ولم تظهر عليه مقصاً، ولكنك أعطيتَ الحسن بن عليّ من عهود الله ما قد علمتَ ليكون له الأمر من بعدك...

ثم ختم كلامه منذراً متوعّداً فقال:

«والله إن وراء الحسن خيولاً جياداً، وأذرعاً شداداً؛ وسيوفاً حداداً، وإنْ تدنُ له شبراً من غدر تجدْ وراءه باعاً من نصر. وإنك تعلم من أهل العراق أنهم ما أحبّوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما»(١).

وأدرك معاوية بعد هذه الجلسة الصاخبة أن المحاولة لن يُكتب لها النجاح ما دام الحسن بن علي (ع) حيّاً، وربما فتح إصراره على ذلك من

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٥٥ ـ ١٥٦.

أبواب الثورة ومنافذ التمرد ما هو في غنىً عنه، فأسرَّ الأمر في نفسه وأعرض عن تنفيذه إلى حين.

وعمل خلال ذلك بكل طاقاته وإمكاناته على التوصل إلى وسيلة يقضي بها على الإمام الحسن ـ وهو العقبة الكأداء في طريق حلمه الذهبي ـ حتى واتته الفرصة بعد سنوات فدسَّ السمّ للإمام بواسطة زوجة جعدة ـ كما تقدّم ـ فخلا له الجوُّ فيما ظنَّ، فأعاد الكرَّة من جديد، واستخدم فيها كل الأساليب والوسائل المتاحة له لتحقيق الهدف وبلوغ الغاية.

❀ ❀ ❀

لقد كان دسُّ السم للإمام الحسن (ع) ـ وقد تحقق ذلك ـ هو الخطوة الأولى في المسعى الجديد ـ والحاسم ـ لتنصيب يزيد.

ثم كانت الخطوة الثانية: دسَّ السم لسعد بن أبي وقاص، خوفاً من تمنُّعه أو اعتراضه، وقد تحقق ذلك أيضاً، ومات سعد بذلك السم[1]، فأُزيلت عقبة أخرى من الطريق.

وكانت الخطوة الثالثة: اختبار أفكار أهل الشام وأهوائهم ـ وهم قوته الكبرى وقاعدته العريضة ـ لمعرفة الرجل الذي يؤمنون بأهليته للخلافة من بين رجال معاوية وحاشيته؛ ليرى رأيه فيه.

وتحقيقاً لذلك قام معاوية في أحد الأيام خطيباً فقال:

«يا أهل الشام؛ إنه قد كبرتْ سنّي وقرب أجلي، وقد أردتُ أن أعقد لرجلٍ يكون نظاماً لكم، وإنما أنا رجل منكم، فروا رأيكم».

«فأصفقوا واجتمعوا وقالوا: رضينا عبد الرحمن بن خالد».

---

(١) مقاتل الطالبيين: ٧٣.

«فشقَّ ذلك على معاوية وأسَرَّها في نفسه».

«ثم إن عبد الرحمن مرض، فأمر معاوية طبيباً عنده يهودياً وكان عنده مكيناً، أن يأتيه فيسقيه سقيةً يقتله بها، فأتاه فسقاه فانحرق بطنُه فمات. ثم دخل أخوه المهاجر بن خالد[١] دمشق مستخفياً هو وغلام له، فرصدا ذلك اليهودي، فخرج ليلاً من عند معاوية، فهجم عليه... فقتله».

«وقصته هذه مشهورة عند أهل السيرة والعلم بالآثار والأخبار، اختصرناها، ذكرها عمر بن شبّة في أخبار المدينة، وذكرها غيره»[٢].

وبعد أن فرغ معاوية من تنفيذ هذه الخطوات الثلاث بخلاصِه من الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن خالد، انتقل إلى الخطوة الرابعة: وهي تنصيب أولئك السفّاحين الظالمين؛ الذين لم تنبض قلوبهم برحمة؛ ولم تستشعر أفئدتهم ومضة خُلقٍ ودين؛ ولاةً على المسلمين.

ثمَّ كانت الخطوة الخامسة: حملة الإرهاب الفظيع التي شملت بلاد الإسلام كلها، وخصَّت الكوفة بالنصيب الأوفى، ممّا لم يكن قد عرفه تاريخ البشرية حتى ذلك الحين.

وتلتها الخطوة السادسة القائمة على فتح الخزائن لإعطاء المقارب ومداراة المباعد ـ كما عبّر ابن عبد ربّه وابن الأثير[٣] ـ أي شراء الذمم الرخيصة والضمائر الخاوية.

(١) أو ابن أخيه خالد بن المهاجر بن خالد كما في شرح نهج البلاغة: ١٨/٣٠٧.
(٢) الاستيعاب: ٢/ ٤٠٠ ـ ٤٠١، ومختصر منه في تاريخ الطبري: ٥/ ٢٢٧.
(٣) العقد الفريد: ٤/ ٣٦٨ والكامل: ٣/ ٢٥١.

ثم أُقيم يوم (الشورى!) الأكبر؛ بعد انجاز هذه الخطوات، وهو اليوم الذي جمع فيه معاوية وفودَ العراق والشام بالإغراء والإكراه في بلاطه المعظّم، ليأخذ رأيهم فيمن يستخلف بعده!!

وكان أول المتكلمين الضحّاك بن قيس، فقال فيما قال:

«يا أمير المؤمنين!!، إنه لا بدّ للناس من والٍ بعدك... ويزيد ابن أمير المؤمنين في حُسن معدنه وقَصْد سيرته، من أفضلنا حلماً وأحكمنا علماً، فوَلِّهِ عهدَك، واجعله لنا عَلَماً بعدك. وإنّا قد بلونا الجماعة فوجدناه أحْقَنَ للدماء، وآمَنَ للسبُّل، وخيراً في العاجلة والآجلة»!!

«ثم تكلَّم عمرو بن سعيد فقال:

«أيّها الناس، إن يزيد أملٌ تأملونه، وأجل تأمنونه، طويل الباع، رحب الذراع، إذا صرتم إلى عدله وسعكم، وإن طلبتم رفده أغناكم، جَذَعٌ قارح، سُوبق فسبق، ومُوْجِد فمجد، وقُورع فقرع»[1].

ثم أطلَّ يزيد بن المقنع العُذري على جميع الحاضرين فقال:

«هذا أمير المؤمنين! وأشار إلى معاوية، فإنْ هلك فهذا؛ وأشار إلى يزيد، ومَنْ أبى فهذا؛ وأشار إلى سيفه».

«فقال معاوية: اجلس فأنت سيّد الخطباء»[2].

والتفت معاوية إلى حضّار مجلسه من الزعماء والرؤساء ليسمع منهم الدعم والتأييد لما قيل، فلم يجد فيهم من يرغب في الكلام أو التعليق، فوجّه خطابه إلى الأحنف بن قيس ـ وكان أخطر مَنْ يخشى خلافه من هؤلاء الحاضرين ـ فقال له:

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.
(٢) الكامل: ٣/ ٢٥١، ومثله تقريباً في فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٣١ والعقد الفريد: ٤/ ٣٧٠

«ما تقول يا أبا بحر؟

«فقال: نخافكم إنْ صَدَقْنا، ونخاف الله إنْ كذبنا. وأنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسرّه وعلانيته ومدخله ومخرجه، فإنْ كنتَ تعلمه لله تعالى وللأمة رضاً فلا تشاور فيه، وإن كنتَ تعلم فيه غير ذلك فلا تُزَوّدْه الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة...

«فتفرّق الناس يحكون قول الأحنف»[1].

وهكذا باءت هذه الجولة الجديدة ـ كسابقاتها ـ بالفشل الذريع.

ثم وفد عليه فيمن وفد من المدينة المنوّرة محمدُ بن عمرو بن حَزْم، «فخلا به معاوية وقال له: ما ترى في بيعة يزيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما أصبح اليومَ على الأرض أحدٌ هو أحبّ إليَّ رشداً من نفسك سوى نفسي، وإن يزيد أصبح غنيّاً في المال وسيطاً في الحسب، وإن الله سائلٌ كلَّ راعٍ عن رعيته، فاتق الله وانظر مَنْ تُوَلّي أمر أمة محمد.

«فأخذ معاوية بَهْرٌ حتى تنفّس الصعداء»[2].

وعلى الرغم من كل ذلك لم يكلّ ابن هند ولم ييأس، ولم ينفعه جميع ما سمع ورأى عظةً وردعاً.

وابتكر في جملة أساليبه الفريدة أنه أظهر «عهداً مفتعلاً» زعم أنه بخط زياد ابن أبيه ـ وكان زياد قد مات قبل ذلك ـ «فقرأه على الناس، فيه عقدُ الولاية ليزيد بعده.

(١) الكامل: ٣/ ٢٥١، ومثله في العقد الفريد: ٤/ ٣٧٠ والبداية والنهاية: ٨/ ٨٠.
(٢) العقد الفريد: ٤/ ٣٦٩، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٢٩.

وإنما أراد أن يسهّل بذلك بيعة يزيد»[١].

وما هي إلا مدة وجيزة من الزمن حتى أعلن تأمير ابنه على رغم أنف الجميع.

وكان هو نفسُه «أول مَن بايع ليزيد ابنه بولاية العهد»[٢].

ثم أشاع الجلاوزة أن أهل العراق والشام قد بايعوا ابن ميسون.

وكتب معاوية كتبه بهذا الشأن إلى الآفاق وهو مطمئن إلى قدرة وسائل الإغراء والإرهاب في انجاح المسعى بكبت صوت المعارضة وإخفاء الحقيقة.

ولكنه ـ مع كل تلك الأفاعيل ـ كان قلقاً من موقف المدينة المنورة، لأن فيها الحسين بن عليّ؛ وعبد الرحمن بن أبي بكر؛ وعبدالله بن عمر؛ وعبدالله بن الزبير. ولذلك لم يجد بداً من أن يخصّ المدينة بطريقة لم يستعملها تجاه الآخرين فكتب كتاباً إلى واليها مروان بن الحكم، جاء فيه:

«إني قد كبرت سنّي ودقّ عظمي، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي، وقد رأيت أن أتخيّر لهم مَنْ يقوم بعدي، وكرهتُ أن أقطع أمراً دون مشورة مَنْ عندك، فاعرض ذلك عليهم، وأعلمني بالذي يردُّون عليك».

«فقام مروان في الناس فأخبرهم به. فقال الناس؛ أصاب ووُفّق».

«فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأعاد إليه الجواب يذكر يزيد».

(١) العقد الفريد: ٤/٣٦٨.
(٢) مروج الذهب: ٢/٣٢٩.

«فقام مروان فيهم وقال: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يَأل، وقد استخلف ابنه يزيد بعده».

فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: كذبتَ والله يا مروان وكذب معاوية، ما الخيار أردتما لأُمّة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل.

«وقام الحسين بن علي فأنكر ذلك.

«وفعل مثلَهُ ابنُ عمر وابنُ الزبير.

«فكتب مروان بذلك إلى معاوية»(١).

فلمّا بلغ معاوية كتابُ مروان صمَّم على أن يخوض معركة المدينة بنفسه، لإحساسه بأنها ستكون مركز الخطر وقاعدة الثورة على ولي عهده ونظام حكمه.

وبدأ ابنُ هند عمله في هذه الجبهة بعزل مروان بن الحكم، لشكّه في إخلاصه وحماسه لهذه المهمة، ولعلمه بما ينطوي عليه مروان من عجبٍ بالنفس واعتقاد بالأهلية للخلافة أو بكونه المؤهل الوحيد من بني أُمية لولاية العهد، وليس فيهم من يستحق ذلك غيره،

ويروي المسعودي: أن مروان كان قد أتى دمشق لما علم بعزم معاوية على استخلاف يزيد، وانه «دخل على معاوية يمشي بين السماطين، حتى إذا كان منه بقدر ما يسمعه صوته سلَّم وتكلَّم بكلام يوبّخ به معاوية، منه: أقم الأمور يا ابن أبي سفيان، واعدل عن تأميرك الصبيان، واعلم أن لك من قومك نظراء، وأن لك على مناوأتهم وزراء. فقال له معاوية: أنت نظير أمير المؤمنين؛ وعُدَّته في كل شديدة؛ وعضده؛ والثاني بعد وليّ

(١) الكامل: ٣/ ٢٥٠، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ونوادر القالي: ١٧٥ والعقد الفريد: ٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧١، وبعضه في تاريخ الخلفاء: ١٣٦.

عهده، وجعله وليّ عهد يزيد، وردّه إلى المدينة. ثم انه عزله عنها... ولم يفِ بما جعل له من ولاية عهد يزيد»[١].

ووُلِّيَ سعيد بن العاص ـ بعد مروان ـ أمرَ هذه المدينة المقدسة[٢].

وكتب معاوية إلى سعيد هذا «يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة، ويكتب إليه بمن سارع ممن لم يسارع».

«فلمّا أتى سعيدَ بن العاص الكتابُ، دعا الناسَ إلى البيعة ليزيد، وأظهر الغلظة، وأخذهم بالعزم والشدّة، وسطا بكلِّ مَنْ أبطأ عن ذلك. فأبطأ الناس عنها إلاّ اليسير، لاسيما بني هاشم فإنه لم يجبه منهم أحد»[٣]

فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية:

«أمّا بعد: فإنك أمرتني أن أدعو الناس لبيعة يزيد ابن أمير المؤمنين؛ وأن أكتب إليك بمن سارع ممن أبطأ. وإني أُخبرك إن الناس عن ذلك بطاء، لا سيما أهل البيت من بني هاشم، فإنه لم يجبني منهم أحد؛ وبلغني عنهم ما أكره. وأمّا الذي جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فعبدالله بن الزبير، ولست أقوى عليهم إلاّ بالخيل والرجال، أو تقدم بنفسك فترى رأيك في هذا»[٤].

فكتب معاوية إلى سعيد:

«أمّا بعد: فقد أتاني كتابك، وفهمتُ ما ذكرت فيه من إبطاء الناس عن البيعة، ولا سيما بني هاشم؛ وما ذَكَر ابنُ الزبير. وقد كتبتُ إلى

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣٣٠.
(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٠.
(٣) (٤) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٢.

رؤسائهم كتباً فسلّمها إليهم، وتَنَجَّزْ جواباتها، وابعث بها إليّ حتى أرى في ذلك رأيي. ولتشتدّ عزيمتك، ولتصلب شكيمتك، وتحسن نيتك. وعليك بالرفق، وإياك والخرق، فإن الرفق رَشَد والخرق نكد»[١].

وكان من كتاب معاوية إلى ابن عباس:

«أمّا بعد: فقد بلغني إبطاؤك عن البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين، وإني لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إليّ لأنك ممن ألّب عليه وأجلب، وما معك من أمانٍ فتطمئن به؛ ولا عهدٍ فتسكن إليه. فإذا أتاك كتابي هذا فاخرج إلى المسجد والعن قتلة عثمان وبايع عاملي، فقد أعذر مَنْ أنذر، وأنت بنفسك أبصر»[٢].

فأجابه عبدالله بن عباس:

«أما بعد: فقد جاءني كتابك، وفهمتُ ما ذكرت؛ وأن ليس معي منك أمان. إنه ـ والله ـ ما منك يُطلَبُ الأمان يا معاوية، وإنما يُطلب الأمان من الله ربِّ العالمين. وأمّا قولك في قتلي فواللهِ لو فعلتَ للقيتَ الله ومحمدّ (ص)، فما اخاله أفلح ولا أنجح مَن كان رسول الله خصمه. وأمّا ما ذكرت من أني ممن ألّب على عثمان وأجلب؛ فذلك أمرٌ غِبتَ عنه، ولو حضرتهُ ما نسبتَ إليَّ شيئاً من التأليب عليه... وأمّا قولك لي: العن قتلة عثمان، فلعثمان ولد خاصة وقرابة هم أحقُّ بلعنهم مني؛ فإن شاؤا أن يلعنوا فليلعنوا؛ وإن شاؤا أن يمسكوا فليمسكوا»[٣].

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٢.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٣.

(٣) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٣ ـ ١٦٤.

وكتب معاوية إلى عبدالله بن جعفر:

«أمّا بعد: فقد عرفتَ أثرتي إياك على مَنْ سواك؛ وحُسْنَ رأيي فيك وفي أهل بيتك، وقد أتاني عنك ما أكره، فإن بايعتَ تُشكر؛ وإن تَأبَ تُجبَر»(١).

فكتب له ابن جعفر مجيباً:

«أما بعد: قد جاءني كتابك، وفهمتُ ما ذكرت فيه من أثرتك إياي على مَنْ سواي، فإنْ تفعل فبحظّك أصبت، وإنْ تأبَ فبنفسك قصّرت، وأما ما ذكرت من جبرك إياي على البيعة ليزيد؛ فلعمري لئن أجبرتني عليها لقد أجبرناك وأباك على الإسلام حتى أدخَلناكما كارِهَيْنِ غير طائعين»(٢).

وكتب معاوية إلى الحسين (ع):

«أمّا بعد: فقد انتهت إليَّ عنك أمور لم أكن أظنُّك بها، رغبة عنها، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعته من كان مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها، فلا تنازع إلى قطيعتك، واتق الله، ولا تردّنَّ هذه الأمة في فتنة،، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد، ولا يستخِفنك الذين لا يوقنون»(٣).

وفي لفظ رواية الدينوري:

«... فاعلم ـ رحمك الله ـ إني متى أُنكِرْك تستنكرني، ومتى تَكِدْني أكدْكَ، فلا يستفزَّنك الذين يحبون الفتنة»(٤).

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٣.
(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٤.
(٣) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٣.
(٤) الأخبار الطوال: ٢٢٥، وقريب منه في اختيار معرفة الرجال للكشي: ٤٨ ـ ٤٩.

فكتب إليه الحسين (ع) مجيباً:

«أمّا بعد: فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت عني إليك أمور لم تكن تظنني بها، رغبة بي عنها... أمّا ما ذكرت أنه رُقِيَ إليك عني، فإنما رقاه الملاّقون المشّاؤون بالنميمة؛ المفرّقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون، ما أردتُ حرباً ولا خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك، منك ومن حزبك القاسطين المحلين؛ حزب الظالم وأعوان الشيطان الرجيم.

«ألسْتَ قاتلَ حُجرٍ وأصابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً؛ من بعد ما أعطيته المواثيق الغليظة والعهود المؤكدة، جرأة على الله واستخفافاً بعهده.

أَلستَ قاتل حُجرٍ وأصحابه العايدين الذين كانوا يستظعون البدعَ، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقتلتَهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم المواثسق الغلسظة والعهود المؤكدة، جرأةٍ على الله واستخفافاً بعهده.

«أولستَ قاتلَ عمرو بن الحَمِق الذي أخلقتْ وأبلتْ وجهه العبادة، فقتلته من بعدما أعطيته من العهود ما لو فهمتْه العصمُ نزلتْ من شعب الجبال.

«أولستَ المدّعي زياداً في الإسلام، فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله (ص) أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم سلّطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم على جذوع النخل.

«سبحان الله يا معاوية؛ لكأنك لستَ من هذه الأمة وليسوا منك.

«أولستَ قاتل الحضرميّ الذي كتب إليك فيه زياد أنه على دين علي. ودين علي هو دين ابن عمه (ص) الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشُّم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا مِنّة عليكم.

«وقلتَ فيما قلتَ: لا تردَّنَّ هذه الأمة في فتنة. وإني لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها.

«وقلتَ فيما قلتَ: انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد، وإني ـ والله ـ ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنه قربةٌ إلى ربي، وإن لم أفعله فاستغفر الله لذنبي وأسأله التوفيق لما يحبُّ ويرضى.

«وقلتَ فيما قلتَ: متى تكدني أكدك. فكِدْني يا معاوية ما بدا لك. فلعمري لقديماً يُكاد الصالحون، وإني لأرجو أنْ لا تضرَّ إلا نفسك، ولا تمحق إلا عملك. فكدني ما بدا لك، واتق الله يا معاوية، واعلم أن له كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، واعلم أن الله ليس بناسٍ لك قتلك بالظنَّة وأخذك بالتهمة وإمارتك صبياً يشرب الشراب ويلعب بالكلاب. ما أراك إلا قد أوبقتَ نفسك وأهلكتَ دينك وأضعت الرعية»[1].

❀ ❀ ❀

و«لما جاوب القوم معاوية بما جاوبوه من الخلاف لأمره؛ والكراهية لبيعة يزيد، كتب إلى سعيد بن العاص يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذاً بغلظةٍ وشدّة، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٤ ـ ١٦٥، ووردت فقرات من هذا الكتاب في المحبر: ٤٧٩ واختيار معرفة الرجال: ٤٩ ـ ٥١.

حتى يبايعوا. وأمَرَه أن لا يحرّك هؤلاء النفر ولا يهيجهم».

«فلما قدم كتاب معاوية أخذهم بالبيعة أعنف ما يكون من الأخذ وأغلظه، فلم يبايعه أحدٌ منهم. فكتب إلى معاوية أنه لم يبايعني أحد، وإنما الناس تبع لهؤلاء النفر، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً ولم يتخلف عنك أحد. فكتب إليه معاوية يأمره أن لا يحرّكهم إلى أن يقدم»(١).

وقدم معاوية المدينة المنورة في موكب ملكي مهيب يشبه مواكب القياصرة والأكاسرة والأباطرة، وقد حمل معه خزائن الأموال الطائلة؛ ومغريات الوعود المعسولة؛ وكلّ أساليب الوعيد والإرهاب؛ و«ألفَ فارس»(٢) مدجَّجين بالسلاح»!!.

و«لمّا أن دنا من المدينة خرج إليه الناس يتلقونه ما بين راكبٍ وماشٍ، وخرج النساء والصبيان، فلقيه الناس على حال طاقتهم وما تَسَارعوا به في الوقت والقرب، فلانَ لمن كافحه، وفاوض العامة بمحادثته، وتألّفهم جهده مقاربة ومصانعة، ليستميلهم إلى ما دخل فيه الناس»(٣).

وفي اليوم الثاني «أرسل إلى الحسين بن علي وعبدالله بن عباس» فحضرا، وبعد أن استقرَّ بهما المجلس قام معاوية خطيباً فيهما وفيمن حضر؛ وذكر بيعة يزيد فقال: «وقد كان من أمر يزيد ما سُبقتم إليه... وقد علم الله ما أُحاول به من أمر الرعيّة، من سدّ الخلل ولمّ الصدع بولاية يزيد... مع عِلمه بالسُّنة وقراءة القرآن!! والحلم الذي يرجح بالصمّ الصلاب!!»(٤).

(١) الإمامة والسياسة: ١/١٦٦.
(٢) الكامل: ٣/ ٢٥١.
(٣) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٦، وقريب منه في العقد الفريد: ٤/ ٣٧١.
(٤) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٨ ـ ١٦٩.

فلمّا رأى الحسين (ع) فظاعة هذا التحدي وشناعة هذا الكذب؛ لم يجد بدّاً من أن يقوم خطيباً فيقول:

«أمّا بعد يا معاوية: فلن يؤدي القائل وإن أطنب في صفة الرسول (ص) من جميع جزءاً. وقد فهمتُ ما ألبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتنكُّب عن استبلاغ البيعة، وهيهات هيهات يا معاوية؛ فضح الصبحُ فحمةَ الدجى، وبهرت الشمس أنوارَ السُّرج. ولقد فضَّلت حتى أفرطتَ، واستأثرتَ حتى أجحفتَ، ومنعتَ حتى بخلتَ، وجُرْتَ حتى جاوزتَ، ما بذلتَ لذي حقّ من أتمّ حقه بنصيب؛ حتى أخذ الشيطان حظّه الأوفر ونصيبه الأكمل.

«وفهمتُ ما ذكرته عن يزيد، من اكتماله وسياسته لأمّة محمد (ص) تريد أن تُوهِم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً أو تخبر عمّا كان احتويته بعلم خاص. وقد دلَّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المتهارشة عند التحارش، والحمام السبق لأترابهنَّ، والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي؛ تَجِدْهُ ناصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر ممّا أنتَ لاقيه، فوالله ما برحتَ تقدّم باطلاً في جَورٍ، وحنقاً في ظلم، حتى ملأتَ الأسقية، وما بينك وبين الموت إلاّ غمضة، فتقدم على عملٍ محفوظ في يوم مشهود، ولاتَ حين مناص.

«ورأيتك عرَّضتَ بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثاً، ولقد ـ لعمر الله ـ أورثنا الرسول (ص) ولادة، وجئتَ لنا بما حججتم به القائم عند موت الرسول (ص) فأذعن للحجة بذلك، وردّه الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعاليل، وفعلتم الأفاعيل، وقلتم كان ويكون، حتى أتاك الأمر يا

معاوية من طريقٍ كان قصدها لغيرك. فهناك فاعتبروا يا أُولي الأبصار»[١].

وما إن انتهى الحسين (ع) من خطابه حتى تأزم الموقف وتوترت الحال وانفض الاجتماع.

ثم أرسل معاوية «إلى عبد الرحمن بن أبي بكر؛ وإلى عبدالله بن عمر؛ وإلى عبدالله بن الزبير» عسى أن يقنعهم بالرضوخ وقبول البيعة، فتكلم كلٌّ منهم بما رأى، «ثم أمرهم بالانصراف، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج»[٢].

وخرج بعد خلوة الأيام الثلاثة «فأمر المنادي أن ينادي في الناس أن يجتمعوا لأمرٍ جامع، فاجتمع الناس في المسجد... فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر يزيد وفضله وقراءته القرآن»!، ثم قال:

«يا أهل المدينة؛ لقد هممتُ ببيعة يزيد، وما تركتُ قرية ولا مدرة إلاّ بعثتُ إليها ببيعته، فبايع الناس جميعاً وسلّموا!!، وأخّرتِ المدينة بيعته، وقلت: بيضتُه وأصله ومَنْ لا أخافهم عليه. وكان الذين أبوا البيعة منهم مَنْ كان أجدر أن يَصِله. ووالله لو علمتُ مكان أحدٍ هو خير للمسلمين من يزيد لبايعتُ له»[٣]!!

فقام الحسين (ع) معترضاً منكراً، وقام عبدالله بن الزبير رادّاً مفنّداً، «فنزل معاوية من على المنبر، وانصرف ذاهباً إلى منزله، وأمر من حرسه وشرطته قوماً أن يُحضِروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة وهم: الحسين بن علي؛ وعبدالله بن عمر؛ وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عباس؛ وعبد الرحمن بن أبي بكر. وأوصاهم معاوية قال: إني خارج العشية إلى أهل

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٩ ـ ١٧٠.
(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٧١ ـ ١٧٢.
(٣) الإمامة والسياسة: ١/ ١٧٢.

الشام فأخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا وسلّموا، فإنْ تكلّم أحدٌ منهم بكلامٍ يكذّبني فيه فلا ينقضي كلامه حتى يطير رأسه. فحذر القوم ذلك».

«فلما كان العشيُّ خرج معاوية وخرج معه هؤلاء النفر... فقال: يا أهل الشام؛ إن هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين فوجدهم واصلين مطيعين قد بايعوا وسلّموا. قال ذلك والقوم سكوت».

«فوثب أناس من أهل الشام فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ إنْ كان رابَكَ منهم رَيْبٌ فخَلِّ بيننا وبينهم حتى نضرب أعناقهم. فقال معاوية: سبحان الله ما أحلَّ دماء قريش عندكم يا أهل الشام، لا أسمع لهم ذكراً بسوء، فإنهم قد بايعوا وسلّموا، وارتضوني، فرضيتُ عنهم؛ رضي الله عنهم»[(١)].

وبعد انفضاض هذه الجلسة (الديمقراطية جدّاً) «ارتحل معاوية إلى مكة، وقد أعطى الناسَ أعطياتهم؛ وأجزل العطاء، وأخرج إلى كل قبيلة جوائزها وأعطياتها»[(٢)].

وقد علمنا من جملة ذلك أنه «أرسل إلى عبدالله بن عمر مائة ألف درهم»[(٣)]، فقبلها وبايع.

وعلى هذه فقس ما سواها.

وبهذه الأساليب التي ما أنزل الله بها من سلطان أصبح يزيد خليفة المسلمين!!.

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم.

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٤٨ ونوادر القالي: ١٧٦ والعقد الفريد: ٤/ ٣٧٢ والكامل: ٣/ ٢٥٢ والبداية والنهاية: ٨/ ٨٠.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٣) الكامل: ٣/ ٢٥٠ والبداية والنهاية: ٨/ ١٣٧ و٩/ ٥.

وأشرف معاوية على الموت الذي لا مفرَّ منه، ولكنه ـ وهو في تلك الساعات الرهيبة ـ لم يكن يفكّر إلاّ في دنياه؛ دنيا الحكم والإمرة والسلطان.

وكان جُلُّ همه وهمته منصبّاً على يزيد واستتباب الأمر له من بعده؛ وتأمين مستقبل هذا الفتى المترف المدلل من ثورات الثائرين وإنكار المنكرين وجهاد المجاهدين.

وحضرت معاوية ساعة الهلاك ويزيد بعيد عنه كان قد خرج إلى حوران للصّيد[1]، فدعا معاوية ـ فيما يحدّث به الهيثم بن عدي ـ كُلاً من الضحاك بن قيس الفهري ومسلم بن عقبة المُرّي، فقال لهما:

«أبْلِغا عني يزيد وقُولا له: انظرْ إلى أهل الحجاز فهم أصلك وعترتك، فَمَنْ أتاك منهم فأكْرِمْه، ومن قعد عنك فتعاهَدْه. وانظر أهل العراق فإنْ سألوك عَزْلَ عاملٍ في كل يوم فاعزله، فإن عَزلَ عامل واحد أهون من سَلِّ مائة ألف سيف ولا تدري على مَنْ تكون الدائرة. ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشّعار دون الدثار، فإن رابك من عدوك رَيْبٌ فارْمِهِ بهم، ثم أردُدْ أهلَ الشام إلى بلدهم ولا يقيموا في غيره فيتأدّبوا

(١) مقتل الحسين لأخطب خوارزم: ١/ ١٧٧.

بغير أدبهم. لستُ أخاف عليك إلا ثلاثة: الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر»(١).

ومات معاوية وما زال يزيد مشغولاً بصيده ولهوه، فأرسلت إليه بطانةُ أبيه بريداً بكتابٍ يستقدمونه ويستحثونه ويُعلمونه بموت أبيه.

«وقدم يزيد من يومه ذلك، فلم يقدم أحدٌ على تعزيته حتى دخل عليه عبدالله بن همّام السلولي» فرثى معاوية بأبيات من الشعر. ثم «افتتح الخطباء الكلام. ثم دخل يزيد فأقام ثلاثة أيام لا يخرج للناس، ثم خرج ـ وعليه أثر الحزن ـ فصعد المنبر، وأقبل الضحاك فجلس إلى جانب المنبر»، وقام يزيد خطيباً فأبّنَ أباه(٢)

وروى ابن أعثم في جملة ما جاء في هذا الخطاب قول يزيد مخاطباً أهل الشام: «وسيكون بيني وبين أهل العراق حربٌ شديد»(٣).

ثم بدأ يزيد عمله الإداري بتحرير كتابٍ إلى والي المدينة جاء فيه:

«. . . وإن أهل المدينة قومنا ورجالنا، ومَنْ لم نزل على حُسن الرأي فيهم والاستعداد بهم، واتبّاع أثر الخليفة فيهم؛ والاحتذاء على مثاله لديهم، من الإقبال عليهم والتقبُّل من محسنهم والتجاوز عن مسيئهم. فبايع لنا قومنا ومَنْ قِبَلَكَ من رجالنا. . . وليكُن أول من يبايعك من قومك وأهلنا: الحسين وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن جعفر، ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة؛ بصدقة أموالهم وحرية رقيقهم وطلاق نسائهم، بالثبات على الوفاء بما يعطون من بيعتهم»(٤).

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣، ومضمونه في الأخبار الطوال: ٢٢٦.

(٢) العقد الفريد: ٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤، ومضمونه في مروج الذهب: ٣/ ١٣.

(٣) الفتوح: ٥/ ٦ ومقتل الحسين: ١/ ١٧٩.

(٤) الإمامة والسياسة: ١/ ١٨٦.

وفي رواية أخرى أو في كتاب آخر أنه كتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وهو والي المدينة يومذاك يقول: «إذا أتاك كتابي هذا فأحْضِر الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير فخُذهما بالبيعة، فان امتنعا فاضربْ أعناقِهما وابعث إليّ برؤوسهما وخذ الناس بالبيعة، فمن امتنع فأنفذ فيه الحكم»[١].

وتسلّم الوليد نعي معاوية وكتاب يزيد، فـ «فَظِعَ به وكَبُرَ عليه، فبعث إلى مروان بن الحكم فدعاه إليه... فلما قرأ عليه كتابَ يزيد استرجع وترحَّم عليه. واستشاره الوليد في الأمر وقال: كيف ترى أن نصنع؟، قال: فإني أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدخول في الطاعة، فإنْ فعلوا قبلتَ منهم وكففتَ عنهم، وإنْ أبوا قدّمتَهم فضربتَ أعناقهم...

«فأرسل إليهما... يدعوهما، فوجدهما في المسجد وهما جالسان... فقال: أجِيبا الأمير يدعوكما».

«فقام الحسين فجمع إليه مواليه وأهلَ بيته، ثم أقبل يمشي حتى انتهى إلى باب الوليد، وقال لأصحابه: إني داخِلٌ فإنْ دعوتكم أو سمعتم صوته قد علا فاقتحموا عليَّ بأجمعكم، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم.

«فدَخَلَ. فاقْرَأه الوليدُ الكتابَ، ونعى له معاوية، ودعاه إلى البيعة.

فقال الحسين: «إنّا لله وإنا إليه راجعون... أمّا ما سألتني من البيعة فإن مثلي لا يُعطي بيعته، سِراً، ولا أراك تجتزىء بها مني سراً دون أن تُظهرها على رؤوس الناس علانيةً.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢١٥، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٥/١٠ ومقتل الحسين: ١/١٨٠.

قال: أجَلْ.

قال الحسين: «فإذا خرجتَ إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً.

فقال له الوليد «وكان يحب العافية: فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس. فقال له مروان: والله لئن فارقك الساعة ولم يُبايع لا قدرتَ منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، إحبِسِ الرجلَ ولا يخرج من عندك حتى يُبايع أو تضرب عُنُقَه. فوثب عند ذلك الحسين فقال: يا ابن الزرقاء؛ أنتَ تقتلني أم هو؟! كذبتَ والله وأثمت»[١].

وأقبل الحسين على الوليد ـ وقد اضطرَّ إلى الإعلان والمصارحة ـ فقال:

«أيها الأمير؛ إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحل الرحمة؛ بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شاربُ خمرٍ قاتلُ النفس المحرَّمة معلنٌ بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نُصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون، أيُّنا أحقُّ بالخلافة والبيعة»[٢].

ثم خرج الحسين من مجلس الوليد، «فمرَّ بأصحابه فخرجوا معه حتى أتى منزله. فقال مروان للوليد: عصيتني، لا والله لا يمكّنك من مثلها من نفسه أبداً. قال الوليد: «وَبِّخْ غيري يا مروان، إنك اخترتَ لي التي فيها هلاك ديني، والله ماأحبُّ ان لي ما طلعت عليه الشمسُ

(١) تاريخ الطبري: ٥/٣٣٨ ـ ٣٣٩، وقريب منه في أنساب الأشراف: ٤/١٥ وفتوح ابن أعثم: ٥/١١ ـ ١٨ والإمامة والسياسة: ١/١٨٧ والأخبار الطوال: ٢٢٨ والإرشاد: ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ومقتل الحسين: ١/١٨١ ـ ١٨٤ والكامل: ٣/٢٦٤.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٥/١٨ ـ ١٩ ومقتل الحسين: ١/١٨٤.

وغربت عنه من مال الدنيا وملكها واني قتلتُ حسيناً، سبحان الله أقتل حسيناً إن قال لا أبايع، والله إني لا أظن امرءاً يُحاسب بدم حسينٍ لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة»(١).

وبادر الوليد بعد انقضاض هذا المجلس إلى إعلام يزيد بالتفاصيل، و«ذكر له بعد ذلك أمْرَ الحسين بن علي أنّه ليس يرى لنا عليه طاعةً ولا بيعة».

فلما ورد الكتاب على يزيد غضب لذلك غضباً شديداً، وكتب إلى الوليد أمراً سلطانياً صارماً جاء فيه:

«أمّا بعد: فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة ثانياً على أهل المدينة بتوكيد منك عليهم... وليكن مع جوابك إليَّ رأس الحسين بن علي، فإنْ فعلتَ ذلك فقد جعلتُ لك أعنّة الخيل، ولك عندي الجائزة والحظ الأوفر.

«فلما ورد الكتاب على الوليد بن عتبة وقرأه تعاظم ذلك وقال: ولا والله؛ لا يراني الله قاتلَ الحسين بن علي، وأنا لا أقتل ابن بنت رسول الله (ص) ولو أعطاني يزيد الدنيا بحذافيرها»(٢).

وبعث الوليد يطلب عبدالله بن الزبير، وتشاغل غلمانه وجلاوزته «بطلب عبدالله يومهم ذلك حتى أمسوا، ثم بعث الرجال إلى الحسين عند المساء» فقال لهم الحسين: «أصْبِحوا ثم ترَونَ ونرى، فكفّوا عنه تلك الليلة ولم يُلحُّوا عليه».

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٤٠، وقريب منه في أنساب الأشراف: ٤/ ١٥ وفتوح ابن أعثم: ٥/ ١٩ والإمامة والسياسة: ١/ ١٨٧ والأخبار الطوال: ٢٢٨، والإرشاد: ٢٠٧ ومقتل الحسين: ١/ ١٨٥ والكامل: ٣/ ٢٦٤.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٢٥ ـ ٢٦ ومقتل الحسين: ١/ ١٨٥.

وخرج الحسين قاصداً مكة «من تحت ليلته ـ وهي ليلة الأحد ليومَيْن بقيا من رجب سنة ستين ـ»، ومعه بنوه واخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته، «فلما سارَ نحو مكة قال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فلما دخل مكة قال: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾»(١).

وكان الحسين (ع) قبل خروجه من المدينة قد كتب وصيته وأودعها أخاه محمداً ابن الحنفية، ومما جاء في هذه الوصية قوله:

«إن الحسين بن علي يشهد أنْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله جاء بالحق من عنده، وأن الجنّة حق والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

«وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجتُ لطلب النجاح والصلاح في أُمّة جدي محمد (ص) أُريد أنْ آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر؛ وأسير بسيرة جدي محمد ـ (ص) ـ وسيرة أبي علي بن أبي طالب...»(٢).

وبخروج الحسين إلى مكة بدأ الموقف يتأزّم ويشتد، والوضع العام يسير نحو الانفجار الرهيب خطوة خطوة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٤١ ـ ٣٤٣، وقريب منه في الكامل: ٣/ ٢٦٥.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٣٤ ومقتل الحسين: ١/ ١٨٨.

وهنا ـ وقد بلغ بنا البحث هذه النقطة الحسّاسة منه ـ لا بدَّ لنا من وقفةٍ متأنية فاحصة، تحدّد لنا الموقف من يزيد «الخليفة»، لمعرفة حقيقة هذه الخلافة في صحة قيامها شرعاً وفي أهلية المتربع على دستها وفي تحقق البيعة له بذلك، في ضوء كل المقاييس والمعايير التي أقرها المسلمون، على مختلف آرائهم ومناهجهم واجتهاداتهم في طرق تعيين الخليفة والشروط التي يجب تحقُّقها فيه.

ليكون الحكم على كل مرحلة مرحلة من مراحل البحث الآتية بعيداً عن الأهواء والمشاعر والعواطف التي لم تستند إلى قناعة عقلانية ثابتة وأساس مبدئي متين.

وستتجلّى النتائج بيّنة واضحة إذا ما أجبنا ـ بمنطق علمي جادّ وحياد فكري تامّ ـ على الأسئلة الثلاثة الآتية:

١ ـ هل كان لمعاوية حق تعيين الخليفة من بعده؛ أيّ خليفةٍ كان؟.

٢ ـ هل اجتمعت في يزيد الحدود الدنيا للصفات المطلوبة في الخليفة؟

٣ ـ هل بويع يزيد من قبل عامّة المسلمين ببيعة شرعية؛ في حياة معاوية أو بعد موته؟

❀ ❀ ❀

ونقول في الجواب على ذلك، وبالله العون ومنه التوفيق:

الجواب على السؤال الأول:

أ ـ للمسلمين ـ كما تجلّى للعيان يوم وفاة النبي (ص) ـ طريقان للاستخلاف:

الطريق الأول: النَّصُّ، وهو الذي ذهب إليه الشيعة الإمامية ولفيف من المعتزلة، وقالوا: لا إمامة إلاّ بنصٍّ وتعيين من صاحب الرسالة نفسه، أو من قِبَل مَنْ نصَّ عليه صاحبُ الرسالة.

الطريق الثاني: طريق الانتخاب والشورى، وقد ذهب إلى ذلك جمهور من المسلمين، وصححوا به خلافة من استُخلِف بعد النبي (ص)، ثم تراجعوا عنه بعد ذلك وأغفلوه.

وإذا كان إجماع المسلمين قائماً على هذين الطريقين حصراً، فإن خلافة يزيد خارجة عنهما قطعاً.

فالقائلون بالنص لا يرون معاوية نبياً مرسلاً يختار من بين الناس ـ بحسب ولايته العامة ـ من يفضّل ويرجّح، ولم يرد فيه قرآن يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾، كما أنه لم يُمْنَح من قبل الرسول صلاحية تعيين الخليفة، بل لم يُؤثَرْ فيه من قبل النبي (ص) أشهر من قوله: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه» أو «فافقروا بطنه»[1].

والقائلون بالانتخاب والشورى لم يجدوا لذلك نصيباً في هذه الخلافة كما تقدَّم ذكر بعضه ويأتي تفصيله، بل لم يروا في وسائل السلطة لهذه البيعة سوى البطش والإرهاب وإغداق الأموال لشراء الذمم، ممّا يتنافى كل التنافي مع ما تحمله مبادىء الانتخاب والشورى من حرّيات ومجالات.

---

(١) وقعة صفين: ٢١٦ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٣٢ و١٥/ ١٧٦.

ب ـ كان من جملة فِقَر الشرط الثاني من شروط الصلح بين الإمام الحسن (ع) ومعاوية: أن ليس لمعاوية أن يعهد بالأمر إلى أحدٍ من بعده[١].

وكان هذا الشرط هو الذي منع الحسين من الثورة بعد وفاة أخيه الحسن (ع) كما مرَّ بيانه، وقد ذكرنا هناك أن الحسين قد قال لبعض من راجعه في شأن الثورة على معاوية: «ليكن كلُّ رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام هذا الإنسان حيّاً، يعني معاوية[٢]». ويقول الشيخ المفيد في ذلك: «فامتنع عليهم وذكر أنَّ بينه وبين معاوية عهداً وعقداً لا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة»[٣].

وهكذا يتجلّى بوضوح أنه لم يكن لمعاوية ـ في كل الفرضيات والمحتملات ـ حقُّ تعيين خليفةٍ من بعده إذْ لا نصَّ يؤثر؛ ولا شورى تُذكَر؛ ولا إذن من ذوي الحلّ والعقد يُستند إليه ـ ولو شكلاً وتغطية ـ في تصحيح ذلك. بل ليس لدينا في الحقيقة سوى اعتراف معاوية في اتفاقية الصلح بأن ليس له أن يعهد بالأمر إلى أحد؛ وأنَّ الخلافة حقٌّ للحسين خاصة إنْ تُوفيَ الحسن قبل معاوية.

وبذلك ينتفي أساس هذه الخلافة جملة وتفصيلاً، ويثبت بطلانها وعدم شرعيتها بمقتضى كل المناهج والموازين التي يرجع إليها المسلمون في هذه المسألة.

وهذا هو الواقع الذي لم يكن من واقع غيره.

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٢ والصواعق المحرقة: ٨١.
(٢) الأخبار الطوال: ٢٢١.
(٣) الإرشاد: ٢٠٦.

أمّا ما يقوله المُزيّفون والمرقّعون في هذا الصدد فليس له من الفقه السياسي الإسلامي ـ على اختلاف مذاهبه ـ سند أو برهان.

إن الدكتور محمد أبو اليسر عابدين يقول:

«كان إجماع المسلمين على انعقاد الإمارة بالعهد من الخليفة السابق... أو بيعة أهل الحلّ والعقد... وكلاهما حصل ليزيد من أبيه وبعد وفاته»(١).

ويقول الدكتور إبراهيم شعوط:

إن من جملة طرق تعيين الخليفة «أن يعهد إلى مَنْ يأتي بعده وأن ينصّ عليه»(٢)، و«إن معاوية خليفة المسلمين قد استشعر الأمانة الملقاة على عاتقه في اختيار مَنْ يصلح لهذه الأمة بعد وفاته»(٣)، وإن «الذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحلّ والعقد عليه»(٤).

إن هذا الكلام وما كان على شاكلته ليس له ظل من صدقٍ أو حقيقةٍ مطلقاً.

فمعاوية ـ كما أسلفنا بيانه ـ لم يكن يحق له أن يرشّح أحداً للخلافة أو ينصّ عليه أو يعهد بها إليه، لا بحسب صلاحياته السلطانية، ولا بموجب عهده الذي أعطاه للإمام الحسن (ع).

وبيعة أهل الحلّ والعقد لم تحصل؛ واتفاقهم لم يتم. وقد سبق منا

---

(١) أغاليط المؤرخين: ١١٩.
(٢) أباطيل يجب أن تُمحى من التاريخ: ٢٤٣.
(٣) المصدر نفسه: ٢٤٤.
(٤) المصدر نفسه أيضاً: ٢٤٥.

التحدث باختصار عمّا استعمله معاوية وكبار أركان مملكته من أساليب القمع والإرهاب والوعد والوعيد لإرغام أهل الحلّ والعقد على البيعة.

وادعاء أنَّ إيثار معاوية يزيد «دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس «هراء في هراء، لأنه لم يكن أقرب إلى أهواء الناس ورغباتهم من الحسين بن علي؛ ومن عبد الرحمن بن أبي بكر؛ وعبدالله بن عمر؛ وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير؛ والأحنف بن قيس، ومن أضرابهم وأمثالهم من ذوي الشأن والاحترام بين المسلمين.

ويبدو أن معاوية قبل أربعة عشر قرناً وهذين الكاتبين في عصرنا الحاضر لم يجدوا من يصلح لخلافة هذه الأمة وقيادتها سوى من يقوم بقتل أهل بيت الرسول في عام، ويستبيح الأعراض والحرمات في مدينة الرسول في عام آخر، ويهدم جزءاً من الكعبة الشريفة في عام ثالث.

ولو عاش أعواماً أخرى لفعل وفعل ممّا لم يخطر على بال ولم يمر بذهن بشر، ولأضاف كل عام منها صفحة جديدة سوداء إلى صفحات تاريخه الأسود.

وهكذا فليكن الخليفة وإلاّ فلا!!

❀ ❀ ❀

الجواب على السؤال الثاني:

يقول العلامة القرطبي في تفسيره:

«من شروط الإمامة: أن يكون عدلاً، لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تُعْقَد الإمامة لفاسق. ويجب أن يكون من أفضلهم في العلم».

ثم يقول:

«الإمام إذا نُصِب ثم فسق بعد انبرام العقد فقال الجمهور: إنه

تنفسخ إمامته ويُخلع بالفسق الظاهر المعلوم... ألا ترى في الابتداء إنما لم يَجُزْ أن يُعْقَد للفاسق لأجل أنه يؤدّي إلى إبطال ما أُقيم له، وكذلك هذا مثله»[١].

وإذن، فالعدل شرط رئيس في الخليفة قبل العلم، ولا إمامة لفاسق.

ولما كان يزيد لدى رجال السلف ـ ومنهم الصحابة والتابعون والمحدّثون والمؤرخون ـ إمّا كافراً وإمّا فاسقاً، فهو غير صالح للخلافة قطعاً وغير مؤهل لها على كل حال.

وكان ممن قال بكفره أو روى ذلك:

١ ـ الخليفة العباسي المعتضد بالله قال في يزيد:

«هذا هو المروق من الدين، وقول مَنْ لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى كتابه ولا إلى رسوله، ولايؤمن بالله ولا بما جاء من عند الله»[٢].

٢ ـ المؤرخ المسعودي، قال:

«ليزيد أخبار عجيبة ومثالب كثيرة: من شرب الخمر؛ وقتل ابن الرسول؛ ولعن الوصي؛ وهدم البيت وإحراقه؛ وسفك الدماء؛ والفسق والفجور، وغير ذلك مما ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه؛ كوروده فيمن جحد توحيده وخالف رسله»[٣].

(١) تفسير القرطبي: ١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٢) تاريخ الطبري: ١٠/ ٦٠ ـ ٦١.
(٣) مروج الذهب: ٣/ ١٩.

٣ ـ ابن عبد ربه الأندلسي، قال:

«بعث مسلم بن عقبة برؤوس أهل المدينة إلى يزيد، فلمّا أُلقِيَتْ بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزبعري يوم أُحُد:

لـيـت أشـيـاخـي بـبـدر شـهـدوا
جـزع الـخـزرج مـن وقـع الأسَـلْ
لأهَـلّـوا واسـتـهـلّـوا فـرحـاً
ولـقـالـوا لـيـزيـد: لا فَـشَـلْ

فقال له رجلٌ من أصحاب رسول الله (ص): ارتددت عن الإسلام يا أمير المؤمنين! قال: بلى؛ نستغفر الله»[1].

٤ ـ الشيخ يوسف النبهاني، قال:

«قال العلامة الصبّان: إن الإمام أحمد يقول بكفر يزيد، وناهيك به ورعاً وعلماً يقتضيان أنه لم يقل ذلك إلاّ لما ثبت عنده من أمور صريحة وقعتْ منه توجب ذلك، ووافقه على ذلك جماعة كابن الجوزي وغيره، وأمّا فسقه فقد أجمعوا عليه. وأجاز قوم من العلماء لعنه بخصوص اسمه»[2].

أما القائلون بفسق يزيد والشهود على ذلك من معاصريه الذين وقفوا على أعماله المنكرة من تركٍ للصلوات واتباع للشهوات واستحلال للحرمات، وممن روى ذلك عن معاصريه، فهم كثيرون جداً لا يتسع المجال لاستيعاب أقوالهم، وكان منهم:

١ ـ أبوه معاوية بن أبي سفيان:

وقد أرسل كتاباً إلى يزيد ـ وهو مشغول بلهوه بعيداً عن دمشق ـ

(١) العقد الفريد: ٤/ ٣٩٠.
(٢) الشرف المؤبد: ٧٧.

«وقد بلغه مقارفته اللذات ونهماكه على الشهوات، وهو:

«أما بعد: فقد أدّت أَلسِنَةُ التصريح إلى أذُن العناية بك ما فجع الأمل فيك، وباعَدَ الرجاءَ منك... اقتحمْتَ البوائق، وانْقذْتَ للمعاير... فليتك يزيد إذ كنت لم تكن... فواحزناه عليك يزيد ويا حَرَّ صدر المُثْكل بك! ما أشَمَتَ فتيان بني هاشم، وأذلَّ فتيان بني عبد شمس؛ عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب، فَمَنْ لصلاح ما أفسدتَ ورَتق ما فتقتَ؟ هيهات خمشت الدُّربة وجهَ التصبُّر بك، وأبتِ الجناية إلا تحدُّراً على الألسن وحلاوةً على المناطق... بلغني أنك اتخذت المصانِعَ والمجالسَ للملاهي والمزامير... وأجهرتَ الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهراً... اعلم يا يزيد أنَّ أوّل ما سَلَبَكه السُّكْرُ... ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها... ثم استحسان العيوب؛ وركب الذنوب؛ وإظهار العورة؛ وإباحة السرّ... الخ»[١].

٢ ـ الحسين بن علي (ع):

قال لمعاوية يوماً وقد أراده على البيعة لابنه:

«مَنْ خيرٌ لأُمة محمد! يزيد الخمور والفجور»[٢].

وقال له في مناسبة أخرى:

«أنّى أُبايع ليزيد، ويزيد رجلٌ فاسقٌ معلن الفسق، يشرب الخمر، ويلعب بالكلاب والفهود»[٣].

وتقدّم في الصفحات السابقة قريب من ذلك في عدة نصوص مأثورة عن الحسين (ع).

(١) صبح الأعشى: ٦/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٤١.
(٣) فتوح ابن أعثم: ٥/ ١٤ ومقتل الحسين: ١/ ١٨٢.

٣ ـ عبد الرحمن بن أبي بكر:

قال مخاطباً معاوية:

«لا تَدْعُنا إلى بيعة يزيد الخمور؛ ويزيد الفهود؛ ويزيد القرود»[١].

٤ ـ عبدالله بن عمر:

قال منكراً الدعوة إلى بيعة يزيد:

«نبايع مَنْ يلعب بالقرود والكلاب، ويشرب الخمر، ويظهر الفسوق، ما حُجّتنا عند الله!»[٢].

٥ ـ عبدالله بن الزبير:

قال في إحدى خطبه يذكر يزيد:

«يزيد الخمور، ويزيد الفجور، ويزيد الفهود، ويزيد القرود، ويزيد الكلاب، ويزيد النشوات، ويزيد الفلوات»[٣].

ومما يُنْقل عنه قوله فيه:

«يزيد القرود، شارب الخمور، تارك الصلوات، منعكف على القينات»[٤].

«وفي نص آخر قال:

«أما والله لقد بلغني أنه لا يزال مخموراً يخطب الناس وهو طافح في سكره»[٥].

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٤٢ ومقتل الحسين: ١/ ١٧٢.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠٣.
(٣) أنساب الأشراف: ٤/ ٣٠.
(٤) البداية والنهاية: ٨/ ٢١٩.
(٥) شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ١٣٣.

٦ ـ عتبة بن مسعود:

قال معلّقاً على دعوته إلى بيعة يزيد:

«أنبايع ليزيد وهو يشرب الخمر ويلهو بالقيان ويستهتر بالفواحش»[١].

٧ ـ عبدالله بن حنظلة:

قال في يزيد: «إنه رجل ينكح أُمهات الأولاد؛ والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة»[٢].

٨ ـ محمد ابن الحنفية:

يقول ليزيد مواجهة: «غير أني أَنهاك عن شرب هذا الخمر المسكر: فإنه رجس من عمل الشيطان»[٣].

٩ ـ المنذر بن الزبير:

قال في يزيد: «والله إنه ليشرب الخمر، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة»[٤].

١٠ ـ الخليفة عمر بن عبد العزيز:

قال أحد الرجال: «في حضرة عمر بن عبد العزيز: أميرُ المؤمنين يزيد. فضربه عمر عشرين سوطاً»[٥].

---

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٨٥.
(٢) تاريخ الخلفاء: ١٤٠.
(٣) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٢٦٢.
(٤) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨١ والكامل: ٣/ ٣٠٧.
(٥) شذرات الذهب: ١/ ٦٩.

١١ ـ الخليفة العباسي المعتضد بالله:

يقول في بيانه التاريخي المشهور: «يزيد المتكبّر، الخمّير، صاحب الديوك والفهود والقرود... طلب بثارات المشركين وطوائلهم عند المسلمين»(١).

١٢ ـ المؤرخ البلاذري:

قال: «كان يزيد بن معاوية أولَ مَنْ أظهر شربَ الشراب، والاستهتارَ بالغناء والصيد، واتخاذ القيان والغلمان؛ والتفكّه بما يضحك منه المترفون من القرود والمعاقرة بالكلاب والدِّيكة»(٢).

وذكر: إن مسلم بن عمرو الباهلي كان نديماً ليزيد يشرب معه ويغنّيه(٣).

١٣ ـ المؤرخ المسعودي:

قال: «كان يزيد صاحبَ طربٍ وجوارح وكلابٍ وقرود وفهود ومنادمة على الشراب... وغلب على أصحاب يزيد وعمّاله ما كان يفعله من الفسوق. وفي أيامه ظهر الغناءُ بمكة والمدينة، واستُعملت الملاهي، وأظهر الناسُ شربَ الشراب»(٤).

١٤ ـ الكيا الهراسي:

روى ابنُ العماد الحنبلي إن الكيا الهراسي اسْتُفْتِيَ في يزيد «فذكر

---

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٦٠.
(٢) أنساب الأشراف: ٤/ ١.
(٣) المصدر نفسه: ٤/ ١١.
(٤) مروج الذهب: ٣/ ١٥.

فصلاً واسعاً من مخازيه حتى نفدت الورقة، ثم قال: ولو مُدِدْتُ ببياضٍ لَمَددتُ العنانَ في مخازي هذا الرجل»[1].

١٥ ـ ابن أبي الحديد المعتزلي:

صرَّح بـ «ظهور فسقه، وشربه المسكر جهاراً، ولعبه بالنّرد، ونومه بين القيان المغنيات واصطباحه معهن ولعبه بالطنبور معهن»[2].

١٦ ـ الحافظ ابن كثير الدمشقي:

قال: «وكان فيه ـ أيضاً ـ إقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات»[3]، وذكر أنَّ «أكثر ما نُقِمَ عليه في عمله شربُ الخمر واتيان بعض الفواحش»[4].

١٧ ـ الحافظ الذهبي:

قال: «كان ناصبياً فظّاً غليظاً، يتناول المسكر، ويفعل المنكر»[5].

١٨ ـ الشيخ عبدالله العلايلي:

قال في تحليل له مفصّل يشرح فيه أسباب فسق يزيد وفجوره:

«إن يزيد نشأ نشأةً مسيحية تبعد كثيراً عن عرف الإسلام... وهو يرجع بالأُمومة إلى بني كلب، هذه القبيلة التي كانت تدين بالمسيحية قبل الإسلام... والتاريخ يحدّثنا أن يزيد نشأ فيها إلى طور الشباب أو حتى جاوز طور الطفولة، ومعنى هذا أنه أمضى الدور الذي هو مَحَطُّ أنظار

(١) شذرات الذهب: ١/ ٦٩.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٣١.
(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٢٣٠.
(٤) المصدر نفسه: ٨/ ٢٣٢.
(٥) شذرات الذهب: ١/ ٦٩.

المُرَبّين وعنايتهم... على أن طائفة من المؤرخين ترجح ـ ولا يبعد أن يكون صحيحاً ـ أن من أساتذة يزيد بعض نساطرة الشام من مشارقة النصارى... وهذه التربية تصحح الرواية الأدبية القائلة بأن يزيد أراد كعبَ بن جُعَيْل على هجاء الأنصار، فاستأبى عليه تأثماً لمقامهم الديني، ودله على الأخطل التغلبي الشاعر النصراني... وكان يتزيّد في تقريب المسيحيين ويستكثر منهم في بطانته الخاصة... ولا يمكن أن نعلّل هذه الصلة الوثيقة والتعلق الشديد بالأخطل وغيره إلاّ إلى مكان التربية ذات الصبغة الخاصة واللون النابي».

ثم يلخص الشيخ العلايلي تحليله قائلاً:

«إذا كان يقيناً أو يُشبه اليقين أن تربية يزيد لم تكن إسلامية خالصة، أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة، فلم يبق ما يُسْتَغرَب معه أن يكون متجاوزاً مستهتراً مستخفاً بما عليه الجماعة الإسلامية، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أيَّ حساب ولا يقيم لها وزناً، بل الذي يُسْتَغْرَب أن يكون على غير ذلك»[1].

وهكذا يتضح من هذه النصوص ـ وهي غيض من فيض ـ بطلان ما يزعمه الدكتور إبراهيم شعوط من «أن تهمة يزيد بشرب الخمر لم تقم عليها أدلة ولم ترتكز إلاّ على زعمٍ خاطىء»[2]. بل قد بان بما لا يقبل الشك أو المناقشة أن أدلة ذلك قائمة بل ثابتة كل الثبوت، وأن ادعاء خلاف ذلك هو الزعم الخاطىء الجليُّ البطلان.

ولعل من أضحك المضحكات ـ وقد قرأنا النصوص السالفة الذكر ـ أن يذهب الدكتور محمد أبو اليسر عابدين إلى أن يزيد من أهل الجنة؛

(١) سمو المعنى في سمو الذات: ٦٦ ـ ٦٨.
(٢) أباطيل يجب أن تمحى: ٢٥٧.

وأن يترضّى عنه[١] كما يترضى المسلمون عن الصحابة الصالحين والمؤمنين الأوائل المنتجبين.

ويكفينا في الجواب على هذه النادرة الغريبة: أن نشير إلى ضحايا كربلاء والمدينة ومكة، وجدار الكعبة المهدوم، وأباريق الخمر في دمشق، وترك الصلوات في بعض الأوقات ـ على حدّ تعبير معاوية ـ وليس بعد ذلك كله زيادة لمستزيد.

الجواب على السؤال الثالث:

أمّا موضوع البيعة ليزيد فقد تقدّم منّا عرضٌ موجز لأساليب القهر والجبر التي اعتمدها أو اعتمد عليها معاوية لفرض سلطان ابنه على رقاب المسلمين، فلا حاجة إلى الإعادة والتكرار.

ولكنَّ الشيخ محمد الخضري ـ ولا بد أنَّه مطّلع على كل ذلك ـ يقول بكل قطعٍ ويقين: «قد بايعه الناس»[٢].

ويقول الدكتور محمد أبو اليسر عابدين:

«بيعة يزيد بيعة شرعية!!... ولم تجتمع كلمة المسلمين أكثر من اجتماعهم على بيعة يزيد، فالتشنيع عليه خروج عن جادة الحق والصواب»[٣].

ويقول الدكتور إبراهيم شعوط:

«يزيد بن معاوية خليفة بايعه المسلمون في العاصمة الكبرى للمسلمين

(١) أغاليط المؤرخين: ١٢٢.
(٢) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: ١٣٠.
(٣) أغاليط المؤرخين: ١٢٠.

وهي دمشق... ثم بايعه كل الأمصار... ولم يخرج عليه سوى قلّةٍ من المسلمين، فأصبحت بيعته قد انعقدت شرعاً والتزم بها المسلمون»[١].

ولعلَّ من أبلغ ما يوضح لنا حقيقة هذه (البيعة) أن نقرأ مع عبدالله بن همام السلولي قوله في قصيدة له:

فإنْ تأتوا برملة أو بهندٍ
نُبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ما ماتَ كسرى قام كسرى
نعدُّ ثلاثة متناسقينا
فيا لهفا لو أن لنا أُلوفا
ولكنْ لا نعود كما عُنينا
إذاً لضُرِبْتُم حتى تعودوا
بمكة تلعقون بها السَّخينا
حَسَيْنا الغيظَ حتى لو شربنا
دِماءَ بني أُميّة ما رَوِينا
لقد ضاعتْ رعيتكم وأنتم
تَصِيدون الأرانبَ غافلينا[٢]

ونقرأ مع عُقيبة الأسدي شاعر أهل البصرة:

معاويَ إنّنا بَشَرٌ فاسْجِحْ
فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكَلتم أرضنا فجردتموها
فهل من قائمٍ أو من حصيدِ

(١) أباطيل يجب أن تمحى: ٢٧١ ـ ٢٧٢.
(٢) مروج الذهب: ٢/ ٣٢٩.

أتــطــمــع فــي الــخــلــود إذا هــلــكــنــا
ولــيــس لــنــا ولا لــك مــن خــلــودِ
فــهَــبْــهــا أُمَّــة هــلــكــتْ ضــيــاعــا
يــزيــد يــســوســهــا وأبــو يــزيــدِ[1]

وكانت هذه الخلافة ـ بما سبقها وما تلاها ـ إحدى المآسي الكبرى التي ابْتُلِيَتْ بها أمة محمد (ص) ولم يمض على وفاته طويل عهد.

ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليِّ العظيم.

(١) فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٢٥.

ونعود الآن إلى صلب الموضوع، بعد أن أوردنا الجواب الشافي الصريح على كل سؤال من تلك الأسئلة الثلاثة المعنية بهذه الخلافة المشؤومة وخليفتها الفاسق الشرّير.

وقد علمنا مما تقدّم ذكره أن موقف المدينة المنوّرة من يزيد وبيعته بعد هلاك معاوية كموقفها من بيعته في حياة معاوية: رفض صريح؛ وامتناع صلب؛ وثبات جريء على ذلك في كل الأحوال.

ولكنْ، ماذا كان موقف الأمصار الإسلامية الأخرى من هذه الخلافة المفروضة، بعد أنْ جدَّ الجد؛ وأعلن يزيد نفسه ملكاً على المسلمين؟.

ولنبدأ بعاصمة العراق «الكوفة» لنقف على مجمل حالها في تلك الأيام.

روى الطبري بسنده، قال:

«اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صُرد... فقال سليمان: إن معاوية قد هلك، وأن حسيناً قد تَقَبّض على القوم ببيعته؛ وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوّه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوَهَل والفشل فلا تغرُّوا الرجل من نفسه.

«قالوا: لا؛ بل نقاتل عدوّه ونقتل أنفسنا دونه.

«قال: فاكتبوا إليه.

«فكتبوا إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. لحسين بن علي؛ من سليمان بن صرد والمُسيّب بن نَجَبَة ورفاعة بن شَدّاد وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة: سلام عليك، فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد:

«فالحمد لله الذي قصم عدوّك الجبّار العنيد، الذي انتزى على هذه الأُمة فابتزها أمرها، وغَصَبَها فَيئَها، وتأمَّر عليها بغير رضاً منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مالَ الله دُولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبُعداً له كما بعدت ثمود.

«إنّه ليس علينا إمام، فاقْبِلْ لعل الله أن يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلتَ إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام؛ إن شاء الله. والسلام ورحمة الله عليك»(١).

وأُرْسِلَ الكتاب مع عبدالله بن سبع الهَمْداني وعبدالله بن وال، فخرجا مُسرعَيْن حتى قَدِما على الحسين (ع) بمكة المكرمة لعشرٍ قَضين من شهر رمضان، «فقرأ الحسين كتاب أهل الكوفة، فسكت ولم يُجبهم بشيءٍ» (ع)(٢).

وكتب إليه كلٌّ من شَبَث بن رِبْعي وحجار بن أبْجَر ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم وعزرة بن قيس وعمرو بن الحجاج الزُّبيدي ومحمد بن عمير التميمي كتاباً قالوا فيه:

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥٢. وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٥/ ٤٧ ـ ٤٨ والأخبار الطوال: ٢٢٩ والإمامة والسياسة: ٢/ ٤ والإرشاد: ٢٠٩ ومقتل الحسين: ١/ ١٩٤ والكامل: ٣/ ٢٦٦.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٤٨.

«أما بعد: فقد اخضرَّ الجناب، وأينعت الثمار، وطمّت الجِمام. فإذا شئت فاقدم على جند لك مُجَنَّد. والسلام عليك»[١].

ثم خرج من الكوفة كلّ من قيس بن مُسْهِرٍ الصيداوي وعبد الرحمن بن عبدالله الأرحبي وعُمارة بن عبيد السَّلولي، قاصدين الحسين (ع) بمكة، يحملون معهم ـ في رواية الطبري ـ «نحواً من ثلاثة وخمسين صحيفة؛ الصحيفة من الرجل والإثنين والأربعة»[٢]، وفي روايتَي ابن الأثير وابن كثير: «ومعهم نحو من مائة وخمسين كتاباً إلى الحسين»[٣]. والحسين في كلّ ذلك «يتأنى في أمره فلا يجيبهم بشيء»[٤].

ثم سُرِّح إليه هانىء بن هانىء السبيعي وسعيد بن عبدالله الحنفي يحملان رسالة جاء فيها بعد البسملة:

«لحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين. أمّا بعد: فحيَّهلا، فإن الناس ينتظرونك، ولا رأي لهم في غيرك. فالعجل العجل، والسلام عليك»[٥].

وهكذا استمرت الكتب في وصولها متلاحقة متوالية. حتى بلغ

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥٣. ومضمونه في الأخبار الطوال: ٢٢٩ والإرشاد: ٢٠٩ ـ ٢١٠ والبداية والنهاية: ٨/ ١٥١.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥٢.

(٣) الكامل: ٣/ ٢٦٦ والبداية والنهاية: ٨/ ١٥١. ومثله في فتوح ابن أعثم: ٥/ ٤٩ والإرشاد: ٢٠٩ ومقتل الحسين: ١/ ١٩٥.

(٤) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٤٩ ومقتل الحسين: ١/ ١٩٥.

(٥) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥٣، ومضمونه في الأخبار الطوال: ٢٢٩ والإرشاد: ٢٠٩ ـ ٢١٠ والبداية والنهاية: ٨/ ١٥١.

مجموع أسماء مرسلي تلك الكتب من الكوفة إلى الحسين (ع) في رواية الذهبي: مائة ألف[١].

قال ابن جرير الطبري:

«وتلاقت الرسل كلها عنده، فقرأ الكتب، وسأل الرسل عن أمر الناس. ثم كتب مع هانىء بن هانىء السبيعي وسعيد بن عبدالله الحنفي ـ وكانا آخر الرسل ـ كتاباً إلى أهل الكوفة جاء فيه بعد البسملة:

«من حسين بن علي إلى الملإ من المؤمنين والمسلمين. أما بعد: فإن هانئاً وسعيداً قَدِما عَلَيَّ بكتبكم، وكانا آخر مَنْ قدم عليَّ من رسلكم، وقد فهمتُ كلَّ الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جُلّكم: أنه ليس علينا إمام، فأقبِلْ لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق.

«وقد بعثتُ إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإنْ كتب إليَّ أنه قد أجمع رأيُ ملإكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمتْ عليّ به رسلكم وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إنْ شاء الله. فلعمري ما الإمام إلاّ العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط؛ والدائن بالحق؛ والحابس نفسه على ذات الله. والسلام»[٢].

وكتب الحسين في الوقت نفسه كتاباً إلى أهل البصرة في هذا الموضوع، «فجاءت منه نسخة واحدة إلى جميع أشرافها» قال فيه:

«أمّا بعد: فإن الله اصطفى محمداً (ص) على خلقه، وأكرمه بنبوته،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٠١.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥٣، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٥/ ٥١ ـ ٥٢ والأخبار الطوال: ٢٣٠ والإرشاد: ٢١٠ ومقتل الحسين: ١/ ١٩٥ والكامل: ٣/ ٢٦٧.

واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده وبلّغ ما أُرسل به، وكنّا أهله وأولياءه؛ وأوصياءه وورثته؛ وأحقّ الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا؛ وكرهنا الفرقة؛ وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنّا أحقّ بذلك الحق المستحق علينا ممّن تولاّه... وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه (ص)، فإن السنّة قد أُميتتْ، وإن البدعة قد أُحييتْ. وإنْ تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدِكم سبيل الرشاد»[1].

ثم دعا الحسين (ص) مسلم بن عقيل مبعوثه إلى أهل الكوفة، «فسرَّحه مع قيس بن مُسْهِر الصيداوي وعُمارة بن عبيد السَّلولي وعبد الرحمن بن عبدالله الأرحبي، فأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطفِ، فإن رأى الناسَ مجتمعين مستوسقين عجَّل إليه بذلك»[2].

ودخل مسلم الكوفة، ونزل باديء بدءٍ دارَ المختار بن أبي عبيد، وأقبل الناس يختلفون إليه، وكلما اجتمعت جماعة منهم عنده قرأ عليهم كتاب الحسين (ع)، «فأخذوا يبكون. فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ... والله لأُجيبنكم إذا دعوتم، ولأُقاتلنَّ معكم عدوّكم، ولأضربنَّ بسيفي دونكم حتى ألقى الله، لا أُريد بذلك إلاّ ما عند الله. فقام حبيب بن مظاهر الفقعسيّ فقال: رحمك الله، قد قضيتَ ما في نفسك بواجز من قولك، ثم قال: وأنا والله الذي لا إله إلاّ هو على مثل ما هذا عليه. ثم قال الحنفي مثل ذلك»[3].

وارتجت جنبات الكوفة ـ على سعتها ـ بقدوم مسلم، وتوافد أهلها

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥٧.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥٤.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥٥، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٥/ ٥٦ ـ ٥٧.

من كل حدب وصوب للسلام عليه، فخرج النعمان بن بشير والي يزيد على الكوفة إلى المسجد الجامع فصلّى هناك، ثم صعد المنبر بعد الصلاة فقال:

«أما بعد: فاتقوا الله عباد الله ولا تُسارعوا إلى الفتنة والفرقة... إني لا أُقاتل مَنْ لم يقاتلني، ولا أثب على مَنْ لا يثب عليّ، ولا أُشاتمكم، ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنَّة ولا التهمة. ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم!! فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمُه في يدي».

«فقام إليه عبدالله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أُمية فقال: إنه لا يُصلِح ما ترى إلاّ الغَشْم [أي الظلم والبطش]، إنَّ هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوّك رأي المستضعفين».

فغضب النعمان من هذه المقالة وقال: «أنْ أكون من المستضعفين في طاعة الله أَحَبُّ إليَّ من أن أكون من الأعزِّين في معصية الله. ثم نزل»[(١)].

ولم يكترث الناس بتهديد الوالي ووعيده، بل كانوا يختلفون على مسلم زرافات ووحدانا، يظهرون الطاعة؛ ويعقدون البيعة؛ ويعلنون استعدادهم لبذل الغالي والنفيس في سبيل الله تعالى، حتى بايع مسلماً ـ في رواية ابن أعثم ـ «نيف وعشرون ألفاً»[(٢)]، وفي رواية ابن عبد ربه: «أكثر من ثلاثين ألفاً»[(٣)].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٥/ ٥٧ ـ ٥٩ والإرشاد: ٢١١ ومقتل الحسين: ١/ ١٩٧ والكامل: ٣/ ٢٦٧ والبداية والنهاية: ١٥٢/٨.

(٢) الفتوح: ٥/ ٦٨ و٧٧.

(٣) العقد الفريد: ٤/ ٣٧٨.

ورأى مسلم ـ وقد بايعه هذا العدد الكبير من الرجال ـ أن الوقت قد حان لقدوم الحسين (ع) إلى الكوفة، فكتب إليه كتاباً في ذلك قال فيه:

«أما بعد: فإن الرائد لا يكذب أهله، إنّ جمع أهل الكوفة معك، فأقْبِل حين تقرأ كتابي. والسلام»[1].

فلما تسلّم الحسين (ع) كتاب مسلم واطلع على ما فيه، كتب إلى أهل الكوفة كتاباً جاء فيه:

«من الحسين بن علي؛ إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين: سلامٌ عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو.

«أمّا بعد: فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحُسن رأيكم واجتماع ملإكم على نصرنا والطلب بحقنا، فسألتُ الله أن يحسن لنا الصنع، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر. وقد شخصتُ إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدّوا، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله»[2].

وبلغت أنباءُ الكوفة وأحداثها مسامع ملك الشام وبطانته، فهزتهم هزّاً، وأثارت في نفوسهم الرعب والهلع، وساءهم جداً موقف واليهم هناك وما رأوا فيه مما يُدْعى في لغة الجبابرة ضعفاً وتخاذلاً. وسرعان ما أصدر يزيدُ أمره بعزل النعمان بن بشير وتسليم الأمر إلى عبيد الله بن زياد.

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٩٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٩٥، ومضمونه في الأخبار الطوال: ٢٤٥ والإرشاد: ٢٣٠ والبداية والنهاية: ٨/ ١٦٨.

وخفَّ الوالي الجديد إلى الكوفة عجلاً ليتسلم عمله، وبدأ منذ اللحظة الأولى لقدومه بوضع الخطط وبتنفيذ تلك الخطط، لإفساد الجو العام وإيقاع الفتنة في صفوف الناس.

وتداعت الأحداث بسرعة وعنف، وعمَّ الإرهاب كلَّ حيٍّ وبيت، وسالت الأموال كل مسيل لشراء الذمم واستئجار العملاء واسترقاق النفوس الذليلة، وتمّ أثر ذلك وبسببه إحداث شرخ كبير في تماسك أولئك الذين بايعوا الحسين ومسلماً.

ثم وقعت المعركة بين مسلم وقوّات ابن زياد، وأسفرت في نهايتها عن مسلمٍ وهانىء بن عروة المراديّ قتيلَين «يُجرّانِ بأرجلهما في السوق»، وارسال رأسيهما «هدية متواضعة» من ابن زياد إلى يزيد[١]، كما قُتل معهما أُناس آخرون[٢] سمّى محمد بن حبيب منهم: عبدالله بن عفيف[٣].

ويروي بعض المؤرخين أن يزيد كان قد أمر ابن زياد بالمبادرة إلى قتل مسلم وأن يبعث برأسه إلى الشام[٤]، فحقّق له ذلك.

وسُرَّ يزيد بما فعله عبيدالله سروراً كبيراً، فكتب إليه يشكره على ذلك[٥].

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٦ والأخبار الطوال: ٢٤٢ وفتوح ابن أعثم: ٥/ ١٠٨ وتاريخ الطبري: ٥/ ٣٨٠ و٣٩٧ والإرشاد: ٢٢٧ و٢٣٣ ومقتل الحسين: ١/ ٢١٥.

(٢) البداية والنهاية: ٨/ ١٥٧.

(٣) المحبر: ٤٨٠.

(٤) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٦١.

(٥) الكامل: ٣/ ٢٧٥.

وسار موكب الحسين ـ على الرغم من كل ما حدث ـ متّجهاً نحو الكوفة، حاملاً راية مقارعة الظلم؛ والنهي عن المنكر؛ والجهاد في سبيل الله، تنفيذاً لأمره عزَّ وجل وإعلاء لكلمته.

واتخذ حاكم الكوفة كل ما أمكن اتخاذه وبكل الوسائل المتاحة لديه، لصدّ هذا الزحف الإسلامي القادم.

وكان من جملة إجراءات ابن زياد: بَعْثُه الحصين بن تميم التميمي ـ وكان على شُرَطِه ـ وأمرُه إياه أن ينزل القادسية، وأن يضع المسالح ومراكز المراقبة في جميع أنحاء المنطقة الممتدة بين القُطْقُطانة وخَفّان.

كما بعث الحُرّ بين يزيد الرياحي في ألفٍ من رجاله ليستقبل حسيناً في قلب الصحراء.

وخرج هذان القائدان بمن معهما، وبدأ كل واحد منهما بتنفيذ المهمة التي أُوكلت إليه.

وبلغ الحرُّ الرياحي في مسيره إلى حيث يعسكر موكب الحسين، فلما التقى الجمعان وقف سيد الشهداء خطيباً، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس؛ إنها معذرة إلى الله عزَّ وجل وإليكم. إنِّي لم آتكم حتى أتَتْني كتُبكم وقدمتْ عليّ رسلُكم: أن أقدِمْ علينا فإنه ليس لنا إمام،

لعل الله يجمعنا بك على الهدى. فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدمْ مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلتُ منه إليكم».

«فسكتوا عنه»[(١)].

ثم خطب فيهم الحسين (ع) مرةً أخرى بعد صلاة العصر، وكان مما قاله في مخاطبتهم: «أمّا بعد: أيها الناس؛ فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحقّ لأهله يكنْ أرضى لله. ونحن أهل البيت أوْلى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم؛ والسائرين فيكم بالجور والعدوان. وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقّنا وكان رأيكم غيرَ ما أتَتْني كتبكم وقدمتْ به عليّ رسلُكم انصرفتُ عنكم».

فقال له الحُرُّ بن يزيد إنّا ـ والله ـ ما ندري ما هذه الكتب التي تذكر.

فقال الحسين لعقبة بن سمعان ـ وهو أحد أصحابه ـ: أَخْرِج الخُرْجين اللذين فيهما كتبهم إليّ. فأخرَجَ خرجَيْن مملوءين صحفاً فنشرها (فنثرها) بين أيديهم»[(٢)].

ثم سار الحسين (ع) من هناك، والحرُّ يسايره، حتى وصل البيضة، فقام هناك خطيباً فقال: «أيها الناس؛ إن رسول الله (ص) قال: مَنْ رأى

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٠١ والكامل: ٣/ ٢٨٠. والمضمون في فتوح ابن أعثم: ٥/ ١٣٥ والأخبار الطوال: ٢٤٩ والإرشاد: ٢٣٥ ومقتل الحسين: ١/ ٢٣١.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٠٢ والكامل: ٣/ ٢٨٠. والمضمون في فتوح ابن أعثم: ٥/ ١٣٧ والأخبار الطوال: ٢٤٩ والإرشاد: ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ومقتل الحسين: ١/ ٢٣١ والبداية والنهاية: ٨/ ١٧٢.

سلطاناً جائراً؛ مستحلاً لحُرَم الله ناكثاً لعهد الله: مخالفاً لسنّة رسول الله؛ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفصلٍ ولا قول؛ كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله.

«ألا وإنَّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلُّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقُّ مَنْ غيَّرَ. قد أتتني كتبكم وقدمتْ عليَّ رسلكم ببيعتكم؛ أنكم لا تُسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (ص)، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أسوة. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغترَّ بكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيَّعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيُغني الله عنكم»[١].

ثم خطبهم مرة أخرى عند وصولهم إلى ذي حُسُم، فقال:

«إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، واستمرت حَذّاءَ[٢]، فلم يبق منها إلاّ صبابه كصبابة الإناء وخسيس عيشٍ كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحق لا يُعمَل به، وإن الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإني لا أرى الموت إلاّ سعادة[٣]، ولا الحياة مع الظالمين إلاّ برما».

فقام زهير بن القين البجلي من بين الحاضرين فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٠٣ والكامل: ٣/ ٢٨٠.

(٢) في المطبوع: «جداً» وهو تصحيف.

(٣) في المطبوع: «الا شهادة وهو تحريف.

«قد سمعنا ـ هداك الله يا ابن رسول الله ـ مقالتك، والله لو كانت الدنيا لنا باقية وكنّا فيها مخلَّدين إلاّ أنَّ فراقها في نصرك ومواساتك؛ لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها».

وأقبل الحرُّ على الحسين مشفقاً فقال:

«إني أذكّرك الله في نفسك، فإني أشهد لئن قاتلتَ لتُقاتلنَّ ولئن قُوتلتَ لتهلكنَّ فيما أرى.

فقال له الحسين (ع):

«أفَبِالموت تخوّفني، وهل يعدو بكم الخَطْبُ أنْ تقتلوني. ما أدري ما أقول لك، ولكن أقول كما قال أخو الأوس:

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى
إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه
وفارق مثبوراً يغشُّ ومُرغما[1]

ولقي الحسين (ع) في أثناء ذلك أربعة نفرٍ كانوا قد خرجوا من الكوفة سراً لينضموا إلى ركب الإيمان، فسألهم عن الكوفة وأخبارها، «فقال له مجمّع بن عبدالله العائذي ـ وهو أحدهم ـ:

«أما أشراف الناس فقد أُعظِمت رشوتُهم، ومُلئتْ غرائرُهم، يُستمال ودّهم ويُستخلص به نصيحتهم. فهم ألْبٌ واحد عليك.

«وأمّا سائر الناس بَعْدُ فإن أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك.

(١) تاريخ الطبري: ٥/٤٠٣ ـ ٤٠٤.

ثم سألهم عن أخبار رسوله إلى الكوفة قيس بن مُسْهِر الصيداوي فقالوا:

«أخَذَه الحصين بن تميم فبعث به إلى ابن زياد، فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك، فصلّى عليك وعلى أبيك ولعن ابن زياد وأباه؛ ودعا إلى نصرتك، وأخبرهم بقدومك. فأمر به ابن زياد فأُلقي من طمار القصر.

«فترقرقت عينا الحسين (ع) ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

وخفق الحسين (ع) ـ وهو مرتحل من قصر بني مقاتل ـ خفقة ثم انتبه وهو يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. فأقبل إليه ابنه علي الأكبر فقال: «يا أبتِ ـ جُعِلتُ فداك ـ مِمَّ حمدتَ الله واسترجعت؟

«قال: يابنيَّ؛ إني خفقتُ برأسي خفقة فعَنَّ لي فارس على فرس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم. فعلمتُ أنها أنفسنا نُعِيتْ إلينا.

«قال له: يا أبتِ؛ لا أراكَ الله سوءاً؛ ألَسْنا على الحق؟

«قال: بلى والذي إليه مرجع العباد.

«قال: يا أبت؛ إذاً لا نبالي.

«فقال له: جزاكَ الله من ولدٍ خيرَ ما جزى ولداً عن والدِه»[2].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٠٥ والبداية والنهاية: ٨/ ١٧٤. وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٥/ ١٤٦ ـ ١٤٧ ومقتل الحسين: ١/ ٢٣٦ والكامل: ٣/ ٢٨١.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

ثم أصبح الحسين فصلّى الغداة، ثم عجّل الركوب، فأخذ يتياسر بأصحابه، فيأتيه الحرّ بن يزيد فيرُدهم. فلم يزالوا يتسايرون حتى انتهوا إلى المكان الذي نزل به الحسين (كربلاء)، فإذا راكب مقبل من الكوفة، فوقفوا جميعاً ينتظرونه، فلمّا انتهى إليهم سلَّمَ على الحرِّ ودفع إليه كتاباً من عبيدالله بن زياد، فإذا فيه:

«أما بعد: فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي، فلا تُنْزِله إلاّ بالعراء في غير حصنٍ وعلى غير ماء، وقد أمرتُ رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك أمري»[1].

فلمّا قرأ الحرُّ الكتاب قال للحسين وأصحابه: «هذا كتاب الأمير عبيدالله بن زياد يأمرني فيه أن أُجعجع بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابه، وهذا رسوله وقد أمره ألاّ يفارقني حتى أُنفذ رأيه وأمره.

«وأخذ الحُرُّ القوم بالنزول في ذلك المكان، على غير ماء ولا في قرية... فنزلوا... وذلك يوم الخميس... الثاني من المحرم سنة إحدى وستين»[2].

وكان ذلك بمثابة الإعلان الصريح للحرب؛ بل البدء بها عملياً منذ اليوم.

❀ ❀ ❀

ولم يكن في هذا كلّه ما يغيّر من خطط الحسين أو يضيف إليها جديداً لم يُحسَب حسابه من قبل، فقد كان الحسين (ع) منذ خروجه من المدينة وإيداع وصيته عند أخيه محمد ابن الحنفية ـ وقد تقدم إيراد نصّها ـ

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٤٠٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/٤٠٨ ـ ٤٠٩.

عارفاً بالأمر بكل ملابساته واحتمالاته وطوارئه، بل منتظراً تلك المفاجآت انتظار الخبير المدرك البصير؛ ومقبلاً على الموت والشهادة إقبال الواله المتلهف، ومتجهاً نحو هذا الهدف بكل عزم وإقدام وتصميم.

ولهذا رأيناه يعلن ـ وهو بَعْدُ في الحجاز قبل التوجه إلى العراق ـ قائلاً بصريح اللفظ وواضح التعبير:

«مَنْ لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح»[(١)].

وقد يكون مثل هذا التصريح ـ في النظر البَدْوي ـ مما لا ينبغي لقائد الثورة ـ أية ثورة ـ أنْ يقوله علناً؛ لأنه يخذّل عزم أتباعه ويشتت صفهم ويُضعف معنوياتهم. ولكن الحسين بنظره الثاقب كان يعلم أن هذه الصراحة سوف تجلب له أولئك المقدِمين على الشهادة بصدقٍ وإصرار، والمستعدين لبذل النفس برضاً واندفاع؛ وتُبْعِد من طريقه جميع الانتهازيين والنفعيّين وضعاف النفوس والعزائم، كما كان يعلم حق العلم أن استشهاده واستشهاد هؤلاء المؤمنين الصادقين سوف يحقّق الفتح المنشود والنصر الموعود.

ولعل الباحث الجادّ المدقق إذا تأمل وأمعن النظر ملياً في مجموع أحاديث الحسين (ع) وخطبه التي تقدّم ذكرها، يستطيع أن يخرج منها لا بهذه المحصّلة فحسب، وإنما بخلاصة دقيقة وافية لمجمل أسباب الثورة ودوافعها، ووقائع الأحداث ونتائجها، مما يمكن إيجازه في النقاط أو الفقرات الآتية:

١ ـ أكّد الحسين (ع) في خطبه أن أهل الكوفة قد بايعوه، وقد أتَتْه كتبهم ورسلهم بهذا الشأن، وكان معه خُرجانِ مملوءان بصحف

(١) كامل الزيارات: ٧٥ ودلائل الإمامة: ٧٧.

القوم وكتبهم. ولم يكن أهل الكوفة في بيعتهم إياه، قد نقضوا بيعة يزيد لأنهم لم يبايعوه أبداً، وقد صرَّحوا بذلك في كتبهم إذ قالوا: «ليس لنا إمام» أي ليست في أعناقنا بيعة لأحد. وهو بالتنبيه على هذا الجانب وتكرار إعلانه يريد أن يفضح نوايا أولئك الذين سيكتبون في هذا الموضوع بعد أربعة عشر قرناً تقريباً فيزعمون أن «بيعة يزيد بيعة شرعية، ومَنْ خرج عليه كان باغياً»[1]، في حين أنه لم تكن هناك بيعة مطلقاً ليُبحث في أمر شرعيتها أو عدمه، ولم يكن عليهم خليفة ـ بالمعنى الإسلامي للخليفة ـ كي يُنظر في حكم الخروج عليه.

٢ ـ وأكّد الحسين (ع) أيضاً في خطبه هذه: أنه أولى بولاية هذا الأمر بموجب النصوص النبوية من جهةٍ، والالتزام بأحكام الإسلام من جهة أخرى، بل إنه صاحب الحق الشرعي فيه؛ باعتراف معاوية كما تكررت الإشارة إلى ذلك. وبما أنه الأوْلى بالأمر وصاحب الحق كانت ثورته ثورة شرعية منسجمة مع كل المبادىء السماوية والمعايير المنطقية.

٣ ـ وأكّد الحسين (ع) أيضاً في تلك الخطب: أن النبي (ص) قد أمر بمحاربة السلطان الجائر المستحل لحرمات الله، الناكث بعهد الله، المخالف لسنة رسول الله، العامل في عباد الله بالإثم والعدوان. كما أكد أن أولئك الحكام المدّعين ما ليس لهم قد ساروا في الناس بالجور والسوء، ولزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله.

---

(١) أغاليط المؤرخين: ١٢٠.

وإن التغيير في هذه الحالة واجب على الجميع؛ تنفيذاً لأمر الله المبلّغ إلى المسلمين على لسان رسول الله (ص). ولن يصح أن نسمي مثل هذا التغيير تفريقاً لصفوف الأمة أو تصديعاً لبنيانها كما يزعم وعاظ السلاطين؛ أو أن نطلق عليه صفة الفتنة العمياء والخروج الباغي، لأننا إذا سمينا محاربة السلطان الجائر فتنة وخروجاً على الشرع والشرعية نكون قد ألغينا كل الأحكام الإسلامية والنصوص المقدّسة في وجوب تغيير المنكر والنهي عنه بجميع الوسائل المتاحة والإمكانات المتوفرة.

٤ ـ ولكي يقيم الحسين (ع) الحجة بكل أساليبها؛ ويظهر للعيان حقيقة عدوه التي ربما جهلها بعض الناس يومذاك، أعلن على الجميع أنه إنما جاء إلى العراق استجابة لنداء أهله وتلبية لطلبهم ودعوتهم. وإنهم إذا كانوا قد ندموا على دعوته فنكثوا البيعة ونقضوا العهد وكرهوا مَقْدمه فإنه مستعد للإنصراف والعودة من حيث جاء.

ولم يكن هذا المقترح من الحسين منبعثاً من شعور بخوفٍ وجبن وحبّ للحياة؛ أو دليلاً على إحساس بفشلٍ أو هزيمة، ولكنه كان يريد أن يوضح للأمة بالدليل القاطع الساطع أن آل أبي سفيان وبطانتهم من المرتزقة والولاة كانوا مصممين على قتله على كل حال، وإنهم لن يقبلوا في هذا الصدد أي حلّ سلمي ينهي المشكلة بما لا يحقّق مآربهم الشرّيرة، بل لن يقنعهم من الحسين إلاّ الإذعان لجلالة السلطان أو القتل.

٥ ـ ولعلم الحسين بهذه النوايا الأموية الخبيثة أعلن مراراً في خطبه استعداده الكامل للموت والشهادة في سبيل الله، ورغبته الصادقة في لقاء ربّه، وأن الحياة مع الظالمين لا تطاق، وان الموت إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل هي السعادة المأمولة والغنيمة

المنشودة، وإنه ليس بالموت عار على الفتى إذا ما جاهد مخلصاً؛ وأسلم أمره إلى الله محقاً؛ وقارع الظلم والظالمين حتى يلفظ النفس الأخير.

وسلام عليه يوم وُلِدَ؛ ويوم أعلن ثورته؛ ويوم استشهد؛ ويوم يبعث حيّاً.

وبدأت الجيوش الأموية تتوارد على كربلاء لحرب الحسين (ع).

وخطب عبيدالله بن زياد في الكوفة يحرّض الناس على الخروج إلى الحرب، وذكر أن الأمير ـ يعني يزيد ـ قد زاد في إكرامكم[1]. وفي نصّ الخوارزمي: «وقد زاد في أرزاقكم مائة مائة»[2].

وكان مجموع من حضر في أشهر الروايات (٢٢) ألفاً من المقاتلين:

قدم عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف.

وانضم مَنْ كان مع الحرّ إلى هؤلاء؛ وكان عددهم ألفاً.

وقدم الشمر بن ذي الجوشن السلولي في أربعة آلاف.

ثم تبعه زيد بن ركاب الكلبي في ألفين.

والحصين بن نمير السكوني في أربعة آلاف.

والمصاب (المصابر) الماري (المازي) في ثلاثة آلاف.

ونصر بن حربة في ألفين.

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٥/ ١٥٧.

(٢) مقتل الحسين: ١/ ٢٤٢.

ثم قدم شبث بن ربعي في ألف فارس.

وحجّار بن أبجر في ألف فارس.

«فصار عمر بن سعد في إثنين وعشرين ألفاً ما بين فارس وراجل... والتأمت العساكر إلى عمر بن سعد، لستٍّ مضين من المحرّم»[١].

ولم يكن هذا العدد (إثنان وعشرون ألفاً) هو الحدّ الأعلى أو الوحيد الذي روته كتب التاريخ.

فقد روى ابن عنبة الداوودي أنهم ثلاثون ألفاً[٢].

وذكر الطرماح بن عديّ أنه رأى بظهر الكوفة من الناس «ما لم تر عيناي في صعيدٍ واحد جَمْعاً أكثر منه، فسألتُ عنهم فقيل: اجتمعوا ليُعْرَضوا، ثم يُسرّحون إلى الحسين»[٣].

أما أصحاب الحسين فقد كان مجموعهم في أشهر الروايات (٧٢) رجلاً من أهل بيته وأصحابه: إثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً[٤].

(١) يراجع في ذلك: فتوح ابن أعثم: ٥/ ١٥٣ و١٥٧ ـ ١٥٩ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٠٩ والأخبار الطوال: ٢٥٣ ـ ٢٥٤ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٦ والإرشاد: ٢٣٩ ومقتل الحسين: ١/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢ والكامل: ٣/ ٢٨٢ والبداية والنهاية: ٨/ ١٦٩ و١٧٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٠٢ ومرآة الجنان: ١/ ١٣٢ وتاريخ الخلفاء: ١٣٨ وشذرات الذهب: ١/ ٦٧.

(٢) عمدة الطالب: ١٨٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٠٦، وقريب منه في الكامل: ٣/ ٢٨١ والبداية والنهاية: ٨/ ١٧٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٦ والأخبار الطوال: ٢٥٦ وفتوح ابن أعثم: ٥/ ١٨٣ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٢٢ والإرشاد: ٢٤٦ ومقتل الحسين: ٢/ ٤ والكامل: ٣/ ٢٨٦ والبداية والنهاية: ٨/ ١٧٨.

وكانوا من القلّة ـ فيما يحدّث ابن كثير ـ أن «الرجل من أصحاب الحسين إذا قُتِل بانَ فيهم الخلل، وإذا قُتِل من أصحاب ابن زياد الجماعة الكثيرة لم يتبيّن ذلك فيهم لكثرتهم»[١].

❁ ❁ ❁

وبدأ الطرفان الإعداد للحرب والتهيؤ للّقاء الدامي منذ اليوم الأول لنزولهما في كربلاء وبأقصى السرعة الممكنة.

وكان من أولى الخطوات في هذه السبيل تنفيذاً لأمر ابن زياد: إن عمر بن سعد بعث «عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس، فنزلوا على الشريعة، وحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الماء أن يُسقوا منه قطرة. وذلك قبل قتل الحسين بثلاث»[٢]، ولكن أصحاب الحسين حصلوا في تلك الليلة على أثر معركة مباغتة على عشرين قربة من الماء[٣].

وقد علّل عبيدالله بن زياد أمره بحرمان الحسين ومن معه من الماء بقوله مخاطباً عمر بن سعد: «أما بعد: فَحُلْ بين الحسين وأصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة، كما صُنِع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان»[٤].

ويبدو أن كل ما شهده صعيد كربلاء من مآسٍ ومخازٍ يندى لها جبين التاريخ؛ كان بدافع الثأر لعثمان.

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ١٧٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤١٢، ومثله في الأخبار الطوال: ٢٥٥ وفتوح ابن اعثم: ٥/ ١٦٣ والكامل: ٣/ ٢٨٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٤١٢، ومضمونه في الأخبار الطوال: ٢٥٥ وفتوح ابن أعثم: ٥/ ١٦٤ ومقاتل الطالبيين: ١١٧.

(٤) تاريخ الطبري: ٥/ ٤١٢، والمضمون في الأخبار الطوال: ٢٥٥ وفتوح ابن أعثم: ٥/ ١٦٢ والإرشاد: ٢٤٠ والبداية والنهاية: ٨/ ١٧٥.

وقد أكّد ذلك عمرو بن سعيد بن العاص الأموي والي المدينة حينما جاءه الرسول يُخْبره بقتل الحسين وبواعية بني هاشم حزناً عليه، فقال: «هذه واعية بواعية عثمان بن عفان»[(١)]، وفي لفظ آخر: «ناعية كناعية عثمان»[(٢)].

ويقول مروان بن الحكم للوليد بن عقبة: «أن آل أبي تراب هم الأعداء في قديم الدهر ولم يزالوا، وهم الذين قتلوا الخليفة عثمان بن عفان»[(٣)].

وكان ما فعل الأمويون بكربلاء هو الجزاء الأمثل لوقفة الحسين مع أخيه الحسن على باب عثمان يصدّان عنه الثوار ويمنعان الجماهير المسلمة الغاضبة من اقتحام الدار للإجهاز عليه!!

بل لن يكون الجزاء الأموي أفضل من ذلك في كل الظروف والأحوال!!

وبعد قيام ابن سعد بتنفيذ الأمر الأول الصادر إليه بحرمان الحسين وأصحابه من الماء؛ تسلّم أمراً جديداً من ابن زياد جاء فيه:

«... انظر، فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إليَّ سلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثّل بهم فإنهم لذلك مستحقون. فإن قُتِل حسين فأوطِىء الخيلَ صدره وظهره فإنّه عاقٌّ مشاق قاطع ظلوم»[(٤)].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٦٦ والإرشاد: ٢٦٣.

(٢) الكامل: ٣/ ٣٠٠.

(٣) فتوح ابن أعثم: ٥/ ١٢.

(٤) تاريخ الطبري: ٥/ ٤١٥ وفتوح ابن أعثم: ٥/ ١٦٦ والإرشاد: ٢٤٢ والكامل: ٣/ ٢٨٤.

ولمّا كان الحسين ـ كما يعلم ابن سعد وأتباعه ـ رافضاً للاستسلام والذل والخنوع والخضوع؛ فقد وضع هذا القائد خطة الهجوم بكل تفاصيلها، وعزم على أن يكون ذلك عصر التاسع من المحرم، فعبّأ جيشه «ورتبهم في مراتبهم، وأقام الرايات في مواضعها... فأحاطوا بالحسين من كلِّ جانب حتى جعلوه في مثل الحلقة».

وخرج الحسين من بين أصحابه لمّا علم بالأمر؛ ليقيم الحجة على هؤلاء الأعداء ـ تنبيهاً لغافلهم وإرشاداً لجاهلهم ـ، فأتى جيش عدوه فاستنصتهم، فأبوا أن ينصتوا، فقال لهم:

«ويلكم، ما عليكم أن تنصتوا إليَّ فتسمعوا قولي،، وإنما أدعوكم إلى سبيل الرشاد، فمَنْ أطاعني كان من المُرشَدين، ومن عصاني كان من المُهلكَين، وكلُّكم عاصٍ لأمري؛ غير مستمع لقولي، قد انخزلت عطيّاتكم من الحرام، ومُلئت بطونكم من الحرام، فطبع الله على قلوبكم. ويلكم، ألا تنصتون! ألا تسمعون!

«فتلاومَ أصحاب عمر بن سعد وقالوا: أنصِتوا له.

فقال الحسين:

«تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، أفحين استصرختمونا وَلِهين متحيّرين؛ فأصرخناكم مؤدين مستعدين، سللتم علينا سيفاً في رقابنا، وحششتم علينا نار الفتن التي جناها عدوكم وعدونا، فأصبحتم البأ على أوليائكم، ويداً عليهم لأعدائكم، بغير عدلٍ أفشوه فيكم ولا أملٍ أصبح لكم فيهم، إلاّ الحرام من الدنيا أنَالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه، من غير حدثٍ كان منّا، ولا رأي تفيّل لنا. فهلاً لكم الويلات إذ كرهتمونا [و] تركتمونا. فتجهزتموها والسيف لم يُشهر، والجأش طامن، والرأي لم يستحصف، ولكن أسرعتم علينا كطيرة الدَّبا، وتداعيتم إلينا كتداعي الفراش، فقبحاً لكم، فإنما أنتم من طواغيت الأمة، وشذّاذ الأحزاب؛

ونبذة الكتاب؛ ونفثة الشيطان؛ وعصبة الاثام؛ ومحرِّفي الكتاب؛ ومطفئي السنن؛ وقتلة أولاد الأنبياء؛ ومبيري عترة الأوصياء؛ وملحقي العهار بالنسب؛ ومؤذي المؤمنين؛ وصراخ أئمة المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين. وأنتم ابن حربٍ وأشياعه تعتمدون، وإيانا تخذلون. أجلْ ـ والله ـ الخذل فيكم معروف، وشجتْ عليه عروقكم، وتوارثته أصولكم وفروعكم، ونبتت عليه قلوبكم، وغُشِّيتْ به صدوركم. ألا لعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها؛ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، فأنتم ـ والله ـ هم».

«ألا إنَّ الدعي ابن الدعي؛ قد ركز بين اثنتين: بين القتلة والذلة، وهيهات منّا أخذ الدنيّة، أبى الله ذلك ورسوله؛ وجدود طابت وحجور طهرت؛ وأنوف حميّة ونفوس أبيّة، لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.

«ألا إني قد أعذرتُ وأنذرت.

«ألا إني زاحف بهذه الأسرة على قلة العتاد وخذلة الأصحاب»، ثم أنشد:

فإن نهزِم فهزّامون قدماً
وإن نُهزَم فغير مهزّمينا
وما إن طبُّنا جبن ولكن
منايانا ودولة آخرينا

«أما أنه لا تلبثون بعدها إلا كرَيْثِ ما يُركَب الفرس؛ حتى تدور بكم دور الرحى، عهدٌ عهده إليَّ أبي عن جدّي ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

«اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبَّرة فلا يدع فيهم أحداً، قتلة بقتلة، وضربة بضربة، ينتقم لي ولأوليائي وأهل بيتي وأشياعي منهم، فإنهم غرُّونا وكذبونا وخذلونا، وأنت ربنا، عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير»(١).

وبعد أن أنهى الحسين (ع) خطابه طلب من ابن سعد الإمهال إلى صباح اليوم التالي، فاستجاب العدو لذلك.

وجمع الحسين أصحابه في تلك الليلة الليلاء، وخطب فيهم فقال:

«اثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء. اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وجعلتَ لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، وعلّمتنا القرآن، وفقّهتنا في الدين، فاجعلنا لك من الشاكرين.

«أمّا بعد: فإني لا أعلم أصحاباً أوْفى ولا أخْيَرَ من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوْصل من أهل بيتي؛ فجزاكم الله جميعاً عني خيراً. ألا وإني لأظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإني قد أذنتُ لكم جميعاً فانطلقوا في حلٍّ، ليس عليكم مني ذمام. هذا الليل قد غشيكم فاتخِذوه جملاً، وليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفرَّقوا في البلاد في سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله. فإن القوم يطلبوني، ولو أصابوني لَهوا عن طلب غيري»(٢).

«فقال له اخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبدالله بن جعفر: لِمَ نفعل؟ لنبقى بعدك، لا أرانا الله ذلك أبداً..»

---

(١) مقتل الحسين (ع) ٢/ ٦ ـ ٨، ووردت فقرة منها في شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٢) النص من الكامل: ٣/ ٢٨٥، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٥/ ١٦٩ ـ ١٧٠ والإرشاد: ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ومقتل الحسين: ١/ ٢٤٧.

«فقال الحسين (ع): يابني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، اذهبوا فقد أذنتُ لكم».

«قالوا... لا والله لا نفعل، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نَرِد مَوْرِدَك. فقبح الله العيش بعدك.

«وقام إليه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال: أنحن نخلّي عنك ولمّا نُعذر إلى الله في أداء حقك!. أمَا ـ والله ـ حتى أكسر في صدورهم رمحي؛ وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أُفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك.

و«قال سعيد بن عبدالله الحنفي: والله لا نخليك حتى يعلم الله أنّا حفظنا غيبة رسول الله (ص) فيك. والله لو علمتُ أني أقتل ثم أُحيا ثم أُحرق حيّاً ثم أذرّ ـ يُفعل ذلك بي سبعين مرة ـ ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك. فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة؛ ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

«وقال زهير بن القين: والله لوددتُ أني قُتلتُ ثم نُشِرت ثم قُتلت؛ حتى أُقتَل كذا ألف قتلة؛ وأنَّ الله يدفع بذلك القتلَ عن نفسكْ وأنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

«وتكلم جماعةُ أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجهٍ واحد فقالوا: والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نَقِيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قُتلنا كنّا وَفّينا وقضينا ما علينا»[١].

❀ ❀ ❀

---

(١) يراجع في النصوص المذكورة تاريخ الطبري: ٥/٤١٩ ـ ٤٢٠. وقريب من لفظه في فتوح ابن أعثم: ٥/١٧٠ ـ ١٧١ والإرشاد: ٢٤٤ ومقتل الحسين: ١/٢٤٧ والبداية والنهاية: ٨ج١٧٧.

وأصبح الصباح الحزين.

ومع إطلالة خيوطه الأولى على الأفق زحف جيش الضلال نحو معسكر الحسين (ع)، وكان ذلك عند شروق الشمس[(١)] أو بعد صلاة الصبح[(٢)].

وخرج الحسين وصحبه لاستقبال القوم؛ فلم يجد أبو الشهداء بدّاً من تكرار الحجة وإعادة التحذير والتنبيه، عسى أن يكون بين هذه الآلاف من يتعظ ويعتبر؛ ومن يذعن قلبه لكلمة الحق فيعود عن غيّه.

وكان مما قاله (ع) في خطابه الأول صباح عاشوراء:

«الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرَّته، والشقيُّ من فتنَتْه، فلا تغرنكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء مَنْ ركن إليها، وتُخيّب طمع مَن طمع فيها. وأراكم قد اجتمعتم على أمرٍ قد أسخطتم الله فيه عليكم، فأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلَّ بكم نقمته، وجنّبكم رحمته، فنعم الربُّ ربنا وبئس العبيد أنتم. أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول محمد،ثم إنكم زحفتم إلى ذريته تريدون قتلهم. لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتبّاً لكم وما تريدون، إنّا لله وإنّا إليه راجعون»[(٣)].

وكان مما قال (ع) في ذلك اليوم أيضاً:

«أيها الناس، اسمعوا قولي، ولا تُعجلوني حتى أعِظكم... أما بعد: فانسبوني فانظروا مَنْ أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتِبوها؛ فانظروا هل يحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ أَلَسْتُ ابنَ بنت نبيكم وابن

(١) الأخبار الطوال: ٢٦٠ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٥٩ والعقد الفريد: ٤/ ٣٨١.
(٢) الكامل: ٣/ ٢٨٦ والبداية والنهاية: ٨/ ١٧٨.
(٣) مقتل الحسين: ١/ ٢٥٣.

وصيّه وابنِ عمه وأوّلِ المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه؟ أوَليس حمزة سيد الشهداء عمَّ أبي؟ أوَليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي؟ أوَلم يبلغكم قول مستفيض فيكم: إن رسول الله (ص) قال لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنة، فإن صدّقتموني بما أقول ـ وهو الحق ـ فوالله ما تعمدتُ كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله... وإن كذّبتموني فإن فيكم مَنْ إنْ سألتموه عن ذلك أخبركم... أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟... فإن كنتم في شكٍّ من هذا القول أفتشكُّون أثراً ما أني ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري... أتطلبوني بقتيلٍ منكم قتلته؛ أو مالٍ لكم استهلكته، أو بقصاصٍ من جراحة!!.

«فأخذوا لا يكلّمونه».

«فنادى: يا شبث بن ربعي[1] ويا حجّار بن أبجر ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليَّ أنْ قد أينعت الثمار واخضرَّ الجناب وطمّت الجمام، وإنما تُقدِم على جندٍ لك مجنّد.

«قالوا له: لم نفعل.

«فقال: سبحان الله!، بلى والله لقد فعلتم. ثم قال: أيها الناس؛ إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض.

---

(١) شبث بن ربعي: كان ممن كاتب الحسين (ع) وحثّه على القدوم إلى الكوفة، ثم استهوته لذائذ الدنيا ومغانمها الزائلة فخرج في جيش الضلال لمحاربة إمام الحق. وروى الطبري في تاريخه (٥/ ٤٣٧) عن أبي زهير العبسي أنه سمع شبثاً في إمارة مصعب يقول: «لا يعطي الله أهلَ هذا المصر خيراً أبداً (يعني الكوفة) ولا يسدّدهم لرشدٍ، ألا تعجبون أنّا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه من بعده آل أبي سفيان خمس سنين، ثم عَدَوْنا على ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية وابن سُميَّة الزانية! ضلال يا لك من ضلال».

«فقال له قيس بن الأشعث: أوَلا تنزل عل حكم بني عمك؟.

«فقال الحسين: لا والله؛ لا أُعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرُّ فرار[١] العبيد»[٢].

وكان قد قال لهم في خطاب آخر ـ إتماماً للحجة ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«قد نزل بي ما ترون من الأمر، وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها واشمعلّت، فلم يبق منها إلاّ صبابة كصبابة الإناء؛ وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون الحقّ لا يُعمل به؛ والباطلَ لا يُنهى عنه!، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ ذلاً وندماً»[٣].

ثم توجّه الحسين (ع) إلى أصحابه فخطبهم أيضاً، وكان مما قال:

«خُطَّ الموت على بني آدم كمخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولعني بالشوق إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وأن لي مصرعاً أنا لاقيه، كأني أنظر إلى أوصالي تقطّعها وحوش الفلوات غُبراً وعفراً قد ملأتْ مني أكراشها، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ليوفينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله (ص) لحمتُه وعترته، ولن تفارقه

(١) في المصدر المنقول منه: «ولا أقر إقرار»، وهو تصحيف واضح، لأن اقرار العبيد بمعنى إعطاء الذليل، أي أن الجملتين معناهما واحد، في حين أن الإمام يريد بكل جملة منهما معنى خاصاً، وما أثبتناه هو الوارد في الإرشاد: ٢٤٨ ومقتل الحسين: ١/ ٢٥٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥. وقريب منه في الإرشاد: ٢٤٧ ـ ٢٤٨ والكامل: ٣/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ والبداية والنهاية: ٨/ ١٧٩.

(٣) العقد الفريد: ٤/ ٣٨٠، وقريب منه في مقتل الحسين: ٢/ ٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٠٩.

أعضاؤه، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرُّ بها عينه، وتنجز له فيهم عِدَتُه»[١].

❀ ❀ ❀

وعندما بلغ الأمر لدى الطرفين لحظة الانفجار المحتم تقدم البطل المؤمن زهير بن القين نحو جيش الضلال ناصحاً ومنذراً فقال:

«يا أهل الكوفة؛ نَذَارِ لكم من عذاب الله نَذارِ!، إن حقّاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة وعلى دين واحد وملّة واحدة؛ ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهلٌ، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة.

ثم قال:

«إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية محمد (ص) لينظر ما نحن وأنتم عاملون. إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيدالله بن زياد، فإنّكم لا تدركون منهما إلاّ بسوءٍ عُمْرَ سلطانهما كله، لَيَسْملان أعينكم، ويقطّعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حُجر بن عدي وأصحابه؛ وهانيء بن عروة وأشباهه».

فلم يكن من الجمع المستمع لزهير بن القين إلاّ أنْ «سَبُّوه وأثنوا على عبيدالله بن زياد ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومَنْ معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيدالله سلماً».

فناداهم زهير بن القين قائلاً:

(١) مقتل الحسين: ٢/ ٥ ـ ٦.

«عبادَ الله، إن ولد فاطمة ـ رضوان الله عليها ـ أحقُّ بالودّ والنصر من ابن سُميَّة... فوالله لا تنال شفاعةُ محمد (ص) قوماً هَرقوا دماءَ ذريته وأهل بيته؛ وقتلوا مَنْ نَصَرَهم وذبَّ عن حريمهم»(١).

ثم تقدّم الصفوفَ الحرُّ بن يزيد الرياحي خطيباً ـ وكان قد انسلَّ من معسكر البغي والتحق بالحسين بعد أن حصحص الحق وانكشفت النوايا وتجلّت الحقائق لكل ذي عينين ـ، فكان مما قاله لأولئك الضالين:

«يا أهل الكوفة، لأُمّكم الهَبَل والعبر، إذ دعوتموه؛ حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه. أمسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمه، وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجُّه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع ضرّاً، وحلأتموه ونساءه وأُصَيْبِيَتَه وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني؛ وتَمرَّغ فيه خنازير السواد وكلابه، وهاهم قد صرعهم العطش بئس ما خلفتم محمداً في ذريته، لأسقاكم الله يوم الظمأ»(٢).

❀ ❀ ❀

وقامت الحرب بين الطرفين على قدم وساق، وكانت ضروساً عنيفة لا ترحم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧، وقريب منه في الكامل: ٣/ ٢٨٨ والبداية والنهاية: ٨/ ١٨٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٢٨، وقريب منه في الكامل: ٣/ ٢٨٩ والبداية والنهاية: ٨/ ١٨٠ ـ ١٨١.

ولعلَّ مما يوضح لنا مدى عنف القتال وضراوته ما رواه ابن أبي الحديد قال: «قيل لرجلٍ شهد يوم الطفّ مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول الله (ص)؟ فقال: عضضتَ بالجندل، إنك لو شهدتَ ما شهدنا لفعلتَ ما فعلنا، ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها، كالأسود الضارية، تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية. فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها، فما كنّا فاعلين لا أُمَّ لك»[(١)].

وكان النصر في البداية ـ في رواية ابن كثير ـ «لأصحاب الحسين؛ لقوة بأسهم وأنهم مستميتون لا عاصم لهم إلاّ سيوفهم... ثم حمل شمر بن ذي الجوشن بالميسرة وقصدوا نحو الحسين، فدافعت عنه الفرسان من أصحابه دفاعاً عظيماً، وكافحوا دونه مكافحة بليغة. فأرسلوا يطلبون من عمر بن سعد طائفة من الرماة الرجّالة، فبعث إليهم نحواً من خمسمائة، فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين»[(٢)].

واستمرَّ القتال ـ في رواية الطبري ـ حتى انتصف النهار، وكان «أشد قتال خلقه الله، وأخذوا لا يقدرون على أن يأتوهم إلاّ من وجه واحد؛ لاجتماع أبنيتهم[(٣)] وتقارب بعضها من بعض. فلمّا رأى ذلك عمر بن سعد أرسل رجالاً يقوّضونها عن أيمانهم وعن شمائلهم ليحيطوا بهم، فأخذ الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين يتخللون البيوت

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٦٣.
(٢) البداية والنهاية: ٨/ ١٨٢، والمضمون في مقتل الحسين: ٢/ ١٦ والكامل: ٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩١.
(٣) كذا في المصدر المنقول منه، وأظنه تصحيف (أخبيتهم).

فيشدون على الرجل وهو يقوّض وينتهب؛ فيقتلونه ويرمونه من قريب ويعقرونه. فأمر بها عمر بن سعد عند ذلك فقال: أحرقوها بالنار، ولا تدخلوا بيتاً ولا تقوّضوه، فجاؤا بالنار فأخذوا يحرّقون»(١).

ولمّا انتصف النهار صلّى أصحاب الحسين صلاة الظهر، «صلّى بهم الحسين صلاة الخوف. ثم اقتتلوا بعد الظهر فاشتدَّ قتالهم»(٢).

واستشهد أصحاب الحسين وأهل بيته واحداً بعد واحدٍ.

وبقي الحسين بعد شهادة أنصاره وذوي قرباه فريداً وحيداً لا ناصر له ولا معين، «فشدّ عليه رجّالةٌ ممن عن يمينه وشماله، فحمل على مَنْ عن يمينه حتى ابذعرُّوا؛ وعلى مَنْ عن شماله حتى ابذعرُّوا، وعليه قميص له من خزٍّ، وهو معتمٌّ»(٣).

ووصفه أحد حضّار ذلك اليوم من معسكر أعدائه فقال:

«فوالله ما رأيت مكسوراً (مكثوراً) قط قد قُتِلَ ولدُه وأهل بيته وأصحابه أرْبَط جأشاً ولا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً منه. والله ما رأيتُ قبله ولا بعده مثله؛ أنْ كانت الرجّالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شدَّ فيها الذئب»(٤).

ثم جال الباطل إحدى جولاته الطارئة فحصل على انتصار عاجل مزعوم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٣٨/٥ ومقتل الحسين: ١٦/٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٤١/٥ والإرشاد: ٢٥٢ ومقتل الحسين: ١٧/٢ والكامل: ٣/ ٢٩٢ والبداية والنهاية: ٨/ ١٨٤.

(٣) (٤) تاريخ الطبري: ٤٥٢/٥، وقريب منه في الإرشاد: ٢٥٦ والكامل: ٣/ ٢٩٥ والبداية والنهاية: ١٨٨/٨.

وأسفرت المعركة عن أبي الشهداء طريحاً على الأرض مضمّخاً بدمائه الزكية[١].

واحتزَّ رأسه سنانُ بن أنس[٢].

«وتقاسم الناس ما كان من أمواله وحواصله؛ وما في خبائه، حتى ما على النساء من الثياب الظاهرة»[٣].

وتحقق بذلك ما كان رسول الله (ص) قد أخبر به ـ وهو الصادق المصدّق ـ من استشهاد سبطه الحسين؛ ومن تعيين مكان قتله، وقد أخرج حفاظ الحديث ذلك من عدة طرق:

من طريق أبي أمامة[٤].

ومن طريق أمّ سلمة (أم المؤمنين)[٥].

ومن طريق أم الفضل بنت الحارث[٦].

ومن طريق أنس بن الحارث[٧].

---

(١) وحدث عبد الملك «بن مروان والزهري: «أنه لم يرفع تلك الليلة التي صبيحتها قتل الحسين بن علي بن أبي طالب؛ حجرٌ في بيت المقدس إلاّ وجد تحته دم عبيط» العقد الفريد: ٤/ ٣٨٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٥٣ والكامل: ٣/ ٢٩٥.

(٣) البداية والنهاية ٨/ ١٨٨.

(٤) مجمع الزوائد: ٩/ ١٨٩.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٨ والمعجم الكبير: ٣/ ١١٠ و١١٤ و١١٥ و١١٦ والعقد الفريد: ٤/ ٣٨٣ وتاريخ بغداد: ١/ ١٤٢ ومقتل الحسين: ١/ ١٥٨ و٢/ ٩٥ والكامل: ٣/ ٣٠٣ والبداية والنهاية: ٨/ ١٩٩ و٢٠٠ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٩٤ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٨٨ و١٨٩.

(٦) فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢١١.

(٧) مقتل الحسين: ١/ ١٥٩ والبداية والنهاية: ٨/ ١٩٩.

ومن طريق أنس بن مالك[١].

ومن طريق زينب بنت جحش[٢].

ومن طريق سعيد بن جمهان[٣].

ومن طريق عائشة (أم المؤمنين)[٤].

ومن طريق عبدالله بن عباس[٥].

ومن طريق علي بن أبي طالب (ع)[٦].

ومن طريق معاذ بن جبل[٧].

ومن طريق معاوية بن أبي سفيان[٨].

«ثم إن عمر بن سعد نادى في أصحابه: مَنْ ينتدب للحسين ويوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة منهم إسحاق بن حَيْوَة الحضرمي ـ وهو الذي سلب قميص الحسين فبَرِص بعدُ ـ وأحبش بن مرثد الحضرمي، فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رَضُّوا ظهره وصدره»[٩].

---

(١) المعجم الكبير: ٣/ ١١٢ ومقتل الحسين: ١/ ١٦٠ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٨٧.

(٢) مجمع الزوائد: ٩/ ١٨٨.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٩٥.

(٤) المعجم الكبير: ٣/ ١١٣ ومقتل الحسين: ١/ ١٥٩ والبداية والنهاية: ٨/ ١٦٣ و١٩٩ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٩٥ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٨٧.

(٥) فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٦٢ والبداية والنهاية: ٨/ ٢٠٠ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٩٢.

(٦) المعجم الكبير: ٣/ ١١١ و١١٧ والبداية والنهاية: ٨/ ١٩٩ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ١٩٣ ومجمع الزوائد ٩/ ١٨٧ و١٩٠.

(٧) مقتل الحسين: ١/ ١٦٠ ومجمع الزوائد: ٩/ ١٩٠.

(٨) فتوح ابن أعثم: ٤/ ٢٦٢.

(٩) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥، وقريب منه في مروج الذهب: ٣/ ١١ ومقاتل الطالبيين: ١١٩ والإرشاد: ٢٥٨ ومقتل الحسين: ٢/ ٣٩ والكامل: ٣/ ٢٩٦ وأسد الغابة: ٢/ ٢١ والبداية والنهاية: ٨/ ١٨٩.

ثم احتُزّت رؤوس الباقين من الأهل والصحب، «فسُرِّح باثنين وسبعين رأساً مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمرو بن الحجاج وعزرة بن قيس، فأقبلوا حتى قدموا بها على عبيد الله بن زياد»[1] الكوفة.

ويروي لنا حميد بن مسلم وصفاً تفصيلياً لما جرى في مجلس الطاغية ابن زياد بعد إدخال الرؤوس والأسرى عليه، قال:

«فدخلتُ فيمن دخل، فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه، وإذا هو ينكث بقضيب بين ثنيتيه ساعة. فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب قال له: أُعْلُ بهذا القضيب عن هاتين الثَّنِيَّتَين، فوالذي لا إله غيره لقد رأيتُ شفَتيْ رسول الله (ص) على هاتين الشفتين يقبّلهما. ثم انفضخ الشيخ يبكي.

«فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفتَ وذهب عقلك لضربتُ عنقك.

يقول حميد بن مسلم: «فنهض فخرج، فلما خرج سمعتُ الناس يقولون: والله لقد قال زيد بن أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله... فقلتُ: ما قال؟، قالوا: مرَّ بنا وهو يقول: مَلّكَ عبدٌ عبداً؛ فاتَّخِذتم تُلْداً، أنتم معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابنَ فاطمة، وأمَّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضي بالذل»[2].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٥٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٥٦، وقريب منه في الإرشاد: ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ومقتل الحسين: ٢/ ٤٥ ـ ٤٦ والكامل: ٣/ ٢٩٦ وأسد الغابة: ٢/ ٢١ والبداية والنهاية: ٨/ ١٩٠.

ثم التفت عبيدالله بن زياد إلى زينب ابنة علي ـ وهي جالسة في ركن من ذلك المجلس ـ فقال لها: «الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أُحدوثتكم.

«فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد (ص) وطهّرنا تطهيراً؛ لا كما تقول أنت، إنما يفتضح الفاسق ويُكذب الفاجر.

«قال: فكيف رأيتِ صنع الله بأهل بيتك؟.

«قالت: كُتِب عليهم القتْل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجُّون إليه وتخاصمون عنده»[١]، وفي نصِّ ابن أعثم: «فتحاجون وتخاصمون، فانظر لمن الفلج يومئذٍ، ثكلتك أُمك يا ابن مرجانة»[٢].

ثم أمر ابن زياد أن يُجْمَع الناس في المسجد الأعظم في الكوفة ليستمعوا إلى خطاب «النصر»، فاجتمع الناس، وصعد ابن زياد المنبر فقال:

«الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين!! يزيد بن معاوية وحزبه[٣]، وقتل الكذّاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته».

«فلم يفرغ ابن زياد من مقالته حتى وثب إليه عبدالله بن عفيف

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٤٥٧، وقريب منه في الإرشاد: ٢٥٩ ومقتل الحسين: ٢/٤٢ والكامل: ٣/٢٩٦ ـ ٢٩٧ والبداية والنهاية: ٨/١٩٣.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٥/٢٢٧، ومثله في مقتل الحسين: ٢/٤٢.

(٣) علّق الشيخ عبد الوهاب النجار من علماء الأزهر بمصر على تبجح ابن زياد بالنصر فقال: «هذا النصر ـ في نظري ونظر كل عاقل صحيح العقل ـ شرٌّ من الخذلان والهزيمة، إذ ما فَخْرُ الآلاف الكثيرة تجتمع على اثنين وسبعين رجلاً قد نزلوا على غير ماء؟! إنما يعتبر النصر شرفاً وفخراً إذا كانت العدّة متكافئة والعدد قريباً. فحقٌّ ابن زياد ومَنْ كان على شاكلته أن يندبوا على أنفسهم بالخيبة والخسران؛ وأن يطأطئوا رؤوسهم ذلاً وعاراً، حينما وقف هؤلاء النسوة الأشراف وعلى رأسهنَّ =

الأزدي. . . ـ وكان من شيعة عليّ (ع)، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع عليّ، فلما كان يوم صفّين ضُرِب على رأسه ضربةً وأخرى على حاجبه فذهبت عينه الأخرى، فكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم يصلّي فيه إلى الليل ثم ينصرف ـ، فلما سمع مقالة ابن زياد قال:

«يا ابن مرجانة، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذي ولآك وأبوه، يا ابن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين وتكَلّمون بكلام الصدِّيقين»[1] وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين.

«فغضب ابن زياد ثم قال: مَنِ المتكلم؟

فقال عبدالله بن عفيف: «أنا المتكلم يا عدو الله، أتقتل الذرية الطاهرة التي قد أذهب الله عنها الرجس في كتابه وتزعم أنك على دين الإسلام! واعَوْناه، أين أولاد المهاجرين والأنصار لا ينتقمون من طاغيتك»[2].

ورأت زينب ابنة علي بثاقب بصيرتها ـ ومجلس النصر لم ينفضّ حشده بعدُ ـ أن لا بدَّ لها من مخاطبة هؤلاء المجتمعين، تقريعاً وتوبيخاً؛ وعظةً وإرشاداً، فقامت وسط ذلك الجمع الرهيب، وأومأت إلى الناس أن اسكتوا، فارتدت الأنفاس وهدأ الضجيج، فقالت:

«الحمد لله، وصلواته على أبي محمدٍ رسول الله، وعلى آله الطاهرين الأخيار.

= السيدة زينب بنت فاطمة بنت رسول الله (ص) وهي بهذه الحالة. لعن الله الفسق والفسّاق، لقد سوّدوا صحائف التاريخ وسجلوا على أنفسهم الجرائم الكبرى التي لا تغتفر ولا تنسى مدى الدهر» الكامل: ٣/ ٢٩٧ (الهامش ذو الرقم ٣).

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٥٩ والإرشاد: ٢٦٠ ومقتل الحسين: ٢/ ٥٣ والكامل: ٣/ ٢٩٧.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٢٣٠.

«أمّا بعد: يا أهل الكوفة؛ يا أهل الخَتْل والخذل، أتبكون فلارقأتْ لكم دمعة، إنما مَثَلكم كمثل التي نقضتْ غزلها من بعد قوةٍ أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، ألا بئس ما قدّمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون. أتبكون وتنتحبون؟ أي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، كل ذلك بانتهاككم حرمة ابن خاتم الأنبياء وسيد شباب أهل الجنة؛ وملاذ حضرتكم؛ ومفزع نازلتكم، ومنار حجتكم؛ ومدره سنتكم. ألا ساء ما تزرون، وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبَّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وتولّيتم بغضب الله، وضُربت عليكم الذلة والمسكنة.

«أتدرون ـ ويلكم يا أهل الكوفة ـ أيَّ كبِدٍ لرسول الله (ص) فريتم، وأي دم له سفكتم، وأي حريم له ورثتم، وأي حرمة له انتهكتم. لقد جئتم شيئاً إدّاً؛ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرُّ الجبال هدّاً. لقد جئتم بها خرقاء شوهاء طلاع الأرض، أفعجبتم أن أمطرت السماء دماً، ولعذابُ الآخرة أخزى وأنتم لا تُنصرون».

وجلست ابنة عليّ تكفكف دمعتها، بعد أن أطلقت صيحتها المدوية التي أفسدت على ابن زياد مهرجانات نصره الزائف وغلبته الموقتة، ويقول راوي الخطاب خزيمة الأسدي وهو يصف وقع هذه الكلمات الناريّة الملتهبة من نفوس السامعين: «فوالله لقد رأيتُ الناس يومئذ حيارى قد ردُّوا أيديهم في أفواههم»، كما يقول في وصف الحوراء وهي تتحدر كالسيل في كلامها: «لم أرَ خفرةً قط أفصح منها، كأنها تنطق عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»(١).

❀ ❀ ❀

(١) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٥، وقريب منه في مقتل الحسين: ٢/ ٤٠ ـ ٤١.

وبعد أن شفى ابن زياد غليله من محمد وأهل بيته، وأتمَّ مراسيم (احتفالاته) بنصره المزعوم؛ أرسل عدوُّ الله رأسَ الحسين وسبايا آل محمد إلى دمشق لتقام الاحتفالات في عاصمة المملكة، فرحاً بهذه المناسبة (السعيدة) التي أخذ فيها الأمويون ثارات قتلى بدر[1] وترات دفين حش كوكب.

وأقبل الوفد المرسَل من ابن زياد، ومعه (غنائم الحرب) المبهجة من (رؤوس) و(سبايا)، فانتهو إلى مسجد دمشق، ثم أُدخلوا على يزيد فوضعوا الغنائم أمامه وفي مقدمتها الرأس الكريم، فأُذن للناس بالدخول «فدخلوا، والرأس بين يديه، ومع يزيد قضيب فهو ينكت به في ثغره... فقال رجل من أصحاب رسول الله (ص) يقال له أبو برزة الأسلمي: أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين؟!، أما لقد أخذ من ثغره مأخذاً، لربما رأيتُ رسول الله (ص) يرشفه. أما أنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك، ويجيء هذا يوم القيامة ومحمد (ص) شفيعه»[2].

وروى أخطب خوارزم بسنده قال:

«إن يزيد حين أُتِيَ برأس الحسين بن علي ورؤوس أهل بيته... كشف عن ثنايا رأس الحسين بقضيبه ونكته به... وأنشد:

يا غراب البين ما شئت فَقُلْ
إنما تندب أمراً قد فُعِلْ

---

(١) تراجع الروايات المتعددة الواردة في استشهاد يزيد بأبيات ابن الزبعري ـ وقد ذكرنا بعضها في هذا الكتاب ـ كما يراجع شرح نهج البلاغة: ٤/ ٧١ ـ ٧٢ في مخاطبة مروان بن الحكم محمداً (ص) في قبره بعد مقتل الحسين: «يا محمد يوم بيوم بدر».

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٦٥، وقريب منه في فتوح ابن اعثم: ٥/ ٢٤٠ ـ ٢٤١ ومقتل الحسين: ٢/ ٥٧ والكامل: ٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩ والبداية والنهاية: ٨/ ١٩٠ و١٩١ و١٩٢.

كــل مــلــك ونــعــيــم زائــلٌ
وبــنــات الــدهــر يــلــعــبــن بــكُــلْ
لــيــت أشــيــاخــي بــبــدرٍ شــهــدوا
جــزع الــخــزرج مــن وقــع الأســلْ
لأهــلُّــوا واســتــهــلــوا فــرحــاً
ثــم قــالــوا: يــا يــزيــد لا تــشــلْ
لــســتُ مــن خــنــدف إنْ لــم أنــتــقــم
مــن بــنــي أحــمــد مــا كــان فــعــلْ
لــعــبــتْ هــاشــم بــالــمــلــك فــلا
خــبــرٌ جــاء ولا وحــي نــزلْ
قــد أخــذنــا مــن عــلــيٍّ ثــأرَنــا
وقــتــلــنــا الــفــارس الــلــيــث الــبــطــلْ
وقــتــلــنــا الــقــرم مــن ســاداتــهــم
وعــدلــنــاه بــبــدرٍ فــاعــتــدلْ

قال أخطب خوارزم: «وقد روينا في رواية أخرى بدل (لست من خندف): (لستُ من عتبة)[1].

وروى الحافظ ابن كثير الدمشقي:

إن رجلاً من أهل الشام من حضار هذا المجلس الفاجر قام إلى يزيد فطلب منه أن يهب له إحدى السيدات اللائي كنَّ في السبي؛ وأشار إلى إحدى أخوات الحسين، «فقالت زينب لذلك الرجل: كذبتَ والله ولؤمتَ؛ ما ذلك لك ولا له.

(١) مقتل الحسين: ٢/٥٨ ـ ٥٩.

«فغضب يزيد؛ فقال لها: كذبتِ، والله إن ذلك لي، ولو شئتُ أن أفعله لفعلت.

قالت زينب: «كلاّ والله، ما جعل الله ذلك لك إلاّ أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا.

«فغضب يزيد واستطار ثم قال: إيّاي تستقبلين بهذا! إنما خرج من الدين أبوكِ وأخوكِ.

«فقالت زينب: بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدُّك.

«قال: كذبتِ يا عدوة الله.

«قالت: أنت أمير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك.

«فوالله لكأنَّه استحيا فسكت»[1]

❀ ❀ ❀

وأدركت زينب ابنة عليّ بعد فعل يزيد بالرأس الشريف ما فعل؛ وتمثّله بتلك الأبيات من الشعر وما فيها من الكفر؛ وطلب ذلك الشامي المغفّل إحدى السبايا أن تكون أمّة له، أن لا مناص لها من الكلام؛ إيضاحاً للحقيقة التي يحاول الإعلام الأموي تغطيتها أو تشويهها، وإكمالاً لرسالة الحسين في تعرية أدعياء الإسلام وفضحهم أمام الناس، وتحقيقاً للهدف الذي ضحى سيد الشهداء بنفسه وأهله وأصحابه في سبيله. فقامت سلام الله عليها في ذلك المجلس المشؤوم الرهيب، فقالت:

---

(١) النص من البداية والنهاية: ٨/ ١٩٤ ـ ١٩٥، ومثله في الإرشاد: ٢٦٢ ومقتل الحسين: ٢/ ٦٢ والكامل: ٣/ ٢٩٩.

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين. صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾. أظننت يا يزيد حيث أخذتَ علينا أقطار الأرض وآفاق السماء؛ وأصبحنا نساق كما تساق الأسارى، أنَّ بنا على الله هواناً؛ وبك عليه كرامة!؟ وإن ذلك لعظم خطرك عنده!؟ فشمخت بأنفك، ونظرتَ في عطفك، جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة؛ والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا. فمهلاً مهلاً، أنسيتَ قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

«أمن العدل - يا ابن الطُّلقاء - تخديرك حرائرك وإماءك؛ وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكتَ ستورهنَّ، وأبديت وجوههنَّ، يُحدى بهنَّ من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههنَّ القريب والبعيد؛ والدنيُّ والشريف، ليس معهن من رجالهن ولي؛ ولا من حماتهن حمي. وكيف ترجى المراقبة ممن لفظ فوه أكباد السعداء، ونبت لحمه بدماء الشهداء، وكيف لا يُستبطأ في بغضنا أهلَ البيت مَنْ نظر إلينا بالشنف والشنآن؛ والإحن والأضغان، ثم يقول غير متأثّم ولا مستعظم:

لأهَلُّوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا: يا يزيد لا تشلْ

«منحنياً على ثنايا أبي عبدالله تنكتها بمخصرتك، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأتَ القرحة، واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذرية آل محمد ونجوم الأرض من آل عبد المطلب. أتهتف بأشياخك زعمتَ تناديهم، فلترِدنَّ وشيكاً موردهم، ولَتودّنَّ أنك شللت وبكمت ولم تكن قلتَ ماقلت.

«اللهم خُذْ بحقِّنا، وانتقم ممن ظلمنا، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا، فوالله ما فريت إلاّ جلدك، ولا حززت إلاّ لحمك، ولتردنَّ على رسول الله بما تحمَّلتَ من سفك دماء ذريته، وانتهاك حرمته في لحمته وعترته، وليخاصمنّك حيث يجمع الله تعالى شملهم، ويلمُّ شعثهم، ويأخذ لهم بحقهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، فحسبك بالله حاكماً، وبمحمدٍ خصماً؛ وبجبرئيل ظهيراً. وسيعلم مَنْ سوَّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين أنْ بئس للظالمين بدلاً، وأيكم شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً.

«ولئن جَرَّت عليَّ الدواهي مخاطبتك، فإني لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، وأستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرى. ألاَ فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء، فتلك الأيدي تنطف من دمائنا، وتلك الأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل؛ وتعفوها الذئاب؛ وتؤمها الفراعل. فلئن اتخذتنا مغنماً لتجدنّا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلاّ ما قدمت يداك، وإن الله ليس بظلاّم للعبيد، فإلى الله المشتكى وعليه المعول، فكِدْ كيدك واسعَ سعيك وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا؛ ولا تميت وحينا؛ ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، ولا يغيب منك شنارها، فهل رأيك الا فند؛ وأيامك الا عدد، وشملك إلاّ بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين. فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والرحمة، ولآخرنا بالشهادة والمغفرة، وأسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب له المزيد وحسن المآب، إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل، نِعم المولى ونعم النصير»[1].

(١) مقتل الحسين: ٢/ ٦٤ ـ ٦٦.

ولما سمع يزيد كلام الحوراء غضب غضباً شديداً، فـ «أمر بمنبر وخطيب، ليذكر للناس مساوىء الحسين وأبيه عليهما السلام، فصعد الخطيب المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وأكثر الوقيعة في عليّ والحسين، وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد».

«فصاح به علي بن الحسين: ويلك أيها الخاطب! اشتريت رضا المخلوق بسخط الخالق، فتبوّأ مقعدك من النار. ثم قال: يا يزيد إأذن لي حتى أصعد هذه الأعواد فأتكلّم بكلمات فيهنَّ لله رضا ولهؤلاء الجالسين أجرٌ وثواب.

«فأبى يزيد. فقال الناس: يا أمير المؤمنين! إأذن له ليصعد... ولم يزالوا به حتى أذن له بالصعود.

«فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم خطب خطبة أبكى منها العيون وأوجل منها القلوب» ذكر فيها حسبه ونسبه وفضائل أبيه وجده وجدته.

قال الراوي:

«ولم يزل يقول: أنا أنا، حتى ضجَّ الناس بالبكاء والنحيب، وخشي يزيد أن تكون فتنة»[1].

فلم يكن من مفرٍّ للتخلص من الورطة إلاّ الإيعاز بإطلاق سراح الأسرى وفك القيود عنهم. ثم أمر يزيد بإعادتهم إلى مدينة جدّهم، فعادوا إليها بالعين العبرى؛ والكبد الحرّى؛ والألم الممض؛ والحزن المقيم المقعد.

❁ ❁ ❁

(١) مقتل الحسين: ٢/٦٩ ـ ٧١، وقد ورد فيه نص الخطبة بالتفصيل.

وإذا كانت للباطل في دنيانا الزائلة جولة قد ينتصر فيها على الحق، فإن للحق صولات تدع الباطل هشيماً تذروه الرياح.

وإذا كان يزيد قد حقق نجاحاً وقتياً زائفاً في هذه المعركة، فإن الدم الحسيني الطهور قد صار - منذ ذلك اليوم - فتيل الثورات ومحرك الثائرين على العرش السفياني الجائر والنظام المرواني الفاجر، حتى أمكن الله منه وتمَّ تحطيمه والقضاء عليه بعد حين من الدهر لم يطل كثيراً.

وبقي الحسين على مرّ القرون ذلك المثال الوتر الفريد الأوحد، وقد أراد الله تعالى له أن يظل الفريدَ الذي لم يُشاكل؛ والوتر الذي لم يُشفَع.

إنه الشهيد، ولكنه المنتصر.

والقتيل، ولكنه الفاتح.

والميت، ولكنه الحي الخالد.

وعلى الدهر من دماء الشهيدين
علـيٍّ ونجله شاهدانِ
فهما في أواخر الليل فجرانِ
وفي أولياته شفقانِ[1]

«وقد ظفر التاريخ في الصراع بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية بميزان من أصدق الموازين التي تتاح لتمحيص الجزاء الحق في أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة، فقلما تتاح في أخبار الأمم شرقاً وغرباً عِبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها وأشواطها، وفي تقابل النصر

(١) أبو العلاء المعري.

والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم على اختلاف معارض النصر والهزيمة».

«فيزيد في يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذي لا يشوبه خذلان.

«وحسين في ذلك اليوم هو المخذول الذي لم يطمح خاذله من وراء الظفر به إلى مزيد.

«ثم تنقلب الآية أيما انقلاب.

«ويقوم الميزان، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران»[١].

«ومن ثَمَّ كان جديراً بنا أن نستوحيه على الدوام، كمصدر إلهامي انبثق وهاجاً قوياً، وامتدَّ بأنواره أجيالاً وأجيالاً، ولا يزال يسطع كذلك حتى ينتظم اللانهايات، وينفذ إلى ما وراء الأرض والسماوات. وهل لنور الله حدٌّ يقف عنده أو مَعْلَمٌ ينتهي إليه»[٢].

وصدق الله تعالى إذ قال وهو أصدق القائلين:

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

---

(١) عباس محمود العقاد في كتابه «أبو الشهداء» ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) الشيخ عبدالله العلائلي في كتابه (سمو المعنى في سمو الذات): ١٠٦.

ملاحق الكتاب

الملحق الأول
هل كان يزيد آمراً بقتل الحسين (ع)

الملحق الثاني
حكم لعن يزيد

الملحق الأول

هل كان يزيد آمراً بقتل الحسين (ع)؛ أو أن ما وقع في كربلاء كان مخالفاً لأمره أو بغير علمه؟

وتقول المصادر التاريخية في الإجابة على هذا السؤال:

١ ـ كتب عبدالله بن عباس كتاباً إلى يزيد جاء فيه:

«لا تحسبني ـ لا أبالك ـ نسيتُ قتلك حسيناً وفتيان بني عبد المطلب.. الخ»[١].

وجاء فيه أيضاً:

«فلا شيء عندي أعجب من طلبك ودّي ونصري وقد قتلتَ بني أبي، وسيفك يقطر من دمي»[٢].

٢ ـ خطب معاوية بن يزيد بعد استخلافه فكان ممّا قال:

«ثم قُلِّد أبي وكان غير خليق للخير، فركب هواه... وقد قتل عترة الرسول (ص)، وأباح الحرمة، وحرَّق الكعبة»[٣].

٣ ـ قال الخليفة العباسي أبو العباس المعتضد بالله في الكتاب الذي أنشأه في شأن بني أمية؛ سنة ٢٨٤ هـ:

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٢١ وأنساب الأشراف: ٤/١٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٢٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

«ثم من أغلظ ما انتهك؛ وأعظم ما اجترم، سفكه دم الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله (ص)، مع موقعه من رسول الله (ص) ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل؛ وشهادة رسول الله (ص) له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة. اجتراءً على الله، وكفراً بدينه، وعداوة لرسوله، ومجاهدة لعترته، واستهانة بحرمته... لا يخاف من الله نقمة، ولا يرقب منه سطوة، فبتر الله عمره، واجتثَّ أصله وفرعه، وسلبه ما تحت يده، وأعدَّ له من عذابه وعقوبته ما استحقه من الله بمعصيته»[١].

٤ - روى اليعقوبي أن يزيد كتب إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان:

«إذا أتاك كتابي هذا فأحضر الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير فخذهما بالبيعة، فإن امتنعا فاضرب أعناقهما وابعث إليَّ برؤوسهما»[٢].

وفي لفظ أخطب خوارزم: «فمن أبى عليك منهم فاضرب عنقه وابعث إليَّ برأسه»[٣].

٥ - قال البلاذري عند ذكر يزيد:

«ثم جرى على يده قتلُ الحسين؛ وقتلُ أهل الحرَّة؛ ورَمْيُ البيت وإحراقه»[٤].

٦ - روى ابن أعثم قال:

«أُتِيَ برأس الحسين حتى وُضع بين يدي يزيد «في طشت من

(١) تاريخ الطبري: ١٠/ ٦١.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٥.
(٣) مقتل الحسين: ١/ ١٨٠.
(٤) أنساب الأشراف: ٤/ ١.

ذهب... ثم دعا بقضيب خيزران فجعل ينكت به ثنايا الحسين... وجعل يتمثل بأبيات عبدالله بن الزبعري:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا وقعة الخزرج من وقع الأسلْ
لأهلُّوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشلْ
حين ألْقَتْ بقناةٍ بَرْكَها واستحرَّ القتل في عبد الأشلْ
فجزيناهم ببدرٍ مثلها وأقمنا ميلَ بدرٍ فاعتدلْ

ثم زاد فيها هذا البيت من نفسه فقال:

لستُ من عتبة إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعلْ[1]

كما روى ابن أعثم أن يزيداً لما أرسل وفداً إلى ابن الزبير لإقناعه بعدم الخروج؛ كان مما أمرهم أن يقولوه له:

«وحذّروه ما نزل بالحسين بن علي، وليس الزبير عندي بأفضل من علي بن أبي طالب، ولا ابنه عبدالله بأفضل من الحسين»[2].

٧ ـ روى الطبري:

إن رأس الحسين لما وُضِع بين يدي يزيد جعل ينكت بالقضيب على فيه ويقول:

نفلّق هاماً من رجال أعزّةٍ علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

فقال له أبو برزة الأسلمي: «ارفع قضيبك، فوالله لربما رأيتُ فا رسول الله (ص) على فيه يلثمه»[3].

(١) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٢٣٩ ـ ٢٤٢.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٢٨٠.
(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٣٩٠.

وفي نص آخر رواه الطبري: إن يزيد «أذن للناس فدخلوا، والرأس بين يديه، ومع يزيد قضيب فهو ينكت به في ثغره»[١].

٨ - روى أبو الفرج الأصبهاني:

«إن يزيد تمثل ورأس الحسين بين يديه بقول عبدالله بن الزبعري:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسلْ
قد قتلنا القرم من أشياخهم وعدلناه ببدرٍ فاعتدلْ[٢]

٩ - روى الطبري:

إن رأس الحسين (ع) وُضع بين يدي يزيد، «فضرب على ثنيتي الحسين (ع) فقال نفلّق هاماً.. الخ»[٣].

١٠ - قال الذهبي في يزيد:

«افتتح دولته بقتل الحسين، وختمها بوقعة الحرّة. فمقته الناس، ولم يُبارك في عمره»[٤].

١١ - قال التفتازاني:

«الحقُّ أن رضا يزيد بقتل الحسين واستبشاره بذلك وإهانته أهل بيت رسول الله (ص) ممّا تواتر معناه وإن كان تفصيله آحاداً»[٥].

هذا غيض من فيض مما ورد في المصادر التاريخية من نصوص تؤكد أمر يزيد بقتل الحسين (ع)؛ ثم فرحه الكبير وبهجته الغامرة بذلك

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٦٥.
(٢) مقاتل الطالبيين: ١١٩ - ١٢٠.
(٣) المعجم الكبير: ٣/ ١٠٩ - ١١٠.
(٤) شذرات الذهب: ١/ ٦٩.
(٥) شذرات الذهب: ١/ ٦٨ عن شرح العقائد النسفية.

حينما وافاه (البشير) بما أسفرت عنه المعركة من فوز جيشه ودمار خصمه.

وبهذا يتجلى مدى التفاهة بل الكذب الصراح فيما قاله الدكتور محمد أبو اليسر عابدين في هذا الصدد:

«إني أتحدى كل من ينقل بثبت صحيح أنه أمر أو رضي بقتل الحسين، بل ما تقدّم وتواتر عنه عدم رضائه؛ ونقمته على مَن قَتَلَه»(١).

ومدى تفاهة بل كذب ما قاله الدكتور إبراهيم شعوط من أن قتل الحسين قد «أغضب يزيد وأبكاه فأعلن سخطه على عبيدالله بن زياد»(٢).

ولقد سبق من التفتازاني القول: بأن «رضا يزيد بقتل الحسين واستبشاره بذلك وإهانته أهل بيت رسول الله (ص) مما تواتر معناه».

فمن أين جاء عابدين بالتواتر المضاد؟ وكل النصوص التي تقدم ذكرها صريحة في خلاف ما يقوله هذا المفتي.

ومن أين جاء شعوط ببكاء يزيد على الحسين؟ وهو الذي كان ينكت بمخصرته ثغر هذا الشهيد.

وحسبنا في تفنيد مزاعم عابدين وشعوط فيما ادّعيا من نقمة يزيد وسخطه على مَنْ قتل الحسين ـ مُضافاً إلى كلّ ما مرَّ ـ إنه لم يوبخ ابن زياد ولم يعزله ولم يمسه بسوء، وتلك من مسلّمات التاريخ وبديهياته التي لا يرقى إليها شك أو خلاف. فأية نقمة مزعومة كانت تلك يا ترى؟!

نعم. روى المؤرخون من إمارات هذه «النقمة» وذلك «السخط»:

(١) أغاليط المؤرخين: ١٢٥.
(٢) أباطيل يجب أن تمحى: ٢٧٤.

إن يزيد «جلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شربة تُروّي مشاشي ثم صِلْ فاسقِ مثلها ابن زيادِ
صاحب السرِّ والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

«ثم أمر المغنين فغنّوا»(١).

وهكذا تمسخ الحقائق، وتحرّف الوقائع، وتبدّل المواقف، وتقلب مسارات الأحداث رأساً على عقب، ثم يقال: هذا هو التاريخ؛ وكل ما عداه أغاليط وأباطيل!!

وليس هو ـ في واقع الأمر ـ إلاّ تاريخ الطغاة والطغيان المبرقع ببرقع الإسلام إفكاً وزوراً، والإسلام بريء من جميع ذلك جملةً وتفصيلاً.

ولا مفرَّ ليزيد ـ وقد أمر بقتل الحسين وفرح أشدَّ الفرح بذلك لمّا بلغه النبأ ـ من أن يكون من أبرز مصاديق قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٢٥٤ ومروج الذهب: ٣/ ١٥.

الملحق الثاني

ما هو الحكم الشرعي في لعن يزيد؟

ويجيب الفقهاء والمحدّثون على هذا السؤال:

١ ـ روى الحافظ ابن كثير الدمشقي عدة أحاديث نبوية في فضل المدينة المنورة؛ وفي تنديد النبي (ص) بمن يخيف أهلها ويريدهم بسوء، ثم قال:

«وقد استدلَّ بهذا الحديث وأمثاله مَنْ ذهب إلى الترخيص في لعنة يزيد بن معاوية، وهو رواية عن أحمد بن حنبل اختارها الخلاّل وأبو بكر بن عبد العزيز والقاضي أبو يعلى وابنه القاضي أبو الحسين. وانتصر لذلك أبو الفرج ابن الجوزي في مصنّفٍ مفرد وجَوَّز لعنه»[١].

٢ ـ وقال التفتازاني:

«اتفقوا على جواز اللعن على مَنْ قتل الحسين أو أَمَرَ به أو أجازه أو رضي به»، ثم ذكر رضا يزيد بذلك واستبشاره به وقال: «فنحن لا نتوقف في شأنه... لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه»[٢].

٣ ـ وروى الشيخ يوسف النبهاني: إن العلماء قد أجمعوا على فسق

---

(١) البداية والنهاية: ٨/ ٢٢٣.

(٢) شذرات الذهب: ١/ ٦٨ ـ ٦٩.

يزيد، «وأجاز قوم من العلماء لعنه بخصوص اسمه»[١].

ومع ترخيص الإمام أحمد بن حنبل بلعنه، واختيار ذلك من قبل الخلاّل وأبي بكر بن عبد العزيز والقاضي أبي يعلى وابنه القاضي أبي الحسين، وتصنيف ابن الجُوزي كتاباً في تجويز ذلك، وعدم توقف التفتازاني في لعنه.

أقول: مع ذلك كله؛ بل على الرغم من ذلك كله، نرى الدكتور محمد أبو اليسر عابدين قد جلّب وأطنب في دفع اللعن عن يزيد، حتى بلغ به الأمر إلى أن يقول:

«على أن الأمر بقتل الحسين، بل قتله، ليس موجباً للعنه على مقتضى مذهب أهل السنّة من أن صاحب الكبيرة لا يكفّر، فلا يجوز عندهم لعن الظالم الفاسق»[٢].

وهنا لا مناص لنا من العودة إلى الكتاب والسنّة لنقف على حكم اللعن فيهما، وعلى مَنْ يجوز لعنه ويستحقه، ولنحدّد الموقف من ذلك ببينة ويقين.

قال الله تعالى:

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور: ٧].

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

---

(١) الشرف المؤبد: ٧٧.

(٢) أغاليط المؤرخين: ١٣٠.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

إنَّ هذه الآيات الكريمة صريحة في جواز لعن الظالم والكاذب واستحقاقهما لذلك، ومَنْ أظْلَمُ ممن قتل الحسينَ (ع) وأهل بيته وأصحابه المؤمنين الصالحين المنتجبين. كما إنها صريحة في لعن مَنْ يؤذي الله ورسوله، وأي إيذاء لرسول الله (ص) أعظم من قتل ريحانته وحبيبه وسبطه وقرة عينه.

❀ ❀ ❀

أمّا اللعن في الحديث النبوي فقد ورد فيه من النصوص ما لا مجال لاستيعابها واستقصائها في هذه العجالة، ومن أمثلة ذلك:

١ ـ «إن الله عزَّ وجل لعن الخمرَ وعاصِرَها ومعتصِرَها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقيها ومستقيها»[(١)].

٢ ـ «لعن الله السارق يسرق البيضة فتُقطَع يدُه؛ ويسرق الحبل فتقطَع يده»[(٢)].

٣ ـ «لعن الله من سَب والديه. ولعن الله مَنْ غَيّر تخوم الأرض. ولعن الله من آوى محدثاً»[(٣)].

٤ ـ «لعن الله من ذَبَح لغير الله. ولعن الله من سرق منار الأرض. ولعن

(١) مسند أحمد: ١/ ٣١٦. وقريب من لفظه في مسند أحمد: ٢/ ٩٧ وسنن ابن ماجة: ٢/ ١١٢٢ وسنن أبي داود: ٢/ ٢٩٢ وسنن الترمذي: ٣/ ٥٨٩ .

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ١٩٨ و٢٠٠ وصحيح مسلم: ٥/ و١١٣ ومسند أحمد: ٢/ ٢٥٣ وسنن ابن ماجة: ٢/ ٨٦٢.

(٣) صحيح أحمد: ١/ ١٠٨.

الله من لعن والده. ولعن الله من آوى محدثاً»[١].

٥ ـ «لعن الله من ذبح لغير الله. ولعن الله من غيّر تخوم الأرض . ولعن الله من كمه الأعمى عن السبيل. ولعن الله من سبّ والده. ولعن الله من تولّى غير مواليه. ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط»[٢].

٦ ـ «لعن الله من ادّعى إلى غير أبيه؛ أو تولّى غير مواليه»[٣].

٧ ـ «لعن الذين يشقّقون الكلام تشقيق الشّعر»[٤].

٨ ـ «لعن آكلَ الربا ومُوكِله؛ وكاتبه؛ وشاهِدَيْه؛ والحال والمحلل له. ومانع الصدقة. والواشمة والمستوشمة»[٥].

٩ ـ «لعن صاحبَ الربا وآكله وكاتبه وشاهديه والمحل والمحلل له»[٦].

١٠ ـ «لعن الرجلَ يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل»[٧].

١١ ـ «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»[٨].

---

(١) صحيح مسلم: ٦/ ٨٥ ومسند أحمد: ١/ ١١٨ و١٥٢.

(٢) مسند أحمد: ١/ ٣٠٩ و٣١٧.

(٣) مسند أحمد: ٤/ ١٨٦.

(٤) مسند أحمد: ٤/ ٩٨.

(٥) مسند أحمد: ١/ ٨٣، وبلفظ قريب منه في: ١/ ١٠٧ و١٢١ و١٣٣ و١٥٠ و١٥٨، و٤٠٩. وصدره في صحيح البخاري: ٧/ ٢١٧.

(٦) صحيح مسلم: ٥/ ٥٠ وسنن ابن ماجة: ٢/ ٧٦٤ وسنن أبي داود: ٢/ ٢١٩ وسنن الترمذي: ٣/ ٥١٢ ومسند أحمد: ١/ ٨٨، وقريب من لفظه في مسند أحمد أيضاً: ١/ ٩٣ و٣٩٣ و٣٩٤ و٤٠٢ و٤٥٣.

(٧) مسند أحمد: ٢/ ٣٢٥ وسنن أبي داود: ٢/ ٣٨١.

(٨) صحيح البخاري: ٧/ ٢٠٥ ومسند أحمد: ١/ ٣٣٩ وسنن ابن ماجة: ١/ ٦١٤ وسنن أبي داود: ٢/ ٣٨١ وسنن الترمذي: ٥/ ١٠٦.

١٢ ـ «لعن المخنّثين من الرجال، والمترجّلات من النساء»[١].

١٣ ـ «لعن من يُمثّل بالحيوان»[٢]، أو «من مَثّل بالبهائم»[٣].

١٤ ـ «لعن النائحة والمستمعة»[٤].

١٥ ـ «لعن الواصلة والمستوصِلَة والواشمة والمستوشمة»[٥].

١٦ ـ «لعن الواشمات والمستوشمات»[٦].

١٧ ـ «لعن مَنْ قطع السّدر»[٧].

١٨ ـ «لعن المصوِّر» أو «المصوِّرين»[٨].

١٩ ـ «إن النبي (ص) مَرَّ عليه حمارٌ قد وُسِمَ في وجهه فقال: لعن الله الذي وَسَمَه»[٩].

وهكذا نرى أن النبي (ص) قد لعن شارب الخمر وعاصرها ومعتصرها وحاملها ومحمولها وبائعها ومبتاعها، ولعن السارق وآكل

---

(١) صحيح البخاري: ٧/ ٢٠٥ و٨/ ٢١٢ ومسند أحمد: ١/ ٢٢٥ و٢٢٧ و٢٣٧ و٢٥٤ و٣٦٥ و٢/ ٩١ و٢٨٧ و٢٨٩ وسنن أبي داود: ٢/ ٥٨٠ وسنن الترمذي: ٥/ ١٠٦.

(٢) مسند أحمد: ١/ ٣٣٨ و٢/ ١٠٣.

(٣) صحيح البخاري: ٧/ ١٢٢ ومسند أحمد: ٢/ ١٣.

(٤) مسند أحمد: ٣/ ٦٥ وسنن أبي داود: ٢/ ١٧٢.

(٥) صحيح البخاري: ٦/ ١٨٤ و٧/ ٢١٢ و٢١٣ و٢١٤ وصحيح مسلم: ٦/ ١٦٥ و١٦٦.

(٦) صحيح البخاري: ٧/ ٢١٤ وصحيح مسلم: ٦/ ١٦٧ ومسند أحمد: ١/ ٤٣٤ و٤٤٣ و٤٥٤. وقريب منه في صحيح البخاري: ٦/ ١٨٤ و٧/ ٧٩ و٢١٢ و٢١٧ ومسند أحمد: ١/ ٤٤٨ و٤٦٥ و٤/ ٣٠٨ و٣٠٩ وسنن الترمذي: ٥/ ١٠٥.

(٧) سنن أبي داود: ٢/ ٦٥١.

(٨) صحيح البخاري: ٧/ ٧٩ و٢١٧.

(٩) صحيح مسلم: ٦/ ١٦٣.

الربا والمتشبهين من الرجال بالنساء ومن النساء بالرجال، ولعن الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة، بل لعن مَنْ يمثّل بالحيوان ومَنْ يقطع السّدر.

أيجوز لعن هؤلاء جميعاً، ولا يجوز لعن قاتل الحسين والراضي بقتله والمحرِّض عليه ومَنْ كان له يدٌ في ذلك؟ إن هذا لشيء عجاب.

ولن نقول في هذا المفتي ومَنْ كان على شاكلته من الذين في قلوبهم مرض؛ إلاّ ما قاله الله تعالى فيهم وهو أصدق القائلين: ﴿ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

الإمام علي بن الحسين عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ستُعنى هذه الرسالة ـ بفصولها الثلاثة ـ بعرض موجز لسيرة الإمام الرابع من أئمة الهدى؛ زين العابدين؛ وسيد الساجدين؛ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع).

وقد عقدتُ الفصل الأول منها على تاريخ الإمام (بين ولادته وإمامته)، تحدثت فيه عن جوانبه الشخصية كالولادة والنشأة والأزواج والأولاد، وعمّا عاصر وشاهد من أحداث عصره الحافل بالفتن والأرزاء، وعن معايشته المريرة لمآسي كربلاء الدامية وما تلاها من أسْره وأسْرِ العلويات المخدّرات بنات النبوة؛ والتنقل به وبهن على هذه الحال المؤلمة من بلد إلى بلد ومن أمير إلى أمير؛ حتى انتهى بهم المطاف إلى قصر الخليفة بدمشق؛ وما وقع خلال ذلك من خطب ومساجلات وشؤون وشجون، ثم إطلاق سراحهم في نهاية المطاف وإرسالهم إلى المدينة المنورة.

وعقدتُ الفصل الثاني على تاريخ الإمام (بين إمامته وشهادته)؛ مستعرضاً فيه الأدلة على إمامته؛ نصاً لمن يؤمن بالنص؛ وأهلية وكفاية لمن يبحث عن ذلك، مع بيانٍ مختصر لمجمل سِيَر مَن ادعى الخلافة والولاية العامة في عصره لغرض التنبيه أو المقارنة أو التذكير بحقائق الأمور. وتحدثت في هذا الفصل أيضاً عن مجزرة «الحرَّة» الوحشية في المدينة المنورة؛ وأحداث مكة المكرمة، وموقف الإمام من كل ذلك

ومن المختار الثقفي عندما تسلّط على الكوفة؛ ومن حركة التوابين هناك وثورتهم على الحكم الأموي. ووقفتُ قليلاً على علاقته بخليفة زمانه عبد الملك بن مروان في سلبها وإيجابها وألوانها المتعددة والمتغيرة من حال إلى حال. ثم ختمتُ هذا الفصل بذكر وفاة الإمام وتاريخها وما ورد بشأنها من شكوك أو ظنون.

وعقدتُ الفصل الثالث على (تراث الإمامة) الذي ورثته الأمة من الإمام، فاستعرضت مصادر الرواية والرواة عنه في علوم القرآن والشريعة والعلوم الإسلامية الأخرى التابعة لها كالتاريخ والاحتجاج الديني وعلم الكلام. وتحدثت بعد ذلك عن (رسالة الحقوق) المروية عنه وعن سندها ورواتها ومصادرها الموثوقة. ثم كان الحديث عن (الصحيفة الكاملة) التي تضم أدعية الإمام خاتمة هذا الفصل، وقد أسهبتُ في ذكر أسانيدها على مرِّ الأجيال؛ دفعاً للريب ورفعاً للشك والإبهام.

وأوردت في آخر الكتاب ملحقين اثنين لزيادة النفع والفائدة. عُني أولهما بتقديم نصّ رسالة الحقوق، وعُني الثاني بنصّ قصيدة الفرزدق الميمية في مدح الإمام وذكر رواتها وأسانيدها رداً على من حاول التشكيك في نسبتها إلى الفرزدق.

❀ ❀ ❀

وفي الختام ـ كما في البدء ـ أحمد الله تعالى على آلائه ونعمائه، وأبتهل إليه عزَّ وجل أن يسدّد الخطا على الطريق، ويمد بمزيد من التوفيق، إنه خير مسدِّد وموفق ومعين.

الإمام علي بن الحسين عليه السلام
بين ولادته وإمامته

«وكفى هذا الوليد مجداً وعزاً وشرفاً: أن يكون أبوه سيد شباب الجنة، وأن يكون جدُّه سيدَ الوصيين وأمير المؤمنين، وأن تكون جدتُه سيدة نساء العالمين، وأن يكون جدُّه الأكبر محمد بن عبد الله سيدَ خلق الله وخاتم الرسل والنبيين».

«وعاصر الإمام سلسلة الوقائع والفجائع الدموية التي عمَّت الأرض الإسلامية على يد زبانية السلطة وولاتها على الأمصار. وعاش أحداث مأساة كربلاء الرهيبة يوماً بيوم بل ساعة بساعة، ولولا لطف الله تعالى بهذه الأمة المرحومة لكان هو أيضاً من جملة شهداء تلك المجزرة الفظيعة».

❀ ❀ ❀

على أرض المدينة المنوَّرة الطاهرة المطهّرة؛ وفي دار النبوة العامرة المقدّسة؛ وفي بيوت الإمامة التي أذن الله أن ترفع، في يوم الخميس[1]،

(١) المناقب: ٢/٢٦٩ والفصول المهمة: ١٨٣ ومطالب السؤول: ٢/٤١ والبحار: ٤٦/٧ و١٢. وفي بعض المصادر ومنها وفيات الأعيان: ٢/٤٣١ والأئمة الإثنا عشر: ٧٨ «يوم الجمعة».

الخامس عشر من شهر جمادى الآخرة[١]؛ أو لأيام خلون من شعبان[٢]، سنة ثمان وثلاثين من الهجرة[٣]؛ أطلت البشرى على العترة النبوية المباركة؛ وعمَّت الفرحة أولياءهم ومحبِّيهم؛ بمولد عليٍّ ـ الأوسط[٤] ـ شبل الحسين بن علي بن أبي طالب (ع).

ولقد كفى هذا الوليد مجداً وعزّاً وشرفاً وشأناً أن يكون أبوه سيد شباب أهل الجنة، وأن يكون جدُّه سيدَ الوصيين وأمير المؤمنين، وأن

(١) المناقب: ٢/ ٢٦٩ والبحار: ٤٦/ ١٢.

(٢) المناقب: ٢/ ٢٦٩ والفصول المهمة: ١٨٣ ومطالب السؤول: ٢/ ٤١ والبحار: ٤٦/ ٧ و١٢.

(٣) الكافي: ١/ ٤٦٦ والإرشاد: ٢٧٠ والمناقب: ٢/ ٢٦٩ ووفيات الأعيان: ٢/ ٤٣١ والفصول المهمة: ١٨٣ وتذكرة الخواص: ٣٣٤ ومطالب السؤول: ٢/ ٤١ و٤٩ وكفاية الطالب: ٢٩٩ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٨٦ والأئمة الإثنا عشر: ٧٨ وشذرات الذهب: ١/ ١٠٤ والبحار: ٤٦/ ٧ وشرح الصحيفة: ٣١ وينابيع المودة: ٣٧٨.
وفي المناقب والتذكرة والشذرات وغيرها «وقيل سنة سبع»، وفي المناقب أيضاً: «وقيل: سنة ست». والأرجح الثمان بل هو القطعي لوروده في المصادر القديمة الأولى؛ ولما رُوي من كون عمره يوم شهادة أبيه (٢٣) سنة كما في الإرشاد: ٢٧٠ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٤ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٨٦ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٧، ولما رُوي أيضاً من معاصرته لجدّه عليّ (ع) سنتين كما في الإرشاد: ٢٧٠ ومطالب السؤول: ٢/ ٤١ والفصول المهمة: ١٨٣؛ ولما رُوي من أنه عاش بعد أبيه (٣٥) سنة كما في الكافي: ١/ ٤٦٨.
أما ما ورد في تذكرة الخواص: ٣٣٤ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٧ من رواية ولادته سنة ثلاث وثلاثين فهو وهم نشأ من ولادة أخيه عليّ الأكبر في تلك السنة.

(٤) مطالب السؤول: ٢/ ٣٠ و٤١ ـ ٤٢ والفصول المهمة: ١٨١. ولا يخلو وصفُه بـ «الأصغر» في بعض المصادر من اشتباه أو تسامح، وقد نصَّ المحب الطبري على أن زين العابدين غير علي الأصغر (ذخائر العقبى: ١٥١)، وروى أكثر من مؤرخ أن العليين من أولاد الحسين ثلاثة (البحار: ٤٥/ ٣٣٠ و٣٣١ و٣٣٢) وفي الخبر: أن يزيد سأل عليَّ بن الحسين (ع): «واعجبا لأبيك سمى علياً وعلياً! فقال: إن أبي أحبَّ أباه فسمى باسمه مراراً» البحار: ٤٥/ ٣٢٩.

تكون جدته سيدة نساء العالمين، وأن يكون جدُّه الأكبر محمد بن عبدالله سيِّد خلق الله وخاتم الرسل والنبيين.

❀ ❀ ❀

أمّا أُمُّه فقد نصت الكثرة الكاثرة من الروايات على كونها سيدة فارسية[١]، وشذّت بعض الروايات فذكرت أنها سندية[٢].

واختلفت النصوص في اسمها ونسبها اختلافاً كبيراً جداً[٣]، وقد حمل هذا الاختلاف بعض الكتّاب المعاصرين على التشكيك بصحة ذلك من الأصل. وإذا كنّا لا نتفق معه في هذا الشك فلسنا قادرين في قبال ذلك على الجزم برأي ما في تحديد اسمها أو نسبها إلاّ كونها إحدى الإماء الأسيرات في حروب الإسلام، بل إن هذا من المتواتر على نحو الإجمال وإن لم تكن التفاصيل متواترة. ولا نجد أيّ مسوّغ لرفع اليد عن تلك الروايات الكثيرة وإلقائها في سلّة المهملات ـ كما فعل أحد

---

(١) نسب قريش: ٥٨ وطبقات ابن سعد: ٥/ ٢١١ وطبقات خليفة: ٢/ ٥٩٨ والمنمق: ٥٠٥ والمعارف: ٢١٤ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٩ وكامل المبرد: ٢/ ١٢٠ والكافي: ١/ ٤٦٦ والإرشاد: ٢٦٩ ولطائف المعارف: ١٢٤ ونثر الدر: ١/ ٣٣٩ والمناقب: ٢/ ٢٧٠ وربيع الأبرار: ١/ ٤٠٢ و٣/ ١٨ ووفيات الأعيان: ٢/ ٤٢٩ وكشف الغمة: ٢/ ٢٦٠ وتذكرة الخواص: ٣٣٤ وكفاية الطالب: ٢٩٩ و٣٠٦ ومطالب السؤول: ٢/ ٤١ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٤ وصفة الصفوة: ٢/ ٥٢ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٨٦ و٣٩٩ والنجوم الزاهرة: ١/ ٢٢٩ وعمدة الطالب: ١٨١ ومرآة الجنان: ١/ ١٩٠ وشذرات الذهب: ١/ ١٠٥ وينابيع المودة: ٣٧٦ والأئمة الإثنا عشر: ٧٥.

(٢) المنمق: ٥٠٥ والمعارف: ٢١٤ ومرآة الجنان: ١/ ١٩١ والنجوم الزاهرة: ١/ ٢٢٩ والأئمة الإثنا عشر: ٧٨.

(٣) تراجع المصادر المذكورة في الهامش (١).

المعاصرين ـ وأن نصفها بما وصفها به كـ «الأكذوبة» و«التضليل» و«تماكر الروايات» و«الخبر المتهافت» و«خرافات العجائز» و«الشبح الغامض الذي ينهشه التحريف والتصحيف» و«المزعم الغريب» و«حديث خرافة» و«المهزلة» و«الباطل» و«الرواية البائرة» و«التخبط» و«الفوضى والفراغ» و«قبض الريح» و«الأضلولة» و«الطريق الملغوم» و«الأرجوفة» وغير ذلك من الأوصاف[١].

ولا تجيز لنا الموضوعية ـ مع إقرارنا بأن كتب التاريخ مشحونة بالأكاذيب والأباطيل؛ والخرافات والأضاليل ـ أن نصف قضية تواتر مؤدَّاها ومعناها على هذا النحو وإن لم تتواتر تفاصيلها؛ بهذه النعوت والأوصاف، خصوصاً وأن أول راوٍ لها هو الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور[٢]، كما أن من رواتها:

ابن سعد، ابن حبيب، المبرد، خليفة بن خياط، ابن قتيبة، اليعقوبي، الكليني، المفيد، الثعالبي، ابن شهر أشوب، الزمخشري، ابن الجوزي، ابن خلكان، ابن طلحة الشافعي، سبط ابن الجوزي، الأربلي، ابن كثير الدمشقي، الذهبي، الشهيد الأول العاملي، ابن تغرى بردى، ابن عنبة الحسني، ابن طولون الدمشقي، ابن العماد الحنبلي، وغيرهم[٣].

أما القول بأن أمّ السجّاد هي «أُمُّ إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله

(١) يراجع كتاب «كذبة فارسية يفضحها الحق العربي». الصفحات ٩ ـ ٤٢.

(٢) ذكر المنصور ذلك في كتابه الموجّه إلى محمد ذي النفس الزكية، وقد ورد الكتاب في تاريخ الطبري: ٥٦٩/٧ وكامل المبرد: ١١٩/٤ والعقد الفريد: ٨٢/٥.

(٣) تراجع المصادر المذكورة في الهامش (١) في الصفحة السابقة (٣٨١).

التيمي»[١] فأمر مشكوك فيه من أساسه. لأن كونها زوجاً للحسين في بعض المصادر يقابله القول بكونها زوجاً للإمام الحسن في مصادر أخرى؛ وإنها ولدت منه: طلحة بن الحسن والحسين الأثرم بن الحسن وفاطمة بنت الحسن[٢]. ولعل تصحيفاً قد طرأ على كلمة «الحسن» فقرئت «الحسين»، أو ربما كان الحسين قد تزوجها بعد وفاة أخيه الحسن ليرعى أولاد أخيه.

ولا يستطيع الباحث الموضوعي غضَّ النظر عن جميع المصادر التي نصَّت على كون أُم زين العابدين مولاة من السبايا؛ فينساق مع رواية مشكوكة لا يُعرَف أنها تخص الحسن أو الحسين.

وتقول الرواية الشائعة المعنية بأمر أُمّ الإمام: «إن الصحابة لما أتوا المدينة بسَبْي فارس في خلافة عمر بن الخطاب كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد، فباعوا السبايا، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً، فقال له علي بن أبي طالب (ع): إن بنات الملوك لا يُعامَلْنَ معاملة غيرهنَّ، فقال: كيف الطريق إلى العمل معهنَّ؟ قال: يقوَّمْنَ ومهما بلغ ثمنُهم قام به من يختارهنَّ. فقُوّمْنَ؛ فأخذهنَّ علي بن أبي طالب (ع) فدفع واحدة لعبدالله بن عمر؛ وأخرى لولده الحسين؛ وأخرى لمحمد بن أبي بكر... فأولد عبدالله أمَتَه ولدَه سالماً، وأولد الحسينُ زين العابدين، وأولد محمدٌ ولدَه القاسم. فهؤلاء الثلاثة بنو خالة، وامهاتهم بنات يزدجرد»[٣].

---

(١) كتاب كذبة فارسية: ٤٣.

(٢) المحبّر: ٦٦ و٤٤٢ والمعارف: ٢١٢ والإرشاد: ١٩٩ و٣٠٣ وشرح نهج البلاغة: ١٦/ ٤٢١.

(٣) ربيع الأسرار: ٣/ ١٨ ـ ١٩ ووفيات الأعيان: ٢/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٤ ومرآة الجنان: ١/ ١٩٠ والأئمة الإثنا عشر: ٧٥ ـ ٧٦ وشذرات الذهب: ١/ ١٠٥.

وقد رفض المجلسي هذه الرواية ـ على شهرتها ـ وقال في بيان ذلك:

الأقرب إلى الصواب: إن أسر أولاد يزدجرد «كان بعد قتله أو استئصاله، وذلك كان في زمن عثمان، وإن أمكن أن يكون بعد فتح القادسية أو نهاوند أُخذ بعض أولاده هناك؛ لكنه بعيد، وأيضاً لا ريب في أن تولد علي بن الحسين (ع) منها كان في أيام خلافة أمير المؤمنين (ع)... وكون الزواج في زمن عمر وعدم تولُّد ولدٍ منها إلاّ بعد أكثر من عشرين سنة بعيد»[1].

ولعل الأقرب إلى الصواب حقاً من كل ذلك ما رواه المفيد فقال:

«كان أمير المؤمنين ولّى حُرَيْث بن جابر الجعفي جانباً من المشرق، فبعث إليه بابنتي يزدجرد بن شهريار بن كسرى، فنحل ابنه الحسين شاه زنان منهما فأولدها زين العابدين ونحل الأخرى محمد بن أبي بكر فولدت له القاسم بن محمد بن أبي بكر، فهما ابنا خالة»[2].

وكانت أم زين العابدين هذه «عمّة أُمّ يزيد بن الوليد الأموي المعروف بالناقص. وكان قتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان لما تتبَّع دولة الفرس وقتل فيروز بن يزدجرد بعث بابنتيه إلى الحجاج بن يوسف الثقفي ـ وكان يومئذ أمير العراق وخراسان، وقتيبة نائبه بخراسان ـ فأمسك الحجاج إحدى البنتين لنفسه، وأرسل الأخرى إلى الوليد بن عبد الملك فأولدها يزيد الناقص»[3].

---

(١) البحار: ٤٦/ ١٠.

(٢) الإرشاد: ٢٦٩.

(٣) وفيات الأعيان: ٢/ ٤٢٩. وروى الثعالبي في لطائف المعارف: ٦٤ ـ ٦٥: إن يزيد هذا هو القائل: «أنا ابن كسرى وأبي مروان».

ومما يُروى عن الأصمعي أنه قال: «كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أُمهات الأولاد، حتى نشأ فيهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله»(١).

ومهما يكن من أمر؛ فقد كانت هذه السيدة السبيّة «من خيِّرات النساء» في رواية المبرد(٢)، وحسبها ذلك شرفاً وحسباً حين تجهل الأنساب وتخفى الأحساب.

❀ ❀ ❀

نشأ الإمام وترعرع في بيت النبوة ومهبط الوحي ودار العلم ومعدن الحكمة، ونهد إلى شبابه ورجولته كما ينهد أمثاله من أبناء النبيين والوصيين، سلوكاً وخُلُقاً؛ وهَدْياً وورعاً؛ ووقاراً وهيبة؛ واتزاناً واستقامة؛ وعلماً ومعرفة؛ وتقوى وسيرة.

واشتهر خلال حياته المباركة بألقاب كثيرة، مثل:

زين العابدين، وقد لُقِّب بذلك لكثرة عبادته، والسجّاد، لكثرة سجوده، وذو الثَّفِنات، لما كان في وجهه من أثر السجود، وابن الخيرتين، والزكي، والأمين، والعابد، وغير ذلك(٣).

---

(١) عيون الأخبار: ٤/ ٨، ومثله في لطائف المعارف: ١٢٤ والعقد الفريد: ٦/ ١٢٨ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٠ ومرآة الجنان: ١/ ١٩١ والأئمة الإثنا عشر: ٧٧.

(٢) الكامل: ٣/ ٢٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٤٥ وكامل المبرد: ٢/ ١٢١ ومروج الذهب: ٣/ ٩٩ والإرشاد: ٢٦٩ والمناقب: ٢/ ٢٦٩ وربيع الأبرار: ١/ ٤٠٢ ووفيات الأعيان ٢/ ٤٢٩ والفصول المهمة: ١٨٣ ومطالب السؤول: ٢/ ٤٢ وتذكرة الخواص: ٣٣٣ ـ ٣٣٤ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٢٧٣ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٧٤ و٧٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٨٦ و٣٩١ و٣٩٢ ومرآة الجنان: ١/ ١٩٠ والنجوم الزاهرة: ١/ ٢٢٩ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٤ وذخائر العقبى: ١٥١ وشذرات الذهب: ١/ ١٠٤ والبحار: ٤٦/ ٤ و٥ و٦ و٧ وينابيع المودة: ٣٧٧.

كما اشتهر بكُنىً متعددة، كان منها:

أبو محمد، وهي كنيته الخاصّة، وأبو الحسن، وأبو الحسين. وغير ذلك[١].

❀ ❀ ❀

ولما اكتملت ملامح شبابه الغض؛ وبانت طلائع رجولته الواعدة، وأصبح ملء المسامع والعيون جمالاً وكمالاً وهيبة وعنفواناً، تزوج بالسيدة فاطمة ابنة عمه الإمام الحسن (ع)، كما تزوج بعد ذلك عدداً من أُمهات الأولاد أي الإماء[٢]، وكان له من الأولاد الذكور من مجموع زوجاته:

١ ـ محمد؛ الملقب بـ «الباقر»، وهو الإمام بعد أبيه.

٢ ـ عبدالله؛ الملقب بـ «الباهر».

٣ ـ الحسن.

٤ ـ الحسين ـ وهو الأكبر ـ.

٥ ـ زيد «الثائر الشهيد».

٦ ـ عمرو؛ أو: عُمر.

٧ ـ الحسين الأصغر.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥/١٥٧ وطبقات خليفة: ٢/٥٩٨ والمعارف: ٢١٤ و٢١٥ والإرشاد: ٢٦٩ ورجال الطوسي: ٨١ والمناقب: ٢/٢٦٩ وطبقات الفقهاء: ٣٤ ووفيات الأعيان: ٢/٤٢٩ وتذكرة الخواص: ٣٣٣ والفصول المهمة: ١٨٣ ومطالب السؤول: ٢/٤٢ والبداية والنهاية: ٩/١٠٤ وتذكرة الحفاظ: ١/٧٤ وسير أعلام النبلاء: ٤/٣٨٦ والنجوم الزاهرة: ١/٢٢٩ وتهذيب التهذيب: ٧/٣٠٤ والبحار: ٤٦/٤ و٥ و٧.

(٢) الإرشاد: ٢٧٨.

٨ ـ عبد الرحمن.

٩ ـ سليمان، وقد توفي صغيراً.

١٠ ـ محمد الأصغر.

١١ ـ القاسم.

١٢ ـ علي، وكان أصغر أولاده.

كما كان له عدد من البنات أيضاً(١).

عاصر الإمام منذ تفتُّح صباه وعلى امتداد أيام حياته كلها؛ من الأحداث والمآسي والهزّات والفواجع؛ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت؛ وما لم يدر في خلد أحدٍ من الناس. فتجرَّع من الآلام ما تجرّع، وتحمل من الأحزان ما تحمّل، وشاهد من الفظائع التي حلّت بأهله وذوي قرباه خاصة؛ وبكل رجال العقيدة ودعاة الحق عامة؛ ما يشيب له فود الرضيع، ويضيق به صدر الحليم، ويتقطّع منه جزعاً فؤاد الجلد الصبور.

وإذا كان الإمام يوم مصرع جدّه عليّ أمير المؤمنين ـ شهيداً بسيف الغدر والتآمر في محراب صلاته في مسجد الكوفة ـ صغيراً جداً لم يتجاوز الثالثة من العمر. فقد كان في مستوى الإدراك التام والمعايشة الواعية لجميع ما وقع على عمه الحسن (ع)؛ بعد أن تنكّر معاوية لكل عهوده التي أشهد الله عليها، ونقض معاهدة الصلح شرطاً وبنداً بنداً، ثم

(١) يراجع فيما أوردناه من أسماء الأولاد: نسب قريش: ٥٩ ـ ٦٢ وتاريخ اليعقوبي: ٣/ ٤٧ والإرشاد: ٢٧٨ والفصول المهمة: ١٩١ ومطالب السؤول: ٢/ ٤٨ وتذكرة الخواص: ٣٤٢ والبحار: ٤٦/ ١٥٥ ـ ١٦٧ ونصّ بعضهم على أنه «لم يكن له انثى»، ونص آخرون على الإناث، وقال أحدهم: إنهن أربع.

فرض ابنه يزيد ولياً للعهد على رغم رفض الرافضين وإنكار المنكرين، ثم كان ختام تلك الجولة من التآمر والحقد الدفين دسّ السم إلى الإمام على يد زوجه الخائنة جعدة بنت الأشعث في سنة ٥٠ هـ.

ثم عاصر الإمام سلسلة الوقائع الدموية التي عمَّت الأرض الإسلامية وشملت المجتمع المسلم كله على يد زبانية معاوية وولاته على الامصار، وقد ذاق فيها المسلمون الصادقون وفي مقدّمتهم أصحاب عليّ والحسن والحسين (ع) المجاهرون؛ من ألوان القتل والظلم والإرهاب والسجن والتبعيد والاضطهاد والتشريد ما لا يبلغه الوصف والبيان.

وهلك معاوية في سنة ٦٠ هـ؛ فذهب إلى ربه ليلقى حساب أعماله وجزاء ما اقترفت يداه، في محكمة العدل الإلهي التي لا تحيف ولا تجور ولا يضيع فيها مثقال ذرّة من حق.

وآل الملك العضوض ـ الذي يسميه (السلطويون): الخلافة الإسلامية ـ إلى ولي العهد يزيد، فكان عهده الأسود ـ على قِصَره ـ حافلاً بالسوءات الكبرى والجنايات العظمى. وكانت مأساة كربلاء أوْلى تلك المآسي الحمراء التي مرت على المسلمين في تلك السنين المشؤومة؛ كما سبق بيانه في كتابنا «الإمام الحسين (ع)».

وعاش الإمام علي بن الحسين ـ وقد تجاوز العشرين من العمر ـ أحداث هذه الواقعة يوماً بيوم بل ساعة ساعة وآناً آناً. ولولا لطف الله تعالى بهذه الأمة المرحومة لكان الإمام من جملة من استشهد في تلك المجزرة الدامية الرهيبة.

لقد كان هذا الشاب أحد الهاشميين المشاركين في موكب الثورة الحسينية الذي غادر المدينة إلى مكة، ثم توجَّه منها إلى العراق فاستقرَّ به المقام الموقّت في كربلاء، في ضوء ظروفٍ شديدة التعقيد لم تدع

فرصة لحركةٍ أو مجالاً لاختيارٍ آخر، كما تقدم ذكره بالتفصيل في سيرة الإمام الحسين (ع).

وتشاء الإرادة الإلهية ـ ولا رادّ لقضائها ـ أن يمرض هذا الشاب خلال تلك الرحلة الطويلة المضنية، وأن يشتدّ به المرض فيقعده عن الحركة وعن القدرة على تلبية نداء الجهاد الشرعي، فيُسجّى في خيمة خاصة به، وتتطوع عمته الكبرى زينب بشؤون رعايته وتمريضه[1].

وفي عشية التاسع من المحرم سنة ٦١ هـ دخل الحسين (ع) على ابنه خيمته ليتفقد حاله، فسمع السجاد أباه يردّد هذه المشاطير بصوت مسموع:

يا دهر أفٍ لك من خليلِ ... كم لك بالإشراق والأصيلِ

من طالبٍ وصاحب قتيلِ ... والدهر لا يقنع بالبديلِ

وإنما الأمر إلى الجليلِ ... وكلُّ حَيٍّ سالكٌ سبيلي

قال السجاد: «ففهمتُ ما قال وعرفتُ ما أراد، وخنقتني عبرتي ورددتُ دمعي، وعرفتُ أن البلاء قد نزل بنا»[2].

وهكذا حمى الله تعالى الإمام علياً بمرضه هذا من القتل، كي لا ينقطع نسل محمد (ص) كما كان يريد أعداء النبوة في مجزرتهم الطاحنة في كربلاء، ليكون همزة وصل هذه الذرية الطيبة الطاهرة، ونقطة تكاثر تلك السلالة الكريمة المباركة، وحلقة ربط سلسلة الإمامة الشرعية ـ بين ماضٍ وآتٍ ـ على سطح الأرض.

ونصّت الروايات التاريخية الكثيرة على أن مرضه الشديد المنهك

---

(١) نسب قريش: ٥٨ وتاريخ اليعقوبي: ٢/٢١٦ وتاريخ الطبري: ٥/٤٢٠ ومقاتل الطالبيين: ١١٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/٢١٦ ـ ٢١٧ ومقاتل الطالبيين: ١١٣.

هو الذي دفع عنه الموت[١] وكان سبب بقائه، وذكر بعضهم ومنهم ابن كثير الدمشقي: ان عبيدالله بن زياد قد همَّ بقتله «ثم صرفه الله عنه. وأشار بعض الفجرة على يزيد بن معاوية بقتله أيضاً فمنعه الله منه»[٢].

وأخرج الطبري بسنده عن حميد بن مسلم قال:

«انتهيتُ إلى عليّ بن الحسين... وهو منبسط على فراشٍ له وهو مريض، وإذا شمر بن ذي الجوشن في رجّالةٍ معه يقولون: ألا نقتل هذا؟ فقلتُ: سبحان الله! أنقتل الصبيان؟ إنما هذا صبيّ. فما زال ذلك دأبي أدفع عنه كلَّ من جاء، حتى جاء عمر بن سعد فقال: لا يعرضنَّ لهذا الغلام المريض، ومن أخذ من متاعهم شيئاً فليردّه عليهم. قال: فوالله ما ردَّ أحدٌ شيئاً»[٣].

وفي لفظ ابن سعد:

«قال شمر بن ذي الجوشن: اقتلوا هذا. فقال له رجل من أصحابه: سبحان الله! أتقتل فتىً حَدَثاً مريضاً!؟»[٤].

۞ ۞ ۞

وعلى كل حال، فقد وقعت الواقعة ونزلت النازلة، وشهد عصر العاشر من المحرم مقتل ريحانة رسول الله (ص) وسيد شباب أهل الجنة

(١) نسب قريش: ٥٨ وطبقات ابن سعد: ٥/ ١٥٧ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤١٨ والفصول المهمة: ١٩١ وتذكرة الخواص: ٣٣٤ ومرآة الجنان: ١/ ١٩٠ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٧٤ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٨٦ وشذرات الذهب: ١/ ١٠٥.

(٢) البداية والنهاية: ٩/ ١٠٤.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٥٤.

(٤) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٥٧.

أبي عبدالله الحسين (ع) وجميع آحاد تلك الصفوة الخيِّرة المؤمنة، ولم ينجُ سوى الإمام زين العابدين (ع) كما تقدَّم.

وبادر القوم فاحتزوا رأس الحسين (ع) «وبعثوا به إلى عبيدالله بن زياد، وانتهبوا مضاربه، وابتزّوا حرمه»[١]. ثم أمر قائد الجيش «فأذن في الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه بنات الحسين وأخواته ومَنْ كان معه من الصبيان، وعلي بن الحسين مريض»[٢].

و«ساقوا الحريم والأطفال كما تُساق الأسارى حتى أتوا الكوفة، فخرج الناس فجعلوا ينظرون إليهم ويبكون، وكان علي بن الحسين زين العابدين (ع) معهم، قد أنهك جسمه المرض، فجعل يقول: إن هؤلاء يبكون من أجلنا؛ فمَنْ قَتَلَنا[٣]!».

وأُدخل الأسارى على والي الكوفة النشوان بخمرة النصر الدنيوي المؤقت، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة الزهو والشماتة بقتل سبط رسول الله (ص) ومن كان معه من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

ويروي حميد بن مسلم ـ وكان من حضّار هذه الجلسة الرهيبة ـ قال:

«إني لقائم عند ابن زياد حين عُرِض عليه عليٌّ بن الحسين، فقال له:

ما اسمك؟

قال: أنا علي بن الحسين.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٥٥، وقريب منه في مقاتل الطالبيين: ١١٩.

(٣) الفصول المهمة: ١٧٥، وقريب منه في تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٨.

قال: أو لم يقتل الله عليَّ بن الحسين؟

قال: قد كان لي أخ يقال له ـ أيضاً ـ عليّ؛ قتله الناس.

قال: إن الله قتله...

قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

قال: أنتَ والله منهم؛ ويحك... اقتُلْه.

فقال علي بن الحسين: مَنْ تُوكّل بهؤلاء النسوة؟

وتعلّقتْ به زينب عمته فقالت: يا ابن زياد حسبك منّا، أما رويتَ من دمائنا؟ وهل أبقيتَ منّا أحداً؟!. فاعتنقَتْه.

فنظر إليها ابن زياد... ثم نظر إلى القوم فقال: عجباً للرحم، والله إني لأظنُّها وَدَّتْ لو أني قتلتُه قتلتُها معه. دعوا الغلام»[(١)].

«ثم إن عبيدالله أمر بنساء الحسين وصبيانه فجُهِّزْنَ. وأمر بعلي بن الحسين فغُلَّ بغلٍّ إلى عنقه، ثم سرَّح بهم»[(٢)]، «فساروا حتى قدموا الشام، ودخلوا على يزيد بن معاوية بمدينة دمشق، وأُدخِل معهم رأسُ الحسين فرُمِيَ بين يديه»[(٣)]، ثم «نُصِبَ رأسُه على رمحٍ»[(٤)].

وكان يزيد قد أعدَّ لاستقبال هذا الموكب الحزين ـ موكب حُرَم رسول الله (ص) الأسرى؛ وحفيده المصفّد بالقيود؛ ورأس ريحانته المفصول عن جسده ـ ما ينسجم كلَّ الانسجام مع أحقاده البدريّة،

(١) تاريخ الطبري: ٤٥٨/٥، وقريب منه في نسب قريش: ٥٨ وطبقات ابن سعد: ١٥٧/٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٦٠.

(٣) الأخبار الطوال: ٢٦٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢١٨.

ويتناسب مع تِراثه الأموية الجاهلية، ويتلاءم مع أخسِّ ما عرفت البشرية من فظاظة ولؤم وهمجية.

وجلس في يوم (النصر!) المزعوم على عرشه الفخم الوثير، و«دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله»[١]، وأُدخِلَ عليه سبايا أهل بيت النبوة، ووُضِع رأس الحسين بين يديه فـ «تمثّل بقول حصين بن الحمام المرّيّ:

نفلّق هاماً من رجال أعزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

«فقال له علي بن الحسين ـ وكان في السبي ـ: كتابُ الله أوْلى بك من الشعر، يقول الله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

«فغضب يزيد وجعل يعبث بلحيته، ثم قال: غيرُ هذا من كتاب الله أوْلى بك وبأبيك، قال الله: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾، ما ترون يا أهل الشام في هؤلاء؟...

«قال النعمان بن بشير الأنصاري: انظر ما كان يصنعه رسول الله (ص) بهم لو رآهم في هذه الحالة فاصنعه بهم»[٢].

ويروي الرواة أن عليّ بن الحسين أُدخل على يزيد «مغلولاً، فقال علي: يا يزيد؛ لو رآنا رسول الله (ص) مغلولين لفكّه عنّا، قال: صدقتَ، وأمر بفكّه عنه...

«ثم قال له يزيد: إيه يا علي بن الحسين؛ أبوك الذي قطع رحمي

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٦١.

(٢) العقد الفريد: ٤/ ٣٨٢.

وجهل حقّي ونازعني سلطاني، فنزل به ما رأيت.

«فقال علي: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ [إلى آخر الآية].

«فقال يزيد: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ [الخ].

«فقال عليّ: هذا في حقّ من ظَلَمَ لا في حقّ من ظُلم»[1].

وقام رجل من حضّار ذلك المجلس المشؤوم، فقال مخاطباً يزيد:

«إن سباءهم لنا حلال.

فردَّ عليه علي بن الحسين قائلاً: «كذبتَ ولؤمتَ، ما ذاك لك إلاّ أن تخرج من ملّتنا وتأتي بغير ديننا.

«فأطرق يزيد مليّاً ثم قال للشاميّ: اجلس»[2].

وبدأ الحاضرون بعد سماعهم هذا الفتى الأسير ـ وهو يقرأ القرآن ويتحدث عن «الملة» و«الدين» ـ يسألون أنفسهم في عجب واستغراب:

مَنْ هم هؤلاء الأسرى؟

وما هي «الملة» التي يذكرونها و«الدين» الذي يتردّد ذكره على ألسنتهم؟

وكيف حلَّ قتلهم وسبيهم إن كانوا مسلمين؟

وأدرك يزيد هذا التململ؛ فخشي الفضيحة أو النقمة إذا ما انكشف السرُّ؛ ووقف الرأي العام المضلّل المغفّل على جليّة الأمر، فأمر ـ كما روى أخطب خوارزم ـ بمنبر وخطيب «ليذكر للناس مساوىء الحسين وأبيه».

---

(١) الفصول المهمة: ١٧٧، ومختصر منه في تاريخ الطبري: ٥/ ٤٦١.

(٢) نسب قريش: ٥٨ وطبقات ابن سعد: ٥/ ١٥٧.

«فصعد الخطيب المنبر، فحمدَ الله وأثنى عليه، وأكثر من الوقيعة في عليّ والحسين، وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد!!

«فصاح به علي بن الحسين: ويلك أيها الخاطب!، اشتريتَ رضا المخلوق بسخط الخالق فتبوَّأ مقعدك من النار.

«ثم قال ليزيد: إأْذَنْ لي حتى أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات فيهنَّ لله رضاً؛ ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب.

«فأبى يزيد.

«فقال الناس: يا أمير المؤمنين! إأْذَنْ له ليصعد... ولم يزالوا به حتى أذن له بالصعود.

«فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه. ثم خطب خطبةً أبكى منها العيون؛ وأوجل منها القلوب، فقال فيها:

«أيُّها الناس؛ أُعطينا ستّاً وفُضِّلْنا بسبع:

«أُعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين. وفضّلنا بأن منّا النبي المختار محمداً (ص)، ومنّا الصّدِّيق، ومنّا الطيّار، ومنّا أسد الله وأسد الرسول، ومنّا سيدة نساء العالمين فاطمة البتول، ومنا سبطا هذه الأمة وسيدا شباب أهل الجنة.

«فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي:

أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا... أنا ابن خير من أْتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجَّ ولبّى... أنا ابن من أُسرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فسبحان من أسرى، أنا ابن من بلغ به جبرائيل إلى

سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلّى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السما، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمدٍ المصطفى.

«أنا ابن عليّ المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا: لا إله إلاّ الله، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين، وطعن برمحين، وبايع البيعتين، وصلّى القبلتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين. أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكّائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل يس.

«أنا ابن المؤيَّد بجبرائيل، المنصور بميكائيل.

«أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين... وأول من أجاب واستجاب لله من المؤمنين، وأقدم السابقين، وقاصم المعتدين، ومبير المشركين... ناصر دين الله، ووليّ أمر الله، وبستان حكمة الله، وعيبة علم الله... أربطهم جناناً، وأطلقهم عناناً، وأجرؤهم لساناً، وأمضاهم عزيمة، وأشدُّهم شكيمة، أسد باسل، وغيث هاطل، يطحنهم في الحروب ـ إذا ازدلفت الأسنّة وقربت الأعنّة ـ طحن الرحى، ويذروهم ذرو الريح الهشيم، ليث الحجاز وكبش العراق، الإمام بالنص والاستحقاق... من العرب سيدها، ومن الوغى ليثها، وارث المشعرين، وأبو السبطين الحسن والحسين... أسد الله الغالب، ذاك جدّي علي بن أبي طالب.

«أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن سيدة النساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرسول.

«قال: ولم يزل يقول: أنا أنا، حتى ضجَّ الناس بالبكاء والنحيب، وخشي يزيد أن تكون فتنة» فانتهز فرصة دخول وقت الصلاة «فأمر المؤذّن أن يؤذن، فقطع عليه الكلام وسكت.

«فلما قال المؤذن: الله أكبر. قال علي بن الحسين: كبّرتَ كبيراً لا يقاس؛ ولا يدرك بالحواس، لا شيء أكبر من الله.

«فلما قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، قال عليٌّ: شهد بها شعري وبشري؛ ولحمي ودمي؛ ومخّي وعظمي.

«فلما قال: أشهد أن محمداً رسول الله. التفت عليٌّ من أعلى المنبر إلى يزيد وقال: يا يزيد؛ محمد هذا جدّي أم جدّك؟ فإن زعمتَ أنه جدك فقد كذبتَ، وإن قلتَ إنه جدي فلِمَ قتلتَ عترته؟»[1].

ومهما يكن من أمرٍ؛ فإن يزيد لم يجد له مخرجاً من ورطته الشنعاء إلاّ التخفيف عن هؤلاء الأسرى وتحسين السيرة معهم، فأمر بانزال «النسوة في دارٍ على حدة... ومعهنَّ علي بن الحسين»[2].

ثم أمر بعد أيام من ذلك «بتجهيزهم... وقال لعلي بن الحسين: انطلق مع نسائك حتى تبلغهنَّ وطنهنَّ»[3].

وعاد علي بن الحسين إلى مدينة جدّة يقود الموكب الحزين بصحبة أهل بيته المنكوبين المهتضمين. ثم هلك يزيد كما يهلك الطغاة الظالمون الذين ليس لهم من الدنيا إلاّ سوء الذكر وطمس الأثر والقبر. وبقي

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي: ٢/ ٦٩ ـ ٧١، وأشار إلى الخطبة أبو الفرج في مقتل الطالبيين: ١٢١ وذكر أنها «طويلة» وروى بعض فقراتها.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٦٢.

(٣) الأخبار الطوال: ٢٦١.

المكان الذي كان يجلس فيه أسيره في زاوية مسجد دمشق[١] حيّاً ناطقاً يروي للأجيال الحقيقة الخالدة التي تؤكد ذهابَ الزبد جفاءً ومَكثَ ما ينفع الناس راسخاً شامخاً في الأرض؛ مهما خلت العصور وكرَّت الدهور.

وقد أثّرت هذه الفواجع والمحن على الإمام تأثيراً بالغ العنف والشدة، وخلّفت في نفسه جرحاً عميقاً لم يندمل على مرّ السنين؛ وحزناً ممضاً لم يهوّن وقعَه تقادُم الزمن. ولمّا قال له أحد أصحابه وقد شاهد حاله: «أمَا آن لحزنك أن ينقضي»؟، أجابه بحسرة وألم: «ويحك! إن يعقوب النبي كان له إثنا عشر ابناً، فغيّب الله واحداً منهم؛ فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه؛ واحدودب ظهره من الغم، وكان ابنه حيّاً في الدنيا. وأنا نظرتُ إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني»[٢].

وفي لفظ الحافظ أبي نعيم قال:

سُئل علي بن الحسين يوماً عن كثرة بكائه! فقال: «لا تلوموني، فإن يعقوب فقد سبطاً من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه؛ ولم يعلم أنه مات. وقد نظرتُ إلى أربعة عشر رجلاً من أهل بيتي في غزاة واحدة، أفترون حزنهم يذهب من قلبي»[٣].

۞ ۞ ۞

(١) ما زال في المسجد الأموي بدمشق حتى اليوم مكان يسمى «مُصَلّى زين العابدين»، وسماه ابن عساكر «مسجده بدمشق المنسوب إليه» وقال: هو «معروف». وقال ابن كثير الدمشقي: «وهو مشهد علي بالناحية الشرقية من جامع دمشق» البداية والنهاية: ٩/ ١٠٤.

(٢) المناقب: ٢/ ٢٦٣ والبحار: ٤٦/ ٦٣.

(٣) حلية الأولياء: ٣/ ١٣٨ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٧.

ومنذ عودة الإمام إلى مقره الأصيل في المدينة المنوّرة؛ كان عليه أن يمارس واجبه الشرعي ومسؤوليته الدينية، تحمُّلاً لأعباء الإمامة ونهوضاً بتكاليفها المفروضة ووظائفها الكبيرة، في حدود ما تتيحه أوضاع عصره السياسية الحافلة بأشد ألوان الجور والقهر والإرهاب، وفي إطار ما ينسجم مع المصلحة العامة إزاء أعنف ما عرفت الأمة من فتن ومحن وكوارث؛ وفي داخل تلك الظروف السيئة المميزة بقلّة الناصر وكثرة الواتر وضغوط الأحداث.

واستقبل الإمام عهده الجديد بقلب صبور لا يعرف الخوف والفزع، وتحمّل مسؤوليته الخطيرة بنفس مطمئنة لا يهزها الخور وحب البقاء. وكان يحسّ أنه أضعف من أن يتغلّب على ما يحيط بالمسلمين من هول ويلتف حولهم من بلاء، بل كان يعلم أنه غير قادر على تغيير الواقع الفاسد والحال المزرية المعاشة، ولكنه يحاول القيام بالممكن وتحقيق المتاح، ولا يكلّف الله نفساً إلا وسعها.

وسنستعرض في الفصل القادم تفصيل ذلك؛ في ضوء ما بلغنا علمه وانتهى إلينا خبره؛ في المصادر التاريخية والمؤلفات المعنية بسيرة الإمام وأخباره، والله تعالى ولي التوفيق.

الإمام علي بن الحسين عليه السلام

بين إمامة وشهادة

«أصبح علي بن الحسين (ع) منذ قدومه إلى المدينة بعد شهادة أبيه؛ مطمح الأنظار ومهوى الأفئدة وقبلة القلوب.

«فهو الإمام الشرعي للمسلمين بالنص الصريح الصحيح عن جدّه (ص) وأبيه. «وهو الإمام الشرعي لهم أيضاً باجتماع المؤهلات والصفات التي لم تجتمع في غيره في عصره».

❀ ❀ ❀

أصبح علي بن الحسين منذ شهادة أبيه مطمح الأنظار وحديث الألسن ومهوى الأفئدة وقبلة القلوب، لِما يعلم الجميع من غزارة دينه وعقله؛ وسعة علمه وفضله؛ وعظمة أخلاقه وصفاته، ولأنه «الرمز» الماثل و«البقية» الباقية من سلالة النبوة الطيبة الطاهرة، بعد حملة الإبادة الشاملة التي شنها مرتزقة بني أمية على آل الرسول في كربلاء.

ثم زاد هذا الرجل لمعاناً وإشراقاً أنه أصبح منذ اليوم ـ لدى المؤمنين بالنصّ من المسلمين ـ هو الإمام الشرعي الذي يجب الإيمان

بإمامته العامة وولايته المطلقة، ويتحتم على كل مسلم اتّباعُه والرجوع إليه في جميع شؤون الشريعة والدين.

ولكي لا ندخل في تفاصيل مبحث الإمامة بمدلولها العام فيطول بنا الحديث ويتشعب[١]، نوجز فيما يأتي زبدة المسألة ولبَّ الموضوع فنقول:

إن المؤمنين بالنص ينطلقون في إيمانهم هذا من مسلّمة دينية تقوم على ضرورة الإمامة بعد وفاة الرسول (ص) وحتمية استمرارها في كل زمان وعصر بلا فترة أو انقطاع[٢]، تطبيقاً وامتثالاً للحديث الشريف: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية» أو «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[٣].

ويكون معنى ذلك في خلاصته: إنه لا بد من وجود إمام في كل حين وآن، وأنه ما دام موجوداً فلا بد للمسلم من معرفته معرفة الإقرار والموالاة كي لا يموت ميتة جاهلية.

وأمرٌ لا يحتاج إلى مزيد إيضاح ـ كما يعلم الأعمُّ الأغلب من المسلمين ـ إن يزيد بن معاوية ومن كان على شاكلته من الخلفاء المتسلطين؛ لم يكونوا أهلاً لولاية الشرع وإمامة الدين، وإنما كانوا يمثلون حكماً دنيوياً محضاً كحكم غيرهم ممن تقدمهم وتلاهم من ملوك العالم وسلاطين الأرض.

---

(١) يراجع في ذلك «الإمامة» [ص: ١٦٧ المجلد الأول من هذه الموسوعة.

(٢) قال الحافظ ابن حجر الهيثمي: «اعلم أن الصحابة أجمعوا على أن نصب الإمام بعد انقراض زمن النبوة واجب» الصواعق المحرقة: ٥.

(٣) ورد الحديث بهذ النص أو ذاك أو قريب منهما في مسند أحمد: ٣/٤٤٦ و٤/٩٦ والاختصاص للمفيد: ٢٦٨.

ولهذا كان من الواجب البحثُ عن «الإمام» الذي فُرِضت معرفته على المسلمين، بعد العلم بأنه ليس هذا «الخليفة» القابعَ على عرش السلطة الزمنية وإن ادّعى إمرة المؤمنين وخلافة رسول رب العالمين.

ويقول المؤمنون بالنص أن التعيين النبوي للأئمة قد تمثّل في مجموعتين من الأحاديث، إحداهما عامة ترسم الحدود الثابتة التي لا يجوز للمسلمين تجاوزها في الفحص والتوجُّه والتشخيص، والثانية خاصة تعنى بالمعلومات التفصيلية والبيانات الواضحة الجلية، وتتجه المجموعتان في إرشادهما ودلالتهما اتجاهاً محدداً نحو النقطة المركزية المستهدفَة منهما؛ وهي معرفة الأئمة بالاسم والوصف والعدد.

المجموعة الأولى:

ونعني بها مجموعة النصّ العام الذي لم يرد فيه اسمٌ معيَّن أو ذكرٌ مخصوص، وقد تمثّل ذلك في عدد غير قليل من الأحاديث النبوية الصحيحة المتواترة التي لا يرقى إليها توقُّف في سندٍ أو تردُّدٌ في دلالة، وقد تكفلت الكتب المعنيّة المطوّلة بإيرادها والبحث فيها من جميع الجوانب باستيعاب وشمول، ونورد فيما يأتي حديثين منها ـ على سبيل المثال ـ لزيادة الإيضاح والبيان:

الحديث الأول ـ حديث «الأئمة من قريش» وانهم «إثنا عشر»، وفي لفظ الطبراني في بعض رواياته: «اثنا عشر قيماً من قريش لا يضرهم عداوة من عاداهم»[١].

(١) المعجم الكبير: ٢/ ٢٨٦.

«وقد أخرج هذا الحديث وصحَّحه جمهورٌ من المحدّثين المشاهدين[١]، وقال ابن حجر الهيثمي: إنه «حديث صحيح ورد من طرق عن نحو أربعين صحابياً»[٢].

وروى الشيخ سليمان القندوزي الحنفي عن بعض المحققين قوله تعليقاً على هذا الحديث:

«إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده (ص) إثنا عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة... ومراد رسول الله (ص) من حديثه هذا: الأئمة الإثنا عشر من أهل بيته وعترته، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلّتهم عن اثنى عشر، ولا يمكن أن يُحمل على الملوك الأموية لزيادتهم على اثنى عشر ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز... ولا يمكن أن يحمل على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور... فلا بد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الإثنى عشر من أهل بيته وعترته (ص)، لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلّهم وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله»[٣].

الحديث الثاني ـ حديث الثقلين المتضمن وجوب الأخذ والتمسك بكتاب الله والعترة أهل البيت ليأمن المسلمون الضلال والزيغ عن نهج الحق. وقد أخرجه وصححه عدد غير قليل من المحدثين والحفّاظ

---

(١) صحيح البخاري: ٩/ ٧٨ و١٠١ وصحيح مسلم: ٦/ ٣ و٤ وسنن الترمذي: ٤/ ٥٠١ وسنن أبي داود: ٢/ ٤٢١ ومسند أحمد: ٢/ ١٢٨ و٣/ ١٢٩ و١٨٣ و٤/ ٤٢١ و٥/ ٨٦ ـ ١٠٨ والمعجم الكبير: ٢/ ٢١٤ ـ ٢٨٦.

(٢) الصواعق المحرقة: ٦.

(٣) ينابيع المودة: ٤٤٦.

والرواة[١]، وكُتبتْ في ألفاظه وطرقه وأسانيده عدة مؤلفات[٢]، وقال الحافظ ابن حجر الهيثمي معلقاً عليه:

اعلم أن لحديث التمسك بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً... وفي بعض تلك الطرق: إنه قال ذلك بحجة الوداع بعرفة، وفي أخرى: إنه قاله بالمدينة في مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي أخرى: أنه قال ذلك بغدير خم، وفي أخرى: إنه قال لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف. ولا تنافي، إذ لا مانعَ من أنه كرّر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها؛ اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة»[٣].

ولا شبهة في أن المراد بـ «العترة» في الحديث المذكور هم أبناء علي وفاطمة فقط دون غيرهم من الهاشميين، ولا يشمل قطعاً بني العباس وبني جعفر وبني عقيل وسائر بني عبد المطلب الآخرين، وقد أوضح (ص) ذلك بقوله: «عترتي أهل بيتي»، ومصطلح «أهل البيت» مصطلح خاص ورد في آية التطهير في القرآن الكريم؛ ويُقصد به علي وفاطمة وأولادهما الأئمة دون من سواهم من عشيرة النبي (ص) الأقربين. وعلّل ذلك الحافظ ابن حجر بقوله: «لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وشرَّفهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة... وفي أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت إشارة إلى

(١) صحيح مسلم: ٧/ ١٢٢ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٦٢ و٦٦٣ ومسند أحمد: ٣/ ١٤ و١٧ و٢٦ و٥٩ و٤/ ٣٦٧ و٥/ ١٨٢ و١٨٩ وحلية الأولياء: ١/ ٣٥٥ والصواعق المحرقة: ١٣٦.

(٢) ومنها بحث عنوانه: «حديث الثقلين» من منشورات دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة، وقد طبع في مصر سنة ١٣٧٤ هـ.

(٣) الصواعق المحرقة: ٨٩ ـ ٩٠.

عدم انقطاع متأهلٍ منهم للتمسك به إلى يوم القيامة، كما أن الكتاب العزيز كذلك. ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض كما يأتي، ويشهد لذلك الخبر السابق: في كل خلفٍ من أمتي عدول من أهل بيتي»[١].

المجموعة الثانية:

ونعني بها مجموعة النص الخاص القائم على التعريف والتوصيف والتسمية. ويتجلى ذلك في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة التي رواها جمهور المسلمين؛ وقد نصّت على إمامة علي بن الحسين، ومنها:

قول النبي (ص) مشيراً إلى الحسين: «هذا إمام؛ ابن إمام؛ أخو إمام؛ أبو أئمة تسعة»[٢].

وقوله (ص) وقد وضع الحسين على فخذه: «أنت إمام ابن إمام، وأنت حجة ابن حجة، وأنت أبو حجج تسعة تاسعهم قائمهم»[٣].

وقوله (ص) «أنا سيد النبيين، وعليٌّ سيد الوصيين، وإن أوصيائي بعدي إثنا عشر»[٤].

وقوله (ص): «أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون»[٥].

ونصُّه (ص) عليه بالإمامة فيما أُثِر عن جابر بن عبدالله الأنصاري في حديث طويل مفصّل[٦].

(١) الصواعق المحرقة: ٦٠.
(٢) منهاج السنّة: ٤/٢٠٩.
(٣) ينابيع المودة: ٢٥٨.
(٤) ينابيع المودة: ٤٤٧ و٤٨٦.
(٥) ينابيع المودة: ٢٥٨.
(٦) الإرشاد: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

ويتجلى هذا الاتجاه أيضاً في نصّ أبيه ـ وهو الإمام الشرعي ـ عليه؛ وتسميته إياه؛ وإخباره بذلك أُمّ المؤمنين أُمّ سلمة لما أراد مغادرة المدينة متوجهاً إلى العراق(١).

هكذا استدل «القائلون بالنص» على إمامة عليّ بن الحسين، وهكذا آمنوا به إماماً بعد أبيه على وجه التعيين؛ وبمنتهى القناعة والاطمئنان واليقين.

أمّا الطوائف الإسلامية الأخرى التي لم تلتزم بالنص النبوي ـ وإن التزمت بنصّ كل ملكٍ أو خليفة على وليّ عهده ـ؛ فلا بد من بحث الموضوع معها بوجه آخر، أي الوجه الذي يُعْنى بصفات المرشّح للإمامة؛ أو الحد الأدنى من تلك الصفات؛ علماً وفضلاً وكفاية وأهليّة، ضرورة أن الإمامة إنما تكون للأفضل دون المفضول؛ وللأكثر التزاماً بأحكام الله تعالى وبالعدل في تنفيذ ذلك وتطبيقه على الرعية.

وقد ذكر الماوردي وجوب اجتماع سبعة شروط في المؤهل للإمامة؛ هي:

١ ـ العدالة.

٢ ـ العلم.

٣ ـ سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان.

٤ ـ سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة.

٥ ـ الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

٦ ـ الشجاعة والنجدة.

---

(١) الكافي: ١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤ والإرشاد: ٢٧١ والبحار: ٣٦/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥ و٤٦/ ١٧ ـ ١٩.

٧ ـ النسب، وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه[١].

وقال القرطبي:

«من شروط الإمامة أن يكون عدلاً، لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تُعقد الإمامة لفاسق. ويجب أن يكون من أفضلهم في العلم»[٢].

ولكي نكون مؤهَّلين للحكم والانتقاء وسلامة تطبيق هذه الشروط أو المقاييس؛ ينبغي لنا الوقوف على ما ورد في وصف علي بن الحسين مروياً عن المشاهير من رجالات الإسلام وذوي الشأن فيه، وما ورد في وصف من عاصرهم ممن ادَّعوا الخلافة والإمامة، ليكون الموقف من كل واحدٍ من هؤلاء ـ فيما كان له أو عليه ـ واضح المعالم ثابت الأسس؛ قائماً على المنطق والعقلانية والموضوعية؛ ومنزَّهاً عن نوازع العاطفة والتعصب والعناد.

❀ ❀ ❀

لقد أبرزت مصادر التاريخ وكتب التراجم عليّ بن الحسين متحلياً بالأوصاف الآتية:

في العلم:

قال الزهري؛ ومالك؛ ويحيى بن سعيد؛ وزيد بن أسلم؛ وأبو حازم الأعرج؛ وسعيد بن المسيب؛ وجماعة من السلف:

«ما رأيتُ أفقه منه» أو «لم أر قرشياً أفضل منه» أو «ما رأيت

---

(١) الأحكام السلطانية: ٤.

(٢) تفسير القرطبي: ١/ ٢٣١.

هاشمياً أفضل منه» أو«ما رأيت قرشياً أورع منه ولا أفضل»[١].

وجعله الشافعي «أفقه أهل المدينة»[٢].

ووصفه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز: «سراج الدنيا، وجمال الإسلام وزين العابدين»[٣].

وقال فيه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في كتابه إلى محمد ذي النفس الزكية: «ما وُلِدَ فيكم مولود بعد وفاة رسول الله (ص) أفضل من علي بن الحسين»[٤].

في الزهد والورع:

وحسبنا من كل ما رُوي بهذا الشأن إجماعهم على تلقيبه «زين العابدين».

وقال الإمام مالك: «بلغني أنه كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات»[٥]، ورُوي مثل ذلك عن سعيد بن المسيب[٦].

---

(١) نسب قريش: ٥٨ وتاريخ اليعقوبي: ٣/ ٤٦ وطبقات ابن سعد: ٥/ ١٥٨ وحلية الأولياء: ٣/ ١٤١ والإرشاد: ٢٧١ و٢٧٣ والمناقب: ٢/ ٢٥٨ وطبقات الفقهاء: ٣٤ ووفيات الأعيان: ٢/ ٤٢٩ ومطالب السؤول: ٢/ ٤٧ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٤ و١٠٦ وتذكرة الخواص: ٣٤٠ والفصول المهمة: ١٨٥ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٧٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٨٧ و٣٨٩ و٣٩١ ومرآة الجنان: ١/ ١٩٠ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٥ والأئمة الإثنا عشر: ٧٥ وشذرات الذهب: ١/ ١٠٥ وينابيع المودة: ٣٧٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٢٧٤.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٣ / ٤٨.

(٤) تاريخ الطبري: ٧/ ٥٦٩.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٤٥ والإرشاد: ٢٧٢ ومطالب السؤول: ٢/ ٤٥ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٥ وتذكرة الخواص: ٣٣٦ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٧٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٢ والفصول المهمة: ١٨٣ والصواعق المحرقة: ١١٩ وشذرات الذهب: ١/ ١٠٥.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩١ ومرآة الجنان: ١/ ١٩٠.

وروى الرواة أنه «كان إذا توضّأ اصفرَّ لونه، وإذا قام إلى الصلاة أخَذَتْه رعدة، فقيل له: ما لَكَ؟ فقال: ما تدرون بين يَدَيْ مَنْ أقوم؛ ومَنْ أُريد أن أُناجي»[1].

ورُوي أنه «وقع حريق في بيت هو فيه وهو ساجد، وجعلوا يقولون له: يا ابن رسول الله؛ النار، فما رفع رأسه. فقيل له في ذلك فيما بعد فقال: أَلْهَتْني عنها النار الأخرى»[2].

وبلغ من انهماكه في العبادة أن إحدى عماته جاءت تستنجد بالصحابي المعمر جابر بن عبدالله الأنصاري وتطلب منه أن يكلّم الإمام ويدعوه إلى البقيا على نفسه فقد أذاب جسمه في العبادة، «فأتى جابر إلى بابه واستأذن، فلما دخل عليه وجده في محرابه قد أنضَتْه العبادة، فنهض عليٌّ فسأله عن حاله سؤالاً حفياً وأجلسه بجنبه. ثم أقبل جابر يقول: يا ابن رسول الله؛ أما علمتَ أن الله خلق الجنة لكم ولمن أحبّكم؛ وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم، فما هذا الجهد الذي كلّفته نفسك؟

«فقال له علي بن الحسين: يا صاحب رسول الله؛ أمَا علمتَ أن جدي رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ فلم يدع الاجتهاد له، وتعبَّد هو ـ بأبي وأُمّي ـ حتى انتفخ الساق وورم القدم.

---

(١) حلية الأولياء: ٣/ ١٣٣ والإرشاد: ٢٧٢ والعقد الفريد: ٣/ ١٦٩ والمناقب: ٢/ ٢٥٠ ومطالب السؤول: ٢/ ٤٢ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٢ وتذكرة الخواص: ٣٣٥ والفصول المهمة: ١٨٣ ومرآة الجنان: ١/ ١٩١ والصواعق المحرقة: ١١٩.

(٢) مطالب السؤول: ٢/ ٤٢ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩١ وتذكرة الخواص: ٣٣٥ ومرآة الجنان: ١/ ١٩١.

وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟

«فلما نظر إليه جابر وليس يغني فيه قولٌ قال يا ابن رسول الله؛ البقيا على نفسك؛ فإنك من أسرةٍ بهم يُستدفع البلاء وتُستكشف اللأواء فقال: يا جابر؛ لا أزال على منهاج أبويّ مؤتسياً بهما حتى ألقاهما»[1].

في البر والإحسان:

قال مؤرّخوه:

«قاسم الله مالَه مرتين»[2]، و«كان كثير الصدقة في السرّ»، و«كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يُؤتون به من الليل»، وكان «يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدّق به»، وهو القائل: «صدقة الليل تطفىء غضب الرب؛ وتنوّر القلوب والقبر؛ وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة»، ورُوي أن فقراء أهل المدينة كانوا يقولون: «ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات عليُّ بن الحسين»[3]. وحدّث سفيان بن عيينة قال: رأى الزهريُّ عليَّ بن الحسين ليلةً باردة مطيرة؛ وعلى ظهره دقيقٌ وهو يمشي، فقال: يا ابن رسول الله؛ ما هذا؟ قال: أُريد سفراً أُعدُّ له زاداً أحمله

(١) المناقب: ٢/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ والبحار: ٤٦/ ٦٠ ـ ٦١ و٧٨ ـ ٧٩.

(٢) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٦٢ وحلية الأولياء: ٣/ ١٤٠ والمناقب: ٢/ ٢٥٤ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٥ وتذكرة الخواص: ٣٣٦.

(٣) يراجع في النصوص المتقدمة: طبقات ابن سعد: ٥/ ١٦٤ وحلية الأولياء: ٣/ ١٣٥ و١٣٦ والإرشاد: ٢٧٥ والتبيين: ١٠٨ والمناقب: ٢/ ٢٥٣ ومطالب السؤول: ٢/ ٤٥ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٥ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٧٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٣ و٣٩٤ وتذكرة الخواص: ٣٣٦ والفصول المهمة: ١٨٤ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٦.

إلى موضع حريز. فقال الزهري: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى. قال: أنا أحمله عنك فإني أرفعك عن حمله، فقال علي بن الحسين: لكني لا أرفع نفسي عما ينجيني في سفري؛ ويحسن ورودي على ما أرد عليه... فانصرف عنه. فلما كان بعد أيام قال له: يا ابن رسول الله؛ لستُ أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً، قال: بلى يا زهريّ؛ ليس ما ظننتَ، ولكنه الموت وله أستعد»[(١)].

وروى الرواة: أنه لما توفي وأرادوا تغسيله «وجدوا على ظهره مَجْلاً مما كان يستقي لضَعَفة جيرانه بالليل؛ ومما كان يحمل إلى بيوت المساكين من جُرُب الطعام»[(٢)].

في الأدب والسلوك:

أورد المؤرخون في هذا الباب كثيراً من القصص والقضايا والأخبار؛ نذكر منها ـ على سبيل المثال ـ الشواهد الأربعة الآتية:

١ ـ «كان علي بن الحسين يخرج على راحلته إلى مكة ويرجع، لا يقرعها»[(٣)].

٢ ـ «كان يمرُّ على المدرة في وسط الطريق فينزل عن دابته حتى ينحّيها بيده عن الطريق»[(٤)].

٣ ـ «كان هشام بن إسماعيل [والي المدينة] يؤذي عليَّ بن الحسين وأهل بيته، يخطب بذلك على المنبر، وينال من علي (ع). فلما

---

(١) البحار: ٤٦/ ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) التبيين: ١٠٨ وربيع الأبرار: ٣/١٥٩ ـ ١٦٠ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٣.

(٣) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٦٠ وحلية الأولياء: ٣/ ١٣٣ والإرشاد: ٢٧٣ والمناقب: ٢/ ٢٥٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٨٨ والفصول المهمة: ١٨٥.

(٤) المناقب: ٢/ ٢٦٠.

ولي الوليد بن عبد الملك عزله وأمر به أن يُوقف للناس، فكان يقول: لا والله ما كان أحدٌ من الناس أهمَّ إليَّ من علي بن الحسين... فوقف للناس، فجمع علي بن الحسين ولده وخاصَّته ونهاهم عن التعرض، وغدا علي بن الحسين ماراً لحاجةٍ فما عَرَض له، فناداه هشام بن إسماعيل: الله أعلم حيث يجعل رسالاته»[١].

٤ - «جعلت جارية لعلي بن الحسين (ع) تسكب عليه الماء ليتهيّأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها، فرفع رأسه إليها، فقالت الجارية: إن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، قال: قد كظمتُ غيظي، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، قال لها: عفا الله عنكِ قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله عزَّ وجل»[٢].

۞ ۞ ۞

وهكذا كان علي بن الحسين في علمه وفضله: أفقه أهل زمانه وأفضل بني عصره.

وهكذا كان في زهده وورعه: زين العابدين وسيد الساجدين.

وهكذا كان في برّه وصدقاته في سرِّ الليل وتحت جنح الظلام.

وهكذا كان في أدبه وسلوكه: مع العدو والصديق؛ ومع الإنسان والحيوان.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٣/٢٨ وطبقات ابن سعد: ٥ / ١٦٣ وتاريخ الطبري: ٦/٤٢٨ وتذكرة الخواص: ٣٣٧.

(٢) الإرشاد: ٢٧٤ والمناقب: ٢/٢٥٧ والبداية والنهاية: ٩/١٠٧.

وهكذا كان في مجموع خلاله وخصاله وصفاته وسماته؛ وشمائله وملكاته.

وقد لخَّص لنا ذلك عارفوه ومترجموه فقالوا فيه:

«كان أفضل الناس وأشدّهم عبادة»(١).

«كان ثقة مأموناً كثير الحديث عالياً رفيعاً ورعاً»(٢).

«زين العابدين، ومنار القانتين، كان عابداً وفياً وجواداً حفياً»(٣).

«فضائل زين العابدين ومناقبه أكثر من أن تحصر»(٤).

«زين العابدين، وقدوة الزاهدين، وسيد المتقين، وأمام المؤمنين. سِمَتُه تشهد له أنه من سلالة رسول الله (ص)، وسَمته يثبت مقام قربه من الله... وله [من] الخوارق والكرامات ما شوهد بالأعين الباصرة؛ وثبت بالآثار المتواترة، وشهد له أنه [من] ملوك الآخرة»(٥).

«كان له جلالة عجيبة، وحقَّ له ـ والله ـ ذلك»(٦).

«كان من أورع الناس وأعبدهم وأتقاهم لله عزَّ وجل»(٧).

«زين العابدين هو الذي خلف أباه علماً وزهداً وعبادة»(٨).

(١) تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٤٥.
(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ١٦٤ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٤ وتذكرة الخواص: ٣٣٤ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٨٧ وينابيع المودة: ٣٧٨.
(٣) حلية الأولياء: ٣/ ١٣٣.
(٤) وفيات الأعيان: ٢/ ٤٣١ والأئمة الإثنا عشر: ٧٨ ومرآة الجنان: ١/ ١٩٢.
(٥) مطالب السؤول: ٢/ ٤١.
(٦) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٨.
(٧) البداية والنهاية: ٩/ ١٠٤.
(٨) الصواعق المحرقة: ١١٩.

هكذا هكذا وإلاّ فلا لا ليس كل الرجال تدعى رجالا

❀ ❀ ❀

ونعود بعد هذا العرض التفصيلي لمؤهلات علي بن الحسين (ع) وصفاته وملكاته إلى عرض آخر لتواريخ من ادّعى الإمامة العامة والولاية المطلقة من ملوك عصره وحكام زمانه وذوي الحل والعقد فيه، لنرى ما قيل فيهم وعنهم في الكتب التراثية والمصادر المعنيّة، ولنقارن ـ من ثَمَّ ـ بينه وبينهم مقارنة سليمة عادلة لا تعرف غير الانصاف في النظر والنزاهة في الحكم والموضوعية في القرار، عسى أن يحصحص الحق لكل ذي عينين؛ ويبين الأمر لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وقد عاصر الإمام ـ خلال مدة إمامته الممتدة من سنة ٦١ هـ إلى سنة ٩٥ هـ ـ عدداً من أولئك الحاكمين والمتسلطين ومدعي الخلافة؛ هم:

١ ـ يزيد بن معاوية، وقد مات في أواسط شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ.

٢ ـ معاوية بن يزيد، وقد استقال من الخلافة بعد أسابيع من استخلافه.

٣ ـ عبدالله بن الزبير، وقد ادّعى الخلافة بمكة أيام يزيد ودعا الناس إلى مبايعته، وقُتل على يد الحجاج سنة ٧٣ هـ.

٤ ـ مروان بن الحكم، وقد تغلّب على الأمر بعد استقالة معاوية بن يزيد حتى مات سنة ٦٥ هـ.

٥ ـ عبد الملك بن مروان، وقد تسلم الحكم من أبيه إثر موته، وتوفي في شوال سنة ٨٦ هـ.

٦ ـ الوليد بن عبد الملك، وقد ورث العرش من أبيه بعد وفاته، ومات في جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ.

ولا بد لنا من أن نقف مع كل واحد من هؤلاء وقفة استطلاع وتدبر، في ضوء ما بلغنا من سيرهم وسلوكهم؛ وما رُوي لنا من أقوالهم وأعمالهم، مع الالتزام التام بمنتهى الإيجاز والاختصار لئلا نخرج عن دائرة موضوعنا الخاص إلى بحث مفصَّل في شؤون تلك الحقبة الصاخبة من التاريخ.

١ ـ يزيد بن معاوية:

ملك قرابة أربع سنوات، «وكان سعيد بن المسيب يسمّي سني يزيد بن معاوية: بالشؤم، في السنة الأولى قُتِل الحسين بن علي (ع) وأهل بيت رسول الله (ص)، والثانية استبيح حرم رسول الله (ص) وانتُهكتْ حرمة المدينة، والثالثة سُفكت الدماء في حرم الله وحرقوا الكعبة»(١).

وكان هذا الرجل متجاهراً بالفسق والفجور وإتيان الحرام والمنكر وارتكاب الكبائر والجرائر، إلى الحدّ الذي حمل الخليفة العباسي المعتضد بالله على عدِّه من المارقين من الدين وممن «لا يؤمن بالله ولا بما جاء من عند الله»(٢).

وروى ابن عبد ربه أن رجلاً من أصحاب رسول الله (ص) سمع كلاماً من يزيد فقال له:

ارتددتَ عن الإسلام يا أمير المؤمنين!! قال: بلى؛ نستغفر الله!»(٣).

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٢٦.
(٢) تاريخ الطبري: ١٠/ ٦٠ ـ ٦١.
(٣) العقد الفريد: ٥/ ٣٩٠.

وحدّث السيوطي عن نوفل بن أبي الفرات قال: «كنتُ عند عمر بن عبد العزيز، فذكر رجل يزيد فقال: أمير المؤمنين يزيدُ بن معاوية. فقال: تقول أمير المؤمنين، وأمر به فضُرِبَ عشرين سوطاً»[1].

وروى الشيخ يوسف النبهاني عن «العلاّمة الصبّان قوله: إن الإمام أحمد يقول بكفر يزيد... ووافقه على ذلك جماعة كابن الجوزي وغيره. أما فسقه قد أجمعوا عليه. وأجاز قوم من العلماء لعنه بخصوص اسمه»[2].

٢ ـ معاوية بن يزيد:

ملك بعد أبيه يزيد، وبعد أسابيع من ملكه صعد المنبر فخطب الناس فقال: «أيها الناس؛ إنّا بُلينا بكم وبُليتم بنا، فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا. ألا وإن جدي معاوية بن أبي سفيان نازَعَ الأمرَ من كان أولى به منه... فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون، حتى أتته منيته وصار رهناً بعمله. ثم قُلّد أبي وكان غير خليق للخير، فركب هواه واستحسن خطأه، وعظم رجاؤه فأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل، فقلّت منعته وانقطعت مدّته، وصار في حفرته رهناً بذنبه وأسيراً بجرمه.

«ثم بكى وقال:

«إن أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول (ص) وأباح الحرمة وحرق الكعبة. وما أنا المتقلّد أموركم؛ ولا المتحمل تبعاتكم، فشأنكم أمركم، فوالله لئن كانت الدنيا مغنماً لقد

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١٣٩.

(٢) الشرف المؤبد: ٧٧.

نلنا منها حظّاً، وإن تكن شراً فحسب آل [أبي] سفيان ما أصابوا منها»[١].

«ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس، وتغيَّب حتى مات؛ فقال بعض الناس: دُسَّ إليه فسُقي سماً، وقال بعضهم: طُعِن»[٢].

٣ ـ عبدالله بن الزبير:

كان ابن الزبير بعد امتناعه من بيعة يزيد قد عظم شأنه «واشتهر أمرُه؛ وبَعُدَ صيتُه، ومع هذا كله ليس هو معظماً عند الناس... بل الناس إنما ميلهم إلى الحسين؛ لأنه السيد الكبير وابن بنت رسول الله (ص)، فليس على وجه الأرض يومئذ أحدٌ يساميه ولا يساويه، ولكن الدولة اليزيدية كانت كلها تناوئه»[٣].

وكان ابن الزبير قد اختار مكه ـ لأمنها وحرمتها ـ مستقراً له ومنطلقاً لطموحه إلى الخلافة، فلما بلغه مقتل الحسين (ع) قام خطيباً في الناس فقال:

«إن أهل العراق غُدُرٌ فُجُر إلا قليلاً، وإن أهل الكوفة شرارُ أهل العراق، وإنهم دعوا حسيناً لينصروه ويولوه عليهم؛ فلما قدم عليهم ثاروا إليه... فرأى أنه هو وأصحابه قليل في كثير... ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة، فرحم الله حسيناً وأخزى قاتل حسين... أمَا والله لقد قتلوه؛ طويلاً بالليل قيامه؛ كثيراً في النهار صيامه؛ أحقّ بما هم فيه منهم وأوْلى به في الدين والفضل. أمَا والله ما كان يبدّل بالقرآن

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٥٣١.

(٣) البداية والنهاية: ٨/ ١٥١ .

الغناء؛ ولا بالبكاء من خشية الله الحداءَ؛ ولا بالصيام شربَ الحرام؛ ولا بالمجالس في حَلَق الذكر الركضَ في تطْلاب الصيد ـ يعرِّض بيزيد ـ فسوف يلقون غيّا»[١].

وبعد أن أنهى ابن الزبير كلامه «ثار إليه أصحابه فقالوا له: أيها الرجل أظْهِرْ بيعتك فإنه لم يبق أحدٌ ينازعك هذا الأمر. وقد كان يُبايع سراً.

«وعلا أمر ابن الزبير بمكة»[٢].

ولم يكن ابن الزبير في تأبينه الحسين صادق العاطفة والنية، وإنما أراد استغلال مشاعر المسلمين في نقمتهم على الأموين بقتلهم الحسين ليزداد مدى خلافته أصقاعاً وأتباعاً، فقد روى المسعودي: إن الحسين لما حلَّ بمكة كان أثقل الناس على عبدالله بن الزبير «لأن الناس ما كانوا يعدلونه بالحسين، فلم يكن شيء يؤتاه أحبّ إليه من شخوص الحسين عن مكة»، ولذلك قال عبدالله بن عباس لابن الزبير لما عزم الحسين على مغادرة مكة: «قرتْ عينك يا ابن الزبير... هذا حسين يخرج إلى العراق ويخلّيك والحجاز»[٣].

ومهما يكن من أمر، فقد ادعى ابن الزبير الخلافة بعد مقتل الحسين (ع) ودعا الناس إلى بيعته، فأجابه لفيف من المسلمين في عدد من البلاد الإسلامية. ولكنه لم يكن ـ في الحق ـ مؤهلاً للخلافة ديناً

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥، وقريب منه في أنساب الأشراف: ٤/ ١٦ ـ ١٧ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٣٠٥.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٧٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٣٠٥.
(٣) مروج الذهب: ٣/ ٥.

وخُلقاً وسلوكاً وأمانة، وقد ذكرنا بعض تاريخه قبل ادعائه الخلافة في إحدى دراساتنا المعنية بهذه الحقبة[١].

ويكفينا في معرفة ابن الزبير بعد ادعاء الخلافة أن نقف ـ على سبيل العجالة ـ على النقاط الآتية:

١ ـ كان ابن الزبير شديد العداء لبني هاشم، وروى ابن شبّة: إن «ابن الزبير خطب أربعين يوما لا يصلّي على النبي (ص) وقال: لا يمنعني أن أصلي عليه إلاّ أن تشمخ رجال بآنافها»[٢] يعني بني هاشم.

وفي حديث صاخب بين ابن الزبير وعبد الله بن عباس «قال ابن الزبير: إني لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة. وجرى بينهما خطب طويل، فخرج ابن عباس من مكة خوفاً على نفسه، فنزل الطائف فتوفي هناك»[٣].

٢ ـ «كان ابن الزبير عمد إلى مَنْ بمكة من بني هاشم فحصرهم في الشعب [أو في زمزم] وجمع لهم حطباً عظيماً لو وقعت فيه شرارة من نار لم يسلم من الموت أحد، وفي القوم محمد ابن الحنفية»[٤].

وخطب على أثر ذلك فقال: «قد بايعني الناس، ولم يتخلف إلاّ

(١) يراجع بحثنا: (زيد بن صوحان)، وقد ذكرنا فيه أعمال ابن الزبير في حرب الجمل.
(٢) مروج الذهب ٣/ ٢٦ وتاريخ اليعقوبي ٣/ ٨.
(٣) مروج الذهب: ٣/ ٢٦ وتاريخ اليعقوبي: ٣/ ٩.
(٤) مروج الذهب: ٣/ ٢٣ وتاريخ الطبري: ٦/ ٧٦ والأغاني: ٩/ ٢١.

هذا الغلام محمد ابن الحنفية، والموعد بيني وبينه أن تغرب الشمس [من يوم كذا] ثم أضرم داره عليه ناراً»[١].

وذهب الرسل مسرعين إلى الكوفة ليعلموا المختار بذلك، فثارت ثائرته فاستنفر قوماً أمرهم بالذهاب إلى مكة وانقاذ بني هاشم، فوصلوا مشارف مكة وكانوا أربعة آلاف رجل، ودخل منهم مكة ثمانمائة فارس سرّاً فهجموا على ذلك الموضع واستخرجوا بني هاشم منه[٢].

وكان عروة بن الزبير يعذر أخاه «إذا جرى ذكر بني هاشم وحصره إياهم في الشعب وجمعه الحطب لتحريقهم، ويقول: إنما أراد بذلك إرهابهم ليدخلوا في طاعته كما أُرهب بنو هاشم وجُمِع لهم الحطب لإحراقهم إذا هم أبوا البيعة فيما سلف»[٣]!!

٤ ـ مروان بن الحكم:

في أيام ادعاء ابن الزبير الخلافة واستقالة معاوية بن يزيد وامتناعه عن تسمية ولي عهده؛ استغلَّ مروان بن الحكم هذه الفرصة فادّعى الخلافة وسيطر على قصر الحكم في دمشق، وقد شجّعه على ذلك بعض رجال العرش الأموي، وفي مقدمتهم عبيدالله بن زياد والأشدق عمرو بن سعيد بن العاص[٤].

وبايع الشاميون سلطانهم الجديد، ثم ساقهم مروان لمقاتلة كل الرافضين لتسلُّطه؛ ابتداء بالضحاك بن قيس الفهري؛ ومروراً بالنعمان بن

(١) مروج الذهب: ٣/ ٢٤ وتاريخ اليعقوبي: ٣/ ٨.
(٢) مروج الذهب: ٣/ ٢٣ ـ ٢٤ وتاريخ اليعقوبي: ٣/ ٨ وتاريخ الطبري: ٦/ ٧٦ ـ ٧٧.
(٣) مروج الذهب: ٣/ ٢٤.
(٤) مروج الذهب: ٣/ ٣١.

بشير، وانتهاء بزفر بن الحارث الكلابي وأكدر بن الحمام[١]، حتى هلك في سنة ٦٥ هـ.

وحسبنا في معرفة مروان ـ بايجاز واختصار ـ أن نروي قول النبي (ص) فيه: «الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون»[٢].

وقوله (ص) لما رأى الحكم بن أبي العاص أبا مروان:

«ويل لأُمتي مما في صلب هذا»[٣].

وقول أُم المؤمنين عائشة لمروان:

إن الله ـ أو ـ «إن رسول الله (ص) لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فَضَضٌ من لعنة الله»[٤] أي قطعة منها.

٥ ـ عبد الملك بن مروان:

استولى على الملك بعد موت أبيه، وكان مروان في أوائل أيام حكمه قد جعل ولاية عهده لخالد بن يزيد بن معاوية، ثم خاس بعهده وغدر بخالد وجعل ولاية العهد لابنه عبد الملك[٥]، وقد روى السيوطي عن الذهبي أن عهد مروان لابنه ليس صحيحاً، وأن مروان لا يعد في أمراء المؤمنين[٦].

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) الصواعق المحرقة: ١٠٨.
(٣) أسد الغابة: ٢/ ٣٤ والإصابة: ١/ ٣٤٥.
(٤) الفائق: ٤/ ١٠٢ وأسد الغابة: ٢/ ٣٤ والإصابة: ١/ ٣٤٥ وتركيب (فضض) في المعجمات اللغوية.
(٥) مروج الذهب: ٣/ ٣٢ و٣٥.
(٦) تاريخ الخلفاء: ١٤٢.

ولما بُلّغ عبد الملك بهلاك أبيه وصيرورة الملك إليه أطبق المصحف ـ وكان في حجره ـ وقال: هذا آخر العهد بك[(١)].

و«كان عبد الملك كثيراً ما يجلس إلى أُمّ الدرداء، فقالت له مرة: بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربتَ الطلا بعد النسك والعبادة!، قال: إي والله؛ والدماء قد شربتُها»[(٢)].

وفي هذا العهد (الزاهر!) هَدمت الكعبة للمرة الثانية على أيدي جيش عبد الملك بعد أن أُعيد بناؤها إثر هدم جيش يزيد بن معاوية لها للمرة الأولى في تاريخ الإسلام.

ويلخص لنا السيوطي القول في عبد الملك بالخلاصة الآتية:

«قلتُ: لو لم يكن من مساوي عبد الملك إلاّ الحجاج وتوليته إياه على المسلمين؛ وعلى الصحابة يهينهم ويذلهم قتلاً وضرباً وشتماً وحبساً، وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يحصى فضلاً عن غيرهم، وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة ختماً يريد بذلك ذلّهم. فلا رحمه الله ولا عفا عنه»[(٣)].

ومات عبد الملك في شوال سنة ٨٦ هـ.

٦ ـ الوليد بن عبد الملك:

أصبح الوليد ملكاً على أثر موت أبيه، وكان أيام سلطانه جباراً عنيداً؛

(١) تاريخ الخلفاء: ١٤٥.
(٢) تاريخ الخلفاء: ١٤٤.
(٣) تاريخ الخلفاء: ١٤٧.

ظلوماً غشوماً[١]. وقد أُثر عن عمر بن عبد العزيز قوله ـ يوم كان الوليد خليفة بالشام؛ والحجاج والياً على العراق؛ وعثمان بن حبارة بالحجاز؛ وقرة بن شريك بمصر ـ قال: «امتلأت الأرض ـ والله ـ جوراً»[٢].

و«كان الوليد لحّاناً، قال على منبر المسجد النبوي: «يا أهل المدينة [بضم لام أهل]، وقال أبو عكرمة الضبي: قرأ الوليد على المنبر: يا ليتُها كانت القاضية [بضم تاء ليتها]»[٣].

وحسبه في بلوغ الغاية جوراً وظلماً وإجراماً أن يكون الحجاج أبرز رجاله وأصحابه، وقد روى الرواة أن الحجاج لما هلك في سنة ٩٥ هـ «أُحصي مَن قتله صبراً سوى مَنْ قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفاً، ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة؛ منهن ستة عشر ألفاً مجرّدة. وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف؛ ولا من المطر والبرد في الشتاء»[٤].

ومات الوليد في سنة ٩٦ هـ.

❀ ❀ ❀

هذا استعراض موجز وسريع لأولئك الذين ادعوا الخلافة الإسلامية وتقمصوا أردية الولاية الشرعية في عصر زين العابدين (ع) الممتد من يوم شهادة أبيه إلى يوم وفاته، فهل كان فيهم من هو أهل

(١) تاريخ الطبري: ٦/٤٢٣ ومروج الذهب: ٣/٩٦ وتاريخ الخلفاء: ١٤٩.
(٢) تاريخ الخلفاء: ١٤٩.
(٣) تاريخ الخلفاء: ١٤٩.
(٤) مروج الذهب: ٣/١٠٥.

للإمامة الدينية والنيابة الحقيقية عن صاحب الرسالة؟ وهل برز من بينهم من اجتمع فيه الحد الأدنى من الشروط التي نصَّ الماوردي وغيره من علماء الإسلام على وجوب اجتماعها في المرشّح لهذا المركز الكبير والمنصب الخطير؟

وإذا كان هؤلاء بأجمعهم قد أخفقوا في الحصول على الحد الأدنى من تلك المؤهلات إن لم يكونوا في الصف المضاد لها، فقد أجمعت الكلمة إجماعاً تاماً مطلقاً على توفر كل المواصفات؛ وبأكمل الصور والوجوه؛ في علي بن الحسين (ع)، مضافاً إلى ما رواه حفاظ الحديث من نصوص التعيين العامة والخاصة. وتكون النتيجة المستخلصة التي لا تقبل الجدل والنقاش: اتفاق جميع الأطراف الإسلامية على اختلاف آرائها واجتهاداتها على انحصار الإمامة في ذلك العصر بالإمام زين العابدين بالذات.

وقد أعلن الجاحظ هذه الحقيقة الجلية فقال:

«وأما علي بن الحسين فالناس على اختلاف مذاهبهم مجمعون على فضله؛ ولا يشك أحدٌ في تقديمه وإمامته»[١].

وقال الحافظ الذهبي:

«كان أهلاً للإمامة العظمى؛ لشرفه وسؤدده؛ وعلمه وتألُّهه؛ وكمال عقله»[٢].

وهكذا أصبح علي بن الحسين إماماً للمسلمين بعد أبيه بلا شك أو ريب أو تردد.

---

(١) ينابيع المودة: ١٥٣.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٨.

إماماً؛ بالنص الصريح الصحيح عن جده (ص) وأبيه (ع).

وإماماً؛ باجتماع المؤهلات والصفات التي لم تجتمع في غيره في عصره.

ونعود الآن بعد هذه الجولة الواسعة في مطاوي التاريخ لتحديد الموقف من قضية الإمامة وانحصارها في علي بن الحسين؛ بالنص والكفاية والأهلية واجتماع الشروط والصفات. إلى استعراض تاريخ الإمام وسيرة حياته المباركة، مع التمهل قليلاً عند أبرز ما عاصر من فتن وأحداث شملت المجتمع الإسلامي كله؛ وهزت كيانه هزاً بالغ العنف؛ وقضت على الكثير من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وكان أول ما جابه الإمام في هذه المرحلة على أثر عودته من دمشق واستقراره في دار إمامته ومهجر جدّه (ص) ومسقط رأسه؛ تلك الوقعة الفظيعة الشنيعة التي يندى لها جبين الإنسانية في كل عصورها حياء وخجلاً؛ ونعني بها وقعة الحرّة.

ولو أُتيح لجيش مؤلف من يهود ذلك العصر المطرودين من الحجاز، أو جموع المجوس الذين انهارت أمجادهم على يد الفاتحين المسلمين، أو عساكر الروم المهدَّدين بمثل ما وقع لجيرانهم أبناء فارس. أقول: لو أتيح لجيش من أحد هؤلاء الموتورين الحاقدين أو منهم جميعاً متضامنين؛ أن يحتل المدينة المنورة ويحكم السيطرة عليها لما فعل بها وبأهلها ما فعله جيش (أمير المؤمنين!!) يزيد بن معاوية.

ولقد تناسى جميع أولئك المشاركين في هذه الجريمة من أميرهم

الأعلى إلى أصغر جندي فيهم ـ إن كانوا مسلمين ـ ما قاله النبي (ص) علناً وجهاراً وعلى رؤوس الأشهاد إن «من حدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[١] أو «من أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[٢] أو «من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[٣].

ومع صراحة هذا النص النبوي الصارم القاطع؛ لا مانع من أن يكون المشمول بـ «لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» في عداد صفّ الخلفاء المسلمين؛ الذين يدّعون الخلافة عن رسول الله (ص) في تطبيق شريعته وقيادة أُمته!! ويطالبون الناس بالطاعة والرضوخ؛ ويقتلون الأصفياء الخيِّرين بزعم خروجهم على شرعية سلطانهم!!

وتعد هذه الوقعة الدموية النكراء؛ ثم ما وقع على أثرها في مكة المكرمة؛ أُولى الأصداء الشعبية لجريمة قتل الحسين (ع) ومأساة أهل البيت في كربلاء، تلك الأصداء التي ظلت مشتعلة الفتيل مستعرة اللهب؛ حتى أحرقت في آخر الأمر عرش بني أمية؛ وأنهت أيام دولتهم الفاجرة.

وكانت بداية ذلك فيما روى المؤرخون:

إن عبدالله بن الزبير ـ وكان يومذاك بمكة ـ لما بلغه مقتل الحسين (ع) ادّعى الخلافة ودعا الناس إلى بيعته[٤].

«وثار نَجْدَة بن عامر الحنفي باليمامة حين قُتِل الحسين»[٥].

---

(١) (٢) صحيح مسلم: ٤/ ١١٥.

(٣) تاريخ الخلفاء: ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٤) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٧٥ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٣٠٥.

(٥) أنساب الأشراف: ٤/ ٢٩ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٧٩ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٣٠٦.

وفي أثناء ذلك ذهب وفدٌ من أهل المدينة إلى الشام فلقي يزيد بن معاوية، وشكوا له سوء الحال وفساد الوضع العام و«فيهم عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري وعبدالله بن أبي عمرو المخزومي والمنذر بن الزبير»[١]، فأغدق عليهم العطاء وأعظم جوائزهم، ظنّاً منه أن يشتري بذلك ذممهم ودينهم.

وعاد الوفد إلى المدينة ساخطاً ناقماً، فقاموا «في الناس فأظهروا شتم يزيد، وقالوا: إنا قدمنا من عند رجلٍ ليس له دين؛ يشرب الخمر؛ ويعزف بالطنابير؛ ويضرب عنده القيان؛ ويلعب بالكلاب... وإنا نشهدكم أنّا قد خلعناه، فتابعهم الناس»[٢].

وقال عبدالله بن حنظلة: «والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرْمى بحجارة من السماء. إنه رجل ينكح أمهات الأولاد؛ والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة»[٣].

وقال المنذر بن الزبير: «إن يزيد ـ والله ـ لقد أجازني بمائة ألف درهم، وأنه لا يمنعني ما صنع إليّ أن أخبركم خبره وأصدقكم عنه: والله إنه ليشرب الخمر، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة»[٤].

ويقول المسعودي:

«ولما شمل الناسَ جورُ يزيد وعُمّاله، وعمّهم ظلمه، وما ظهر من فسقه: من قتلِه ابنَ بنت رسول الله (ص) وأنصاره، وما ظهر من شرب الخمور، وسَيْرِه سِيرةَ فرعون؛ بل كان فرعون أعدل منه في رعيته

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٠ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٣٠٧.
(٢) أنساب الأشراف: ٤/ ٣١ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٠ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٣٠٧.
(٣) تاريخ الخلفاء: ١٤٠.
(٤) أنساب الأشراف: ٤/ ٣٢ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٨١ والكامل لابن الأثير: ٣/ ٣٠٧.

وأنصف منه لخاصته وعامته، أخرج أهل المدينة عامله عليهم ـ وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ـ ومروان بن الحكم وسائر بني أمية»[١].

وأتى الناسُ عبدالله بن حنظلة فبايعوه وولّوه إدارة أمرهم[٢].

وبلغ الخبر يزيد فأعدَّ جيشاً لهذه المهمة، وقدَّرت بعض الروايات عدده بثلاثين ألفاً ومعه عشرة آلاف بعير تحمل الزاد[٣]، وفي رواية أخرى: إن عدده عشرون ألف فارس وسبعة آلاف راجل[٤]، ورُوي أيضاً: إنه إثنا عشر ألف رجل. وكان قائده مسلم بن عقبة المرّي[٥].

وكتب يزيد إلى أهل المدينة كتاباً جاء فيه.

«أما بعد: فقد أنظرتُكم حتى لا نَظِرَة، ورفقتُ بكم حتى عجزت عندكم... وأيم الله لئن وضعتُكم تحت قدمي لأطأنّكم وطأة أجعلكم بها أحاديث تُؤثر مع أحاديث عاد وثمود»[٦].

وقال يزيد لقائد الجيش مسلم بن عقبة وهو يودّعه:

«ادْعُ القوم ثلاثاً، فإن هم أجابوك وإلاّ فقاتلهم، فإذا أُظهِرْت عليهم فأبِحْها ثلاثاً؛ فما فيها من مالٍ أو رِقَةٍ أو سلاح أو طعام فهو للجند»[٧].

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ١٦.
(٢) أنساب الأشراف: ٤/ ٣١ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٠ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٣٠٧ والبداية والنهاية: ٨/ ٢١٦.
(٣) الإمامة والسياسة: ١/ ١٩١ و٢/ ٨.
(٤) فتوح ابن أعثم: ٥/ ٢٩٣.
(٥) أنساب الأشراف: ٤/ ٣٣ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٣ والكامل لابن الأثير: ٣/ ٣١١.
(٦) أنساب الأشراف: ٤/ ٣٢، ومضمونه في الإمامة والسياسة: ١/ ١٨٩.
(٧) أنساب الأشراف: ٤/ ٣٣ وتاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٤ والكامل لابن الأثير: ٣/ ٣١١.

وزحف جيش العدوان نحو المدينة المنوّرة، وجال مع أهلها جولة الباطل المقرونة بالنصر الزائف الموقت، فاستباح حرم رسول الله (ص) ثلاثاً تنفيذاً لأوامر القيادة العليا. واندفع الجنود المجرمون «يقتلون الناسَ ويأخذون الأموال»[١]، «ويعبثون بالإماء، ويفعلون ما لا يحبه الله»[٢]، واستعرض أهلها بالسيف جَزْراً كما يجزر القصّاب الغنم، حتى ساخت الأقدام في الدم، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر»[٣]، «وفُضِحت النساء»[٤]، «حتى ولدت الأبكار لا يُعْرَف من أولدهنَّ»[٥]، وروى ابن كثير: «انه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج»[٦]، وروى غيره: انه «افتضَّ بها ألف عذراء»[٧].

«وبلغ عدَّة قتلى الحرَّة يومئذٍ من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس ألفاً وسبعمائة، وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان»[٨]، وفي تقدير ابن أعثم: كان عددهم «ستة آلاف وخمسمائة رجل»[٩]، وفي تقدير البلاذري: إن القتلى «من وجوه قريش سبعمائة رجل وكَسْرٌ سوى مَنْ قُتِل من الأنصار... وقُتِل من أخلاط الناس نحو من ستة آلاف وخمسمائة»[١٠]. وذكر المؤرخون: أن في

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٩١ وكامل ابن الأثير: ٣/ ٣١٣.
(٢) أنساب الأشراف: ٤/ ٣٧.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٥٩.
(٤) الإمامة والسياسة: ٢/ ٩.
(٥) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٢٣.
(٦) البداية والنهاية: ٨/ ٢٢١.
(٧) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢١٩ وتاريخ الخلفاء: ١٣٩.
(٨) الإمامة والسياسة: ١/ ١٩٧.
(٩) الفتوح: ٥/ ٢٩٥.
(١٠) أنساب الأشراف: ٤٢٤.

القتلى «من حملة القرآن سبعمائة»[١]، و«من أصحاب النبي (ص) ثمانين رجلاً، ولم يبق بدريّ بعد ذلك»[٢]، و«من آل أبي طالب اثنان: ابن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وجعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب، ومن بني هاشم من غير آل أبي طالب: الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب؛ وحمزة بن عبدالله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب؛ والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب»[٣].

و«دخل مسلم بن عقبة المدينة، فدعا الناس للبيعة على أنهم خولٌ ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء»[٤]. وأرسل بشرى النصر!! على وجه السرعة إلى الشام، فلما بلغ يزيد الخبر قال:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسَلْ[٥]

وسُرَّ الخليفة بنتائج هذا (الفتح) العظيم أعظم السرور وفرح أشدَّ الفرح، ولكن ذلك لم يمنع معاوية بن يزيد ـ وهو وليُّ العهد ـ من البكاء على هؤلاء القتلى؛ حتى أنكر عليه أبوه ذلك[٦].

❀ ❀ ❀

«ولما فرغ مسلم بن عقبة من قتال أهل المدينة... شخص بمن معه من الجند متوجهاً إلى مكة»[٧] لمحاربة عبدالله بن الزبير؛ الذي أعلن

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٢٠.
(٢) الإمامة والسياسة ١/ ١٩٨.
(٣) مروج الذهب: ٣/ ١٧ ـ ١٨.
(٤) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٩٥.
(٥) أنساب الأشراف: ٤/ ٤٢.
(٦) الإمامة والسياسة: ١/ ٢٠٠.
(٧) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٩٦.

الدعوة لنفسه وطلب من الناس البيعة كما أسلفنا ذلك.

ودارت المعركة في بطاح مكة بين جند يزيد وأنصار ابن الزبير، وأقام الأمويون يقاتلون خصومهم قرابة شهرين؛ أي بقية المحرم وصفر كله، «حتى إذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين؛ قذفوا البيت بالمجانيق، وحرقوه بالنار»[1]، «فوقعت النار على الكعبة فاحترق الخشب والسقف، وانصدع الركن، واحترقت الأستار وتساقطت إلى الأرض»[2]. وكان عدد الصخور التي «يرمون بها الكعبة والمتحصنين بالمسجد الحرام» عشرة آلاف صخرة في اليوم[3].

وفي أثناء ذلك ـ وكانت الحرب في ذروة عنفها ـ وصل الخبر بهلاك يزيد، فلم يجد قائد الجيش مناصاً من الإنسحاب والعودة إلى الشام وإن لم تحقق الحملة العسكرية هدفها المطلوب في القضاء على ابن الزبير وأطماعه وأتباعه.

❀ ❀ ❀

هذه خلاصة أمينة ووصف صادق لما حدث يومذاك في المدينة المنورة ثم في مكة المكرمة. ولما كان هذا البحث معنياً بتاريخ الإمام علي بن الحسين (ع) خاصة، وليس من شأنه الحديث عن عموم وقائع تلك الحقبة السوداء الحافلة بالفظائع والفجائع والآلام، فإننا سنقتصر ـ في هذه الصفحات ـ على ما يتعلق بالإمام بالذات في هذه الحادثة الدامية النكراء.

---

(١) أنساب الأشراف: ٤/٤٨ وتاريخ الطبري: ٥/٤٩٨ ومروج الذهب: ٣/١٩ وكامل ابن الأثير: ٣/٣١٦.

(٢) العقد الفريد: ٤/٣٩٢.

(٣) الإمامة والسياسة: ٢/١١.

ولا بدَّ قبل ذكر ذلك من التنبيه على أن الإمام لم يشارك في هذه الثورة الشعبية من قريب أو بعيد، ولم يكن له أي يد في قيامها أو دور في تأجيج ضرامها، بل لم يؤثر عنه أي تأييد لها في قول أو فعل. وقد يكون هذا الموقف مثيراً للغرابة والعجب وقد عاش الإمام مأساة أهل بيته لحظة بلحظة ويوماً بيوم، وما زال صدى ذلك يرن في أُذنه بقوة وعنف، وما برحت صور القتل والأسر والمهانة تتراءى أمام عينيه جلية الملامح واضحة المعالم فعّالة التأثير، فكان المنتظر منه ـ وقد تهيأ له مجال المطالبة بثأره والانتقام من عدوه ـ أن يبرز في الواجهة قائداً ومخططاً؛ أو يكون في أضعف الفروض مؤيداً ومسدداً ومثيراً ومحفزاً، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ولم يستغل الفرصة السانحة لإشباع رغبة نفسه في التشفي من يزيد.

والسبب الرئيسي في هذا الموقف السلبي: أن الإمام كغيره من أئمة أهل البيت (ع) لم يكونوا في يوم من الأيام طلاّبَ دنيا أو هواة حكم أو عشاقَ سلطة، وأن جميع ما صدر عنهم ـ وإن ظنّه أهل الدنيا ورجال السياسة منافسةً لحاكم أو رغبة في ملك ـ مرتبط أوثق الارتباط بما تقرر في الدين من وجوب العمل على إعلاء كلمة الله وتمكين الإسلام من أداء دوره الأصيل المهيمن على الحياة العامة كما أراد الله ورسوله، فإن كان ذلك ـ في ظرفٍ ما ـ محتاجاً إلى الثورة والتضحية بالنفس والنفيس وجبت، وإن عُلِم أن الثورة في ظرفٍ آخر لا تحقق الهدف ـ أي لا تسقط النظام الفاسد رأساً ولا تمهِّد لإسقاطه في مقبل الأيام ـ لم تجب، بل قد تعد حينذاك عملية انتحارية مرفوضة في الشرع، لذهاب خسائرها الغالية سدى بلا عوض أو مردود.

إن هذه النظرة الموضوعية للثورة والتغيير كانت قطب الرحى المتحكّم في كل الحالات والظروف التي مرّت على أئمة أهل البيت،

ابتداء بحروب عليّ (ع) مع الناكثين والقاسطين والمارقين، ومروراً بالصلح مع العدو كما فعل الحسن (ع) وبالكفاح حتى الموت كما فعل الحسين (ع)، وانتهاء بالمواقف السلمية لعدد من الأئمة ومنهم الإمام زين العابدين (ع)، عندما تخلّى أولئك القادة عن الثورات المسلحة على الظالمين والجائرين؛ واختاروا أنماطاً أخرى للثورة بمنأى عن الدم والقتال وقعقعة السلاح وإن تكن خطيرة الآثار والنتائج على المدى البعيد؛ كما سنشير إليه ببيان أوسع في الفصل القادم المعنيّ بتراث الإمامة.

وانطلاقاً من هذه الأسس والمعطيات كان الإمام سلبياً تجاه هذه الثورة، ولعل السبب في هذه السلبية اعتقاده بعدم قدرتها على تحطيم النظام الفاسد أو تغيير الحاكم الجائر، وحتى إذا استطاعت في أحسن الفروض أن تفصل الحجاز عن بقية أجزاء الدولة وأطرافها الأخرى فإن هناك من يتربص منتظراً ذلك وهو عبدالله بن الزبير، فقد كان متسلطاً على مكة مدّعياً خلافة المسلمين، وكان بعض أهل المدينة قد أيّده واتّبعه[1]، واستطاع أخوه المنذر أن يدسّ نفسه بين الثوّار[2]، ليجر النار إلى قرصه وقرص أخيه في خاتمة المطاف. وقد تقدّم منّا الحديث عن ابن الزبير وأوردنا بعض الشواهد على عدم أهليته للخلافة، وعلى أنه لم يكن أميناً على أمور المسلمين وأموالهم؛ ولا متورعاً عن البطش والجور وسفك الدماء بغير الحق، وليست الثورة في نظر الإسلام أن يُزال طاغية من الطغاة ليحل طاغ آخر محله؛ فلا يكون لها من محصّلةٍ إلا تبديل الأسماء والأشخاص مع بقاء الواقع الفاسد على حاله ومنواله.

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٧٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨١.

وعلى الرغم من سلبية الإمام وتجنبه المشاركة في هذه الثورة قيادة أو تأييداً؛ لم يكن ـ بحكم مقامه السامي ومركزه الشامخ ـ بمنأىً عن بعض شؤونها وملابساتها وآلامها ومضاعفاتها، ونورد فيما يأتي خلاصة ما رواه المؤرخون في هذا الخصوص:

١ ـ ذكر الرواة أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد بن معاوية وأعلنوا رفض طاعته وعدم الاعتراف بخلافته قرروا إخراج جميع أفراد بني أمية من بلدتهم المقدسة، فخاف الأمويون من إخراج عوائلهم معهم خشية أن تمتد إليهم يدٌ بسوء، فـ «كلّم مروان بن الحكم ابن عمر أن يغيّب أهله عنده، فأبى ابنُ عمر أن يفعل»، فلم يجد بداً من الالتجاء إلى علي بن الحسين (ع) طالباً منه ذلك، «فقال: أفعل. فبعث بحُرمه إلى علي بن الحسين»، فأخرج الإمام ـ بعد تأزم الوضع واشتداد الحال ـ حرم مروان وحرمه وسائرَ من يعوله ومن التجأ إليه من النساء «حتى وضعهم بينبع»[١]، وكان من جملة الحرم أُمّ أبان ابنة عثمان بن عفان؛ التي رغبت بعد وصولها إلى ينبع أن تذهب إلى الطائف، فوجّهها إلى هناك بصحبة بعض أولاده[٢].

وفي رواية الآبي والزمخشري: أنهن كنَّ أربعمائة بحشمهنَّ يعولهن «إلى أن تقوَّض جيش مسلم، فقالت امرأة منهن: : ما عشتُ والله بين أبويّ مثل ذلك التَّرؤف»[٣].

وإذا كان من الطبيعي المعتاد أن يلوذ الناس بالإمام في ساعات

(١) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٨٥.
(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٩٣ والأغاني: ١/ ٢٥ ـ ٢٦.
(٣) نثر الدر: ١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١ وربيع الأبرار: ١/ ٤٢٧.

المحنة وأن يحتضن الإمام أولئك اللائذين بصدره الرحب الحنون، انسجاماً مع ما عرف به أهل هذا البيت من كونهم الملجأ والملاذ في كل عسر وشدة، فإن التجاء مروان بحرم بني أمية إلى الإمام وموافقة سليل النبوة على ذلك ولم يمرّ عامٌ بعدُ على سبي الأمويين لعقائل الرسالة والإمامة وأخذهم أسارى من كربلاء إلى الكوفة فالشام ـ كما أسلفنا بيانه في فصل سابق ـ هو الأمر المدهش والمثير في هذه القضية.

لم يمنع الحياءُ مروان وهو يعلم ما فعل الأمويون بالعترة النبوية قتلاً ونهباً وسبياً وعدواناً؛ من التقدم إلى سيد هذه العترة ـ وهو العالم البصير بكل تلك الأحداث ـ بطلب رعاية حُرَم بني أمية. ولم يمنع الإمام علمُه بأفاعيل الأمويين وجرائمهم من تلقّي هذا الطلب بالقبول والموافقة، ومن رعاية السيدات الأمويات كما يرعى غيرهن من نساء المسلمين وحرمهم.

وهكذا فلتكن إمامة الدين السماوية وولاية الأمر الشرعية، كما جسّدها علي بن الحسين في سلوكه المترفع فوق التراث والثارات والأحقاد.

وهكذا فليكن الصلف والوقاحة وعدم الخجل، كما مثّلها مروان بن الحكم في هذا الالتجاء الجبان الخسيس.

٢ ـ روى المؤرخون: أن الجيش الأموي لما قدم المدينة وسيطر عليها؛ أباحها القائد مسلم بن عقبة لجيشه ثلاثاً نهباً وسلباً واغتصاباً، «واستعرض أهلها بالسيف جزراً كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت الأقدام في الدم، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبدٌ قنٌّ لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية!! هكذا كانت صورة المبايعة يوم الحرّة. إلاّ

عليّ بن الحسين (ع) فإنه أعظمه وأجلسه معه على سريره... وكان ذلك بوصاة من يزيد بن معاوية له. فهرب علي بن عبدالله بن العباس إلى أخواله من كندة فحموه من مسلم بن عقبة وقالوا: لا يبايع ابنُ أختنا إلاّ على ما بايع عليه ابن عمه علي بن الحسين. فأبى مسلم بن عقبة ذلك وقال: إني لا أفعل ما فعلتُ إلاّ بوصاة أمير المؤمنين، ولولا ذلك لقتلتُه فإن أهل هذا البيت أجدر بالقتل، أو لأخذتُ بيعته على ما أخذتُ عليه بيعة غيره»[1].

٣ - روى المسعودي أن السفاح مسلم بن عقبة قائد الجيش لما استدعى الإمام علي بن الحسين (ع) للحضور عنده «نظر الناس إلى علي بن الحسين السجاد وقد لاذ بالقبر وهو يدعوه فأُتي به إلى مُسْرف، وهو مغتاظ عليه يتبرأ منه ومن آبائه، فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد، وقام له وأقعده إلى جانبه وقال له: سلني حوائجك، فلم يسأله في أحدٍ ممن قُدّم إلى السيف إلاّ شفّعه فيه، ثم انصرف عنه.

«فقيل لعليٍّ: رأيناك تحرّك شفتيك فما الذي قلتَ؟ قال: قلتُ: اللهم ربَّ السموات السبع وما أظللنَ، والأرضين السبع وما أقللن، رب العرش العظيم، رب محمد وآله الطاهرين، أعوذ بك من شرّه، وأدرأ بك في نحره، أسألك أن تؤتيني خيره وتكفيني شرّه.

«وقيل لمسلم: رأيناك تسبّ هذا الغلام وسلفه؛ فلما أُتي به إليك رفعت منزلته؟ فقال: ما كان ذلك لرأي مني، لقد مُلِيء قلبي منه رعباً»[2].

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٥٩.
(٢) مروج الذهب: ٣/ ١٨.

ومن أبرز الأحداث الكبرى التي عاصرها الإمام زين العابدين (ع) في عهد إمامته؛ بعد مجزرة الحرّة وانتهاك حرمة الحرمين الشريفين: ظهور المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة وتسلطه عليها، واستغلاله اسم أهل البيت والثأر لهم من أعدائهم؛ لترسيخ مقامه وتقوية سلطانه.

وكان المختار هذا في أول أمره من جملة أتباع عبد الله بن الزبير في مكة، ولكنه لم يكن يرضى لنفسه بمجرد الصحبة والاتباع وإطاعة الأوامر، بل كان شديد الطموح عنيف الرغبة في التحكُّم والتسلّط، وبدافع من هذا الطموح الجارف قال يوماً لابن الزبير:

«إني لأعرف قوماً لو أن لهم رجلاً له رفق وعلم بما يأتي؛ لاستخرج لك منهم جنداً تغلب بهم أهل الشام.

«فقال: مَنْ هم؟

«قال: شيعة بني هاشم بالكوفة.

«قال: كن أنت ذلك الرجل.

«فبعثه إلى الكوفة، فنزل ناحية منها، وجعل يظهر البكاء على الطالبيين وشيعتهم، ويظهر الحنين والجزع لهم، ويحث على أخذ الثأر لهم والمطالبة بدمائهم. فمالت الشيعة إليه وانضافوا إلى جملته، فسار إلى قصر الإمارة فأخرج الوالي منه، وغلب على الكوفة، وابتنى لنفسه داراً، واتخذ بستاناً أنفق عليه أموالاً عظيمة أخرجها من بيت المال، وفرَّق الأموال على الناس بها تفرقة واسعة».

وكتب إلى ابن الزبير يعلمه بتفاصيل الأحوال، ويخبره أنه إنما أخرج الوالي من الكوفة لعجزه عن القيام بشؤون الولاية، ثم يطلب منه أن يحتسب له ما أنفقه من الأموال من بيت المال.

فلما وصل كتابه إلى ابن الزبير ووقف عليه؛ أبى ذلك وأنكره. فلم يجد المختار مناصاً من خلع طاعة ابن الزبير وجحد بيعته واختيار اسم لامع جذّاب يعلنه على جمهور المسلمين ليستقطب طاعتهم وحبهم وانقيادهم، فكتب كتاباً إلى الإمام علي بن الحسين (ع) «يريده على أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته، وأنفذ إليه مالاً كثيراً، ولكن الإمام كان أكثر ذكاءً وأبعد نظراً وأعمق وعياً من أن يُخْدع بهذه الإغراءات المضوحة والأحابيل الكاذبة الملفقة، فأبى «أن يقبل ذلك منه أو يجيبه على كتابه» بل أعلن إنكار ذلك والطعن على المختار «على رؤوس الملأ في مسجد النبي (ص)، وأظهر كذبه وفجوره ودخوله على الناس بإظهار الميل إلى آل أبي طالب».

«فلما يئس المختار من علي بن الحسين كتب إلى عمه محمد بن الحنفية يريده على مثل ذلك» بزعم أن الإمامة قد انتقلت إليه بعد مقتل أخيه الحسين (ع). فأخبر محمدٌ ابنَ أخيه الإمام زين العابدين بما كتب إليه المختار، «فأشار عليه عليٌّ بن الحسين أن لا يجيبه إلى شيء من ذلك» لأن المختار كاذب في ادعائه، «وأن الذي يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم وتقرُّبه إليهم بمحبتهم، وباطنه مخالف لظاهره... بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم. والواجب عليه أن يشهر أمره ويظهر كذبه»[١].

«واشتد أمر المختار بالكوفة، وكثر رجاله، ومال الناس إليه، وأقبل يدعو الناس على طبقاتهم ومقاديرهم في أنفسهم وعقولهم، فمنهم

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ٢١.

من يخاطبه بإمامة محمد ابن الحنفية، ومنهم من يرفعه عن هذا فيخاطبه بأن المَلَك يأتيه بالوحي ويخبره بالغيب. وتتبَّع قَتَلَةَ الحسين فقتلهم» ومنهم «عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري وهو الذي تولّى حرب الحسين يوم كربلاء» قائداً لجيش الضلال الأموي، «فزاد ميل أهل الكوفة إليه ومحبتهم له»(١).

وفي سنة ٦٥ هـ «تحركت الشيعة بالكوفة، وتلاقوا بالتلاوم والتنادم؛ حين قتل الحسين فلم يغيثوه، ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأً كبيراً بدعاء الحسين إياهم فلم يجيبوه؛ ولقتله إلى جانبهم فلم ينصروه. ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرمَ إلا قَتْلُ مَنْ قتله أو القتل فيه، ففزعوا إلى خمسة نفر منهم» فسلَّموهم زمام الأمر وقيادة الثورة، وهم:

١ ـ سليمان بن صرد الخزاعي.

٢ ـ المسيب بن نجبة الفزاري.

٣ ـ عبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي.

٤ ـ عبدالله بن وال التيمي.

٥ ـ رفاعة بن شدّاد البجلي.

وتجمّع الناس باندفاع وحماس، و«عسكروا بالنخيلة، بعد أن كان لهم مع المختار بن أبي عبيد الثقفي خطب طويل بتثبيطه الناس عنهم ممن أراد الخروج معهم»، لأنه كان يريد الانفراد بشعار المطالبة بدم الحسين والثأر من أعدائه؛ واستغلال ذلك لمآربه الخاصة ومصالحه الذاتية.

وانتقل الثوار من معسكرهم بالنخيلة «إلى قرقيسياء من شاطىء الفرات... وساروا من قرقيسياء ليسبقوا إلى عين الوردة، وقد كان عبيدالله بن زياد توجّه من الشام إلى حربهم في ثلاثين ألفاً... حتى إذا

(١) مروج الذهب: ٣/ ٢٢.

صاروا إلى عين الوردة التقى الأقوام» والتحق بأهل الكوفة هناك عدد من الثوار «من أهل البصرة وأهل المدائن في نحو من خمسمائة فارس؛ عليهم المثنّى بن مخرصة وسعيد بن حذيفة بن اليمان»[١].

ودارت الحرب على رحىً وساق، وقُتل من الطرفين عدد كثير، وكان أكثر القتلى من جانب أهل الكوفة. ثم انتهت بالمكافّة والمتاركة بعد أن أدرك الطرفان أن لا سبيل إلى انتصار أحدهما على الآخر[٢].

وعاد الفريقان إلى بلديهما، وبدأ عبيدالله بن زياد يعدّ العدّة ويجمع الجموع للكرّة مجدداً على أعدائه العراقيين الرافضين لتسلط أمرائه، ثم سار في عساكر الشام «يؤم العراق، فلما انتهى إلى الموصل ـ وذلك في سنة ستٍّ وستين ـ التقى هو وإبراهيم بن الأشتر النخعي ـ وإبراهيم على خيل العراق من قبل المختار ـ بالخازر، فكانت بينهم وقعة عظيمة، قُتل فيها ابن مرجانة عبيدالله بن زياد والحصين بن نمير وشرحبيل بن ذي الكلاع وابن حوشب... وأشراف أهل الشام»[٣].

وبعث إبراهيم بن الأشتر رأسَ عبيد الله بن زياد إلى المختار، فأراد المختار أن يستغل هذه الفرصة للتقرب من أهل البيت، فوجّه «برأس عبيدالله بن زياد إلى علي بن الحسين (ع) إلى المدينة مع رجل من قومه وقال له: قف بباب علي بن الحسين؛ فإذا رأيت أبوابه قد فُتحت ودخل الناس فإذ ذاك الوقت الذي يوضع فيه طعامه فجاء الرسول إلى باب علي بن الحسين (ع) فلما فتحت أبوابه ودخل الناس للطعام نادى بأعلى صوته: يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الملائكة ومنزل الوحي، أنا رسول المختار بن عبيد، معي رأس عبيدالله بن زياد. فلم تبق في

(١) مروج الذهب: ٣/ ٣٧ ـ ٣٩. ويراجع في التفاصيل: تاريخ الطبري: ٥/ ٥٥٢ ـ ٥٦١ و٥٨٣ ـ ٦٠٩.
(٢) مروج الذهب: ٣/ ٤٠.
(٣) مروج الذهب: ٣/ ٤١.

شيء من دور بني هاشم امرأة إلاّ صرخت[١]. ودخل الرسول فأخرج الرأس، فلما رآه علي بن الحسين (ع) قال: أبعده الله إلى النار»[٢].

وفي رواية ابن عبد ربّه الأندلسي:

«ولما قُتِل ابن زياد بعث المختار برأسه إلى علي بن الحسين بالمدينة. قال الرسول: فقدمتُ به عليه انتصاف النهار وهو يتغدّى، قال: فلمّا رآه قال: سبحان الله؛ ما اغترَّ بالدنيا إلاّ مَنْ ليس لله في عنقه نِعمة، لقد أُدخِل رأس أبي عبدالله على ابن زياد وهو يتغدّى»[٣].

«وروى بعضهم: إن علي بن الحسين (ع) لم يُرَ ضاحكاً يوماً قط منذ قُتِل أبوه إلاّ في ذلك اليوم... وامتشطن نساء آل الرسول (ص) واختضبن، وما امتشطت امرأة ولا اختضبت منذ قُتِلَ الحسين بن علي (ع)»[٤].

وكانت غلبة جيش العراق بقيادة ابن الأشتر على جيش الشام مدعاة لزهو المختار وفرحه البالغ، لما في ذلك من زيادة القوة وتدعيم الموقف وتثبيت الأمر، بل أصبح أمير العراق الأوحد بلا ندٍّ ولا منازع.

وضاق عبدالله بن الزبير بالمختار وأخبار غلبته ونصره ـ وهو الذي أرسله إلى العراق ليكون داعية له ووالياً من قبله ـ فلم يجد أفضل من أن يُنْفِذ أخاه مصعب إلى العراق والياً ليعيد المياه إلى مجاريها؛ ويلحق العراق بدائرة سلطانه وملكه.

وتوجّه مصعب إلى العراق فقصد البصرة أولاً، وذلك في سنة سبع وستين، ثم سار من البصرة «فنزل حروراء، والتقى هو والمختار، فكانت

(١) كذا في الأصل المنقول منه، ولعلها «خرجت».
(٢) تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٦.
(٣) العقد الفريد: ٤/ ٤٠٤. والرواية بتفصيل أكثر في طبقات ابن سعد: ٥/ ٧٣.
(٤) تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٦.

بينهم حروب عظيمة» أسفرت عن غلبة مصعب وقَتْل المختار وأصحابه، وكان «جملة مَنْ أدركه الإحصاء ممن قتله مصعب مع المختار سبعة آلاف رجل، كل هؤلاء طالبوا بدم الحسين وقتلوا أعداءه، فقتلهم مصعب وسماهم (الحسينيَّة)، وتتبّع مصعب الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها. وأُتي بحُرَم المختار فدعاهنَّ إلى البراءة منه، ففعلن إلاّ حرمتين له... فعرضهما مصعب على السيف، فرجعت بنت سمرة ولعنَتْه وتبرأتْ منه[1] وقالت: لو دعوتني إلى الكفر مع السيف لكفرتُ!!!»، «وأبت ابنة النعمان بن بشير وقالت: شهادة أُرْزَقُها فأتركها؟ كلاّ، إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته... اللهم أشهدْ أني مُتّبعة لنبيك وابن بنته وأهل بيته وشيعته. ثم قدّمها فقُتِلتْ صبراً»[2][*].

---

(١) ظاهر هذه العبارة يفيد أن ضمير (لعنَتْه) و(تبرأت منه) يعود على المختار، ولكن قولها: (لو دعوتَني إلى الكفر الخ) يدل على أن الضمير يعود على الحسين (ع)، ولذلك أبت ابنة النعمان أن تفعل مثل ذلك وسمّت القتل شهادة كما يأتي في آخر الخبر.

(٢) مروج الذهب: ٣/ ٤٣ ـ ٤٤.

(*) وصف الإمام الخوئي (قدّس سرّه) الروايات المادحة للمختار الثقفي بأنها: «متضافرة»، والروايات الذّامة له بأنها: «ضعيفة الأسناد جداً»، أو أنها مرسلة «غير قابلة للاعتماد عليها»، وأوّلَ بعض الروايات الصحيحة الذامة. وبعد مناقشته (قدّس سرّه) للروايات وأسانيدها، أردف قائلاً: «... وقد ذكرنا أنه مضافاً إلى ضعف اسناد الروايات الذّامة، يمكن حملها على صدورها عن المعصوم تقية، ويكفي في حُسن حال المختار إدخاله السرور في قلوب أهل البيت سلام الله عليهم بقتله قتَلة الحسين عليه السلام، وهذه خدمة عظيمة لأهل البيت عليهم السلام يستحق بها الجزاء من قبلهم أفهل يحتمل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت (ع) يغضون النظر عن ذلك، وهم معدن الكرم والاحسان، وهذا محمد بن الحنفية بين ما هو جالس في نفر من الشيعة وهو يعتب على المختار (في تأخير قتله عمر بن سعد) فما تم كلامه، إلّا والرأسان عنده فخر ساجداً، وبسط كفيه وقال: اللهم لا تنس هذا اليوم للمختار وأجزاه عن أهل بيت نبيّك محمد خير الجزاء، فوالله ما على المختار بعد هذا من عتب». [راجع معجم رجال الحديث ـ ج١٨ ص٩٤ رقم ١٢١٥٦] «الناشر».

ومن الشؤون الجديرة بالبيان والشرح ـ ونحن نستعرض الجانب السياسي من سيرة الإمام علي بن الحسين ـ أن نقف قليلاً عند علاقته بخليفة زمانه عبد الملك بن مروان، لنستجلي ملامح تلك العلاقة في سلبها وإيجابها؛ في ضوء ما انتهى إلينا من أخبار تلك الحقبة وما سمحت به رقابة السلطة يومذاك وعواطف الرواة من أنباء ومعلومات.

ومع أن الإمام قد عاصر عدداً من حكام ذلك العصر من مدّعي الخلافة، منذ يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ومروان بن الحكم وعبدالله بن الزبير؛ حتى عبد الملك وابنه الوليد، فإنه لم تكن بينه وبين هؤلاء من المواقف والمماحكات أكثر مما تقدّم ذكره في صدر هذا الباب؛ سوى ما كان بينه وبين عبد الملك الذي امتدت مدة حكمة من سنة ٦٥ هـ إلى سنة ٨٦ هـ.

ويبدو من روايات المؤرخين أن عبد الملك قد بدأ عهده بإظهار حسن النية وسلامة القصد وصدق الرغبة في إقامة علاقة وطيدة طيبة بالإمام؛ تزيل ما خلّف العهد السفياني من آلام وآثار؛ أو تخفّف من قوة ضغطه وشدة عنفوانه في أقل تقدير.

وروى الشيخ المفيد أن عبد الملك بن مروان لما ولي الخلافة «ردَّ

إلى علي بن الحسين (ع) صدقات رسول الله (ص) وصدقات علي بن أبي طالب (ع)؛ وكانتا مضمومتين»[١].

وروى غيره: إن عبد الملك كان يحبه ويحترمه ويُجِلُّه[٢].

وحدّث الزهري عن شيء من ذلك فقال:

«دخلتُ مع علي بن الحسين على عبد الملك بن مروان، فاستعظم عبد الملك ما رأى من أثر السجود بين عيني علي بن الحسين فقال: يا أبا محمد؛ لقد بيّن عليك الاجتهاد، ولقد سبق لك من الله الحسنى، وأنت بضعة من رسول الله (ص)، قريب النسب، وكيد السبب، وانك لذو فضل عظيم على أهل بيتك وذوي عصرك، ولقد أُوتيت من الفضل والعلم والدين والورع ما لم يُؤتَه أحد مثلك ولا قبلك إلاّ من مضى من سلفك. وأقبل يثني عليه ويطريه».

«فقال علي بن الحسين: كلُّ ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه؛ فأين شكره على ما أنعم؟... كان رسول الله (ص) يقف في الصلاة حتى ترم قدماه؛ ويظمأ في الصيام حتى يعصب فوه. فقيل له: يا رسول الله؛ ألم يغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً».

ثم جاء فيما قال: «والله لو تقطّعت أعضائي وسالت مقلتاي على صدري لن أقوم لله جلَّ جلاله بشكر عشر العشير من نعمة واحدة من جميع نعمه التي يحصيها العادُّون، ولا يبلغ حدَّ نعمة منها جميعُ حمد الحامدين، لا والله؛ أو يراني الله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره؛ في

(١) الإرشاد: ٢٧٦.
(٢) مرآة الجنان: ١/ ١٩٠ وشذرات الذهب: ١/ ١٠٥.

ليل ولا نهار؛ ولا سرٌ ولا علانية. ولولا أن لأهلي عليّ حقاً؛ ولسائر الناس من خاصّهم وعامّهم عليَّ حقوقاً، لا يسعني إلاّ القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أُؤديها إليهم، لرميتُ بطرفي إلى السماء وبقلبي إلى الله؛ ثم لم أرددهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين».

«وبكى (ع)، وبكى عبد الملك وقال: شتان بين عبدٍ طلب الآخرة وسعى لها سعيها، وبين من طلب الدنيا من أين جاءته ماله في الآخرة من خلاق»[1].

هكذا كانت العلاقة في بادىء أمر عبد الملك، وهي تدل على مقدار كبير من الحنكة والحكمة في سلوك الحاكم المرواني الجديد. ولكن خبثاء النفوس من مقرَّبي السلطان لم يكن يروق لهم ذلك، فدأبوا على إثارة سيدهم على الإمام كلما رأوا إلى ذلك سبيلاً، حتى بلغت الحال بالحجاج بن يوسف ـ وهو سفّاح زمانه وارهابيّ عصره ـ أن يكتب إلى عبد الملك كتاباً يقول فيه:

«إن أردتَ أن يثبت ملكك فاقتل علي بن الحسين»[2].

فرفض عبد الملك هذه النصيحة!! أو هذا المقترح، وكتب الخليفة إلى واليه يأمره أن يجنّبه دماء آل أبي طالب، وعلل له ذلك بالاعتبار بما حدث للسفيانيين لما ولغوا في تلك الدماء فزال ملكهم وتشتت أمرهم[3]. وبلغ الإمامَ جوابُ عبد الملك هذا فكتب إليه يشكره على ذلك[4].

(١) بحار الأنوار: ٤٦/ ٥٧.
(٢) بحار الأنوار: ٤٦/ ٢٨ و٤٤.
(٣) مروج الذهب: ٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨ وبحار الأنوار: ٤٦/ ١١٩.
(٤) بحار الأنوار: ٤٦/ ٢٩ و٤٤.

ولما كان السند الذي استند إليه الأمويون ـ ومن قبلهم غيرهم ـ في إضفاء الصفة الشرعية على سلطانهم أنهم من قريش ومن ذوي قربى النبي (ص)، فإن الإمام زين العابدين ـ بدافع من وجوب مطالبة صاحب الحق بحقّه ـ كان ينبّه الناس كلما سنحت الفرصة أنه أقرب الناس إلى النبي (ص) ـ إن كانت القربى وحدها هي المقوم لاستحقاق الخلافة ـ.

وكان من جملة أدلة الإثبات للقرابة والوراثة النبوية: أنه أخرج إلى الناس ذات يوم «درع رسول الله (ص)، فإذا هي يمانية رقيقة ذات زَرَافِينَ؛ إذا عُلّقَت بزرافينها لم تمسّ الأرض؛ وإذا أُرسلتْ مسَّت الأرض»[1].

وأخرج إليهم في يوم من الأيام سيف رسول الله (ص)، وكانت قبيعته من فضة وحلقته التي تكون فيها الحمائل من فضة أيضاً. وكان هذا السيف لمنبّه بن الحجاج السَّهمي أصابه يوم بدر[2].

ولما بلغ عبد الملك خبر سيف سول الله (ص) بعث إلى الإمام مَنْ يستوهبه منه، فأبى الإمام؛ فكتب إليه عبد الملك متوعداً مهدّداً، فلم يأبه الإمام بذلك[3].

ويبدو أن مثيري الفتن وبطانة السوء لم يقر لهم قرار وهم يرون العلاقة بين الإمام والخليفة محفوظة الصورة حسنة المظهر، فكانوا يزرعون الحقد والغضب في نفس ابن مروان بكثرة ما يدسون ويكذبون ويختلقون؛ حتى بلغوا بذلك بعض ما راموا وشيئاً مما أرادوا وخطّطوا له.

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/ ق٢/ ١٧٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ ق٢/ ١٧١.

(٣) بحار الأنوار: ٤٦/ ٩٥.

ولعل خير شاهدٍ على تردّي العلاقة وتوتُّرها ما رواه الزهري فقال:

«شهدتُ عليَّ بن الحسين يوم حمله عبد الملك بن مروان من المدينة إلى الشام، فأثقله حديداً، ووكّل به حُفّاظاً في عُدّةٍ وجَمْع. فاستأذنتهم في التسليم عليه والتوديع له، فأذنوا لي. فدخلتُ عليه وهو في قبة، والأقياد في رجليه والغلُّ في يديه؛ فبكيتُ وقلتُ: وددتُ أني مكانك وأنت سالم...»[١].

وروى الرواة: إن عبد الملك كتب يوماً إلى علي بن الحسين (ع) لما بلغه أنه أعتق جارية له ثم تزوجها؛ وكأنه كان يريد غمزه ولمزه بذلك:

«أما بعد: فقد بلغني تزويجك مولاتك، وقد علمتَ أنه كان في أكفائك من قريش مَنْ تمجّد (تُحْمَد) به في الصهر وتستحبّه (وتستنجبه) في الولد، فلا لنفسك نظرتَ، ولا على ولدك أبقيتَ».

فأجابه الامام (ع):

أما بعد: فقد بلغني كتابك تعنّفني بتزويجي مولاتي، وتزعم أنه قد كان في نساء قريش مَنْ أتمجّد به في الصهر وأستنجبه في الولد. وإنه ليس فوق رسول الله (ص) مرتقى في مجد؛ ولا مستزاد في كرم. وإنما كانت ملك يميني خرجتْ مني بأمر التمستُ ثوابَه، ثم نكحتُها على سنّته. ومَنْ كان زكياً في دين الله فليس يخلّ به شيء من أمره، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة؛ وأتمَّ به النقيصة؛ وأذهب اللؤم، فلا لؤم على امرىء مسلم، إنما اللؤم لؤم الجاهلية».

---

(١) حلية الأولياء: ٣/١٣٥ والمناقب: ٢/٢٣٧ وتذكرة الخواص: ٣٣٤ ومطالب السؤول: ٢/٤٤ وكفاية الطالب: ٢٩٩ ـ ٣٠٠ والصواعق المحرقة: ١١٩ وينابيع المودة: ٣٧٨.

«فلما قرأ عبد الملك الكتاب رمى به إلى ابنه سليمان، فقرأه فقال: يا أمير المؤمنين؛ لشدّ ما فخر عليك عليُّ بن الحسين. فقال: يا بنيَّ؛ لا تقل ذلك، فإنها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر؛ وتغرف من بحر».

وتضيف إحدى الروايات إلى النصّ قولَ الإمام: «وهذا رسول الله تزوّج أَمَتَه وإمرأة عبده». كما تضيف إليه قول عبد الملك: «إن علي بن الحسين يشرف (أو: يرتفع) من حيث يتّضع الناس»[١].

وفي رواية أخرى:

«زوّج علي بن الحسين ابنةً من مولاه، وأعتق جارية له وتزوجها. فكتب إليه عبد الملك بن مروان يُعيِّره بذلك.

«فكتب إليه عليّ: قد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، قد أعتق رسول الله (ص) صفية بنت حُيَيّ وتزوجها، وأعتق زيد بن حارثة وزوّجه ابنة عمّته زينب بنت جحش»[٢].

وهكذا نستظهر من مجموع ما تقدّم أن العلاقة الطيبة لم تدم طويلاً، بل إن سوءها بلغ في بعض الأحيان حدّ جلب الإمام من المدينة إلى الشام مكبلاً مغلولاً في يديه ورجليه.

ولكن ذلك كله لم يُنْسِ عبد الملك أن لا ملجأ في الشدائد إلاّ علي بن الحسين، وأن لا موجّه نحو الصواب غيره. وكلّما ألمّت بالخليفة ملمّة يشكّل أعداءُ الإسلام أحدَ طرفيها لجأ ابنُ مروان إلى الإمام ليجد عنده الحلّ والإنقاذ.

---

(١) نثر الدر: ١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠ والمناقب: ٢ / ٢٦٠ وبحار الأنوار: ٤٦/ ١٦٤ ـ ١٦٥. ومختصر منه في عيون الأخبار: ٤/ ٨ والعقد الفريد: ٦/ ١٢٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٥٩ وتذكرة الخواص: ٢٨٧ والأئمة الإثنا عشر: ٧٨.

ومن أمثلة ذلك ـ وفيه من التحايل والخبث ما فيه ـ ما رواه اليعقوبي قال:

«كتب ملك الروم إلى عبد الملك يتوعّده، فضاق عليه الجواب، وكتب إلى الحجاج ـ وهو إذ ذاك على الحجاز ـ: أن ابعثْ إلى علي بن الحسين فتوَعّدْه وتهدّدْه وأغلظْ له؛ ثم انظر ماذا يجيبك فاكتب به إليَّ. ففعل الحجاج ذلك، فقال له علي بن الحسين (ع): إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة، وأرجو أن يكفينيك في أول لحظة من لحظاته. وكتب بذلك إلى عبد الملك، فكتب به إلى صاحب الروم كتاباً. فلما قرأه قال: ليس هذا من كلامه؛ هذا من كلام عترة نبي»[١].

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما رواه الحافظ ابن كثير الدمشقي قال:

«وقد استقدمه عبد الملك بن مروان مرّة أخرى إلى دمشق؛ فاستشاره في جواب ملك الروم عن بعض ما كَتَب إليه فيه من أمر السكة وطراز القراطيس»[٢].

ولكن ابن كثير لم يوضح هذا الإجمال ولم يبيّن تفصيل الأمر، ونحن نروي بيان ذلك ـ وإن يكن مطوّلاً ـ عن إبراهيم البيهقي الذي رواه تحت عنوان (محاسن المسامرة) ولكنه وهم في تعيين الإمام زين العابدين فجعله ابنه الباقر (ع)[٣]، والصواب أنه الإمام علي بن الحسين الذي عاصر عبد الملك في خلافته كما ذكر الحافظ ابن كثير فيما تقدمت الرواية عنه.

روى البيهقي قال:

(١) تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٤٧.

(٢) البداية والنهاية: ٩/ ١٠٤.

(٣) وقد سقطنا في هذا الوهم ـ تبعاً للبيهقي ـ في كتابنا «الإمامة».

«قال الكسائي: دخلتُ على الرشيد ذات يوم وهو في إيوانه، وبين يديه مال كثير... وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتأمله، وكان كثيراً ما يحدثني فقال: هل علمتَ مَنْ أوّلُ مَنْ سنَّ هذه الكتابة في الذهب والفضة؟ قلتُ يا سيدي؛ هذا عبد الملك بن مروان. قال: فما كان السبب في ذلك؟ قلتُ: لا عِلمَ لي؛ غير أنه أول مَنْ أحدث هذه الكتابة. فقال سأُخبرك. كانت القراطيس للروم، وكان أكثرُ مَنْ بمصر نصراناً على دين الملك ملك الروم، وكانت تُطَرّز بالرومية، وكان طرازها أباً وابناً وروحاً قدساً. لم يزل كذلك صدر الإسلام كله يُمْضى على ما كان عليه، إلى أن ملك عبد الملك فتنبّه عليه، وكان فطناً. فبينا هو ذات يوم إذ مرَّ به قرطاس، فنظر إلى طرازه، فأمر أن يترجم بالعربية، ففُعِل ذلك فأنكره وقال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام أن يكون طراز القراطيس ـ وهي تُحْمَل في الأواني والثياب... وغير ذلك مما يطرّز من ستور وغيرها... وقد طرّزت بشِرْكٍ مثبت عليها. فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان ـ وكان عامله بمصر ـ بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرّز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك؛ وأن يأخذ صنّاع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد و«﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾...

«وكتب إلى عمّال الآفاق جميعاً بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرّزة بطراز الروم...

«فلمّا أُثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد، وحُمِل إلى بلاد الروم منها، انتشر خبرها ووصل إلى ملكهم، فترجم له ذلك الطراز فأنكره... وكتب إلى عبد الملك: إن عمل القراطيس بمصر وسائر ما يُطرَّز هناك للروم، ولم يزل يُطَرَّز بطراز الروم إلى أن أبطلتَه... وقد

بعثتُ إليك بهديّة تشبه محلك، وأحببت أن تجعل رَدَّ ذلك الطراز إلى ما كان عليه... حاجة أشكرك عليها...

«فلما قرأ عبد الملك كتابه ردَّ الرسول وأعلمه أن لا جواب له، ولم يقبل الهدية. فانصرف بها إلى صاحبه، فلما وافاه أضعف الهدية وردّ الرسول إلى عبد الملك» وطلب ردَّ الطراز إلى ما كان عليه أوّلاً.

«فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يجبه، وردَّ الهدية.

«فكتب إليه ملك الروم بما يقتضي أجوبة كتبه ويقول: إنك قد استخففت بجوابي وهديتي؛ ولم تسعفني بحاجتي... وأنا أحلف بالمسيح لتأمرنَّ بردّ الطراز إلى ما كان عليه أوّلاً؛ أو لآمرنَّ بنقش الدنانير في بلادي - ولم تكن الدراهم والدنانير نُقِشتْ في الإسلام - فيُنْقش عليها من شتم نبيك ما إذا قرأته ارفضَّ جبينك له عرقاً، فأحبُّ أن تقبل هديتي؛ وتردّ الطراز إلى ما كان عليه؛ وتجعل ذلك هديةً بررتني بها، وتُبْقي على الحال بيني وبينك.

«فلما قرأ عبد الملك الكتاب غلظ عليه وضاقت به الأرض... إذ كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم. وجمع أهل الإسلام واستشارهم فلم يجد عند أحدٍ منهم رأياً يعمل به، فقال له رَوْح ابن زنباع: إن لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر ولكنك تتعمد تركه، فقال: ويحك؛ مَنْ، قال: الباقر (كذا) من أهل بيت النبي (ص)، قال: صدقتَ؛ ولكنه أُرتج عليَّ الرأي فيه. فكتب إلى عامله بالمدينة: أن أشخص إليّ محمد بن عليّ بن الحسين مكرَّماً... واحتبس الرسول قِبَله إلى موافاته عليه.

«فلما وافى؛ أخبره الخبر. فقال له الباقر: لا يعظمنَّ هذا عليك؛ فإنه ليس بشيء من جهتين: إحداهما أن الله جلَّ وعزَّ لم يكن ليطلق ما

يهدّدك به صاحب الروم في رسول الله (ص)، والأخرى وجود الحيلة فيه.

«قال: وما هي؟

«قال: تدعو في هذه الساعة بصُنّاع يضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير؛ وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذِكْرَ رسول الله (ص): أحدهما في وجه الدراهم والدنانير؛ والآخر في الوجه الثاني: وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يُضْرَب فيه؛ والسنة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير. وتعمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الثلاثة الأصناف التي العشرة منها عشرة مثاقيل؛ وعشرة منها وزن ستة مثاقيل؛ وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل، فتكون أوزانها جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً، فتجزِّئها من الثلاثين، فتصير العدّة من الجميع وزن سبعة مثاقيل، وتُصَبّ سنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان، فتُضْرَبِ الدراهم على وزن عشرة؛ والدنانير على وزن سبعة مثاقيل. . .

«ففعل عبد الملك ذلك. وأمره محمد بن علي بن الحسين. . . أن يتقدّم إلى الناس في التعامل بها. . . ففعل عبد الملك ذلك، وردّ رسول ملك الروم إليه يعلمه ذلك ويقول: إن الله جلَّ وعزَّ مانعُك مما قدَّرتَ أن تفعله. . . وثبت ما أشار به محمد بن علي بن الحسين إلى اليوم»[1].

❀ ❀ ❀

(١) المحاسن والمساوي: ٢/ ٢٣٢ ـ ٢٣٦.

وخلف الوليد بن عبد الملك أباه على عرش الشام في سنة ٨٦ هـ ولم يرو الرواة لنا ما يكشف عن أسباب توتر العلاقة بين الإمام والخليفة، ولكنه توتر منتظر جداً ومنسجم مع طبيعة هذا الحاكم وأسلوبه في الحكم. وقد تقدّم منّا عند استعراضنا للخلفاء الذين عاصرهم الإمام: إن الوليد كان جباراً عنيداً؛ ظلوماً غشوماً؛ لا يتورّع عن المنكر؛ ولا يمتنع عن البطش بخصومه؛ ولا يردعه عن جوره وشرّه أي رادع من خلق أو دين أو سياسة وكياسة.

ومن هنا يمكننا التصديق والقبول بما روى بعض المؤرخين من أن الإمام قد توفي مسموماً، وأن سمّه كان بأمر الوليد بن عبد الملك[١].

وقد توفي سلام الله عليه بالمدينة المنورة، ودُفن في بقيعها المبارك «في القبة التي فيها العباس وعمّه الحسن»[٢].

---

(١) المناقب: ٢٦٩/٢ والفصول المهمة: ١٩٠ ـ ١٩١ والصواعق المحرقة: ١٢٠ وبحار الأنوار: ١٥٣/٤٦ وعمدة الزائر: ٣٠٣.

(٢) نسب قريش: ٥٩ وطبقات ابن سعد: ١٦٣/٥ ومروج الذهب: ٩٩/٣ والإرشاد: ٢٧٠ والمناقب: ٢٦٩/٢ والمعارف: ٢١٥ ووفيات الأعيان: ٤٣١/٢ والبداية والنهاية: ١١٣/٩ وسير أعلام النبلاء: ٤٠٠/٤ والأئمة الإثنا عشر: ٧٨ والصواعق المحرقة: ١٢٠ وينابيع المودة: ٣٧٩.

وروى الرواة أنه «لما حضرته الوفاة أُغمي عليه، ثم فتح عينيه وقرأ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ و﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ وقال: الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّء من الجنة حيث نشاء؛ فنعم أجر العاملين. ثم قبض من ساعته»[١].

ولما وضع جثمانه ليصلى عليه «أقشع الناس اليه واهل المسجد ليشهدوه»[٢].

وكانت وفاته يوم السبت[٣]، وقيل: ليلة الثلاثاء[٤]، لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم[٥]، أو لاثنتي عشرة ليلة منه[٦]، أو ثامن عشر منه[٧]، أو الخامس والعشرين منه[٨]، ووهم من ذكر أن وفاته كانت في ربيع الأول[٩]، لأن معظم المؤرخين متفق على المحرم، بل يكاد يكون إجماعاً عليه، وحتى أولئك الذين لم يحدّدوا اليوم قالوا: إن وفاته كانت في أول السنة[١٠]، مما يلتئم مع المحرم لا ربيع الأول.

واختلف المؤرخون في سنة الوفاة كما اختلفوا في تعيين اليوم،

---

(١) الكافي: ١/ ٤٦٨.
(٢) طبقات ابن سعد: ٥/ ١٦٤.
(٣) المناقب: ٢/ ٢٦٩.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٠٠.
(٥) المناقب: ٢/ ٢٦٩ وبحار الأنوار: ٤٦/ ١٢.
(٦) المناقب: ٢/ ٢٦٩ والفصول المهمة: ١٩٠ وبحار الأنوار: ٤٦/ ١٢ وعمدة الزائر: ٣٠٣.
(٧) مطالب السؤول: ٢/ ٤٩ وبحار الأنوار: ٤٦/ ١٥١.
(٨) بحار الأنوار: ٤٦/ ١٥٣ و١٥٤ وعمدة الزائر: ٣٠٣.
(٩) تذكرة الحفاظ: ١/ ٧٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٠٠.
(١٠) تاريخ الطبري: ٦/ ٤٩١ وتذكرة الخواص: ٣٤١ ـ ٣٤٢ والبداية والنهاية: ٩/ ١١٣.

فرُويت سنة ٩٢[١] و٩٣[٢] و٩٤[٣] و٩٥[٤] و٩٩[٥] و١٠٠[٦]هـ.

والأرجح في تحديد السنة أنها سنة ٩٥ هـ، لأن المسعودي قد بدأ بها ولم يضعّفها بـ «يقال» كما فعل عندما روى سنة ٩٤، ولأنها الرواية الوحيدة التي أوردها عدد من المعنيين بتاريخ الإمام وسيرته؛ كالكليني في الكافي والمفيد في الإرشاد وابن شهر اشوب في المناقب والكنجي الشافعي في كفاية الطالب وابن عنبة الداوودي النسّابة في عمدة الطالب وابن معصوم المدني في شرح الصحيفة، ولأنها مقتضى كون عمر الإمام (٥٨) سنة كما نصَّ عدد من المؤرخين[٧].

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: ١/ ٤٠٤ وطبقات خليفة: ٢/ ٥٩٨ وطبقات الفقهاء: ٣٤ وتذكرة الخواص: ٣٤١ ووفيات الأعيان: ٢/ ٤٣١ والبداية والنهاية: ٩/ ١١٣ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٠٠ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٧.

(٢) البداية والنهاية: ٩/ ١١٣ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٠٠ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٧.

(٣) نسب قريش: ٥٨ وطبقات ابن سعد: ٥/ ١٦٣ والمعارف: ٢١٥ ومروج الذهب: ٣/ ٩٩ وتاريخ الطبري: ٦/ ٤٩١ وتاريخ خليفة: ١/ ٤٠٤ وطبقات خليفة: ٢/ ٥٩٨ وطبقات الفقهاء: ٣٤ وصفة الصفوة: ٢/ ٥٧ وتذكرة الخواص: ٣٤١ ومطالب السؤول: ٢/ ٤٩ ووفيات الأعيان: ٢/ ٤٣١ والفصول المهمة: ١٩٠ والبداية والنهاية: ٩/ ١١٣ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٧٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠ ومرآة الجنان: ١/ ١٨٩ والنجوم الزاهرة: ١/ ٢٢٩ والأئمة الإثنا عشر: ٧٨ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٧ وشذرات الذهب: ١/ ١٠٤.

(٤) مروج الذهب: ٣/ ٩٩ والكافي: ١/ ٤٦٦ و٤٦٨ والإرشاد: ٢٧٠ والمناقب: ٢/ ٢٦٩ وتذكرة الخواص: ٣٤١ وكفاية الطالب ومطالب السؤول: ٢/ ٤٩ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٠٠ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٧ وعمدة الطالب: ١٨٢ وشرح الصحيفة: ٣١ وينابيع المودة: ٣٧٩.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٤٥ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٧. وعن المدائني في طبقات الفقهاء: ٣٤، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: «وأغرب المدائني في قوله: إنه توفي في سنة ٩٩».

(٦) تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٤٥ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٧.

(٧) نسب قريش: ٥٨ وتاريخ اليعقوبي: ٣/ ٤٥ وطبقات ابن سعد: ٥/ ١٦٣ ـ ١٦٤ =

ويؤيد ما اخترناه ما ذكره بعضهم من أن علي بن الحسين (ع) قد عاش بعد أبيه أو كانت إمامته أربعاً وثلاثين سنة[١]؛ أي أنه حاصل جمع ٦١ و٣٤، ولا ينافي ذلك ما نصَّ الكليني عليه من أنه «عاش بعد الحسين خمساً وثلاثين سنة»[٢]، لأن شهادة الحسين كانت في اليوم العاشر من سنة ٦١ هـ؛ فعدّها الكليني من السني التي عاشها الإمام بعد أبيه.

وهكذا اختتِمت أيامُ زين العابدين في هذه الدنيا الدنيّة، فذهب إلى ربه ليحيا مخلّداً في أعلى علّيين، مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين؛ وحسن أولئك رفيقاً. وبقي أعداؤه الأدنياء الأرذلون لعنة التاريخ وخزي الدنيا وسوءة الدهر، ولَعَذاب الآخرة أشدّ وأبقى؛ ونكال الله أسوأ وأخزى.

وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

= وصفة الصفوة: ٢/ ٥٧ وتذكرة الخواص: ٣٤٢ والبداية والنهاية: ٩/ ١١٣ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٠٠ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٧. ولا ينافي ذلك تحديد بعضهم لعمره بـ (٥٧) سنة، لأنه حاصل جمع سنة الولادة ٣٨ + ٥٧ = ٩٥.

(١) الإرشاد: ٢٧٠ والمناقب: ٢/ ٢٦٩.

(٢) الكافي: ١/ ٤٦٨.

تراث الإمامة

«غادر الإمام هذه الدنيا بجسده المحكوم بالموت ـ وتلك سنّة الله في خلقه ـ ولكنه بقي حياً خالداً في الأرض بما أبقى للبشرية من بعده من علم وفقه وسيرة ومنهج وسلوك وتوجيه».

«إنه تراث الإمامة وهَدْيَها العظيم، بكل ما تحمل الإمامة من معان ودلالات، وبكل ما ينفتح عليه تراثها من ميادين وآفاق».

❀ ❀ ❀

غادر الإمام علي بن الحسين (ع) هذه الدنيا بجسده المحكوم بالموت ـ وتلك سُنّة الله في خلقه ـ ليعيش في رضوان الملكوت الأعلى سعيداً منعّماً بعيداً عن غصص الحياة وآلامها وأحزانها، لا يطاله جور سلطان غادر؛ ولا يمسه ظلم عدو غاشم.

ولكنه بقي ـ على رغم هذا الموت الجسدي ـ حياً خالداً على هذه الأرض بأوسع ما نعرف من معاني الحياة والخلود؛ بما أبقى من بعده للبشرية جيلاً إثر جيل وعصراً تلو عصر؛ من علم غزير وفقهٍ متسع الجوانب وتراثٍ زاخر بالرشاد والحكمة والخُلُق العظيم، وبما حفظ التاريخ من دروس سيرته المباركة الغراء ومفردات أيامه المشعة بالهدى والنور والعطاء الذي ليست له حدود.

إنه تراث الإمامة وهَدْيها الخالد، بكل ما تحمل الإمامة من معانٍ ودلالات، وبكل ماينفتح عليه تراثها من ميادين وآفاق.

ولما كان البحث في هذا الكتاب معنياً بتسجيل لمحات من سيرة الإمام وبالعرض التاريخي المقتضب لها، ولم يكن منصبّاً على جمع كل ماأُثر عن الإمام من أحاديث ونصوص وآراء في شتى جوانب المعرفة ومجالاتها، كان لا مناص لنا إذ نستعرض ذلك باختصار من الاكتفاء بالإشارة إليه دون الدخول في تفاصيله، لأننا إذا أردنا تسجيل جميع ما رُوي عنه ـ مما هو منثور في المئات بل الآلاف من كتب السلف ومصادر التراث ـ لاحتجنا إلى مجلدات ومجلدات.

علوم القرآن والشريعة

إن المأثور عن الإمام زين العابدين (ع) في الفقه؛ وفي التفسير؛ وفي التاريخ؛ وفي الاحتجاج الديني ـ المسمى لدى الأقدمين: علم الكلام ـ، وفي غير ذلك من الموضوعات ذات الفائدة العامة؛ كثير وكثير جداً. وإن المعنيين بهذه العلوم والواقفين على حقائقها ومنابعها يعلمون ذلك حق العلم، وقد اعترفوا بشموخه وعطائه في كل هذه المجالات.

ولقد تقدم منّا في الفصل السابق بيان ماأجمع عليه الزهري ومالك ويحيى بن سعيد وزيد بن أسلم وأبو حازم الأعرج وسعيد بن المسيب وجماعة من مشاهير السلف ـ ومعظمهم لم يكن من شيعته ـ من أنهم لم يروا أفقه منه، وتصريح أبي جعفر المنصور العباسي بأنه «الأفضل»، وأقوال غير هؤلاء أيضاً بمثله؛ مما لا حاجة إلى إعادته وتكراره.

ويكفينا مَثَلاً لذلك ـ ونحن نروم الاختصار ـ أن نقرأ ما رواه الحافظ أبو نعيم بسنده عن سفيان بن عيينة عن الزهري قال:

«دخلنا على علي بن الحسين بن علي، فقال: يا زهري؛ فيم كنتم؟ قلتُ: تذاكرنا الصوم؛ فأجمع رأيي ورأي أصحابي على أنه ليس من الصوم شيء واجب إلاّ شهر رمضان. فقال يا زهري؛ ليس كما قلتم».

ثم أخذ في بيان تفاصيل ذلك فقال:

«صوم النذر واجب.

«وصوم الاعتكاف واجب[١]...

«وصيام شهرين متتابعين ـ يعني في قتل الخطأ لمن لم يجد العتق ـ قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا﴾ الآية.

«وصيام ثلاثة أيام في كفارة اليمين لمن لم يجد الإطعام، قال الله عزَّ وجل: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

«وصيام حلق الرأس، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ الآية، صاحبه بالخيار إن شاء صام ثلاثاً.

«وصوم دم المتعة لمن لم يجد الهدي، قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ الآية.

«وصوم جزاء الصيد، قال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ الآية...»[٢].

❀ ❀ ❀

وحسبنا في تصور هذه الحقيقة ثم إدراكها وتصديقها بما لا يقبل الشك أو التردد أن نعلم أن الرواة عن الإمام من طلاب العلم والباحثين من جمهور المسلمين على اختلاف منازعهم ومذاهبهم قد بلغوا المئات، الأمر الذي يدل بقناعة ويقين على أنه كان المنهل الرويّ والغدير العذب الذي يجد فيه الظامئون ما يحقق رغبتهم في الاطلاع على مسائل الدين وعلوم القرآن وأسرار الشريعة وأبواب المعرفة في مجمل منطلقاتها الإنسانية الواسعة.

---

(١) أي اليوم الثالث منه.

(٢) حلية الأولياء: ٣/ ١٤١ ـ ١٤٢.

وإذا كنّا لم نستطع إحصاء جميع أولئك الرواة واستقصاءهم على نحوٍ شامل؛ ـ لأن المؤرخين قد أجملوا ذلك فقالوا بعد إيراد أسماء بعض منهم: «وخَلْقٌ سواهم»[١] أو «وآخرون»[٢] ـ فإن ما أمكن الوقوف عليه غير قليل، بل هو كافٍ كلّ الكفاية في إثبات ما قلناه في تفرد الإمام في العلم في عصره.

ونورد فيما يأتي جريدة بأسماء مَنْ بلغنا خبرُ روايته عن الإمام؛ مرتبة على الحروف الهجائية:

١ ـ أبان بن تغلب بن رباح، المتوفى سنة ١٤١ هـ.

٢ ـ أبان بن أبي عياش فيروز؛ البصري.

٣ ـ إبراهيم بن أبي حفصة، مولى بني عِجْل.

٤ ـ إبراهيم بن بشير؛ الأنصاري؛ المدني.

٥ ـ إبراهيم بن عبدالله بن معبد بن العباس بن عبد المطلب، المتوفى سنة ١٠١ هـ.

٦ ـ إبراهيم بن محمد بن (الحنفية) علي بن أبي طالب.

٧ ـ إبراهيم بن يزيد؛ النخعي؛ الكوفي؛ المتوفى سنة ٩٦ هـ.

٨ ـ أحمد بن حمويه.

٩ ـ إسحاق بن عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

١٠ ـ إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة؛ المدني، المتوفى سنة ١٣٢ هـ.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٨٧.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/ ٧٥ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٥.

١١ ـ إسحاق بن يسار؛ المدني؛ والد محمد بن إسحاق صاحب السيرة.

١٢ ـ إسماعيل بن أمية.

١٣ ـ اسماعيل بن [الحكم من ولد أبي][1] رافع؛ المدني.

١٤ ـ اسماعيل بن عبد الخالق بن عبد ربِّه.

١٥ ـ اسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة؛ السدّي؛ القرشي؛ المتوفى سنة ١٢٧ هـ أو ١٢٩ هـ.

١٦ ـ اسماعيل بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب.

١٧ ـ أفلح بن حميد؛ الرواسي؛ الكلابي؛ الكوفي.

١٨ ـ أيوب بن عايذ؛ الطائي؛ البختري؛ الكوفي.

١٩ ـ بُرْد الإسكاف؛ الأزدي، الكوفي.

٢٠ ـ بشر بن غالب؛ الأسدي؛ الكوفي.

٢١ ـ بكر بن أوس، أبو المنهال؛ الطائي؛ النصري.

٢٢ ـ بكر بن حبيب؛ أبو مريم؛ الأحمسي؛ البجلي؛ الكوفي.

٢٣ ـ بكير بن عبدالله بن الأشجّ، المتوفى سنة ١٢٢ هـ.

٢٤ ـ ثابت بن دينار؛ أبو حمزة؛ الثمالي؛ المتوفى سنة ١٥٠.

٢٥ ـ ثابت بن أسلم؛ البناني؛ القرشي، المتوفى سنة ١٢٣ هـ.

٢٦ ـ ثابت بن عبدالله بن الزبير بن العوام.

٢٧ ـ ثابت بن هرمز؛ أبو المقدام؛ مولى بني عجل.

(١) زيادة من مجمع الرجال: ١/ ٢١٠ ـ ٢١١.

٢٨ ـ ثوير بن أبي فاختة سعيد؛ مولى أُم هانيء.

٢٩ ـ ثوير بن يزيد؛ الشامي.

٣٠ ـ جابر بن عبدالله الأنصاري، المتوفى سنة ٧٨ هـ.

٣١ ـ جابر بن محمد بن أبي بكر.

٣٢ ـ جعفر بن إبراهيم؛ الجعفري، الهاشمي.

٣٣ ـ جعفر بن اياس؛ أبو بشر؛ البصري؛ المتوفى سنة ١٢٥ أو ١٢٦ هـ.

٣٤ ـ جعفر بن محمد بن علي بن الحسين؛ الإمام الصادق (ع)، المتوفى سنة ١٤٨ هـ.

٣٥ ـ جعيد، الهمداني الكوفي.

٣٦ ـ جهم؛ الهلالي؛ الكوفي.

٣٧ ـ الحارث بن الجارود؛ التيمي.

٣٨ ـ الحارث بن الفضيل؛ المدني.

٣٩ ـ حبيب بن أبي ثابت؛ أبو يحيى الأسدي؛ الكوفي، المتوفى سنة ١١٩ هـ.

٤٠ ـ حبيب بن حسان بن أبي الأشرس؛ الأسدي.

٤١ ـ حبيب بن المعلّى؛ السجستاني.

٤٢ ـ حذيم بن شريك؛ الأسدي.

٤٣ ـ الحرث بن كعب؛ الأزدي؛ الكوفي.

٤٤ ـ حريم بن سفيان؛ الأسدي؛ الكوفي.

٤٥ ـ حسان العامري.

٤٦ ـ الحسن بن الروّاح؛ البصري.

٤٧ ـ الحسن بن علي بن أبي رافع.

٤٨ ـ الحسن بن عمارة؛ الكوفي، المتوفى سنة ١٥٣ هـ.

٤٩ ـ الحسن بن محمد بن (الحنفية) علي بن أبي طالب، المتوفى سنة ٩٥ أو ١٠١ هـ.

٥٠ ـ الحسين بن عبدالله بن ضمرة (ضميرة)، السلمي.

٥١ ـ الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المتوفى سنة ١٥٧ هـ.

٥٢ ـ حصين بن عمرو؛ الهَمْداني؛ المشعاري؛ الكوفي.

٥٣ ـ حطان بن خفاف؛ أبو جويرية؛ الجرمي.

٥٤ ـ حفص بن سوقة؛ الجريري؛ الكوفي.

٥٥ ـ حفص بن عمرو؛ الأنصاري؛ الكوفي.

٥٦ ـ الحكم بن عتيبة؛ الكندي؛ الكوفي، المتوفى سنة ١١٤هـ أو ١١٥ هـ.

٥٧ ـ حكيم بن جبير بن مطعم بن عدي؛ القرشي.

٥٨ ـ حكيم بن حكيم بن عبّاد بن حنيف؛ الأنصاري.

٥٩ ـ حكيم بن صهيب؛ أبو سدير؛ الصيرفي؛ الكوفي.

٦٠ ـ حميد بن مسلم؛ الكوفي.

٦١ ـ حميد بن نافع؛ الهَمْداني.

٦٢ ـ خشرم بن يسار؛ المدني.
٦٣ ـ داوود بن مافنه؛ أبو سليمان؛ الصِّرْمي.
٦٤ ـ رباح (رياح) بن عبيدة؛ الهَمْداني.
٦٥ ـ ربيعة بن عثمان؛ التيمي؛ المدني.
٦٦ ـ ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ، المتوفى سنة ١٣٦ هـ.
٦٧ ـ رزين بن عبيد؛ الشلولي؛ الكوفي.
٦٨ ـ رشيد الهجري.
٦٩ ـ زياد بن سوقة؛ أبو الحسين؛ الجريري؛ البجلي؛ الكوفي.
٧٠ ـ زيد بن أسلم؛ العدوي، المتوفى سنة ١٣٦ هـ.
٧١ ـ زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ أبو الحسن.
٧٢ ـ زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الشهيد سنة ١٢١ هـ.
٧٣ ـ زيد العمّي؛ البصري.
٧٤ ـ سالم بن أبي الجعد؛ الأشجعي؛ الكوفي، المتوفى سنة ٩٩ هـ أو ١٠٠ أو ١٠١.
٧٥ ـ سالم بن أبي حفصة؛ العجلي؛ الكوفي، المتوفى سنة ١٣٧ هـ.
٧٦ ـ سالم مولى عمرو (عمر) بن عبدالله.
٧٧ ـ سدير بن حكيم بن صهيب؛ أبو الفضل؛ الصيرفي؛ الكوفي.
٧٨ ـ السريّ بن عبدالله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب.
٧٩ ـ سعد بن أبي سعيد؛ المقبري، المتوفى سنة ١٢٥ هـ.
٨٠ ـ سعد بن سعيد بن قيس بن عمرو بن سهل؛ الأنصاري.
٨١ ـ سعد بن ظريف؛ الحنظلي؛ الاسكاف؛ الكوفي، ويقال له: سعد الخفَّاف.

٨٢ ـ سعيد؛ أبو خالد؛ الصيقل.

٨٣ ـ سعيد بن جبير؛ أبو محمد؛ الوالي؛ الكوفي، نزيل مكة، الشهيد سنة ٩٥ هـ.

٨٤ ـ سعيد بن جهان الكناني؛ مولى أُمّ هانىء.

٨٥ ـ سعيد بن الحرث؛ المدني.

٨٦ ـ سعيد بن حكيم.

٨٧ ـ سعيد بن عثمان.

٨٨ ـ سعيد بن مرجانة؛ المدني، المتوفى سنة ٩٧ هـ.

٨٩ ـ سعيد بن المرزبان؛ أبو سعيد؛ الكوفي.

٩٠ ـ سعيد بن المسيّب، المتوفى سنة ٩٤ هـ.

٩١ ـ سلام بن المستنير؛ الجعفي؛ الكوفي.

٩٢ ـ سلمان بن أبي المغيرة؛ العبسي.

٩٢ ـ سلمة بن ثبيط بن شريط بن أنس؛ أبو فراس؛ الأشجعي؛ الهمداني، الكوفي.

٩٤ ـ سلمة بن دينار؛ أبو حازم؛ الأعرج، المتوفى سنة ١٤٠ هـ.

٩٥ ـ أبو سلمة بن عبد الرحمن(١).

٩٦ ـ سلمة بن كهيل؛ أبو يحيى؛ الحضرمي؛ الكوفي، المتوفى سنة ١٢١ هـ.

---

(١) كذا في الأصل المنقول منه، ولعله: أبو سليمان داود بن عبد الرحمن، الراوي عن الإمام الصادق (ع)، كما في مجمع الرجال: ٢ / ٢٨٥.

٩٧ ـ سليم بن قيس؛ الهلالي؛ العامري؛ الكوفي.

٩٨ ـ سليمان بن سليمان؛ أبو عبدالله؛ العبسي؛ الكوفي.

٩٩ ـ سماك بن حرب، أبو المغيرة؛ الذهلي، المتوفى سنة ١٢٣ هـ.

١٠٠ ـ شرحبيل بن سعد؛ الأنصاري؛ المدني، المتوفى سنة ١٢٣ هـ.

١٠١ ـ شُعَيْب؛ مولى الإمام علي بن الحسين (ع).

١٠٢ ـ شيبة بن نعامة؛ الضبّي البصري.

١٠٣ ـ صالح بن أبي حسان؛ المدني.

١٠٤ ـ صالح بن خوّات بن جبير؛ الأنصاري؛ المدني.

١٠٥ ـ صالح بن صالح بن خوّات بن جبير (ابن المتقدم).

١٠٦ ـ صالح بن كيسان؛ المدني، المتوفى سنة ١٣٩ هـ.

١٠٧ ـ صفوان بن سليم؛ الزهري؛ المدني، المتوفى سنة ١٣٢ هـ.

١٠٨ ـ صهيب؛ أبو حكيم؛ الصيرفي؛ الكوفي.

١٠٩ ـ الضحاك بن عبدالله؛ المشرقي.

١١٠ ـ الضحاك بن مزاحم؛ الكوفي.

١١١ ـ طارق بن عبد الرحمن؛ الأخمشي؛ البجلي؛ الكوفي.

١١٢ ـ طاووس بن كيسان؛ أبو عبد الرحمن؛ اليماني، المتوفى سنة ١٠٦ هـ.

١١٣ ـ طلحة بن عمرو؛ المدني.

١١٤ ـ طلحة بن النضر؛ المدني.

١١٥ ـ ظالم بن عمرو؛ أبو الأسود؛ الدؤلي، المتوفى سنة ٦٩ هـ.

١١٦ ـ عاصم بن عبيدالله.

١١٧ ـ عاصم بن عمر بن قتادة؛ الأنصاري؛ المتوفى سنة ١٢٠ هـ.

١١٨ ـ عامر بن السمط؛ أبو يحيى.

١١٩ ـ عامر بن واثلة؛ أبو الطفيل؛ الكناني، المتوفى سنة ١٠٠ هـ.

١٢٠ ـ عايذ الأخمسي.

١٢١ ـ عبد الرحمن؛ القصير.

١٢٢ ـ عبد الغفار بن القاسم؛ أبو مريم، الأنصاري.

١٢٣ ـ عبدالله بن أبي بكر [بن محمد](١) بن عمرو بن حزم؛ الأنصاري، المتوفى سنة ١٢٠ هـ أو ١٣٥ هـ.

١٢٤ ـ عبدالله بن أبي الجعد، الأشجعي؛ النخعي.

١٢٥ ـ عبدالله بن أبي مليكة؛ المخزومي؛ المكي.

١٢٦ ـ عبدالله البرقي؛ اليشكري.

١٢٧ ـ عبدالله بن جعفر؛ المدني(٢).

١٢٨ ـ عبدالله بن دينار؛ المدني، المتوفى، سنة ١٢٧ هـ.

١٢٩ ـ عبدالله بن ذكوان؛ أبو الزناد، المتوفى سنة ١٣١ هـ.

١٣٠ ـ عبدالله بن زبيد؛ الهاشمي.

١٣١ ـ عبدالله بن سعيد بن أبي هند؛ المدني.

١٣٢ ـ عبدالله بن سليمان؛ العبسي؛ الكوفي؛ المعروف بالصيرفي.

---

(١) زيادة من شذرات الذهب.

(٢) لعله: المخرمي المتوفى سنة ١٧٠ هـ كما في شذرات الذهب.

١٣٣ ـ عبدالله بن شبرمة؛ أبو شبرمة؛ الضبي؛ الكوفي، المتوفى سنة ١٤٤ هـ.

١٣٤ ـ عبدالله بن عبد الرحمن؛ المدني.

١٣٥ ـ عبدالله بن عبيدة؛ الزهري.

١٣٦ ـ عبدالله بن عطاء بن أبي رباح؛ الكوفي.

١٣٧ ـ عبدالله بن عطاء؛ الهاشمي؛ المكي.

١٣٨ ـ عبدالله بن عقيل بن أبي طالب.

١٣٩ ـ عبدالله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

١٤٠ ـ عبدالله بن محمد الجعفي.

١٤١ ـ عبدالله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب.

١٤٢ ـ عبدالله المستورد؛ المدني.

١٤٣ ـ عبدالله بن مسلم بن هرمز[١].

١٤٤ ـ عبد المؤمن بن القاسم؛ الأنصاري؛ المتوفى سنة ١٤٧ هـ.

١٤٥ ـ عبد الملك بن عطاء بن أبي رباح؛ الكوفي.

١٤٦ ـ عبيدالله بن أبي الوشيم؛ الكوفي.

١٤٧ ـ عبيدالله بن عبد الرحمن بن موهب؛ المدني.

١٤٨ ـ عبيدالله بن علي بن أبي رافع.

١٤٩ ـ عبيدالله بن مسلم؛ العمري؛ الكوفي.

---

(١) هو عبدالله بن هرمز الملكي في مجمع الرجال: ٤/ ٦١.

١٥٠ ـ عبيدالله بن المغيرة؛ العبسي؛ الكوفي[1].

١٥١ ـ علي بن ثابت.

١٥٢ ـ علي بن رافع.

١٥٣ ـ علي بن زيد بن جدعان؛ التيمي؛ البصري، المتوفى سنة ١٢٩ هـ أو ١٣١.

١٥٤ ـ عقبة بن بشير.

١٥٥ ـ عمارة الأنصاري.

١٥٦ ـ عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

١٥٧ ـ عمر بن قتادة بن النعمان.

١٥٨ ـ عمران بن ميثم؛ التمّار.

١٥٩ ـ عمرو بن دينار؛ أبو محمد؛ اليمني، المتوفى سنة ١٢٦ هـ.

١٦٠ ـ عيسى بن علي.

١٦١ ـ فرات بن الأحنف؛ العبدي.

١٦٢ ـ الفرزدق بن غالب؛ أبو فراس؛ الشاعر، المتوفى سنة ١١٠ هـ.

١٦٣ ـ فليح بن أبي بكر؛ الشيباني.

١٦٤ ـ القاسم بن عبد الرحمن؛ أبو القاسم.

١٦٥ ـ القاسم بن عوف؛ الشيباني.

١٦٦ ـ القاسم بن محمد بن أبي بكر، المتوفى سنة ١٠١ هـ أو ١٠٧ هـ أو غير ذلك.

---

(١) هو من الرواة عن الإمام الباقر (ع) في مجمع الرجال: ٤/١٢٦.

١٦٧ القعقاع بن حكيم.

١٦٨ ـ قيس بن رمانة؛ الأشعري[١].

١٦٩ ـ كنكر؛ أبو خالد؛ الكابلي.

١٧٠ ـ كيسان بن كليب؛ أبو صادق.

١٧١ ـ مالك بن عطية.

١٧٢ ـ محمد بن جبير بن مطعم.

١٧٣ ـ محمد بن سوقة؛ الجريري؛ الكوفي.

١٧٤ ـ محمد بن شهاب؛ الزهري.

١٧٥ ـ محمد بن عبد الرحمن بن نوفل، أبو الأسود، يتيم عروة.

١٧٦ ـ محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب؛ الإمام الباقر (ع)، المتوفى سنة ١١٤ هـ.

١٧٧ ـ محمد بن الفرات؛ التميمي.

١٧٨ ـ محمد بن قيس؛ الأنصاري.

١٧٩ ـ محمد بن مسلم؛ أبو الزبير؛ المكي، المتوفى سنة ١٢٨ هـ.

١٨٠ ـ مسلم بن عليّ بن البَطين، المتوفى سنة ١١٠ هـ.

١٨١ ـ معروف بن خربوذ؛ المكي.

١٨٢ ـ منذر الثوري.

١٨٣ ـ المنهال بن عمرو؛ الأسدي.

---

(١) عُدَّ في مجمع الرجال: ٥/ ٦٣ من الرواة عن الإمام الباقر (ع).

١٨٤ ـ ميمون البان.

١٨٥ ـ ميمون القداح.

١٨٦ ـ هشام بن عروة بن الزبير، المتوفى سنة ١٤٦ هـ.

١٨٧ ـ يحيى بن أُمّ الطويل؛ المطعمي.

١٨٨ ـ يحيى بن سعيد؛ الأنصاري؛ المدني، المتوفى سنة ١٤٣ هـ[*].

(*) رجعنا في إعداد هذه الجريدة إلى: كتاب الرجال للشيخ الطوسي: ٨١ ـ ١٠٢ والمناقب: ٢/ ٢٧٠ وتذكرة الحفاظ: ١/ ٧٥ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٨٧ وتهذيب التهذيب: ٧/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ومجمع الرجال بأجزائه الستة.
ورجعنا في وفيات الرواة إلى الكتب المتقدمة نفسها وإلى الجزء الأول من شذرات الذهب.

رسالة الحقوق

ومن تراث الإمام والإمامة الذي حفظته الأيام وتداولته الأجيال وخلَّدته القرون؛ رسالته في (الحقوق).

ويكفي هذه الرسالة فخراً وشأناً إنها أول مؤلّف عرفته البشرية، على أرض الشرق الأوسط الحافلة بالشرائع السماوية والقوانين الوضعية ـ إن لم يكن على صعيد هذا الكوكب كله ـ في موضوع «الحقوق» الإنسانية؛ في إطارها العام الذي يشمل ما يسمى اليوم: الحقوق والواجبات، لأن الواجبات التي يُلْزَم بها الإنسان إنما هي حقوق عليه لغيره من أفراد أو مجتمعات أو جهات عامة.

ومع أن الإمام لم يشرّع في هذه الرسالة شيئاً ـ لأن المشرّع الحقيقي هو الله تعالى ـ فإنه قد أجاد عرض أحكام الإسلام وقراراته في هذه المسائل؛ وجسَّد ما استخلصه من روح التشريع ولباب الدين وجوهره في هذا الشأن، ونظّم كل ذلك في أبواب وعناوين توضح للمسلم الملتزم جميع ما له وما عليه، وتجلو أمام عينيه كلّ حق من تلك الحقوق مشروحاً مبيّناً واضح المعالم والتفاصيل.

إن الصرح الشاهق الذي شيده الإسلام لحقوق الإنسان وضمان الكرامة الإنسانية يقوم على ركيزة أساسية تؤكد تساوي أفراد البشر كلهم في الأصل والنوع؛ أي التساوي المطلق في الخَلْق والوجود والنشأة

الأولى، بلا مراعاة أو التفات إلى العنصر أو الطبقة أو تفاوت الجذور أو اختلاف السلالات. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

إن هذه المساواة التامة بين أفراد البشر في أصل التكوين؛ وهذا التكريم الإلهي للأصل الإنساني المشترك؛ يعدُّ ـ كما أسلفنا ـ المنطلق الرئيس الذي تتفرّع عنه وتتشعّب كل الشؤون الأخرى المرتبطة بالحقوق. ولكن هذا التساوي الكامل الذي قرره القرآن الكريم على نحوٍ جازمٍ وصارمٍ ومؤكّدٍ لن يعني أكثر من المساواة المطلقة في أصل الخلق، ولن يتناقض ذلك بأي وجه من الوجوه مع ما سيكون للأفراد من تفاضل بينهم وتمييز؛ بسبب الصفات والمؤهلات؛ وبفعل القابليات الذاتية والتصرفات العملية التي تطبع كل فرد من الناس بطابعها الخاص المحدّد.

إن هناك تفاضلاً في العلم؛ وتفاضلاً في الجهاد القائم على الدفاع عن الأوطان والمثل العليا؛ وتفاضلاً في انفاق المال على الصالح العام؛ وتفاضلاً في الأخلاق والأدب والسلوك المنضبط في السرِّ والعلن. وكل هذه الضروب من التفاضل طبيعي جداً؛ بل لا تنتظم الحياة ولا تستقيم مسيرتها بدونها. قال تعالى:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومهما يكن من أمر، فإن مسألة عدم التفاضل بالأصل والعنصر والخَلْق بين بني الإنسان كافة؛ إحدى بديهيات الشريعة وضرورات الدين، وتكوّن ـ في المصطلح المعاصر ـ المادة الأولى من مجموع موادّ حقوق الإنسان في الإسلام.

ثم يلي ذلك ما يمكن أن نعدّه المادة الثانية في تسلسل تلك المواد، وهي الأحكام المعنيّة بالحفاظ على الحقوق الأساسية لكل فردٍ فرد، من الناس في أي مكان كانوا وأي زمان، وفي طليعة ذلك:

الحفاظ على النفس بدناً وعقلاً.

الحفاظ على الدين والمعتقد.

الحفاظ على النسل.

الحفاظ على المال.

وكان الضمان الأكبر لحماية كل الحقوق الأساسية ـ العامة والفردية ـ في الإسلام تأكيد الله تعالى على أن دولة الإسلام دولة القانون؛ تلتزم بأحكامه؛ وتنضبط بما منع وأباح؛ وتنفيذ ذلك حرفياً بكل صدقٍ وصرامة وعدل.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

ثم زاد الإسلام هذا الضمان دعماً وثباتاً واستقراراً حينما أكّد أن هذا القانون ليس من صنع البشر ووضعهم، ولذلك لم يكن باستطاعتهم تعديله أو تبديله متى شاؤا؛ ومتى فرضت الدوافع السياسية أو الاقتصادية أو الطبقية أو الفردية التسلطية ذلك؛ أو متى تحكمت نزوات الأهواء وشهوات النفوس. لأن هذا القانون الإلهي موضوع طبقاً للمصالح الحقيقية للمجتمعات والأفراد، وليس خاضعاً للإرادة الإنسانية الطارئة التي قد تتوجه نحو الضار بالمصلحة في المدى البعيد؛ وإن حققت منفعة عجلى في وقتها الخاص.

❀ ❀ ❀

هكذا انطلق الإمام علي بن الحسين (ع) في إيراد تفاصيل «الحقوق» في رسالته، مستنداً فيها إلى تلك الأسس الإسلامية الثابتة والقواعد الأصيلة.

وامتازت مفردات هذه الحقوق التي أملاها الإمام؛ بالشمول والسعة وبعد النظر والغوص في أعماق المشكلات الإنسانية التي تتضارب فيها رغبات الناس وميولهم ومنافعهم الذاتية؛ وفي جميع الاتجاهات والمجالات التي عرفتها البشرية في تاريخها المديد.

ولسنا هنا بصدد المقارنة بين هذه الحقوق وموازينها الإسلامية الدقيقة وبين ما تضمنته وثيقة حقوق الإنسان العالمية الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في سنة ١٩٤٨ م والإعلان الخاص بحقوق الطفل الذي أصدرته الجمعية العامة أيضاً في سنة ١٩٥٩ م

والإعلان الخاص بحقوق المرأة الذي أصدرته الأمم المتحدة أيضاً في سنة ١٩٦٧ م، لأن ذلك خارج عن موضوع بحثنا هذا وإطاره المحدّد، ولأن هذه الاصدارات العالمية لم تتضمن إلزاماً حقيقياً صارماً بتطبيقها في جميع أرجاء الأرض، فكانت أكثر التصاقاً بعالم الفرضيات الهلامية أو النظريات المتخيّلة، مضافاً إلى ما في تلك الاتفاقيات الدولية من إجمال وعموميات لم تُبيَّن تفاصيلها؛ ومن نقاط أو سلبيات لا يمكن قبولها على علاّتها بلا اصلاح وتشذيب وتعديل.

لقد قسَّم الإمامُ «الحقوق» الإنسانية إلى خمسين حقاً، بالتفصيل الآتي:

١ ـ حق الله.

٢ ـ حق النفس:

أ ـ حق اللسان.
ب ـ حق السمع.
ج ـ حق البصر.
د ـ حق اليد.
هـ ـ حق الرِّجل.
و ـ حق البطن.
ز ـ حق الفرج.

٣ ـ حقوق الأفعال:

أ ـ حق الصلاة.
ب ـ حق الحج.
ج ـ حق الصوم.

د ـ حق الصدقة.

هـ ـ حق الهَدْي.

٤ ـ حقوق الأئمة:

أ ـ حق السلطان.

ب ـ حق المعلم.

ج ـ حق المالك.

٥ ـ حقوق الرعية:

أ ـ الرعية بالسلطان.

ب ـ الرعية بالعلم.

ج ـ الرعية بملك النكاح.

د ـ الرعية بملك اليمين.

٦ ـ حق الرحم:

أ ـ حق الأُم.

ب ـ حق الأب.

ج ـ حق الولد.

د ـ حق الأخ.

٧ ـ حق الناس:

أ ـ حق المنعِم بالولاء.

ب ـ حق العبد.

ج ـ حق ذي المعروف.

د ـ حق المؤذن.

هـ ـ حق الإمام.

و ـ حق الجليس.

ز ـ حق الجار.

ح ـ حق الصاحب.

ط ـ حق الشريك.

ي ـ حق المال.

ك ـ حق الغريم.

ل ـ حق الخليط.

٨ ـ حق الخصم:

أ ـ المُدَّعي.

ب ـ المُدّعى عليه.

٩ ـ حق المشاورة والنصيحة:

أ ـ حق المستشير.

ب ـ حق المشير.

ج ـ حق المستنصِح.

١٠ ـ حق السنّ:

أ ـ حق الكبير.

ب ـ حق الصغير.

١١ ــ حق السائل والمسؤول:

أ ـ حق السائل.

ب ـ حق المسؤول.

ج ـ حق مَن سرَّك.

د ـ حق القضاء.

١٢ ــ حق بقية الناس:

أ ـ حق أهل الملّة.

ب ـ حق أهل الذمة.

هذه هي «الحقوق» الخمسون التي تناولها الإمام بالبيان والشرح في رسالته المذكورة، وقد قدّم لها (ع) بقوله بعد البسملة:

«اعلم رحمك الله أن لله عزَّ وجلّ عليك حقوقاً محيطة بك في كل حركةٍ تحرَّكْتها؛ أو سكنةٍ سكنتَها؛ أو منزلةٍ نزلتها؛ أو جارحةٍ قلَّبتها؛ أو آلةٍ تصرّفت بها، بعضُها أكبرُ من بعض.

وأكبرُ حقوق الله عليك ما أوْجَبَه لنفسه تبارك وتعالى من حقِّه الذي هو أصل الحقوق ومنه تتفرَّع.

ثم ما أوجبه عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك، فجعل لبصرك عليك حقاً، ولسمعك عليك حقاً، وللسانك عليك حقاً، وليدك عليك حقاً، ولرجلك عليك حقاً، ولبطنك عليك حقاً، ولفرجك عليك حقاً. فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال.

ثم جعل عزَّ وجلَّ لأفعالك عليك حقوقاً: فجعل لصلاتك عليك

حقاً، ولصومك عليك حقاً، ولصدقتك عليك حقاً، ولهَدْيك عليك حقاً، ولأفعالك عليك حقاً.

ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك، وأوْجَبُها عليك حقُّ أئمتك؛ ثم حقوق رعيَّتك؛ ثم حقوق رحمك. فهذه حقوق يتشعّب منها حقوق:

فحقوق أئمتك ثلاثة: أوجَبُها عليك حق رعيتك بالسلطان؛ ثم حقُّ سائسك بالعلم؛ ثم حق سائسك بالملك. وكلُّ سائسٍ إمام.

وحقوق رعيتك ثلاثة: أوْجَبُها عليك حق رعيتك بالسلطان؛ ثم حق رعيتك بالعلم ـ فإن الجاهل رعية العالم ـ وحق رعيتك بالملك من الأزواج وما ملكت الأيمان.

وحقوق رحمك كثيرة؛ متصلة بقدر اتصال الرحم في القرابة: فأوْجَبُها عليك حقُّ أُمّك؛ ثم حقُّ أبيك؛ ثم حق ولدك؛ ثم حق أخيك، ثم الأقرب فالأقرب والأوْلى فالأولى.

ثم حق مولاك المنعم عليك، ثم حق مولاك الجارية نعمتك عليه، ثم حق ذي المعروف لديك، ثم حق مؤذّنك بالصلاة، ثم حق إمامك في صلاتك، ثم حق جليسك، ثم حق جارك، ثم حق صاحبك، ثم حق شريكك، ثم حق مالك، ثم حق غريمك الذي تطالبه، ثم حق غريمك الذي يطالبك، ثم حق خليطك، ثم حق خصمك المدَّعي عليك، ثم حق خصمك الذي تدَّعي عليه، ثم حق مستشيرك، ثم حق المشير عليك، ثم حق مستنصحك، ثم حق الناصح لك، ثم حق مَنْ هو أكبر منك، ثم حق مَنْ هو أصغر منك، ثم حق سائلك، ثم حق مَنْ سألته، ثم حق مَنْ جرى لك على يديه مساءة بقولٍ أو فعلٍ، أو مسرة بقولٍ أو فعل؛ عن تعمد منه أو غير تعمد، ثم حق أهل ملتك عامة، ثم حق أهل الذمة.

ثم الحقوق الجارية بقدر علل الأحوال وتصرُّف الأسباب.

فطوبى لمن أعانه الله على قضاء ما أوجب عليه من حقوقه؛ ووفَّقه وسدّده».

⊛ ⊛ ⊛

أما راوي الرسالة عن الإمام فهو المحدِّث الثقة المعتمد ثابت ابن أبي صفيَّة دينار؛ الأزدي؛ الثمالي؛ الكوفي؛ المشهور بكنيته أبي حمزة الثمالي، المتوفى سنة ١٥٠ هـ وكان من طلائع المؤلفين في تفسير القرآن وفي الزهد والنوادر[١].

وروى ابو العباس النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ هذه الرسالة عن أبي حمزة بالسند الآتي:

عن أحمد بن علي بن العباس بن نوح السيرافي نزيل البصرة، عن الحسن بن حمزة بن عليّ بن عبدالله العلوي الطبري، عن علي بن ابراهيم القمي، عن أبيه إبراهيم بن هاشم القمي، عن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة، عن الإمام علي بن الحسين (ع)[٢].

ولدينا اليوم نصّان لرسالة الحقوق يعودان إلى القرن الرابع

(١) يراجع في ترجمة أبي حمزة وأسماء مؤلفاته: فهرست ابن النديم: ٣٦ ورجال النجاشي: ٨٣ ـ ٨٤ وفهرست الطوسي: ٤١ ـ ٤٢ وأنساب السمعاني: ٣/ ١٤٧ والوافي بالوفيات: ١٠/ ٤٦١ وتهذيب التهذيب: ٢/ ٧ ـ ٨ وهدية العارفين: ١/ ٢٤٦ والكنى والألقاب: ٢/ ١١٨ والأعلام للزركلي: ٢/ ٨١ ومعجم المؤلفين لكحالة: ٣/ ١٠٠.

وورد ذكر رسالة الحقوق (في مؤلفاته ومروياته) في رجال النجاشي وهدية العارفين وذيل كشف الظنون: ١/ ٥٦٢ والذريعة: ٧/ ٤٢ ومعجم المؤلفين.

(٢) رجال النجاشي: ٨٤.

الهجري: أحدهما برواية ابن بابويه الصدوق بسنده عن الثمالي؛ وقد أورده كاملاً في كتابه «الخصال»، وثانيهما برواية أبي محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني؛ وقد أورده بتمامه أيضاً في كتابه: «تحف العقول».

وقد روى الشيخ المجلسي المتوفى سنة ١١١١ هـ كلا النصَّيْن بألفاظهما لما بينهما من اختلاف في مواضع كثيرة[١].

كذلك أورد الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر نصَّ الرسالة بكامله في كتابه المعنيّ بحياة الإمام علي بن الحسين (ع)[٢].

وقد طبعت رسالة الحقوق مستقلة أكثر من مرة.

وسوف نوردها ـ لإتمام الفائدة ـ في الملحق الأول لهذا الكتاب.

(١) بحار الأنوار: ٧٤/٢ ـ ٩ و١٠ ـ ٢١.
(٢) زين العابدين: ١١٠ ـ ١٣٤.

صحيفة الدعاء

عُني المسلمون ـ منذ العصر الإسلامي الأول ـ عناية فائقة بشؤون الأدعية والأذكار، رواية لها، وتأليفاً فيها، وجمعاً للمأثور منها، والتزاماً بقراءتها ـ ابتهالاً إلى الله تعالى وطلباً لمرضاته ـ عقب الصلوات المفروضة؛ وفي الليالي والأيام الشريفة المباركة التي ورد النصُّ على فضلها ورفعة شأنها بين ليالي السنة وأيامها المعتادة.

وكان السبب في هذا الاهتمام الكبير بالدعاء عند المسلمين عامة، وعند رجال الحديث منهم خاصة؛ هو الاستجابة الصادقة والتلبية المخلصة للنداء القرآني بذلك والحثّ الإلهي عليه، وقد وردت الدعوة إليه مكررة في عدة آيات من الكتاب الحكيم، قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤].

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وانطلاقاً من هذه الدعوة القرآنية المقدسة؛ وسعياً نحو تطبيقها وتحقيق أهدافها بتعليم المسلمين كيفية الدعاء وتربيتهم على حبّه وإدامة فِعْلِه، أُثِرتْ عن النبي (ص) وأئمة أهل البيت (ع) ولفيفٍ من الصالحين والأبرار؛ أدعيةٌ كثيرة وابتهالات جمّة؛ جُرّدت لجمعها المجلدات الكبيرة والمصنّفات الضخمة، ورواها الخلف عن السلف جيلاً إثر جيل وعصراً بعد عصر، حتى أصبح هذا الموضوع ميداناً محدداً من ميادين الاختصاص المشهود لها عندهم، بل ربما عدَّه بعضهم عِلْماً خاصاً بين العلوم، وفي ذلك يقول حاجي خليفة راوياً عن طاشكبري زاده:

«علم الأدعية والأوراد: وهو علم يبحث فيه عن الأدعية المأثورة والأوراد المشهورة، بتصحيحهما وضبطهما؛ وتصحيح روايتهما؛ وبيان خواصّهما؛ وعدد تكرارهما؛ وأوقات قراءتهما؛ وشرائطهما. ومباديه مُبيّنة في العلوم الشرعية. والغرض منه معرفة تلك الأدعية والأوراد على الوجه المذكور، لينال باستعمالهما إلى الفوائد الدينية والدنيوية»[١].

❀ ❀ ❀

ولمّا كانت الأدعية المأثورة عن النبي (ص) والأئمة (ع) وأولياء الله الأصفياء في مرتبة عليا من فصاحة اللفظ وبلاغة التعبير؛ وفي درجةٍ متقدمة من جودة السبك وبراعة البيان، بل هي ـ فيما صحَّ سندُه منها وثبتت نسبته ـ من النثر المنتقى حقاً في مفرداته ومعانيه؛ وصوره ومبانيه،

(١) كشف الظنون: ١/ ٤٩ و٢٠٠، ومثله في أبجد العلوم: ٢/ق١/ ٦٤.

كان من المتوقع والطبيعي جداً أن يُعْنى بها ـ فيمن يُعْنى من حملة العلم ـ علماءُ الأدب والبلاغة؛ وعشاقُ الكلام الفصيح والنثر المليح، كما عُني بها علماء الدين والأخلاق؛ ورجال الزهد والعرفان والحبِّ الإلهي.

ولذلك لم يكن غريباً أن يلفت هذا اللون من النثر أديباً نيقداً كأبي عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ؛ فينوّه به ويشير إليه، بل كان ـ فيما أظن ـ أول مَنْ تحدّث عنه وعدّه ضرباً من ضروب النثر المستحسن المستجاد، وعقد فصلاً خاصاً به صدّره بقوله:

«قال الله تبارك وتعالى لنبيه (ص): ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾، وقال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، وقال: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾».

ثم قال الجاحظ:

«ونحن ذاكرون على اسم الله وعونه صدراً من دعاء الصالحين والسلف المتقدمين؛ ومن دعاء الأعراب ـ فقد أجمعوا على استحسان ذلك واستجادته ـ وبعض دعاء الملهوفين والنسّاك المتبتّلين»[(١)].

ثم أورد مجموعة غير قليلة من المختارات والمنتخبات من تلك الأدعية[(٢)].

وإذا كنّا قد سجلنا هذه الريادة للجاحظ في الحديث عن أدب الدعاء، فإننا نسجّل في الوقت نفسه عَجَبَنا من إهمال الباحثين المعاصرين من دارسي النصوص الأدبية هذا الكنز الثمين من كنوز النثر

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٦٧.
(٢) البيان والتبيين: ٣/ ١٦٧ ـ ١٧٧.

العربي البليغ، فلم نجد للدعاء ذكراً في الكتب المعاصرة التي جرّدها مؤلفوها للبحث في النثر الفني العربي ونصوصه الجيدة المأثورة، ابتداء بتاريخ آداب العرب للرافعي؛ وانتهاء بكتاب الفن ومذاهبه في النثر العربي للدكتور شوقي ضيف.

❀ ❀ ❀

وكان لتلك البواعث الدينية العميقة الجذور والقوية التغلغل في نفوس المسلمين؛ أثر فعّال ونشيط في الاهتمام برواية الدعاء وتداوله وتعلُّمه وضبطه، فبذل السلف الصالح ـ على مرِّ القرون ـ جهداً كبيراً في هذه السبيل، فجمعوا نصوص الأدعية المرويّة وأودعوها في مؤلفات متخصِّصة؛ كان بعضها شاملاً لم يقتصر على زمن معيّن أو مكان محدّد؛ وكان البعض الآخر خاصاً بزمانٍ أو مكانٍ ما من الأزمنة والأمكنة، كما كان لبعضها اسم خاص عُرِفَ به الكتاب؛ وكان بعضها مجرّداً من اسمٍ يمتاز به.

وقد سرد ابن النديم ـ فيما ضمَّ فهرسته ـ أسماء كتب كثيرة في هذا الموضوع، مثل «كتاب الدعاء» و«كتاب الدعوات» و«كتاب الدعاء والتحاميد» و«كتاب دعاء النبي (ص) و«كتاب أنواع الاستعاذات من سائر الآفات والعاهات»[(١)].

وأورد غيره من المعنيين بذكر أسماء الكتب مؤلفات باسم: «الأدعية» و«الأدعية والأحراز» و«الأدعية والأذكار» و«الأدعية المأثورة» و«أوراد القرآن» و«الأوراد والأذكار» و«أدعية أيام الأسبوع» و«أعمال الأسبوع» و«أعمال الجمعة» و«أعمال مكة» و«أعمال المدينة» و«أعمال

(١) الفهرست: ٤١ و١١٤ و١٤٨ و١٥٢ و٢٣٧ و٢٤٥ و٢٧٢ و٢٧٧ و٢٨٢ و٢٩٥.

الأشهر الثلاثة» أي رجب وشعبان وشهر رمضان و«أعمال السنة».

ومؤلفات أخرى باسم «كتاب الدعاء» و«كتاب الدعوات» و«رسالة في الأدعية» و«رسالة في الدعوات المأثورة» و«رسالة في أدعية الأسابيع» و«رسالة في أدعية الوباء».

ومؤلفات أخرى في شروح بعض الأدعية مثل: «شرح دعاء كميل» و«شرح دعاء أبي حمزة» و«شرح دعاء الجوشن» وغير ذلك[١].

وكتب أخرى سماها مؤلفوها بأسماء خاصة مثل «مصباح المتهجد» و«جمال الأسبوع» و«زاد المعاد»؛ وهي أكثر من الكثير.

❀ ❀ ❀

وبرزت في طليعة تلك الكتب الدُّعائية والمؤلفات المعنية بذلك: مجموعة أدعية الإمام علي بن الحسين (ع) المعروفة باسم «الصحيفة السجّادية» أو «الصحيفة الكاملة»؛ التي تعدُّ عند بعض الباحثين المتقدمين من أوائل المصنفات في تاريخ الإسلام[٢].

(١) يُراجع في الوقوف على تفاصيل أخرى تتعلق بهذه الكتب ومؤلفيها:
كشف الظنون: ١/ ٤٩ ـ ٥٠ و٢٠٠ ـ ٢٠١ و٧٥٥ ـ ٧٥٦.
٢/ ١٣٨٧ و١٤١٧ ـ ١٤١٨.
الذريعة: ١/ ٣٨٩ ـ ٤٠١.
٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٨ و٤٧٤ ـ ٤٧٥.
٨/ ١٧٤ ـ ١٨١ و١٨١ ـ ١٩٥ و١٩٩ ـ ٢٠٦.
١١/ ٤٧ و١٨٤.
١٣/ ٢٤٦ ـ ٢٦١.
إيضاح المكنون: ١/ ٥٢ و٥٣ و٤٧٢.
٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.
(٢) معالم العلماء: ١.

وعلى الرغم من أن المأثور عن النبي (ص)والأئمة (ع) من الأدعية والابتهالات لم يكن نزراً ولا قليل التداول كما يعلم المطّلعون؛ فقد اشتهرت من بينها أدعية الإمام زين العابدين (ع) شهرة كبيرة جداً، وحظيت باهتمام خاص من جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، حتى أصبحت مَعْلماً بارزاً من معالم سيرته وتاريخه عند كثيرٍ من مُترجِميه من قدامى ومعاصرين.

وكان لهذا التوجُّه السجّاديّ الخاص نحو الدعاء من الدوافع والدواعي والأسباب ما لا يخفى على الباحث الفاحص المتعمق في أوضاع الحكم القائم يومذاك؛ وفي الحالة الاجتماعية السائدة في تلك الحقبة من الزمن.

وإنها هي هي نفسها الدواعي والأسباب التي حملت الإمام على إملاء «رسالة الحقوق» لتعريف كل فرد من أفراد المجتمع ـ حاكماً ومحكوماً ـ بما له وما عليه من حقوق وواجبات.

وهكذا كانت رسالة الحقوق مكملة لصحيفة الدعاء، والصحيفة مكملة لرسالة الحقوق.

وكان الهدف المنشود من كل ذلك هو الاصلاح العام وإعادة بناء المجتمع المسلم من جديد؛ بعد أن هزَّت أركانه وضعضعت بنيانه عواصفُ حبّ الدنيا ونزغات النفوس الأمّارة بالسوء.

ولم يكن بدٌّ ـ لغرض بلوغ هذا الهدف وتحقيقه ـ من الالتزام باستثمار كل الوسائل المتاحة والأساليب المؤثرة في أعماق النفس الإنسانية؛ لإحراز قناعتها وإيمانها بضرورة التغيير والعودة إلى تحكيم شرع الله في كل شيء؛ والكف عن محارم الله بسلطان من العقل والضمير؛ بعد أن انحرف سلطان الحكم وأدار ظهره لأوامر الله ونواهيه.

ويضم الهيكل الشامل لهذه العملية الإصلاحية جانبين رئيسيين وأساسيين يتكاملان فيما بينهما ويتلاحمان؛ ويسيران جنباً إلى جنب لضمان الوصول إلى الغاية المأمولة:

جانباً تعليمياً: تقوم به المعرفة التفصيلية الواعية بما يجب أن يكون عليه كل واحدٍ من أبناء المجتمع؛ سلوكاً وأدباً، وخلقاً والتزاماً؛ وتصرفاً وانتظاماً، تجاه كل إنسان آخر، أياً ما كان مقامه في العلوّ والدنوّ، ومهما كانت رابطته في القرب والبعد، وكيفما كان الموقف من في الحبّ والخصومة، ليُعطى لكل ذي حقّ حقه، وليعامل كلٌّ منهم بما يستأهله ويستحقّه.

وقد تكفّلت «رسالة الحقوق» القيام بهذا الجانب أفضل قيامٍ وأوفاه.

وجانباً تربوياً: ينهض بمسؤوليته الدعاءُ والابتهال إلى الله والتضرُّع له؛ بما يستدعي ذلك من اعترافٍ بالذنوب؛ واستحضارٍ في النفس لما سبق ارتكابه منها وتوبةٍ من تكرار فعلها؛ وطلبٍ لغفران ما سلف؛ ورجاءٍ للنجاة من عذاب الآخرة؛ وأملٍ بالفوز بالنعيم الدائم السرمدي.

وقد نهضت «صحيفة» الدعاء بمهمة تنفيذ هذا الجانب على أدق وجهٍ وأجوده.

❀ ❀ ❀

لقد شاهد الإمام (ع) انصراف أهل عصره عن الآخرة؛ وتكالبهم المشين على الدنيا وزينتها؛ بغير قيدٍ يمنع أو رادعٍ يردع، بل صار حبُّ المال والجاه والعلوّ في الأرض غاية سامية من غايات الناس الأساسية؛ وهدفاً أعلى بين الأهداف التي يسعون إليها ويستبيحون كل محرّم في سبيل تحقيقها.

ورأى الإمام (ع) أيضاً ما أصبح عليه همّ الناس وهمتهم من إرضاء السلطان والتزلُّف إليه وإن لم يكن ملتزماً بشريعة الله ولا منفذاً لحدوده وأحكامه، بل لم يجدوا مانعاً من تقديسه وإطاعته في ضلاله وباطله وظلمه وجوره، ما دام في ذلك ضمان مصالحهم وتحقيق منافعهم الذاتية.

وكان لا بدَّ لوليّ الأمر الشرعيّ ـ وهو المسؤول عن المجتمع في حدود المقدور والممكن له ـ من تبصير هؤلاء الضُّلال التائهين بفساد ما يفعلون وسوء ما ينزلقون إليه؛ وتذكيرهم بحساب الله تعالى وموقف الآخرة التي لا يغادر كتابُها صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها. بل كان لا بدَّ له أيضاً من إدامة هذا التبصير والتذكير فيما ينبغي أن يقرأ من الدعاء في كل صباح ومساء؛ وما تُسْتَحْسن تلاوته في كل مناسبة دينية مثيرة للاهتمام على مدى الأيام والشهور، بأمل لفت انتباه أولئك الذين يزعمون أنهم مسلمون؛ إلى ما هم فيه وما صاروا إليه من خلافٍ لأحكام الله وخروج على نصوص الدين وإهمال لتطبيق شرع الله.

ثم كان في فساد نظام الحكم والحاكمين ـ وقد أسلفنا ذكر صور مختصرة منه في فصل سابق من هذا الكتاب ـ ما يستدعي إعلان الثورة عليه، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر؛ وتعرية للواقع المنقلب على عقبيه؛ وإيقاظاً لمشاعر الرأي العام في مسيرته المنحدرة نحو مستنقعات الدنس والتلوث؛ وإذكاءً لجذوة إيمانه التي تكاد تطفئها رياح المتسلطين المنحرفين.

وقد عبَّر الامام (ع) في أدعيته الكريمة عن ذلك كله بأبلغ العبارات والكلمات، وأدّى هذه الرسالة الخطيرة أفضل أداء، فكانت تلك الأدعية «صورة عالية من صور المقاومة السلبية التي عرفناها في زماننا وقالوا إنها

اخترِعتْ في عصرنا، ولكنها كانت في أُمتنا العربية من قديم، ثم تعلّمها الناس»[١].

وهكذا أصبح الدعاء الأول مرة في تاريخ الإسلام ـ وعلى لسان الإمام علي بن الحسين ـ أحد الأسلحة الفعّالة التي تشهرها المعارضة في حقل إعلامها السياسي ضدَّ الحكم الظالم الغاشم والحكّام الطغاة الجائرين.

ولما كان مجال البحث هنا محدود المدى ولا يتّسع للاطناب في شرح هذا الموضوع؛ وفي عرض تلك الأدعية بنصوصها التفصيلية؛ وفي بيان ما تضمَّنته من مقاصد وأهداف وأبعاد، فإننا نجتزىء بشواهد وأمثلة من ذلك، لغرض لفت الأنظار إلى هذه الحقيقة الكبرى التي قد تكون مجهولة في النظرة السريعة العجلى؛ ولتأشير الخطوط العريضة لرسالة الإمام في دعائه؛ تنبيهاً وإعلاماً؛ وثقافة وتوجيهاً؛ وحماسة واندفاعاً.

لقد سأل الإمام ربَّه في تلك الأدعية أن يكفيه «حدَّ نوائب الزمان؛ وشرَّ مصائد الشيطان؛ ومرارة صولة السلطان»[٢]، واستعاذ به من «أن يستحوذ علينا الشيطان؛ أو ينكبنا الزمان؛ أو يتهضَّمنا السلطان»[٣]، كما استعاذ به أيضاً «من شرِّ كل سلطان عنيد، ومن شر كل مترفٍ حفيد»[٤]، و«من همزات الشياطين» و«من جور السلاطين»[٥]، واحترز به «من كل جبّار فاجر، وسلطان جائر، وعدوٍّ قاهر»[٦]، ورجا ربّه أن يبدله «من

(١) زين العابدين (لسيد الأهل): ٥ ـ ٦.
(٢) الصحيفة السجادية: الدعاء ذو الرقم (٥).
(٣) الصحيفة السجادية: الدعاء ذو الرقم (٨).
(٤) الصحيفة السجادية: الدعاء ذو الرقم (٢٣).
(٥) الصحيفة السجادية: (دعاء يوم الأحد).
(٦) الصحيفة السجادية: (دعاء يوم الثلاثاء).

مرارة خوف الظالمين حلاوة الأمَنَة»[١]، وأن يوفِّقه لأن يسالم مَنْ عاداه «حاشا مَنْ عُوْدِيَ فيك ولك، فإنه العدو الذي لا نواليه، والحزب الذي لا نصافيه»[٢].

وخاطب الإمام في أحد أدعيته ربَّه جلّ وعلا قائلاً: «اللهم إنك أيَّدت دينك في كل أوانٍ بإمامٍ أقمته علماً لعبادك، ومناراً في بلادك، بعد أن وصلتَ حبلَه بحبلك، وجعلتَه الذريعة إلى رضوانك»، ثم أخذ يدعو لهذا الإمام الموصول الحبل بالله تعالى فقال: «اللهم... وأقم به كتابك وحدودك وشرائعك وسنن رسولك... وأَحْيِ به ما أماته الظالمون من معالم دينك، واجْلُ به صَدأ الجور عن طريقتك... وأزِلْ به الناكبين عن صراطك، وامحق به بُغاةَ قصدِك عوجا»[٣].

وفي دعاء من تلك الأدعية ذكر الإمام ابتزاز الظَّلَمة الخلافة الشرعية من أصحابها المنتجبين فقال: «اللهم إنَّ هذا المقام لخلفائك وأصفيائك... في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها، قد ابتزُّوها... حتى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزين، يرون حكمك مبدّلاً؛ وكتابك منبوذاً؛ وفرائضك محرّفة... وسنن نبيِّك متروكة»[٤].

وفي دعاء آخر قال الإمام محذّراً ـ على سبيل الإشارة والرمز ـ من أن يكون المسلم ناصراً لغير الله ومتولياً غير أوليائه ومنخرطاً في جمعٍ غير جَمْعه: «اللهم اجعلني من جندك فإن جندك هم الغالبون، واجعلني

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء ذو الرقم (٢٠).
(٢) الصحيفة السجادية: الدعاء ذو الرقم (٤٤).
(٣) الصحيفة السجادية: الدعاء ذو الرقم (٤٧).
(٤) الصحيفة السجادية: الدعاء ذو الرقم (٤٨).

من حزبك فإن حزبك هم المفلحون، واجعلني من أوليائك فإن أوليائك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[١].

إلى غير ذلك من الأمثلة التي يمتد بنا الحديث إذا ما أردنا إيرادها وشرح مضامينها واستكشاف رموزها، فيخرج بنا عمّا نحن بصدده من التلخيص والايجاز. ومَنْ شاء المزيد فعليه بمراجعة تلك الأدعية والتمتع برياضها الفكرية الدانية القطوف وأجوائها الروحية المضمَّخة بالطيوب.

❁ ❁ ❁

ولقيتْ أدعية الإمام من إقبال ذوي المعرفة والإيمان ما كانت أهلاً له وجديرة به، وصارت موضع الاهتمام والتداول والرواية المسندة، ثم تصدى بعض أهل البيت لجمع تلك الأدعية كلها في كتاب واحد أُطلق عليه اسم «الصحيفة السجادية» أو «صحيفة الإمام زين العابدين»، ويسمى «الصحيفة الكاملة» أيضاً. وقد عدّها بعض الأعلام المتقدمين ـ كما مرَّ ـ من أوائل المصنفات في تاريخ الإسلام[٢].

ويقول الشيخ آقابزرك الطهراني متحدّثاً عن ذلك:

«الصحيفة السجادية الأولى المنتهي سندها إلى الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)... ويقال لها الصحيفة الكاملة أيضاً. وللأصحاب اهتمام بروايتها، ويخصُّونها بالذكر في إجازاتهم... وهي من المتواترات عند الأصحاب لاختصاصها بالإجازة والرواية في كل طبقة وعصر. ينتهي سند روايتها إلى الإمام أبي جعفر الباقر (ع) وزيد الشهيد ابني علي بن الحسين عن أبيهما»[٣].

---

(١) الصحيفة السجادية: دعاء يوم الثلاثاء.
(٢) معالم العلماء: ص ١.
(٣) الذريعة: ١٥/١٨.

ونورد فيما يأتي نصّ سند روايتها كما جاء في أوّلها:

«حدّثنا السيد الأجل نجم الدين بهاء الشرف أبو الحسن محمد بن الحسن بن أحمد بن علي بن محمد بن عمر بن يحيى العلوي الحسيني[(١)] قال:

أخبرنا الشيخ السعيد أبو عبدالله محمد بن أحمد بن شهريار[(٢)] - الخازن لخزانة مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) - في شهر ربيع الأول من سنة ستّ عشرة وخمسمائة قراءةً عليه وأنا أسمع؛ قال:

سمعتها على الشيخ الصدوق أبي منصور محمد بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز العكبري المعدّل[(٣)].

عن أبي المفضّل محمد بن عبدالله بن المطلب الشيباني[(٤)] قال:

حدّثنا الشريف أبو عبدالله جعفر[(٥)] بن محمد بن جعفر بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قال:

---

(١) له ترجمة في طبقات أعلام الشيعة/ الثقات العيون: ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٢) من رجال أوائل القرن السادس الهجري، وله ترجمة في طبقات أعلام الشيعة/ الثقات العيون: ٢٤٥، وماضي النجف وحاضرها: ٢/ ٤٠٥ - ٤٠٧.

(٣) ولد في سنة ٣٨٢ هـ وتوفي سنة ٤٧٢ هـ، وهو مترجم في تاريخ بغداد: ٣/ ٢٣٩ والوافي بالوفيات: ١/ ٢٧٣.

(٤) ولد في سنة ٢٩٧ هـ وتوفي سنة ٣٨٧ هـ أو بعدها، وكان معمراً، وله ترجمة في فهرست الطوسي: ١٤٠ وطبقات أعلام الشيعة/ نوابغ الرواة: ٢٨٠ - ٢٨١، وقد روى عنه النجاشي وسمع منه كثيراً، والنجاشي مولود سنة ٣٧٢هـ.

(٥) توفي سنة ٣٠٨ هـ عن نيف وتسعين عاماً من العمر، وهو مترجم في رجال النجاشي: ٨٨ - ٨٩ وتاريخ بغداد: ٧/ ٢٠٤ - ٢٠٥ والمنتظم: ٦/ ١٥٧، ونص الخطيب على رواية أبي المفضل الشيباني عنه.

حدثنا عبدالله بن عمر بن الخطاب الزيات سنة خمس وستين ومائتين؛ قال:

حدّثني خالي عليُّ بن النعمان الأعلم[١] قال:

حدّثني عمير بن المتوكل الثقفي البلخي[٢].

عن أبيه المتوكل بن هارون قال:

لقيتُ يحيى بن زيد بن عليّ وهو متوجّه إلى خراسان بعد قتل أبيه، فسلّمت عليه، فقال لي: من أين أقبلتَ؟ قلت: من الحج. فسألني عن أهله وبني عمه بالمدينة، وأحفى السؤال عن جعفر بن محمد (ع)، فأخبرته بخبره وخبرهم وحزنهم على أبيه زيد... ثم قال لي: أكتبتَ من ابن عمي شيئاً؟ قلتُ: نعم، قال: أرِنيه.

فأخرجتُ إليه وجوهاً من العلم، وأخرجتُ له دعاءً أملاه عَلَيَّ أبو عبدالله (ع) وحدّثني أن أباه محمد بن علي (ع) أملاه عليه وأخبره أنه من دعاء أبيه عليّ بن الحسين (ع) من دعاء الصحيفة الكاملة.

فنظر فيه يحيى حتى أتى على آخره، وقال لي: أتأذن في نسخه؟ فقلتُ: يا ابن رسول الله؛ أتستأذن فيما هو عنكم؟ فقال: أمَا لأُخرجنَّ إليك صحيفةً من الدعاء الكامل مما حفظه أبي عن أبيه...

ثم دعا بعيبةٍ فاستخرج منها صحيفة مقفلة مختومة... ثم نشر الصحيفة... فقبضتُ الصحيفة. فلما قُتِل يحيى بن زيد صرتُ إلى المدينة فلقيتُ أبا عبدالله (ع) فحدّثته الحديث عن يحيى، فبكى واشتدَّ وجدُه به وقال...: وأين الصحيفة؟ فقلتُ: ها هي. ففتحها وقال: هذا والله خطُّ عمي زيد ودعاءُ جدّي علي بن الحسين (ع).

---

(١) ترجم له النجاشي في رجاله: ١٩٥ ـ ١٩٦ ولم يذكر سنة وفاته.

(٢) له ترجمة في رجال النجاشي: ٣٠١ وفهرست الطوسي: ١٧٠ ـ ١٧١.

ثم قال لابنه: قم يا اسماعيل فأْتني بالدعاء... قام اسماعيل فأخرج صحيفة كأنها الصحيفة التي دفعها إليَّ يحيى بن زيد، فقبّلها أبو عبدالله وقال: هذا خطُّ أبي وإملاءُ جدّي (ع) بمشهدٍ منّي. فقلتُ: يا ابن رسول الله، إنْ رأيتَ أن أعرضها مع صحيفة زيدٍ ويحيى، فأذِنَ لي في ذلك... فنظرتُ، وإذا هما أمرٌ واحد، ولم أجد حرفاً منها يخالف ما في الصحيفة الأخرى...

قال المتوكل بن هارون: ثم أمْلى عَلَيَّ أبو عبدالله (ع) الأدعية، وهي خمسة وسبعون باباً، سقط عنّي منها أحد عشر باباً، وحفظت منها نيفاً وستين باباً.

وحدّثنا أبو المفضَّل قال:

وحدّثني محمد بن الحسن بن روزبه، أبو بكر المدائني الكاتب[١]، نزيل الرَّحبة، في داره، قال:

حدثني محمد بن أحمد بن مسلم المطهّري[٢] قال:

حدثني أبي[٣].

عن عمير المتوكل البلخي.

عن أبيه المتوكل بن هارون قال:

لقيتُ يحيى بن زيد بن علي.. فذكر الحديثَ بتمامه.

وفي رواية المطهَّري ذكر الأبواب [وهي ٥٤ باباً]»[٤].

---

(١) له ترجمة في طبقات أعلام الشيعة/ نوابغ الرواة: ٢٦٢.
(٢) له ترجمة في طبقات أعلام الشيعة/ نوابغ الرواة: ٢٤٥ و٣٠٧.
(٣) له ترجمة في طبقات أعلام الشيعة/ نوابغ الرواة: ٥٨.
(٤) الصحيفة السجادية: ٢ ـ ٢٢. والمطبوع فيها (٥٤) دعاء؛ ويليها ملحق فيه (٧) أدعية؛ ثم أدعية الأيام السبعة؛ ثم المناجاة الخمسة عشر.

ويقول الشيخ آقابزرك الطهراني تعليقاً على هذا السند:

«واختلفوا في قائل: (حدثنا السيد الأجل...) في صدر سند الصحيفة [أي الراوي عن نجم الدين بهاء الشرف]، فاستظهر المحقق الداماد في شرح الصحيفة أنه عميد الرؤساء هبة الله بن حامد أحمد بن أيوب بن علي بن أيوب اللغوي المشهور[1]. واستظهر الشيخ البهائي أنه ابن السكون؛ وهو الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمد بن محمد بن السكون الحلي النحوي الشاعر المتوفى حدود ٦٠٦ هـ كما أرخه السيوطي في البغية[2].

«وفي الرياض في ترجمة ابن السكون: أن الاحتمالين متساويان، لأن السيد فخار بن معدّ الموسوي[3] يروي عنهما، وهما كانا في طبقة واحدة، أخذا اللغة عن ابن العصار اللغوي.

«وقد وجد الشيخ علي بن أحمد المعروف بالسّديدي نسخة الصحيفة بخطّ ابن السكون، وفيها اختلافات مع سائر النسخ مثل نسخة ابن ادريس التي فرغ منها في رجب ٥٧٠ هـ. وقد فرغ علي بن أحمد السديدي من كتابة نسخته عن نسخة ابن السكون ومقابلتها بها سنة ٦٤٣ هـ، ثم قابلها ثانياً مع نسخة خطّ ابن ادريس في ٦٥٤هـ.

«وكتب الشهيد [الأول] عن خط السديدي نسختين: الأولى ٧٧٢

---

(١) توفي سنة ٦٠٩ هـ أو ٦١٠ هـ، وهو نحوي لغوي شاعر، يراجع في ترجمته: معجم الأدباء: ١٩/ ٢٦٤ وبغية الوعاة: ٤٠٧ والذريعة: ١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٢) بغية الوعاة: ٣٥٢، وهو مترجم أيضاً في معجم الأدباء: ١٥/ ٧٥.

(٣) توفي السيد فخار في سنة ٦٣٠ هـ، وله ترجمة مفصلة في صدر كتابه «الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب» المطبوع في النجف الأشرف في سنة ١٣٥١ هـ، وقد وردت أسماء شيوخه فيها بالتفصيل.

هـ، والثانية ٧٧٦ هـ. وكتب الجبعي عن خط الشهيد في الأولى؛ وقابله بالثانية أيضاً... وقد ضبط العلماء جميع تلك الاختلافات»[١].

❀ ❀ ❀

وبعد أن تداول علماء العصور الإسلامية الأولى صحيفة الإمام الكاملة، وتسالموا على صحة سندها وثبوت انتساب ما تضمنته من أدعيةٍ وابتهالات للإمام السجاد نفسه، رأى المعنيون بشؤون الرواية والحديث في العصور التالية المتأخرة وجود أدعية أخرى للإمام زين العابدين قد رواها المحدّثون بالأسانيد الصحيحة والطرق الموثوق بها لديهم ولكنها لم ترد في تلك الصحيفة الأولى، فتصدّى منهم مَن قام بجمعها وتبويبها استدراكاً على تلك الصحيفة. وقد حدّثنا المرحوم الشيخ آقابزرك الطهراني عن ذلك تفصيلاً، ونورد بعض ما قال فيما يأتي استكمالاً لجوانب البحث:

«الصحيفة السجادية الثانية: من جمع الشيخ المحدّث الحرّ العاملي محمد بن الحسن المتوفى سنة ١١٠٤ هـ... وقد استخرجها المحدّث الحرُّ من الأصول المعتمدة عنده التي ذكرها في هامش النسخة، وكتب في آخرها... هذا ما وصل إليَّ من أدعية مولانا زين العابدين علي بن الحسين (ع) ممّا خرج عن الصحيفة الكاملة... وفرغتُ من جمعها في شهر رمضان ١٠٥٣ هـ»، وهي مطبوعة أكثر من مرة[٢].

الصحيفة السجادية الثالثة: للفاضل المتبحّر الماهر الميرزا عبدالله الأفندي صاحب رياض العلماء... طبعت سنة ١٣٦٤ هـ[٣].

(١) الذريعة: ١٥/ ١٨ ـ ١٩.
(٢) الذريعة: ١٥/ ٢٠ وإيضاح المكنون: ٢/ ٦٥.
(٣) الذريعة: ١٥/ ٢٠.

الصحيفة السجادية الرابعة: للشيخ حسين النوري المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ، جمع فيها (٧٧) دعاءً لم تذكر في الصحائف السابقة، وهي مطبوعة[١].

الصحيفة السجادية الخامسة: للسيد محسن الأمين الحسيني العاملي، طبعت سنة ١٣٣٠ هـ، وهي محتوية على الصحيفتين الثالثة والرابعة وزيادة، ومجموع أدعيتها (١٨٢) دعاء، انفرد منها باثنين وخمسين دعاء[٢].

وهناك مَنْ عُني بجمع بعضٍ من أدعية الإمام في كتب مستقلة ضمت ما رواه منها بأسانيده الخاصة ومصادره التي يتداولها في الرواية، ومن ذلك:

دعوات زين العابدين: لأبي القاسم زيد بن إسحاق الجعفري[٣].

أدعية زين العابدين (ع): للسيد أبي إبراهيم ناصر بن الرضا بن محمد بن عبدالله العلوي الحسيني الفقيه المحدّث[٤].

وهناك أيضاً منتخبات من أدعية الإمام استخرجها بعض المؤلفين وأودعوها كتبهم تبركاً واعتزازاً، ومنهم:

ابن أبي الحديد المعتزلي: وقد أورد أدعية كان يدعو بها زين العابدين علي بن الحسين (ع) وقال: وهي «من أدعية الصحيفة»[٥].

---

(١) الذريعة: ١٥/ ٢٠ وإيضاح المكنون: ٢/ ٦٥.
(٢) الذريعة: ١٥/ ٢٠.
(٣) الذريعة: ٨/ ٢٠٢.
(٤) بحار الأنوار: ١٠٥/ ٢٨٨ والذريعة: ١/ ٣٩٦. وكان السيد ناصر من طلاب الشيخ الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ
(٥) شرح نهج البلاغة: ٦/ ١٧٨ و١٨٠ و١٨٥.

الشيخ سليمان القندوزي الحنفي: في الباب الثامن والتسعين الذي قال في صدره: «في إيراد بعض الأدعية والمناجاة التي تكون في الصحيفة الكاملة للإمام الهمام زين العابدين»[١].

ولقدسية «الصحيفة السجادية» وعظم شأنها عند المسلمين؛ عكف عدد من الأعلام على شرحها وكشف غوامضها وما يبهم على القارىء منها[٢]، وكان من أبرز تلك الشروح وأكثرها أهمية: شرح العالم اللغوي الفقيه الأديب السيد علي (خان) بن أحمد بن محمد بن معصوم المدني المتوفى سنة ١١١٧ هـ أو ١١٢٠ هـ، وهو معروف ومطبوع.

وعلى هذا الشرح حاشية للسيد عبدالله بن نور الدين الجزائري المتوفى سنة ١١٧٣ هـ، وحاشية أخرى للسيد الأمير بهاء الدين محمد المختاري[٣].

وقد ترجمت «الصحيفة» إلى أكثر من لغة، ولها عدة ترجمات[٤].

❀ ❀ ❀

وقال السيد ابن معصوم المدني في مقدمة شرحه: إنَّ «نسبة الصحيفة الشريفة إلى صاحبها (ع) ثابتة بالاستفاضة التي كادت تبلغ حدّ التواتر».

ثم روى بعض أسانيده في روايتها فقال:

«أرويها عن شيخي الجليل الفاضل الشيخ جعفر بن كمال الدين

---

(١) ينابيع المودة: ٤٩٩ ـ ٥١٠.
(٢) الذريعة: ١٣/ ٣٤٥ ـ ٣٥٩ و٦/ ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٣) الذريعة: ٦/ ١٢٤.
(٤) الذريعة: ٤/ ١١١ ـ ١١٢.

البحراني. عن شيخه الفاضل زبدة المجتهدين الشيخ حسام الدين الحلبي. عن الشيخ الأجلّ خاتمة المحققين وبحر العرفان واليقين بهاء الدين محمد العاملي. عن والده الشيخ البارع حسين بن عبد الصمد الحارثي الهَمْداني. عن شيخَيْه الإمامين عمادي الإسلام وفقيهي أهل البيت السيد حسن بن جعفر بن الأعرج الحسيني الكركي؛ والشيخ زين الدين علي بن أحمد العاملي ـ قدَّس الله سرّهما ـ عن شيخهما الجليل التقي النبيل زين الدين علي بن عبد العال الميسي. عن شيخه الإمام السعيد ابن عم الشيخ الشهيد، شمس الدين محمد بن داوود الشهير بابن المؤذن الجزيني. عن الشيخ ضياء الدين ابن الشيخ السعيد الشهيد شمس الدين محمد بن مكي. عن السيد الإمام النسّابة تاج الدين محمد بن القاسم بن معيّة الحسني. عن السيد كمال الدين بن محمد بن محمد رضيّ الدين الآوي الحسيني. عن الخواجا نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي. عن والده محمد بن الحسن. عن السيد أبي الرضا فضل الله الراوندي الحسيني عن السيد أبي الصمصام محمد بن سعيد الحسيني، عن رئيس الطائفة أبي جعفر الطوسي».

«وله [أي الشيخ الطوسي] في روايتها طريقان ذكرهما في الفهرست:

«أحدهما: عن جماعة. عن أبي محمد هارون بن موسى بن التلعكبري. عن المعروف بابن أخي طاهر؛ وهو أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. عن محمد بن مطهّر. عن أبيه. عن عمير بن المتوكل. عن أبيه. عن يحيى بن زيد. عن أبيه [زيد بن علي. عن أبيه] علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)».

«ثانيهما: أبو عبدالله أحمد بن عبد الواحد البزّاز المعروف بابن عبدون. عن أبي بكر الدوري. عن ابن أخي طاهر. عن محمد بن مطهّر. عن أبيه. عن عمير بن المتوكل. عن أبيه. عن يحيى بن زيد. عن أبيه زيد بن علي. عن أبيه علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)».

ويرى السيد ابن معصوم: أن قائل «حدّثنا» في صدر سند الصحيفة ـ وقد تقدّم ذكر نصّه ـ هو عميد الرؤساء هبة الله بن حامد «كما دلَّ عليه ما وُجِد بخط المحقق الشهيد على نسخته المُعارَضَة بنسخة ابن السكون المرقوم عليها بخط عميد الرؤساء ما صورته.

«قرأها عليَّ السيد الأجلُّ النقيب الأوحد العالم جلال الدين عماد الإسلام أبو جعفر القاسمُ بن الحسن بن محمد بن الحسن ابن معيّة ـ أدام الله تعالى علوّه ـ قراءة صحيحة مهذّبة، ورويتُها له عن السيد بهاء الشرف أبي الحسن محمد بن الحسن بن أحمد؛ عن رجاله المسمّين في باطن هذه الورقة، وأبحتُه روايتها عني حسبما وقفته عليه وحدّدتُه. وكتب هبة الله بن حامد بن أحمد بن أيوب بن علي بن أيوب، في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وستمائة. والحمد لله»[1].

❀ ❀ ❀

واستكمالاً للحديث عن أسانيد الصحيفة وطرقها يجدر بنا أن نقف هنا قليلاً لنقرأ بعض مرويّات الشيخ محمد باقر المجلسي في هذا الخصوص، لنزداد علماً بذلك ونكون أكثر اطمئناناً ووثوقاً فيه، وقد لخّصنا تلك المرويّات في المنتخبات الآتية من كلامه، قال:

---

(١) يراجع في نصوص ابن معصوم المتقدمة: كتابه شرح الصحيفة السجادية: ٥ ـ ٦.

وردتْ في نسخة قديمة من الصحيفة الكاملة بخط الشيخ حسين بن حسن بن حسين بن محمد القصياني ـ تاريخ كتابتها سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ـ قراءةٌ هذا لفظها:

«قرأها عليّ السيد الأجل النقيب الأوحد العالم جلال الدين عماد الإسلام أبو جعفر القاسم بن الحسن بن محمد بن الحسن بن معيّة ـ أدام الله علوّه ـ قراءة صحيحة مهذّبة، ورويتُها له عن السيد بهاء الشرف أبي الحسن محمد بن الحسن بن أحمد عن رجاله... وكتب هبة الله بن حامد بن أحمد بن أيوب بن علي بن أيوب؛ في شهر ربيع الآخر؛ سنة ثلاث وستمائة»(١).

وورد في آخر صحيفة الشيخ شمس الدين محمد بن علي الجبعي جدّ الشيخ بهاء الدين العاملي بخطّه:

«نقلتُ هذه الصحيفة من خطّ الشيخ العالم السعيد الشهيد محمد بن مكي، وعليها بخطّه: «نقلتُ هذه الصحيفة من خطّ علي بن أحمد السديد، وفرغت في حادي عشر شعبان سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، وكتب محمد بن مكي حامداً مصلياً. وعلى نسخة علي بن أحمد السديد ما صورته: نقلتُ هذه الصحيفة من خطّ علي بن السكون... وذلك في شهر ذي الحجة سنة ثلاث وأربعين وستمائة». وجاء على نسخة علي بن أحمد السديد أيضاً: «بلغتْ مقابلةً مرة ثانية بخط السعيد محمد بن ادريس.. وذلك في شهر ذي القعدة من سنة أربع وخمسين وستمائة»(٢).

وعلى نسخة شمس الدين الجبعي هذه كُتبتْ قراءة الصحيفة من قبل مالكها على عليّ بن علي بن محمد بن طيّ في رابع شهر رمضان المعظم سنة إحدى وخمسين وثمانمائة، وقد رواها ابن طيّ هذا قراءةً على السيد

---

(١) بحار الأنوار: ١٠٧/ ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ١٠٧/ ٢١١ ـ ٢١٢.

الجليل النقيب أبي العباس تاج الدين عبد الحميد بن السيد جمال الدين أحمد بن علي الهاشمي الزينبي طاب ثراه، ورواها له عن الشيخ الأجل عز الدين شيخ السالكين حسن بن سليمان الحلي ـ رفع الله درجته ـ باسناده المتصل إلى سيدنا ومولانا زين العابدين (ع). ورواها ابن طي المذكور أيضاً عن الشيخ الجليل بهاء الدين أبي القاسم علي بن شمس الدين محمد بن مكي عن والده المذكور ـ قدّس الله سرّه ـ بطريقه المتصل إلى الإمام المذكور[١].

وكتب الشيخ الشهيد الثاني زين الدين نسخة من الصحيفة بخطّه، وكتب عليها: إنه يروي الصحيفة عن الشيخ علي بن عبد العالي الميسي العاملي، عن شمس الدين محمد بن محمد بن داوود الشهير بابن المؤذن، عن ضياء الدين علي أبي القاسم نجل شمس الدين محمد بن مكي، عن عدة من مشايخه وهم: المرتضى ذو المجدين عبد المطلب بن الأعرج وفخر الدين محمد. . . وزين الدين علي أبو الحسن بن أحمد بن طراد المطار آبادي، ورضيّ الدين أبو الحسن علي بن أحمد المزيدي، وتاج الدين ابن معيّة جميعاً، عن أبي منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهّر، عن والده.

وبالإسناد عن الشهيد، عن السيد تاج الدين النسابة، عن صفيّ الدين بن معدّ، عن والده. وعن السيد عن جماعة: منهم جلال الدين ابن الكوفي؛ عن نجم الدين بن سعيد، ومنهم علم الدين المرتضى علي بن عبد الحميد بن محمد، عن والده عبد الحميد، جميعاً عن فخار، عن الشيخ محمد بن محمد بن هارون المعروف بابن الكمال، عن أبي طالب حمزة بن شهريار.

---

(١) بحار الأنوار: ١٠٧/ ٢١٣.

وبالطريق الأول إلى الشهيد، عن السيد تاج الدين أبي عبدالله محمد، عن والده أبي جعفر القاسم بن معيّة الحسني الديباجي، عن خاله تاج الدين أبي عبدالله جعفر بن محمد بن معيّة، عن والده مجد الدين أبي طالب محمد بن الحسن بن معيّة، عن الشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن شهر أشوب المازندراني، عن أبي الصمصام ذي الفقار بن محمد بن معبد الحسني، عن الشيخ أبي جعفر الطوسي.

وبالطريق الأول إلى الشيخ أبي عبدالله الشهيد، عن السيد تاج الدين المذكور، عن السيد نجم الدين الرضي محمد بن محمد بن السيد رضي الدين الآوي الحسيني وعن الشيخ جلال الدين محمد بن محمد بن الكوفي، عن خواجه نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، عن والده، عن السيد أبي الرضا فضل الله بن علي الحسيني، عن أبي الصمصام بسنده.

وكتب الشهيد الثاني زين الدين هذه الأسانيد على نسخته المذكورة من الصحيفة «في سابع شهر شعبان المبارك؛ سنة ثلاثين وتسعمائة»[١].

وقال المجلسي:

«إن الشيخ نجم الدين جعفر بن نما يروي الصحيفة الكاملة بالإجازة عن والده، عن الشيخ محمد بن جعفر المشهدي، بسماعه بقراءة الشريف الأجل نظام الشرف [يعني بهاء الشرف] أبي الحسن بن العريضي العلوي الحسيني في شوال سنة ست وخمسين وخمسمائة».

ويرويها نجم الدين المذكور أيضاً بالإجازة عن والده، عن الشيخ

(١) بحار الأنوار: ١٠٨/ ١٣٣ ـ ١٣٤.

أبي الحسن علي بن الخياط، عن الشيخ عربي بن مسافر، عن السيد بهاء الشرف بإسناده المعلوم(١).

وقال المجلسي بعد عرض مجموعة كبيرة من الطرق والأسانيد التي تخص رواية الصحيفة:

«إلى غير ذلك من الطرق الكثيرة التي تزيد على الآلاف والألوف، وإن كان ما ذكرته ـ مع وجازته ـ يرتقي إلى ستمائة طريق»(٢).

ثم قال المجلسي أيضاً:

«وبجميع الأسانيد، عن شيخ الطائفة، عن الحسين بن عبيدالله الغضائري، عن أبي المفضل الشيباني، عن الشريف الحسني.

«وعن شيخ الطائفة، عن جماعة من مشايخه، عن التلعكبري، عن أبي محمد الحسن المعروف بابن أخي طاهر، عن محمد بن مطهر، عن أبيه، عن عمير بن متوكل، عن أبيه، عن يحيى بن زيد».

«وعن الشيخ، عن أحمد بن عبدون، عن أبي بكر الدوري، عن ابن أخي طاهر أبي محمد، عن محمد بن مطهر، عن أبيه».

«وبالأسانيد السابقة، عن أبي الصمصام ذي الفقار، عن أحمد بن العباس النجاشي،

«وبالأسانيد المتواترة، عن هارون بن موسى التلعكبري، عن أحمد بن العباس الصيرفي المعروف بابن الطيالسي يكنى أبا يعقوب؛ روى الصحيفة الكاملة سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، بإسناده إلى يحيى بن زيد».

(١) بحار الأنوار: ١٠٩/ ٤٧ ـ ٤٨.
(٢) بحار الأنوار: ١١٠/ ٤٧.

ثم لخَّص المجلسي ما ذكره السلف من أسانيد الصحيفة فقال: «وترتقي الأسانيد المذكورة هنا إلى ستة وخمسين ألف إسناد ومائة إسناد»[١]. وذكر روايات «الشيخ والنجاشي بأسانيدهما المتكثرة، إلى أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن همام، عن عليّ بن مالك؛ بالصحيفة الكاملة. وجلالة قَدْر بن عيسى وإسماعيل بن همام تدل على جلالة عليّ أيضاً»[٢]. وبعد استعراض جميع ما أورده من الأسانيد قال:

«فأما سندنا إليها من طريق الوجادة؛ فهو اني وجدت النسخة التي بخطّ الشيخ السديد محمد بن علي بن الحسن الجباعي جدّ الشيخ البهائي، وقد نقلها من خطّ الشيخ العلاّمة الشهيد محمد بن مكي، وهو نقلها من خطّ الشيخ العلاّمة الشهيد محمد بن مكي، وهو نقلها من خط علي بن أحمد السديدي، وهو نقله من خط علي بن السكون، والسديدي، عرضها على النسخة التي بخطّ السعيد محمد بن ادريس»[٣].

ونورد فيما يأتي شجرةً بأهم أسانيد الصحيفة ورواتها جيلاً بعد جيل، بدءاً بالشيخ محمد تقي المجلسي والد مؤلف كتاب بحار الأنوار وانتهاء بالإمام زين العابدين (ع)، وقد رسمناها على نحو ما تُرْسَم به شجرات النسب لزيادة الإيضاح والتبيين[٤]:

(١) بحار الأنوار: ١١٠/ ٦١.

(٢) بحار الأنوار: ١١٠/ ٦٢.

(٣) بحار الأنوار: ١١٠/ ١٦٤.

(٤) اقتبسنا فكرة هذه الشجرة من فهرست مخطوطات مكتبة جامعة طهران: ١/ ١٥٦ ـ ١٥٧ وأضفنا إليها ما رأينا رجحان إضافته.

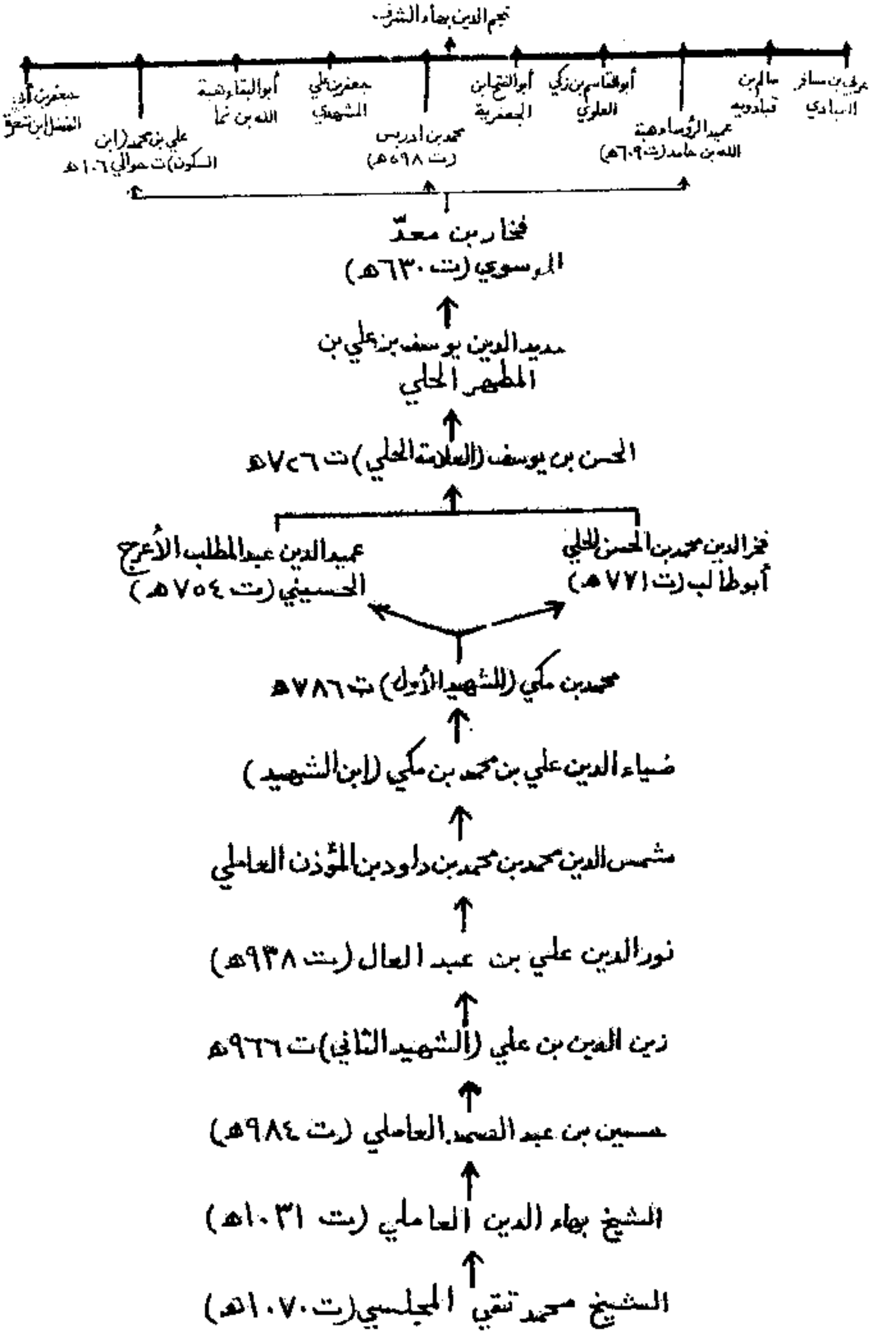
نجم الدين بن جار الشرف
يحيى بن مساعد السابادي
سالم بن قبادويه
عميد الرؤساء هبة الله بن حامد (ت ٦٠٩هـ)
أبو القاسم بن زكي العلوي
أبو الفتح ابن الجعفرية
محمد بن ادريس (ت ٥٩٨هـ)
جعفر بن علي المشهدي
أبو البقاء هبة الله بن نما
علي بن محمد (ابن السكون) ت حوالي ٦٠٦هـ
جعفر بن أبي الفضل بن شعرة
فخار بن معدّ
الموسوي (ت ٦٣٠هـ)
سديد الدين يوسف بن علي بن
المطهر الحلي
الحسن بن يوسف (العلامة الحلي) ت ٧٢٦هـ
عميد الدين عبد المطلب الأعرج
الحسيني (ت ٧٥٤هـ)
فخر الدين محمد بن الحسن الحلي
أبو طالب (ت ٧٧١هـ)
محمد بن مكي (الشهيد الأول) ت ٧٨٦هـ
ضياء الدين علي بن محمد بن مكي (ابن الشهيد)
شمس الدين محمد بن محمد بن داود بن المؤذن العاملي
نور الدين علي بن عبد العال (ت ٩٣٨هـ)
زين الدين بن علي (الشهيد الثاني) ت ٩٦٦هـ
حسين بن عبد الصمد العاملي (ت ٩٨٤هـ)
الشيخ بهاء الدين العاملي (ت ١٠٣١هـ)
الشيخ محمد تقي المجلسي (ت ١٠٧٠هـ)

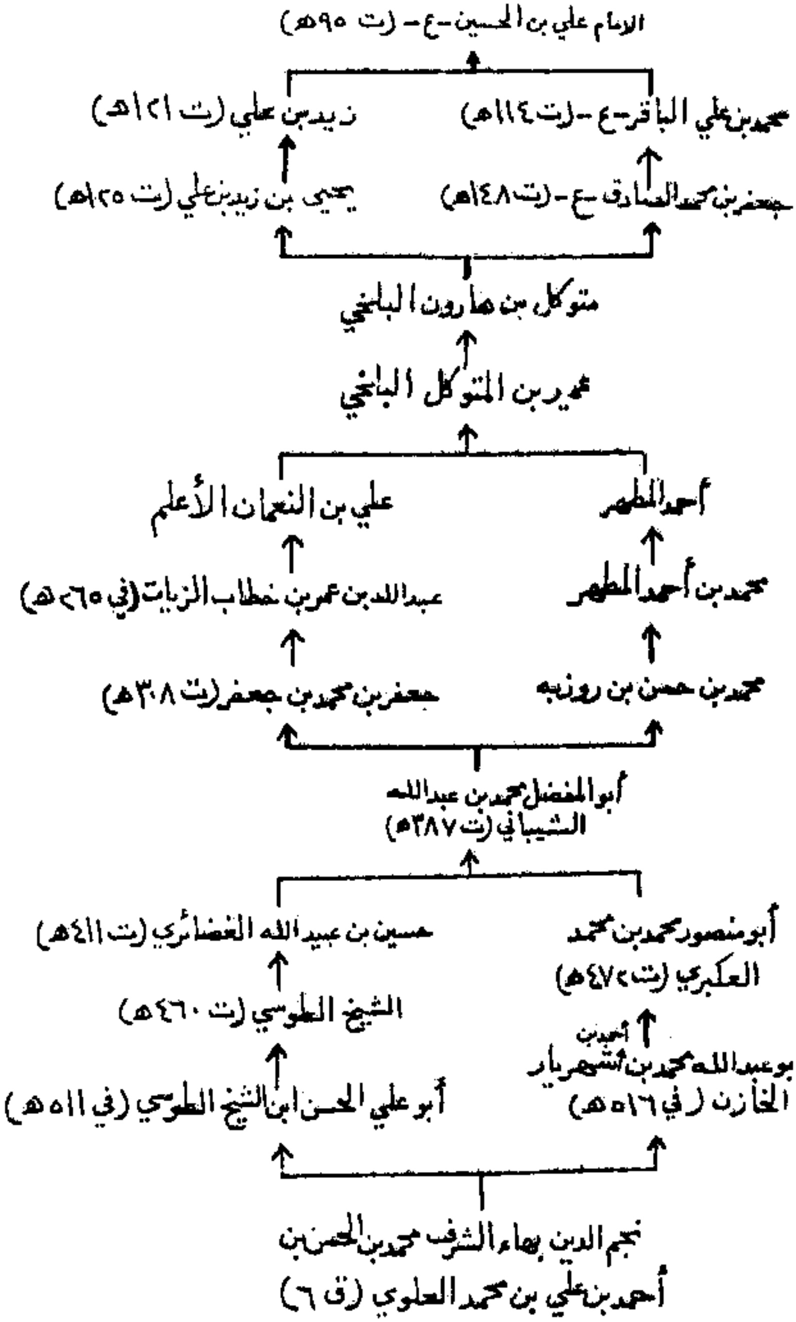
الإمام علي بن الحسين -ع- (ت ٩٥هـ)
محمد بن علي الباقر -ع- (ت ١١٤هـ)
زيد بن علي (ت ١٢١هـ)
جعفر بن محمد الصادق -ع- (ت ١٤٨هـ)
يحيى بن زيد بن علي (ت ١٢٥هـ)
متوكل بن هارون البلخي
محمد بن المتوكل البلخي
أحمد المطهر
علي بن النعمان الأعلم
محمد بن أحمد المطهر
عبد الله بن عمر بن خطاب الزيات (في ٢٦٥هـ)
محمد بن حسن بن روزبه
جعفر بن محمد بن جعفر (ت ٣٠٨هـ)
أبو المفضل محمد بن عبد الله
الشيباني (ت ٣٨٧هـ)
أبو منصور محمد بن محمد
العكبري (ت ٤٧٢هـ)
حسين بن عبيد الله الغضائري (ت ٤١١هـ)
الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)
أحمد بن
أبو عبد الله محمد بن شهريار
الخازن (في ٥١٦هـ)
أبو علي الحسن ابن الشيخ الطوسي (في ٥١١هـ)
نجم الدين بهاء الشرف محمد بن الحسن بن
أحمد بن علي بن محمد العلوي (ق ٦)

وتحتفظ إحدى خزائن المخطوطات في العالم[1] بنسخة نفيسة من الصحيفة الكاملة التي يرويها السيد بهاء الشرف، نسخها محمد أمين بن محمد علي في العاشر من شهر ذي الحجة سنة ١٠٧٩ هـ، من نسخة خطّ الشهيد الأول محمد بن مكي المستشهد في سنة ٧٨٦ هـ؛ المؤرخة في ١١ شعبان ٧٧٢ هـ، وقد نقل الشهيد نسخته من نسخةٍ بخط علي بن أحمد السديد مكتوبةٍ في ذي الحجة ٦٤٢ هـ، وكان السديد قد نقلها من نسخة خطّ علي بن السكون. وقد كتب على نسخة ابن السكون عميدُ الرؤساء هبةُ الله بن حامد بن أحمد بخطه إجازة لجلال الدين أبي جعفر القاسم بن الحسن بن محمد بن الحسن بن معيّة بتاريخ ربيع الآخر ٦٠٣ هـ.

ورغبة في وقوف القراء على هذه التفاصيل كما وردت في النسخة القيمة المذكورة؛ صوَّرتُ الصفحتين الأخيرتين منها، وهما اللتان تضمان حكاية ما ورد في أصلها الذي نقلتْ منه، وجعلتُ ذلك مسك ختام الحديث عن الصحيفة المقدّسة:

(١) خزانة مخطوطات المكتبة المركزية لجامعة طهران كما في فهرستها: ١/ ١٦٧.

نقلت هذه الصحيفة من خط علي بن احمد السديد رحمه
وفرغت في حادي عشر شعبان سنة
م وقد كتب ما صورته م

نقلت هذه الصحيفة من خط ابن السكون و
تتبع اعرابها عن نقطها حسب الجهد الا ما
زاغ عنه النظر وحسر عنه البصر وذلك
في شهر ذي الحجة سنة ثلاث واربعين وستمائة

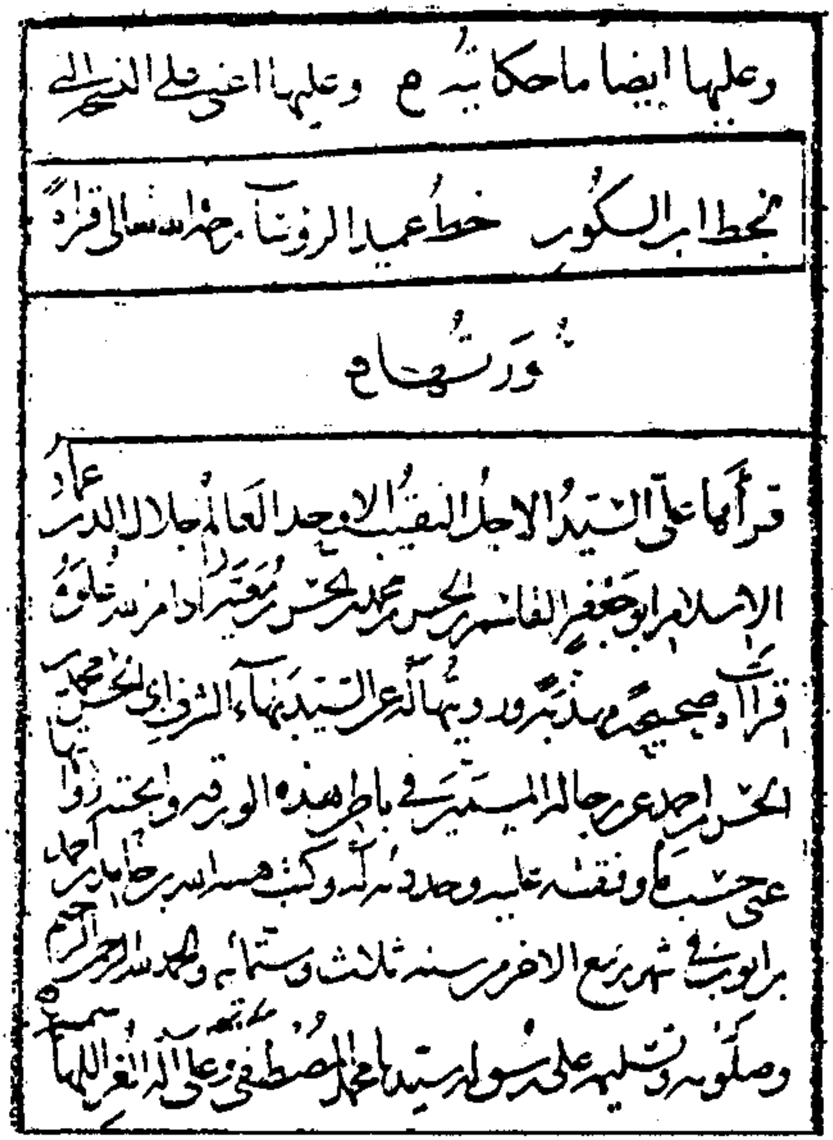

وعليها ايضا ما حكايته م وعليها اخرى على النحو التالي

بخط ابن السكون خط عميد الرؤساء [illegible] الى قراءة

[illegible]

قرأها علي السيد الاجل النقيب الاوحد العالم جلال الدين عماد
الاسلام ابو جعفر القاسم بن الحسن بن محمد بن الحسن بن معية ادام الله علوه
قراءة صحيحة مهذبة ورويتها له عن السيد بهاء الشرف ابي الحسن محمد بن
الحسن بن احمد عن رجاله المسمين في باطن هذه الورقة وبخطه رواياتها
عن جماعة ونقلته عليه وحده من لدن وكتب هبة الله بن حامد بن احمد
بن ايوب في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستمائة والحمد لله الرحمن الرحيم
وصلواته وتسليمه على رسوله سيدنا محمد المصطفى وعلى آله الغر الكرام أجمعين

ملاحق الكتاب

الملحق الأول
نصُّ «رسالة الحقوق» التي أملاها الإمام على بعض خاصّته

الملحق الثاني
قصيدة الفرزدق الميمية في مدح الإمام نَصُّها ورُواتُها وتخريج أبياتها

الملحق الأول
رسالة الحقوق

أورد المجلسي الشيخ محمد باقر نصَّيْن للرسالة في كتابه بحار الأنوار، وقد روى النصَّ الأول عن كتاب «الخصال» للصدوق محمد بن علي بن بابويه بسنده عن أبي حمزة الثمالي قال: «هذه رسالة علي بن الحسين (ع) إلى بعض أصحابه»، وروى النصَّ الثاني عن كتاب «تحف العقول»، وأوله فيه: «رسالة علي بن الحسين (ع) المعروفة برسالة الحقوق»، وقال المجلسي بعد إيراد الروايتين: «إنما أوردناه مكرراً؛ للاختلاف الكثير بينهما؛ وقوة سند الأول وكثرة فوائد الثاني»[1].

أقول: قد حاولتُ فيما أوردتُ الجمعَ بين الروايتين وتوحيدهما في نصٍّ واحد، وأشرتُ إلى ما لم يمكن جمعه منهما إمّا بوضعه بين قوسين أو بالتنبيه عليه في الهامش.

ومما ينبغي ذكره أن كتابَيْ «تحف العقول» و«الخصال» مطبوعان أكثر من مرة، وهما من مؤلفات القرن الرابع الهجري.

---

(١) بحار الأنوار: ٧٤/٢ ـ ٢١.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلم ـ رحمك الله ـ أنَّ لله عزَّ وجلَّ عليك حقوقاً محيطة بك، في كل حركة تحرَّكتها؛ أو سكنةٍ سكنتَها، أو حالٍ حلتَها؛ أو منزلةٍ نزلتها، أو جارحةٍ قلّبتَها؛ أو آلةٍ تصرَّفتَ فيها، بعضُها أكبر من بعض.

وأكبر حقوق الله تعالى عليك ما أوْجَبَه عليك لنفسه؛ من حقّه الذي هو أصل الحقوق، ومنه تتفرّع. ثم ما أوجبه عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك؛ على اختلاف جوارحك، فجعل للسانك عليك حقاً، ولسمعك عليك حقّاً، ولبصرك عليك حقاً، وليدك عليك حقاً، ولرجلك عليك حقاً، ولبطنك عليك حقاً، ولفرجك عليك حقاً. فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال.

ثم جعل عزَّ وجلَّ لأفعالك عليك حقوقاً: فجعل لصلاتك عليك حقاً، ولصومك عليك حقاً، ولصدقتك عليك حقاً، ولهَدْيك عليك حقاً.

ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك، وأوْجَبها عليك حقوق أئمتك، ثم حقوق رعيَّتك، ثم حقوق رحمك. فهذه حقوق يتشعّب منها حقوق.

فحقوق أئمتك ثلاثة: أوْجَبها عليك حقُّ سائسك بالسلطان، ثمَّ حقُّ سائسك بالعلم، ثم حقُّ سائسك بالمِلْك. وكلُّ سائسٍ إمامٌ.

وحقوق رعيتك ثلاثة: أوْجبها عليك حقُّ رعيتك بالسلطان؛ ثم

حق رعيتك بالعلم؛ فإن الجاهل رعيّة العالِم، ثم حقُّ رعيتك بالمِلْك[١] من الأزواج وما مَلكت الأيمان.

وحقوق رَحِمِك كثيرة متصّلة بقَدْرِ اتصال الرحم في القرابة، وأوْجَبها عليك حقُّ أُمّك ثم حق أبيك ثم حق وَلَدك ثم حق أخيك، ثم الأقرب فالأقرب والأَوْلى فالأوْلى.

ثم حَقُّ مولاك المنعم عليك، ثمَّ حق مولاك الجارية نعمتك عليه[٢]، ثم حق ذي المعروف لديك، ثم حق مؤذنك بالصلاة، ثم حق إمامك في صلاتك، ثم حق جليسك، ثم حق جارك، ثم حق صاحبك، ثم حق شريكك، ثم حق مالك، ثم حق غريمك الذي تطالبه، ثم حق غريمك الذي يطالبك، ثم حق خليطك، ثم حق خصمك المُدّعي عليك، ثم حق خصمك الذي تدّعي عليه، ثم حق مستشيرك، ثم حق المشير إليك، ثم حق مستنصحك، ثم حق الناصح لك، ثم حق مَنْ هو أكبر منك، ثم حق مَنْ هو أصغر منك، ثم حق سائلك، ثم حق مَنْ سألتَه، ثم حق مَنْ جرى لك على يديه مساءة بقولٍ أو فعلٍ؛ أو مسرّة بقولٍ أو فعلٍ؛ عن تعمُّدٍ منه أو غير تعمُّد، ثم حق أهل ملّتك عامة، ثم حق أهل الذمة ثم الحقوق الجارية بقدر علل الأحوال وتصرُّف الأسباب.

فطوبى لمَنْ أعانه الله على قضاء ما أوجب عليه من حقوقه؛ ووفّقه لذلك وسدّده.

❀ ❀ ❀

---

(١) المراد بالملك هنا: ملك النكاح، سواء أكان بالعقد أو بملك اليمين.

(٢) في الأصول المنقول منها: الجارية نعمته عليك، والتصويب من التفصيل الآتي.

١ ـ حَقُّ الله

فأمّا حقُّ الله الأكبر عليك فأنْ تعبده ولا تشرك به شيئاً، فإذا فعلتَ ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمْرَ الدنيا والآخرة؛ ويحفظ لك ما تحب منهما.

❀ ❀ ❀

٢ ـ حَقُّ النّفْس

وأمّا حق نفسِك عليك فأن تستعملها في طاعة الله عزَّ وجلَّ، فتؤدي إلى لسانك حقَّه؛ وإلى سمعك حقَّه؛ وإلى بصرك حقَّه؛ وإلى يدك حقّها؛ وإلى رِجْلك حقّها؛ وإلى بطنك حقّه؛ وإلى فرجك حقّه، وتستعين بالله على ذلك.

أ ـ حقُّ اللسان:

وحق اللسان إكرامُه عن الخَنى[١]، وتعويده على الخير، وحمله على الأدب، وإجمامه إلاّ لموضع الحاجة والمنفعة للدين والدنيا، واعفاؤه من الفضول الشنعة القليلة الفائدة التي لا يُؤمَن ضرَرُها مع قلة عائدتها؛ والبرُّ بالناس وحُسن القول فيهم. ويُعَدُّ شاهدَ العقلِ والدليلَ عليه، وتزيُّنُ العاقلِ بعقله حُسْنُ سيرته في لسانه.

ب ـ حَقُّ السَّمْع:

وحقُّ السمع تنزيهه عن سماع الغيبة وسماع ما لا يحلُّ سماعُه؛ وعن أن تجعله طريقاً إلى قلبك إلاّ لفوهةٍ كريمة تحدث في قلبك خيراً

(١) الخنى: الفحش من الكلام.

أو تكسبك خلقاً كريماً، فإنه بابُ الكلام إلى القلب يؤدي إليه ضروب المعاني على ما فيها من خير أو شر.

ج ـ حقُّ البَصَر:

وحقُّ البصر أن تغمضه (تغضَّه) عمّا لا يحلُّ لك، وترك ابتذاله إلا لموضع عِبْرةٍ تستقبل بها بصراً أو تستفيد بها علماً، فإن البصر باب الاعتبار.

د ـ حقُّ اليد:

وحقُّ يدك أن لا تبسطها إلى ما لا يحل لك فتنال بما تبسطها إليه من الله العقوبة في الآجل، ومن الناس اللائمة في العاجل. ولا تقبضها عمّا افترض الله عليها، ولكن توقرها بقبضِها عن كثير مما لا يحل لها وبسطِها إلى كثير مما ليس عليها، فإذا هي عقلتْ شرفت في العاجل؛ ووجب لها حسنُ الثواب من الله في الآجل.

هـ ـ حَقُّ الرِّجْل:

وحقُّ رِجْلَيْك أنْ لا تمشي بهما إلى ما لا يحلُّ لك، ولا تجعلهما مطيّتك في الطريق المستخفّ بأهلها، فبهما تقف على الصراط فانظر أنْ لا تزلَّ بك فتتردّى في النار.

و ـ حَقُّ البَطن:

وحقُّ بطنك أن لا تجعله وعاءً لقليل من الحرام ولا لكثير، وأن تقتصد له في الحلال، ولا تزيد على الشّبع، ولا تخرجه من حدِّ التقوية إلى حدّ التهوين وذهاب المروءة، فإن الشبع المنتهي بصاحبه إلى التخم مكسلة ومثبطة ومقطعة عن كل برٍّ وكرم.

ز ـ حَقُّ الفَرْج:

وحقُّ فرجك أن تحصّنه عن الزناء؛ وتحفظه من أن يُنْظَر إليه ومما لا يحلُّ لك، والاستعانة عليه بغضّ البصر ـ فإنه من أعون الأعوان ـ وكثرةِ ذِكْرِ الموت؛ وتهديد نفسِك بالله والتخويف لها به.

وبالله العصمة والتأييد، ولا حول ولا قوة إلاّ به.

❀ ❀ ❀

٣ ـ حقوق الأفعال

أ ـ حَقُّ الصّلاة:

وحقُّ الصلاة أن تعلم أنها وفادة إلى الله عزَّ وجلّ، وأنك فيها قائم بين يَدَي الله. فإذا علمتَ ذلك كنتَ خليقاً أن تقوم فيها مقام الذليل الحقير؛ الراغب الراهب؛ الخائف الراجي؛ المسكين (المستكين) المتضرّع، المعظم لمن قام (كان) بين يديه بالسكون والإطراق؛ وخشوع الأطراف؛ ولين الجناح؛ وحُسن المناجاة له في نفسه، والرغبة إليه في فكاك رقبتك التي أحاطتْ بها خطيئتُك واستهلكَتْها ذنوبك. و[أن] تُقْبِل عليها بقلبك؛ وتقيمها بحدودها وحقوقها.

ب ـ حَقُّ الحجِّ:

وحَقُّ الحج أن تعلم أنه وفادة إلى ربك؛ وفرار إليه من ذنوبك، وبه قبول توبتك؛ وقضاء الفرض الذي أوجبه الله عليك.

ج ـ حَقُّ الصوم:

وحقُّ الصوم أن تعلم أنه حجاب ضربه الله على لسانك وسمعك

وبصرك وبطنك وفرجك؛ ليسترك به من النار، فإنْ تركتَ الصوم خرقتَ سترَ الله عليك[١].

د ـ حقُّ الصّدقة:

وحقُّ الصدقة أن تعلم أنها ذخرُك عند ربك؛ ووديعتُك التي لا تحتاج إلى الإشهاد عليها. فإذا علمتَ ذلك كنت بما استودَعْتَه سراً أوثقَ منك بما استودعتَه علانية، وكنتَ جديراً أن لا تكون أسررتَ إليه أمراً أعلنته، وكان الأمر بينك وبينه سراً على كلّ حال، ولم تستظهْر عليه فيما استودعته منها بإشهاد الأسماع والأبصار عليه بها وكأنها أوثق في نفسك؛ وكأنك لا تثق به في تأدية وديعتك إليك، ثم لم تمتن بها على أحدٍ لأنها لك، فإذا امتننتَ بها لم تأمنْ أن يكون بها مثل تهجين حالك منها إلى مَنْ مننتَ بها عليه، لأنَّ في ذلك دليلاً على أنك لم تُرِدْ نفسكَ بها؛ ولو أردتَ نفسك بها لم تمتنَّ على أحد. و[عليك] أن تعلم أنها تدفع البلايا والأسقام عنك في الدنيا؛ وتدفع عنك النار في الآخرة.

هـ ـ حَقُّ الهَدْي:

وحقُّ الهَدْيِ أن تريد به الله عزَّ وجلَّ ولا تريد به خَلْقَه، وأن تخلص به الإرادة إلى ربك والتعرُّض لرحمته وقبوله، ولا تريد عيون الناظرين دونه. فإذا كنتَ كذلك لم تكن متكلّفاً ولا متصنّعاً، وكنتَ إنما

(١) وردت في تحف العقول ـ وهو أحد المصادر المنقول منها ـ زيادة هذا نصُّها: «وهكذا جاء في الحديث: (الصوم جُنَّة من النار)، فإنْ سكنتْ أطرافك في حَجَبَتِها رجوتَ أن تكون محجوباً، وإنْ أنت تركتها تضطرب في حجابها وترفع جنبات الحجاب فتطلع إلى ما ليس لها بالنظرة الداعية للشهوة والقوة الخارجة عن حدّ التقية لله لم تأمن أن تخرق الحجاب وتخرج منه. ولا قوة إلا بالله».
أقول: أرجّح أن ذلك ليس جزءاً من النص.

تقصد إلى الله. واعلم أنَّ الله يُرادُ باليسير ولا يُراد بالعسير، كما أراد بِخَلْقِه التيسير ولم يرد بهم التعسير(١).

٤ ـ حقوق الأئمة

أ ـ حَقُّ السلطان:

وحقُّ سائِسك بالسلطان أنْ تعلم أنك جُعلتَ له فتنة؛ وأنه مُبْتَلىً فيك بما جُعِلَ له عليك من السلطان، وأن عليك أن لا تتعرض لسخطه، وأن تخلص له في النصيحة، وأن لا تماحكه وقد بُسِطَتْ يده عليك فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه. وتذلَّل وتلطَّف لإعطائه من الرضا ما يكفُّه عنك ولا يضرُّ بدينك، وتستعين عليه في ذلك بالله، ولا تعازّه ولا تعانده فإنك إن فعلتَ ذلك عققته وعققتَ نفسك؛ فعرَّضْتها لمكروهِه وعرَّضته للهلكة فيك، وكنت خليقاً أن تكون معيناً له على نفسك؛ وشريكاً له فيما أتى إليك.

ب ـ حَقُّ المعلّم:

وحقُّ سائسك بالعلم التعظيمُ له والتوقير لمجلسه؛ وحُسْنُ الاستماع إليه والإقبال عليه؛ والمعونة له على نفسك فيما لا غنى بك عنه من العلم بأن تفرغ له عقلك وتحضره فهمك وتُذْكي له قلبك وتُجْلي له بصرك؛ بتَرْك اللذات ونقص الشهوات، وأن تعلم أنك فيما ألْقى إليك رسوله إلى مَنْ لقيك من أهل الجهل؛ فلزمك حسنُ التأدية عنه إليهم؛

(١) وردت هنا في تحف العقول زيادة أظن أنها ليست من الأصل؛ هذا نصُّها: «وكذلك التذلل أوْلى بك من التدهقن، لأن الكلفة والمؤونة في المتدهقنين، فأما التذلل والتمسكن فلا كلفة فيهما ولا مؤونة عليهما، لأنهما الخلقة؛ وهما موجودان في الطبيعة. ولا قوة إلاَّ بالله».

ولا تخنه في تأدية رسالته والقيام بها عنه إذا تقلَّدْتَها، وأن لا ترفع عليه صوتك؛ ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب، ولا تُحدِّث في مجلسه أحداً ولا تغتاب عنده أحداً، وأن تدفع عنه إذا ذُكِرَ عندك بسوءٍ، وأن تستر عيوبه وتظهر مناقبه ولا تجالس له عدواً ولا تعادي له ولياً. فإذا فعلتَ ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته وتعلّمتَ عِلْمَه لله جلَّ اسمُه لا للناس.

ج ـ حَقُّ المالِك:

وحَقُّ سائسك بالمِلْك فنَحْوٌ من سائسك بالسلطان؛ إلاّ أن هذا يملك ما لا يملكه ذاك، تلزمك طاعته فيما دقَّ وجلَّ منك إلاّ أن يخرجك من وجوب حقّ الله؛ ويحول بينك وبين حقّه وحقوق الخلق، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإذا قضيته رجعتَ إلى حقّه فتشاغلتَ به.

❀ ❀ ❀

٥ ـ حقوق الرعيّة

أ ـ الرعيّة بالسلطان:

فأمّا حقوق رعيتك بالسلطان فأنْ تعلم أنك إنما استرعيتهم بفضل قوتك عليهم؛ وأنه إنما أحلّهم محلَّ الرعية لك ضعفهم وذلّهم، فيجب أن تعدل فيهم وتكون لهم كالوالد الرَّحيم، وتغفر لهم جهلهم، ولا تعاجلهم بالعقوبة، وما أولى من كفاكه ضعفُه وذلُّه حتى صيَّره لك رعيّة ـ وصيّر حكمَك عليه نافذاً، لا يمتنع منك بعزّة ولا قوة؛ ولا يستنصر فيما تعاظمه منك إلاّ بالله ـ بالرحمة والحياطة والأناة. وما أولاك إذا ما

عرفت ما أعطاك الله من فضل هذه العزة والقوة التي قهرتَ بها أن تشكر الله عز وجل على ما آتاك من القوة عليهم، ومَن شكر الله أعطاه فيما أنعم عليه.

ب ـ الرعية بالعلم:

وأمّا حق رعيتك بالعلم فأن تعلم أن الله عزَّ وجل قد جعلك قيّماً لهم وخازناً فيما آتاك من العلم وولاّك من خزانة الحكمة، فإن أحسنت فيما ولاّك الله من ذلك؛ وقمتَ به لهم مقام الخازن الشفيق الناصح لمولاه في عبيده؛ الصابر المحتسِب؛ الذي إذا رأى ذا حاجةٍ أخرج له من الأموال التي في يديه؛ كنتَ راشداً؛ وزادك الله من فضله. وإنْ أنتَ منعتَ الناسَ علمَك أو خرقت بهم عند طلبهم العلم منك؛ كان حقاً على الله عزَّ وجل أن يسلبك العلم وبهاءه؛ ويسقط من القلوب محلّك.

ج ـ الرعيّة بملك النكاح:

وأمّا حقُّ رعيتك بملك النكاح (وأمّا حق الزوجة) فأن تعلم أن الله عزَّ وجلَّ جعلها لك سكناً ومستراحاً؛ وأنساً وواقية، وكذلك كل واحد منكما يجب أن يحمد الله على صاحبه ويعلم أن ذلك نعمة منه عليه، ووجب أن تحسن صحبة نعمة الله وتكرمها وترفق بها، وإن كان حقّك عليها أغلظ وطاعتك ألْزَم فيما أحببتَ وكرهتَ ما لم تكن معصية. فإن لها حقّ الرحمة والمؤانسة.

د ـ الرعيّة بملك اليمين:

وأمّا حق رعيتك بملك اليمين (وأمّا حقُّ مملوكك) فأنْ تعلم أنَّه خَلْقُ ربِّك؛ وابن أبيك وأمّك ولحمِك ودمِك، وأنك لم تملكه لأنك صنعته دون الله، ولا خلقت له سمعاً ولا بصراً ولا شيئاً من جوارحه، ولا

أجريتَ له رزقاً، ولكنَّ الله كفاك ذلك ثم سخّره لك وائتمنك عليه واستودعك إياه؛ لتحفظه فيه وتسير فيه بسيرته؛ فتطعمه مما تأكل؛ وتلبسه مما تلبس، ولا تكلّفه ما لا يطيق، وأحْسِن إليه كما أحسن الله إليك، وإن كرهتَه خرجتَ إلى الله منه واستبدلتَ به ولم تعذّبْ خلق الله عزَّ وجل.

❀ ❀ ❀

٦ ـ حَقُّ الرّحم

أ ـ حَقُّ الأُمّ:

وأما حقُّ أُمّك فأنْ تعلم أنها حملتْكَ حيث لا يحمل أحَدٌ أحداً، وأطعمتك (وأعطتك) من ثمرة قلبها ما لا يطعم (ما لا يعطي) أحدٌ أحداً، ووَقَتْك بسمعها وبصرها ويدها ورجلها وشعرها وبَشَرها وجميع جوارحها مستبشرة فرحة محتملة لما فيه مكروهها وألمُها وثقلها وغمُّها؛ حتى دفعتها عنك يدُ القدرة؛ وأخرجتك إلى الأرض، فرضيتْ أن تشبع وتجوع هي؛ وتكسوك وتَعْرى؛ وترويك وتظمى؛ وتظلّلك وتضحى؛ وتنعّمك ببؤسها؛ وتلذّذك بالنوم بأرقمها، وكان بطنها لك وعاءً؛ وحِجْرُها لك حواء؛ وثديها لك سقاء؛ ونفسها لك وقاء، تباشرُ حرَّ الدنيا وبردها لك ودونك، فتشكرها على قدر ذلك، ولا تقدر عليه إلاّ بعون الله وتوفيقه.

ب ـ حقُّ الأب:

وأمّا حقُّ أبيك فأن تعلم أنه أصلك؛ وأنك فرعه، وأنك لولاه لم تكن. فمهما رأيتَ في نفسك مما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه. واحمد الله واشكره على قدر ذلك.

ج ـ حقُّ الولد:

وأمّا حقُّ ولدك فأنْ تعلم أنه منك؛ ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشرِّه، وأنك مسؤول عمّا ولّيْته به من حسن الأدب والدلالة على ربّه عزَّ وجلَّ والمعونة له على طاعته فيك وفي نفسه، فاعمل في أمره عمل المتزيّن بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا؛ المعذر إلى ربه فيما بينك وبينه بحسن القيام عليه والأخذ له منه (فاعمل في أمره عمل مَنْ يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، ومعاقب على الإساءة إليه).

د ـ حقُّ الأخ:

وأمّا حقُّ أخيك فأن تعلم أنه يدُك التي تبسطها؛ وظهرك الذي تلتجيء إليه؛ وعزُّك الذي تعتمد عليه؛ وقوتك التي تصول بها. فلا تتّخذه سلاحاً على معصية الله؛ ولا عُدَّة لظلم خلق الله، ولا تدع نصرته على نفسه؛ ومعونته على عدوّه؛ والحؤول بينه وبين شياطينه؛ وتأدية النصيحة إليه والإقبال عليه في الله، فإنْ انقاد لربه وأطاع الله وأحسن الإجابة له؛ وإلاّ فليكن الله آثرَ عندك وأكرم عليك منه.

❁ ❁ ❁

٧ ـ حقُّ الناس

أ ـ حقُّ المنعم بالولاء:

وأمّا حقُّ المنعِم عليك بالولاء فأنْ تعلم أنه أنفق فيك مَاله، وأخرجك من ذلّ الرقّ ووحشته إلى عزّ الحرية وأُنسها، وأطلقك من أسْر الملكية، وفكّ عنك حلق العبودية (قيد العبودية)، وأرْوَحَك[1] رائحة

(١) في الأصل المنقول منه: «وأوجدك»، ولعل الصواب ما أثبتنا.

العزّ، وأخرجك من سجن القهر، ودفع عنك العسر، وبسط لك لسان الإنصاف، وأباحك الدنيا كلّها فملّكك نفسك، وحلَّ أسرك؛ وفرَّغك لعبادة ربّك، واحتمل بذلك التقصير في ماله، فتعلم أنه أوْلى الخلق بك بعد أُولي رحمك في حياتك وموتك، وأحقُّ الخلق بنصرك ومعونتك ومكاتفتك في ذات الله. فلا تُؤثِر عليه نفسك ما احتاج إليك.

ب ـ حقُّ العبد:

وأمّا حقُّ مولاك الجارية عليه نعمتك فأنْ تعلم أن الله عزَّ وجل جعلك حامية عليه وواقية وناصراً ومعقلاً، وجعل عنقك له وسيلة وسبباً بينك وبينه؛ وحجاباً لك من النار، فيكون في ذلك ثوابٌ منه في الآجل، ويحكم لك بميراثه في العاجل إذا لم يكن له رحم؛ مكافأة لما أنفقته من مالك عليه وقمتَ به من حقّه بعد انفاق مالك، فإن لم تقم بحقّه خيف عليك أنْ لا يطيب لك ميراثه.

ج ـ حقُّ ذي المعروف:

وأمّا حقُّ ذي المعروف عليك فأنْ تشكره وتذكر معروفه وتنشر له (وتكسبه) المقالة الحسنة؛ وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله سبحانه، فإنك إذا فعلت ذلك كنتَ قد شكرتَه سراً وعلانية، ثم إن أمكن مكافأته بالفعل كافأته؛ وإلاّ كنتَ مرصداً له موطناً نفسك عليها.

د ـ حقُّ المؤذّن:

وأمّا حقُّ المؤذّن فأنْ تعلم أنه مذكّرك بربك، وداعيك إلى حظك، وأفضل أعوانك على قضاء الفريضة التي افترضها الله عليك، فتشكره على ذلك شكرك للمحسن إليك.

هـ ـ حقُّ إمام الصلاة:

وأمّا حق إمامك في صلواتك فأن تعلم أنه قد تقلّد السِّفارة فيما بينك وبين الله عزَّ وجلَّ؛ والوفادة إلى ربك، وتكلم عنك، ولم تتكلم عنه؛ ودعا لك ولم تَدْعُ له؛ وطلب فيك ولم تطلب فيه، وكفاك همَّ المقام (هولَ المقام) بين يدي الله والمسألة فيك ولم تكفه ذلك، فإن كان في شيء من ذلك تقصيرٌ (نقصٌ) كان به دونك، وإن كان تماماً كنتَ شريكَه ولم يكن له عليك فضل، وإن كان آثماً لم تكن شريكه فيه ولم يكن لك عليه فضل. فوقى نفسك بنفسه وصلاتك بصلاته، فتشكر له على قدر ذلك.

و ـ حقُّ الجليس:

وأمّا حقُّ جليسك فأن تلين له كنفك؛ وتطيب له جانبك؛ وتنصفه في مجاراة اللفظ، ولا تغرِق في نَزْع اللحظ إذا لحظتَ، وتقصد في اللفظ إلى إفهامه إذا لفظتَ، وإن كنتَ الجليس إليه كنتَ في القيام عنه بالخيار، وإن كان الجالس إليك كان بالخيار؛ ولا تقوم إلا بإذنه، وتنسى زلاّته؛ وتحفظ خيراته، ولا تُسْمِعه إلا خيراً.

ز ـ حقُّ الجار:

وأمّا حقُّ جارك فحفظه غائباً وإكرامه شاهداً، ونصرته ومعونته في الحالين جميعاً إذا كان مظلوماً. لا تتبع له عورة، ولا تبحث له عن سوءةٍ لتعرفها، فإن عرفتها منه عن غير إرادة منك ولا تكلّفٍ كنتَ لِما علمتَ حصناً حصيناً وستراً ستيراً لو بحثت الأسنّة عنه ضميراً لم تصل إليه لانطوائه عليه. ولا تستمع عليه من حيث لا يعلم، ولا تسلمه عند شديدة، ولا تحسده عند نعمة، وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته

فيما بينك وبينه، وتقيل عثرته، وتغفر زلّته (ذنبه)، ولا تدّخر حلمك عنه إذا جهل عليك، ولا تخرج أن تكون سلماً له؛ تردُّ عنه لسان الشتيمة؛ وتبطل فيه كيد حامل التهمة، وتعاشره معاشرة كريمة.

ح ـ حقُّ الصاحب:

وأمّا حقُّ الصاحب فأن تصحبه بالفضل ما وجدت إليه سبيلاً؛ وإلاّ فلا أقلَّ من الإنصاف، وأن تكرمه كما يكرمك وتحفظه كما يحفظك، ولا تدعه يسبقك فيما بينك وبينه إلى مكرمةٍ؛ فإن سبقك كافأته، وتودُّه كما يودُّك؛ ولا تقصِّر به عما يستحق من المودّة، تلزم نفسك نصيحته؛ وحياطته ومعاضدته على طاعة ربه، ومعونته على نفسه فيما يهمُّ به من معصية، وكنْ عليه رحمةً ولا تكن عليه عذاباً.

ط ـ حقُّ الشريك:

وأمّا حق الشريك فإنْ غاب كفيته، وإن حضر رعيتَه وساويته، ولا تعزم (ولا تحكم) على حكمك دون حكمه، ولا تعمل برأيك دون مناظرته، وتحفظ عليه مالَه، وتتَّقي خيانته فيما عزَّ أو هانَ من أمره؛ فإنَّ يد الله تبارك وتعالى على أيدي الشريكين ما لم يتخاونا.

ي ـ حقُّ المال:

وأمّا حقُّ المال فأنْ لا تأخذه إلاّ من حِلّه، ولا تنفقه إلاّ في حلّه (في وجهه)، ولا تحرفه عن مواضعه، ولا تصرفه عن حقائقه، ولا تجعله إذا كان[1] من الله إلاّ إليه، ولا تؤثر به على نفسك مَنْ لعلّه لا يحمدك؛ وبالحرى أنْ لا يحسن خلافته في تركتك، ولا يعمل فيه بطاعة

(١) كذا في الأصل المنقول منه، ولعله: إذْ كان.

ربك؛ فتكون معيناً له على ذلك وبما أحدث في مالك؛ فيذهب بالغنيمة، وتبوء بالإثم والحسرة والندامة مع التّبعة.

ك ـ حقُّ الغريم:

وأمّا حقُّ الغريم المطالب لك فإن كنتَ موسراً أعطيته وأوفيته وكفيته وأغنيته، ولم تردده وتمطله، فإن رسول الله (ص) قال: «مَطْلُ الغنيّ ظُلْمٌ». وإنْ كنتَ معسراً أرضيته بحسن القول؛ وطلبتَ إليه طلباً جميلاً؛ ورددته عن نفسك رداً لطيفاً، ولم تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته؛ فإن ذلك لؤم.

ل ـ حقُّ الخَليط[١]

وأمّا حقُّ الخليط فأنْ لا تغرَّه ولا تغشّه ولا تكذبه ولا تُغْفِله ولا تخدعه ولا تعمل في انتقاصه عمل العدو الذي لا يُبْقي على صاحبه، وتتقي الله تبارك وتعالى في أمره. وإن اطمأنَّ إليك استقصيت له على نفسك؛ وعلمتَ أنَّ غَبنَ المسترسل رباً.

❀ ❀ ❀

٨ ـ حقُّ الخصم

أ ـ حقُّ المُدّعي:

وأما حقُّ الخصم المُدّعي عليك؛ فإنْ كان ما يدّعي عليك حقاً لم تنفسخ في صحبته؛ ولم تعمل في إبطال دعوته، وكنتَ خصمَ نفسِك له والحاكمَ عليها والشاهدَ له بحقّه دون شهادة الشهود؛ ولم تظلمه وأوفيته

(١) الخليط: المُخالِط كالنديم والشريك والجليس ونحوهم.

حقه، فإن ذلك حقُّ الله عليك. وإن كان ما يدَّعيه باطلاً رفقتَ به وردعته وناشدته بدينه؛ وكسرتَ حدَّتَه عنك بذِكْر الله، وألْقَيْتَ[١] حشو الكلام ولغطه الذي لا يردُّ عنك عادية عدوك، بل تبوء باثمه، وبه يشحذ عليك سيف عداوته، لأن لفظة السوء تبعث الشرَّ، والخير مقمعة للشر.

ب ـ حقُّ المدّعى عليه:

وأما حقُّ الخصم المدّعى عليه؛ فإن كان ما تدّعيه حقاً أجملتَ في مقاولته بمخرج الدعوى، فإن للدعوى غلظة في سمع المدّعى عليه، وقصدت قصد حجّتك بالرفق وأمْهَلِ المهلة وأبْيِنِ البيان وألطفِ اللطف، ولم تتشاغل عن حجتك بمنازعته بالقيل والقال فتذهب عنك حجتك ولا يكون لك في ذلك درك. وإن كنتَ مبطلاً في دعواك اتَّقَيْتَ الله عزَّ وجلَّ وتبتَ إليه وتركتَ الدعوى.

۞ ۞ ۞

٩ ـ حقُّ المشاورة والنصيحة

أ ـ حق المستشير:

وأمّا حقُّ المستشير فإنْ حضرك له وجهُ رأيٍ جهدتَ له في النصيحة؛ وأشرت عليه بما تعلم أنك لو كنت مكانه عملتَ به، وليكن ذلك منك في رحمةٍ ولين، فإن اللين يؤنس الوحشة، وإن الغلظ يوحش موضع الأنس. وإن لم يحضرك له رأي وعرفتَ له مَنْ تثق برأيه وترضى به لنفسك دللتَه عليه وأرشدته إليه؛ فكنتَ لم تأْلُهُ خيراً ولم تدخره نصحاً.

---

(١) يعني: تركتَ ونبذتَ.

ب ـ حقُّ المشير:

وأما حقُّ المشير عليك فأنْ لا تتَّهمه فيما لا يوافقك من رأيه إذا أشار عليك، فإنما هي الآراء وتصرُّف الناس فيها واختلافهم، فكن عليه في رأيه بالخيار إذا اتهمتَ رأيه، فأمّا تهمته فلا تجوز لك إذا كان عندك ممن يستحق المشاورة، ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه وحسن وجه مشورته. وإذا وافقك حمدتَ الله وقبلتَ ذلك من أخيك بالشكر والإرصاد بالمكافأة في مثلها إن فزع إليك.

ج ـ حقُّ المستَنْصِح:

وأمّا حقُّ المستنصح فأنْ تؤدي إليه النصيحة على الحقّ الذي ترى له أنه يُحْمَل ويخرّج المخرج الذي يلين على مسامعه، وتكلّمه من الكلام بما يطيقه عقله، فإن لكلّ عقلٍ طبقة من الكلام يعرفه ويجتنبه. وليكن مذهبك الرَّحمة له والرفق به.

د ـ حق الناصح:

وأمّا حقُّ الناصح فأن تلين له جناحك، ثم تشرئبَّ له قلبك[1]، وتفتح له سمعك، حتى تفهم عنه نصيحته، ثم تنظر فيها فإن كان وُفّق فيها للصواب حمدت الله على ذلك وقبلتَ منه وعرفتَ له نصيحته، وإن لم يكن وفّق لها رحمته ولم تتهمه؛ وعلمت أنه لم يألك نصحاً إلاّ أنه أخطأ، ولم تؤاخذه بذلك إلاّ أن يكون عندك مستحقاً للتهمة فلا تعبأ بشيء من أمره على كل حال.

❀ ❀ ❀

(١) كذا في الأصل المنقول منه، ولعله: بقلبك.

١٠ ـ حقُّ السِّنِّ

أ ـ حقُّ الكبير:

وأمّا حقُّ الكبير فتوقير[١] سنِّه (توقيره لسِنِّه) وإجلال إسلامه إذا كان من أهل الفضل في الإسلام بتقديمه فيه (وإجلاله لتقدمه في الإسلام قبلك)، وترك مقابلته عند الخصام، ولا تسبقه إلى طريق، ولا تؤمّه في طريق، ولا تتقدمه، ولا تستجهله، وإن جهل عليك احتملته وأكرمتَه بحقّ إسلامه مع سِنّه (لحق الإسلام وحرمته)، فإنما حق السنّ بقدر الإسلام.

ب ـ حقُّ الصغير:

وأمّا حقُّ الصغير فرحمتُه وتثقيفه وتعليمه؛ والعفو عنه والستر عليه؛ والرفق به والمعونة له؛ والستر على جرائر حداثته فإنه سبب للتوبة؛ والمداراة له وترك مُماحكته فإن ذلك أدنى لرشده.

❀ ❀ ❀

١١ ـ حقُّ السائل والمسؤول

أ ـ حقُّ السائل:

وأمّا حقُّ السائل فإعطاؤه إذا تهيّأتْ صدقة وقدرت على سَدّ حاجته؛ والدعاء له فيما نزل به؛ والمعاونة له على طلبته. وإن شككتَ في صدقه وسبقتْ إليه التهمة له لم تعزم على ذلك ولم تأمن من أن يكون من كيد الشيطان أراد أن يصدّك عن حظّك ويحول بينك وبين

(١) وفي إحدى الروايات: وأمّا حق الكبير فإن حقّه توقير سنّه.. الخ.

التقرُّب إلى ربك، وتركته بستره، ورددته رداً جميلاً. وإن غلبتَ نفسك في أمره وأعطيته على ما عرض في نفسك منه فإن ذلك من عزم الأمور.

ب ـ حق المسؤول:

وأمّا حق المسؤول فإنْ أعطى فاقبل منه ما أعطى بالشكر له والمعرفة لفضله، وإنْ مَنَعَ فاطلب وجهَ العذر في منعه؛ وأحسن به الظنّ. واعلم أنه إنْ مَنَعَ فمالَه مَنَعَ؛ وأنْ ليس [عليه] التثريب في ماله وإن كان ظالماً، فإن الإنسان لظلوم كفّار.

ج ـ حقُّ مَنْ سرَّك:

وأمّا حقُّ مَنْ سرَّك الله تعالى به وعلى يديه فإنْ كان تعمَّدها لك حمدت الله أوّلاً ثم شكرته على ذلك بقَدْرِه في موضع الجزاء، وكافأته على فضل الابتداء؛ وأرصدت له المكافأة. وإنْ لم يكن تعمّدها حمدتَ الله أوّلاً ثم شكرته؛ وعلمت أنه مِنّةٌ توحَّدك بها، وأحببت هذا إذ كان سبباً من أسباب نِعَم الله عليك، وترجو له بعد ذلك خيراً، فإن أسبابَ النعم بركة حيثُ ما كانت وإن كان لم يتعمَّد.

د ـ حقُّ مَنْ ساءك

وأمّا حقُّ منْ ساءك القضاء على يديْه بقولٍ أو فعل، فإن كان تعمّدها كان العفو أوْلى بك؛ لما فيه من القمع وحسن الأدب مع كثير من أمثاله من الخلق، فإن الله يقول: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾، إلى قوله: ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[(١)]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

(١) سورة الشورى/ ٤١ ـ ٤٣.

﴿لِلصَّـٰبِرِينَ﴾[١]. هذا في العمد، فإنْ لم يكن عمداً لم تظلمه بتعمُّد الانتصار منه؛ فتكون قد كافأته في تعمُّد على خطأ ورفقتَ به ورددته بألطف ما تقدر عليه.

❀ ❀ ❀

١٢ ـ حقُّ بقيَّة الناس

أ ـ حقُّ أهل الملّة

وأمّا حقُّ أهل ملّتك عامّة فإضمار السلامة لهم ونشر جناح الرحمة بهم؛ والرفق بمسيئهم؛ وتألُّفهم واستصلاحهم وشكر محسنهم إلى نفسه وإليك؛ فإن إحسانه إذا كفَّ عنك أذاه وكفاك مؤونته وحبس عنك نفسه، وتحبّ لهم ما تحبّ لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك. فعمَّهم جميعاً بدعوتك، وانصرهم جميعاً بنصرتك، وأنزلهم جميعاً منك منازلهم: كبيرهم بمنزلة الوالد، وصغيرهم بمنزلة الولد، وأوسطهم بمنزلة الأخ، (شيوخهم بمنزلة أبيك، وشبابهم بمنزلة اخوتك، وعجايزهم بمنزلة أُمّك، والصغار بمنزلة أولادك). فمن أتاك تعاهدته بلطفٍ ورحمة، وصِل أخاك بما يجب للأخ على أخيه.

ب ـ حقُّ أهل الذمّة:

وأما حقُّ أهل الذمة فالحكم فيهم أن تقبل منهم ما قبل الله عزَّ وجل، وتفي بما جعل الله لهم من ذمّته وعهده، وتكلهم إليه فيما طلبوا من أنفسهم، وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك فيما جرى بينك

---

(١) سورة النحل / ١٢٦.

وبينهم من معاملة. وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله (ص) حائلٌ، فإنه بلَغنا أنه قال: «مَنْ ظلم مُعَاهداً كنتُ خصمَهُ، فاتّقِ الله.

۞ ۞ ۞

الخاتمة

فهذه خمسون حقاً محيطاً بك، لا تخرج منها في حالٍ من الأحوال، يجب عليك رعايتها؛ والعمل في تأديتها؛ والاستعانة بالله جلَّ ثناؤه على ذلك.

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، والحمد لله ربِّ العالمين.

[آخر رسالة الحقوق. والحمد لله على توفيقه].

الملحق الثاني
قصيدة الفرزدق

روى الرواة أن الفرزدق الشاعر همّام بن غالب كان قد ارتجل قصيدة في مدح الإمام زين العابدين (ع) وتعداد مناقبه ومزاياه، لمّا تجاهل الأمير الأمويُّ هشام بن عبد الملك مقامَ الإمام أمام أهل الشام، وهي قصيدة مشهورة معروفة كثيرة الذكر والرواية في كتب التاريخ واللغة والأدب.

ولكن الباحث المعاصر الدكتور شاكر الفحام بعد أن أورد الحادثة روى بيتاً واحداً من ذلك الشعر وقال: «وأثبت الديوان [أي ديوان الفرزدق] أبيات الفرزدق الستة التي قالها في مديحه». ثم قال:

«ويبدو أن الرواة خلطوا بعد ذلك، عمداً أو عن غير قصد، بين أبيات الفرزدق وأبيات أخرى لشعراء آخرين... وقد نسب أبو الفرج الأصفهاني الخطأ والتخليط إلى ابن عائشة التيمي البصري (ت ٢٢٨ هـ) الذي روى الخبر، ولكن العودة إلى ما كتبه الكاتبون من رجال الجرح والتعديل ترجّح نسبة الغلط إلى محمد بن زكريا الغلابي البصري (ت ٢٩٨ هـ) الذي روى عن ابن عائشة، فقد عُرِف عنه تشيُّعه وتزويره الأحاديث الكاذبة!! للإشادة بفضل عليّ زين العابدين خاصة»[1].

---

(١) الفرزدق: ١٧١ ـ ١٧٢.

ثم استدرك الدكتور شاكر نفسُه على قوله هذا في هامش صفحةٍ تالية فقال ما لفظه.

«وفي الأغاني: ٢١/ ٤٠٠ ـ ٤٠٢ خبر يحتاج إلى فضل نظر، فقد روى أبو الفرج من طريقين نبأ عليّ زين العابدين ليس فيهما الغلابي عن ابن عائشة، وروى قصيدة الفرزدق ٢٠ بيتاً.

وهكذا اعترف الدكتور شاكر بتعجُّله بإصدار الحكم على الغلابي وادعائه بأنه كان «يزوّر الأحاديث الكاذبة»، ولكنه لم يعلن ذلك الاعتراف بصراحة ووضوح، بل اكتفى بذكر احتياج الخبر «إلى فضلِ نظرٍ»!

ويمكننا القول في ضوء ما وقفنا عليه في المصادر من نصوص ومعلومات: ان قصائد متعدّدة قد نُظِمت في ذلك العصر على هذا الرويّ والقافية؛ في مدح بعض الأمراء والولاة، وقد تداخلت أبياتٌ من بعضها في بعضٍ على ألسن الرواة فحصل اللبس والاختلاط، فللفرزدق وللحزين بن وهب الكناني أو الحزين بن سليمان الديلي الليثي ولداوود بن سَلْم ولكثير بن كثير السهمي؛ قصائد ومقّطعات ميميّة على هذه العروض، وليس ذلك بمدعاة إلى نفي قطعي لنسبة ما زاد على الأبيات الستة للفرزدق، أسوة بما وقع من مثل هذا التداخل في قصائد أخرى لشعراء آخرين؛ مما لا مجال للخوض في شواهده وتفاصيله. والموقف الموضوعي السليم من ذلك هو فحص كلّ بيتٍ بيتٍ من هذه القطعة أو تلك؛ للفرز بين ما هو لهذا الشاعر أو ذاك، خصوصاً بعد الإقرار بصحة انتساب بعض الأبيات لشاعرها كما فعل الدكتور شاكر في نسبة الأبيات الستة الواردة في الديوان.

ويكفينا تأييداً لذلك أن نقرأ ما قاله أبو الفرج الأصبهاني بعد أن

أورد بيتين على هذا الوزن والقافية: «والناس يروون هذين البيتين للفرزدق في أبياته التي يمدح بها عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع). . . وهو غلط ممن رواه فيها»[١]، وما قاله الحافظ ابن عبد البَرّ القرطبي بعد إيراد أبيات من قصيدة الفرزدق ونصّه على أنها في علي بن الحسين: «أمّا قول الزبير: إنه قيل في قثم بن العباس، فليس بشيء، وإنما ذاك شعرٌ قيل في قثم على قافية هذا الشعر وعروضه، ليس هو هذا»[٢]، وما قاله الحصري القيرواني تعليقاً على البيت العاشر من القصيدة وقد أورده معزواً للفرزدق: «وقول الفرزدق قد تجاذبه جماعة من الشعراء»[٣].

ومهما يكن من أمرٍ؛ رأيتُ من الراجح ـ دفعاً لكل احتمالات التردُّد والتشكيك ـ أن أُفرد هذا الملحق لرواية نص قصيدة الفرزدق في مدح الإمام (ع)، ثم سرد أسانيد روايتها ومصادر تخريجها، عسى أن يكون في ذلك ما يقنع الباحثين الموضوعيين الذين يتوخون الحقيقة فيما يكتبون؛ بعيداً عن الأحكام المتعجّلة وعصبيات القرون الخالية. والله ولي التوفيق:

روى رشيد الدين أبو جعفر محمد بن علي بن شهراشوب (شهراسوب) السروي، المتوفى سنة ٥٨٨ هـ[٤]، قال:

«حجّ هشام بن عبد الملك فلم يقدر على الاستلام من الزحام، فنُصِب له منبر وجلس عليه، فأطاف به أهلُ الشام. فبينما هو كذلك إذ أقبل عليُّ بن الحسين (ع) وعليه إزار ورداء، من أحسن الناس وجهاً

---

(١) الأغاني: ١٥/ ٣٢٥.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٥١١.
(٣) زهر الآداب: ١/ ١١٤.
(٤) يراجع في ترجمته: الوافي بالوفيات: ٤/ ١٦٤ ولسان الميزان: ٥/ ٣١٠ وبغية الوعاة: ٧٧ وروضات الجنات: ٦/ ٢٩٠ ـ ٢٩٣.

وأطيبهم رائحة، بين عينيه سجّادة كأنها رُكبة عنز، فجعل يطوف، فإذا بلغ موضع الحَجَر تنحّى الناسُ حتى يستلمه؛ هيبةً له. فقال شاميٌّ: مَنْ هذا؟... فقال: لا أعرفه؛ لئلاّ يرغب فيه أهلُ الشام. فقال الفرزدق ـ وكان حاضراً ـ: لكنّي أعرفه، فقال الشاميّ: مَنْ هو يا أبا فراس؟ فأنشأ قصيدةً ذُكِر بعضُها في الأغاني والحلية والحماسة.

والقصيدة بتمامها هذه:

١ ـ يا سائلي أين حلَّ الجودُ والكَرَمُ
عندي بيانٌ إذا طُلاّبُه قدموا

١ ـ هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتَهُ
والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَرَمُ

٣ ـ هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلّهم
هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العَلَمُ

٤ ـ هذا الذي أحمد المختار والدُهُ
صلَّى عليه إلهي ما جرى القَلَمُ

٥ ـ لو يعلم الركنُ مَنْ قد جاء يلثِمُهُ
لخرَّ يلثم منه ما وطا القَدَمُ

٦ ـ هذا عليٌّ، رسولُ الله والِدُهُ
أمستْ بنور هُداه تهتدي الأُمَمُ

٧ ـ هذا الذي عَمُّه الطيّارُ جعفرُ والـ
ـمقتولُ حمزةُ ليثٌ حُبّه قَسَمُ

٨ ـ هذا ابنُ سيدةِ النسوان فاطمةٍ
وابنُ الوصيِّ الذي في سيفه نِقَمُ

٩ ـ إذا رأتْهُ قريشٌ قال قائلُها
إلى مكارم هذا ينتهي الكَرَمُ

١٠ ـ يكاد يُمْسِكُه عِرْفانُ راحتِهِ
ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلمُ

١١ ـ وليس قولُك: مَنْ هذا؟ بضائرِهِ
العُرب تعرفُ مَنْ أنكرتَ[١] والعجَمُ

١٢ ـ يُغضي حياءً ويُغْضى من مهابتهِ
فما يُكَلّم إلاّ حين يَبْتَسِمُ

١٣ ـ ينجابُ نورُ الدجى عن نور غُرَّتِهِ
كالشمس ينجاب عن إشراقها الظُّلَمُ[٢]

١٤ ـ بكفِّه خيزران[٣] ريحُهُ عبقٌ
من كفّ أرْوَعَ في عِرنينِهِ شَمَمُ

١٥ ـ ما قال لا ـ قطُّ ـ إلاّ في تشهُّدِهِ
لولا التشهُّد كانت لاءَهُ نَعَمُ[٤]

١٦ ـ مشتقَّةٌ من رسول الله نَبعتُهُ
طابتْ عناصرُهُ والخِيمُ والشِّيَمُ

١٧ ـ حَمّال أثقالِ أقوامٍ إذا فدحوا
حلوُ الشمائل تحلو عنده نِعَمُ

١٨ ـ إنْ قالَ قالَ بما يهوى جَميعُهم
وإنْ تكلَّمَ يوماً زانَهُ الكَلِمُ

---

(١) أُشير في هامش الأصل إلى رواية أخرى هي: «تعرف إن أنكرت».

(٢) أشير في هامش الأصل إلى رواية أخرى هي: «عن إشراقها القتم» وهي رواية الخزانة أيضاً، وروايات صدر البيت متعددة ومختلفة في المصادر.

(٣) وروى الجوهري في تركيب (جنه) في الصحاح عن ابن قتيبة: «في كفّه جنهيٌّ».

(٤) وفي خزانة الأدب: (لولا التشهد لم ينطق بذاك فم).

١٩ ـ هـذا ابـنُ فـاطـمـةٍ إنْ كـنـتَ جـاهـلَـهُ
بـجَـدِّهِ أنـبـيـاءُ الله قـد خُـتِـمـوا
٢٠ ـ الله فَـضَّـلَـه قـدمـاً وشَـرَّفَـه
جـرى بـذاك لـه فـي لـوحـه الـقَـلَـمُ
٢١ ـ مـنْ جـدُّه دان فـضـلُ الأنـبـيـاء لـه
وفـضـلُ أُمَّـتِـه دانـتْ لـه الأُمَـمُ
٢٢ ـ عَـمَّ الـبـريَّـةَ بـالإحـسـان وانـقـشـعـتْ
عـنـهـا الـعـمـايـةُ والإمـلاقُ والـظُّـلَـمُ
٢٣ ـ كـلـتـا يَـدَيْـهِ غـيـاثٌ عَـمَّ نـفـعُـهـمـا
تـسـتـوكـفـانِ ولا يـعـروهـمـا عُـدُمُ
٢٤ ـ سـهـل الـخـلـيـقـةِ لا تُـخْـشـى بـوادِرُهُ
يـزيـنـه خـصـلـتـان: الـحـلـمُ والـكَـرَمُ[1]
٢٥ ـ لا يُـخـلـف الـوعـدَ مـيـمـونـاً نـقـيـبـتُـه
رحـب الـفـنـاء أريـمٌ[2] حـيـن يُـعْـتَـرمُ
٢٦ ـ مـن مـعـشـرٍ حُـبُّـهـم ديـنٌ وبُـغْـضُـهُـمُ
كـفـرٌ وقُـرْبُـهُـمُ مـنـجـىً ومُـعْـتَـصَـمُ
٢٧ ـ يُـسـتـدفَـع الـسـوءُ والـبـلـوى بـحُـبِّـهـم
ويُـسـتـزاد بـه الإحـسـانُ والـنِّـعَـمُ
٢٨ ـ مـقـدَّمُ بـعـد ذِكْـر الله ذِكْـرُهُـمُ
فـي كـلِّ فـرضٍ[3] ومـخـتـومٌ بـه الـكَـلِـمُ

(١) ورواية عجز البيت في عدد من المصادر: (يزينه إثنان: حسن الخلق والكرمُ) أو (والشيمُ).
(٢) أشير في هامش الأصل إلى أنه قد يُروى: «رحب الفناء أريب».
(٣) وفي عدد من المصادر: «في كل بدء».

٢٩ ـ إنْ عُدَّ أهلُ التُّقى كانوا أئمتهم
أو قيل: مَنْ خيرُ أهلِ الأرض؟ قيل: هُمُ

٣٠ ـ لا يستطيع جَوادٌ بُعْدَ غايتهم
ولا يُدانيهم قومٌ وإنْ كرموا

٣١ ـ هُمُ الغيوث إذا ما أزمة أزمتْ
والأُسد أُسْدُ الشّرى والبأسُ محتدمُ

٣٢ ـ يأبى لهم أن يحلَّ الذمُّ ساحتهم
خِيَمٌ كريمٌ وأيْدٍ بالندى هُضُمُ[(١)]

٣٣ ـ لا يقبض العسرُ بسطاً من أكُفِّهم
سيّان ذلك إنْ أثروا وإنْ عَدِموا

٣٤ ـ أي القبائل[(٢)] ليست في رقابهم
لأوَّليَّة هذا أوْ له نِعَمُ

٣٥ ـ مَنْ يعرفِ اللهَ يعرفْ[(٣)] أوليَّة ذا
فالدِّين من بيت هذا ناله الأُمَمُ

٣٦ ـ بيوتُهم في قريشٍ يُستضاء بها
في النائبات وعند الحلم إنْ حلموا[(٤)]

٣٧ ـ فجَدُّه من قريشٍ في أزمَّتِها
محمدٌ، وعليٌّ بعده عَلَمُ

٣٨ ـ بدرٌ له شاهدٌ والشِّعْبُ من أُحُدٍ
والخندقان ويومُ الفتح قد علموا

---

(١) وفي وفيات الأعيان وشذرات الذهب: «بالندى دِيَمُ».
(٢) وفي عدد من المصادر: «أي الخلائق»، وفي معجم الطبراني: «أي العشائر».
(٣) ورواية الديوان والأغاني وبعض المصادر الأخرى: من يشكر الله يشكر».
(٤) أُشير في هامش الأصل إلى رواية أخرى هي: «وعند الحكم إن حكموا».

٣٩ ـ وخيبرٌ وحُنَيْنٌ يشهدانِ له
وفي قريظة يومٌ صَيْلَمٌ قتمُ
٤٠ ـ مواطنٌ قد علتْ في كلِّ نائبةٍ
على الصحابة لم أكتم كما كتموا

«فغضب هشام ومنع جائزته وقال: ألا قلتَ فينا مثلَها؟

قال:

هاتِ جَدّاً كجَدِّهِ؛ وأباً كأبيه؛ وأُمّاً كأُمِّه. حتى أقول فيكم مثلها».

«فحبسه بعسفان بين مكة والمدينة. فبلغ ذلك عليّ بن الحسين (ع) فبعث إليه بإثنى عشر ألف درهم وقال: اعذرنا يا أبا فراس؛ فلو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك بها. فردّها وقال: يا ابن رسول الله؛ ما قلتُ هذا الذي قلتُ إلا غضباً لله ولرسوله، وما كنتُ لأرزأ عليه شيئاً. فردّها إليه وقال: بحقّي عليك لَمَا قبلتَها؛ فقد رأى الله مكانك وعلم نيَّتك. فقبلها».

«فجعل الفرزدق يهجو هشاماً وهو في الحبس، فكان ممّا هجاه به قوله:

أيحبسني بين المدينة والتي
إليها قلوبُ الناس يهوى مُنِيْبُها
يقلِّب رأساً لم يكن رأس سيدٍ
وعَيْناً له حَولاءَ بادٍ عيوبُها[1]

---

(١) ورد هذان البيتان ـ مع بعض الاختلاف في ألفاظهما ـ في ديوان الفرزدق: ١/ ٥١ والأغاني: ٢١/ ٣٧٨ والاختصاص: ١٩٢ وأمالي المرتضى: ١/ ٦٩ وتذكرة الخواص: ٣٤٠ ومطالب السؤول: ٢/ ٤٧ وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٩ والبداية والنهاية: ٩/ ١٠٩ والفصول المهمة: ١٩٠ وشرح شواهد المغني: ٢/ ٧٣٤ والصواعق المحرقة: ١٢٠ وخزانة الأدب: ٤/ ٤٦٥.

«فأُخبر هشامٌ بذلك فأطلقه، وفي رواية أبي بكر العلاّف: أنه أخرجه إلى البصرة»[١].

ومما ينبغي أن يضاف إلى هذه القصيدة: هذه الأبيات التي لم ترد في الرواية المتقدمة:

٤١ ـ هذا سليل حسينٍ وابن فاطمةٍ
بنتِ الرسول مَن انجابتْ به الظُّلَمُ
٤٢ ـ مناقب قد علتْ أقدارها ونمتْ
آثارُها لم ينلها العُربُ والعجمُ
٤٣ ـ يُنمى إلى ذروة الدين التي قصرتْ
عنها الأكفُّ وعن إدراكها القدمُ

أو:

٤٤ ـ يسمو (ينمى) إلى ذروة العزّ التي عجزت (قصرت)
عن نيلها عربُ الإسلام والعَجَمُ

❀ ❀ ❀

أسانيد رواية القصة والشعر

أخرج هذا الشعر ومناسبته عددٌ من المحدثين والمؤرخين بأسانيد نصُّوا على ذكرها أو أشاروا إليها في مصنفاتهم، ومنهم:

١ ـ البيهقي (من رجال القرن الرابع) بسنده المذكور في المحاسن والمساوىء: ١/٣٤٦.

---

(١) النصُّ بكامله في مناقب آل أبي طالب: ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٧. وقد قارنّا نصّ المناقب المطبوع بما رُويَ عنه في بحار الأنوار: ٤٦/ ١٢٤ ـ ١٢٨ للتأكد من صحته.

٢ ـ أبو الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦ هـ) بأسانيد متعددة عن الشعبي وعن إسحاق النخعي وعن ابن عائشة عن أبيه، في الأغاني: ١٥/ ٣٢٥ و٢١/ ٣٧٦.

٣ ـ الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ) بسنده المذكور في الاختصاص: ١٩١.

٤ ـ الحافظ أبو نعيم (ت ٤٣٠ هـ) بسنده المذكور في حلية الأولياء: ٣/ ١٣٩.

٥ ـ الشريف المرتضى علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ) بسنده المذكور في أمالي المرتضى: ١/ ٦٧.

٦ ـ الحافظ ابن عبد البرّ القرطبي (ت ٤٦٣ هـ) بسنده المذكور في بهجة المجالس: ١/ ٥٠٨.

٧ ـ ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) بسنده المذكور في صفة الصفوة: ٢/ ٥٥.

٨ ـ الروداني بسنده المذكور في فهرسة شيوخه المسمى صلة الخلف؛ المنشور في مجلة معهد المخطوطات العربية: الجزء الأول من المجلد ٢٩/ ص ٥٦.

٩ ـ المقدسي موفق الدين (ت ٦٢٠ هـ) فإنه قال قبل إيراد القصة والشعر: «ورَوَينا»، التبيين: ١٠٩.

١٠ ـ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) فإنه قال في ذلك: «هي سماعنا»، سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

١١ ـ الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) بأسانيده المذكورة في البداية والنهاية: ٩/ ١٠٨.

١٢ ـ السيوطي (ت ٩١٠ هـ) بسنده المذكور في شرح شواهد المغني: ٢/ ٧٣٢.

١٣ ـ الحافظ ابن حجر الهيثمي (ت ٩٧٤ هـ) بسنديه المذكورين في الصواعق المحرقة: ١١٩.

١٤ ـ ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) بالرواية عن أبي عمرو بن العلاء في شذرات الذهب: ١/ ١٤٢.

١٥ ـ الشيخ سليمان القندوزي الحنفي (ت ١٠٩٤ هـ) بأسانيده المذكورة في ينابيع المودة: ٣٥٩.

تخريج الشعر(*):

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و٣٤ و٣٥ في ديوان الفرزدق: ٢/ ٨٤٨ ـ ٨٤٩، وجاء في التقديم لها فيه: «وقال الفرزدق يمدح عليّ بن الحسين صلوات الله عليه وعلى آبائه».

* وردت الأبيات ٢ و٩ و١٠ و١٢ و١٤ و٣٤ في الحماسة لأبي تمام (ت ٢٣١ هـ)، شرح المرزوقي: ٤/ ١٦٢١ ـ ١٦٢٢.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٤٤ في المحاسن والمساوىء للبيهقي (ق ٤): ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤و١٦و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣٤ و٣٥ و٤٣ في الأغاني لأبي الفرج (ت ٣٥٦ هـ): ١٥/ ٣٢٧ و٢١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(*) لم ترد أبيات الشعر في المصادر والمراجع الآتية متسلسلة بتسلسل الأصل الذي نقلنا منه القصيدة، بل فيها تقديم وتأخير. وللعلم حرّرنا هذه الملاحظة.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١٢ و١٤ و١٦ و٣٠ و٣٤ في المعجم الكبير للطبراني (ت ٣٦٠ هـ): ٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧، ووهم الطبراني فذكر أنها في الحسين بن علي (ع)، وقال الحافظ الكنجي في كفاية الطالب: ٣٠٦ معلّقاً على رواية الطبراني: «وهذا عندي وهم لوجهين: أحدهما: اتفاق الأئمة على خلافه وأنه في المذكور [أي علي بن الحسين]... الثاني: ما رواه الدارقطني أنه [أي الفرزدق] لم يره [أي الحسين] إلاّ مرّة واحدة في طريق مكة، فاعلم ذلك.

* ورد البيتان ١٠ و١٤ في الغريبين للهروي (ت ٤٠١ هـ): ١/ ٤١٤، وقدَّم لها بقوله: «إن الفرزدق مدحه فقال في كلمة له»، وروى ذلك عن ابن قتيبة.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٦ و٩و١٠ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥ و٤٤ في الاختصاص للمفيد (ت ٤١٣ هـ): ١٩١ ـ ١٩٤.

* وردت الأبيات ٢ و٣و٩ و١٠ و١٢ و٣٤ و٣٥ في الإرشاد للمفيد ـ أيضاً ـ ٢٧٦.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥ و٤٤ في زهر الآداب للحصري القيرواني (ت ٤١٣ هـ): ١/ ٦٠ ـ ٦١.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٩ و٢٩ في حلية الأولياء لأبي نعيم (ت ٤٣٠ هـ): ٣/ ١٣٩.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١٢ و٣٤ و٣٥ في امالي المرتضى (ت ٤٣٦ هـ): ١/ ٦٨.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٤ و٢٥ و٣٤ و٣٥ و٤٤ في بهجة المجالس لابن عبد البرّ القرطبي (ت ٤٦٣ هـ): ١/ ٥٠٨ ـ ٥١٠.

* وردت الأبيات ١٢ و١٤ و١٧ في كتاب العصا لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ): ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٩ و٢٩ في صفة الصفوة لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ): ٢/ ٥٥ ـ ٥٦.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٦ و١٩ و٢١ و٢٦ و٢٨ و٢٩ و٣٤ و٣٥ في التبيين في أنساب القرشيين لموفق الدين المقدسي (ت ٦٢٠ هـ): ١٠٩.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٦ و٩ و١٠ و١١و١٢ و١٣ و١٤ و١٦ و١٩ و٢٦ و٢٧ و٢٩ و٣٠ و٣٤ و٣٥ و٣٦ و٣٧ و٣٨ و٣٩ و٤٢ في مطالب السؤول لابن طلحة الشافعي (ت ٦٥٢ هـ): ٢/ ٣٣ ـ ٣٤ و٤٦ ـ ٤٧.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٦ و٢٧ و٢٨و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٥ و٤٤ في تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ): ٣٣٨ ـ ٣٤٠، وقال في آخرها: «لم يذكر أبو نعيم في الحلية إلاّ بعض هذه الأبيات الميمية، والباقي أخذته من ديوان الفرزدق».

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦

و١٧ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥ و٤٤ في كفاية الطالب للحافظ الكنجي (ت ٦٥٨ هـ): ٣٠٣ ـ ٣٠٥.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥ و٤٤ في وفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ): ٥/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١٢ و١٣ و١٥ و١٦ و١٩ و٢٠ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٣ و٣٥ في منهاج السنة لابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): ٢/ ١١٤.

* وردت الأبيات ٢و٣و٩ و١٠ و١٢ و١٩ في سير أعلام النبلاء للذهبي (ت ٧٤٨ هـ): ٤/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩ وقال: «وهي قصيدة طويلة.

* وردت الأبيات ٢ و٣و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥ و٤٤ في مرآة الجنان لليافعي (ت ٧٦٨ هـ): ١/ ٢٣٩ ـ ٢٤١.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦ و١٧ و١٩ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥ و٤٤ في البداية والنهاية لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ): ٩/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٦ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٣ و٣٤و٣٥و٤٤ في حياة الحيوان للدميري(ت ٨٠٨ هـ): ١/ ٩ ـ ١٠.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٩ و٣٤ و٣٥ في ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي (ت ٨٣٧ هـ) ـ هامش المستطرف: ٢/ ٢٢ ـ ٢٣.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥ و٤٤ في شرح الشواهد الكبرى للعيني (ت ٨٥٥ هـ) ـ هامش خزانة الأدب ـ : ٢/ ٥١٣ ـ ٥١٥.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٥ و٤٤ في الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي (ت ٨٥٥ هـ): ١٨٩ ـ ١٩٠.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٦ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٤ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٣ و٣٥ و٤٤ في شرح شواهد المغني للسيوطي (ت ٩١٠ هـ): ٢/ ٧٣٣ ـ ٧٣٤.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١١ و١٩ و٢٦ و٣٠ و٤٤ في الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي (ت ٩٧٤ هـ): ١٢٠.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٥ و٤١ و٤٣ و٤٤ في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ): ١/ ١٤٢ ـ ١٤٤.

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٥ و١٦ و١٩ و٢٠ و٢٤ و٢٦ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣٣ و٣٥ في خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ): ٤/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥ وقال: «وهي أكثر

مما كتبته»، ثم قال بعد إيراد القصة والشعر: «وكتبتُ هذه الأبيات رغبة في الثواب، وإنا الأعمال بالنيّات».

* وردت الأبيات ٢ و٣ و٩ و١٠ و١٣ و١٦ و١٩ و٢٠ و٢٦ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣٤ و٣٥ و٤٤ في ينابيع المودة للشيخ سليمان القندوزي الحنفي (ت ١٢٩٤ هـ): ٣٥٩.

* ووردت أبيات مفردة من القصيدة للاستشهاد اللغوي في كثير من المصادر، كما في: الصحاح/ جنه، والفسر: ١/ ١٦٦ و٢٥٥، والفائق: ١/ ٢٣٩، والحماسة البصرية: ١/ ١٣٠، والعباب/ خزر، ومعاهد التنصيص: ٣/ ٤١، ولسان العرب: خزر وحزن وجنه وغضا، وغير ذلك كثير.

❀ ❀ ❀

وبعد:

فما أظن أن لدينا نصاً شعرياً منسوباً لقائله أكثر رواية وأوسع ذيوعاً وشيوعاً مما حظيت به أبيات الفرزدق في الإمام زين العابدين (ع)، وإنْ ندر مَنْ رواها بكاملها كما أوردها السّروي، ولكن المرويّ منها على كلِّ حال أكثر بكثير مما صحّحه الدكتور شاكر الفحام ـ وهو ستة أبيات ـ وعزا تزوير ما زاد على الستة إلى محمد بن زكريا الغلابي البصري المعروف ـ بزعمه ـ بتشيُّعه وتزويره!!!

وليس لنا ما نقوله للدكتور الفحام في ختام هذا العرض الوافي إلاَّ أن نذكّره بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، صدق الله العظيم.

المصادر والمراجع

* الأئمة الاثنا عشر/ لابن طولون الدمشقي، بيروت ١٣٧٧ هـ.
* أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ/ للدكتور إبراهيم علي شعوط، القاهرة ١٣٩٦ هـ.
* أبجد العلوم/ لصدّيق القنوجي، دمشق ١٩٨٨ م.
* أبو الشهداء/ لعباس محمود العقاد ـ الطبعة الأولى ـ، القاهرة (مكتبة سعد).
* الاحتجاج/ للطبرسي، النجف ١٣٥٠ هـ.
* الأحكام السلطانية/ للماوردي ـ المطبعة المحمودية، القاهرة (بلا تاريخ).
* الأخبار الطوال/ لأبي حنيفة الدينوري، القاهرة ١٩٦٠ م.
* الاختصاص/ للمفيد محمد بن محمد بن النعمان، طهران ١٣٧٩ هـ.
* الإرشاد/ للشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان، طهران ١٣٠٨هـ.
* الاستيعاب/ لابن عبد البرّ ـ هامش الإصابة ـ، القاهرة ١٣٥٨ هـ.
* أسد الغابة/ لابن الأثير، القاهرة ١٢٨٥ هـ.
* إسعاف الراغبين/ للشيخ محمد الصبان ـ هامش نور الأبصار، القاهرية ١٣٥٦ هـ.
* الإصابة/ لابن حجر، القاهرة ١٣٥٨ هـ.

* الأعلام/ للزركلي، بيروت ١٣٨٩ هـ.

* الأغاني/ لأبي الفرج الأصبهاني ج٤، القاهرة (طبعة مصوّرة).

ج١، «الجزء ١٥»، ج١٧، القاهرة ١٣٨٩ هـ، «الجزء ٢١»، ج٢٤، القاهرة ١٣٩٤ هـ.

* أغاليط المؤرخين/ للدكتور محمد أبو اليسر عابدين، دمشق ١٣٩١هـ.

* اكتوبر/ مجلة/ العدد ٣٣٤، القاهرة ١٩٨٣ م.

* الأمالي/ للشريف المرتضى، القاهرة ١٣٧٣ هـ.

* الإمام الحسن بن علي (ع) [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات] بيروت.

* الإمام الحسين بن علي (ع) [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات] بيروت.

* الإمام الصادق/ لمحمد أبو زهر ـ مطبعة مخيمر ـ، القاهرة (بلا تاريخ).

* الإمام الصادق ملهم الكيمياء/ للدكتور محمد يحيى الهاشمي ط٢، دمشق ١٩٥٩ م.

* الإمام علي بن أبي طالب (ع) /[موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات] بيروت.

* الإمامة/ [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات] بيروت.

* الإمامة والسياسة لابن قتيبة ـ طبعة مصطفى محمد ـ، القاهرة (بلا تاريخ).

* الأمان/ لعلي رضي الدين آل طاووس، النجف ١٣٧٠ هـ.

* الأمثال/ لأبي عبيد القاسم بن سلام، بيروت ١٤٠٠ هـ.

* إنباه الرواة/ للقفطي، القاهرة ١٣٦٩ هـ.
* الأنساب/ للسمعاني، الهند ١٣٨٢ هـ.
* أنساب الأشراف/ للبلاذري «الجزء الرابع، القدس ١٩٣٦ م.
* إيضاح المكنون «يراجع: ذيل كشف الظنون».
* بحار الأنور/ لمحمد باقر المجلسي ج٣، طهران ١٣٧٦ هـ، «الجزء ٤٥»، «الجزء ٤٦»، طهران ١٣٨٥ هـ، «الجزء ٧٤»، طهران ١٣٨٦ هـ.
* البحر المحيط/ لابن حيان الأندلسي، القاهرة ١٣٢٨ هـ.
* البداية والنهاية/ لابن كثير الدمشقي، القاهرة ١٣٥١ هـ.
* بغية الوعاة/ للسيوطي، القاهرة ١٣٢٦ هـ.
* بهجة المجالس/ لابن عبد البر القرطبي، القاهرة ١٩٦٧ م.
* البيان والتبيين/ للجاحظ، القاهرة ١٣٥١ هـ.
* تاج العروس/ لمحمد مرتضى الزّبيدي، القاهرة ١٣٠٦ هـ.
* تاريخ/ أبي الفدا، القاهرة ١٣٢٥ هـ.
* تاريخ الأدب العربي/ لبروكلمان ـ الترجمة العربية ج١، القاهرة ١٩٥٩ م.
* تاريخ بغداد/ للخطيب البغدادي، بيروت (طبعة مصورة).
* تاريخ التمدن الإسلامي/ لجرجي زيدان، القاهرة ١٩٣ م.
* تاريخ الخلفاء/ للسيوطي، القاهرة ١٣٥١ هـ.
* تاريخ/ خليفة بن خياط، دمشق ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٨ م.
* تاريخ الخميس/ للديار بكري، القاهرة ١٢٨٣ هـ.
* تاريخ/ الطبري، القاهرة، ١٩٦٠ م، ١٩٦٣ م، ١٩٧٣ م.
* تاريخ/ اليعقوبي، النجف ١٣٥٨ هـ.

* التبيين/ لموفق الدين المقدسي، الموصل ١٤٠٢ هـ.
* تحف العقول/ لابن شعبة الحراني، النجف ١٣٨٣ هـ.
* تذكرة الحفاظ/ للذهبي، الهند ١٣٧٥ هـ.
* تذكرة الخواص/ لسبط ابن الجوزي، النجف ١٣٦٩ هـ.
* تفسير/ القرطبي، القاهرة ١٣٨٧ هـ.
* التهذيب/ للطوسي محمد بن الحسن، طهران ١٣٩٠ هـ.
* تهذيب التهذيب/ لابن حجر العسقلاني، الهند ١٣٢٥ هـ، ١٣٢٦ هـ.
* تفسير/ الرازي، القاهرة (المطبعة البهية).
* التوحيد/ للإمام الصادق (ع) (نشرة المدرس بالحرم المكي)، بيروت ١٣٧٦ هـ.
* الثقات العيون ـ القرن السادس، بيروت ١٣٩٢ هـ.
* ثمرات الأوراق/ لابن حجة الحموي ـ هامش المستطرف ـ، القاهرة ١٣٦١ هـ.
* جابر بن حيان/ للدكتور زكي نجيب محمود ـ سلسلة أعلام العرب ـ، القاهرة ١٩٦١ م.
* جابر بن حيان وخلفاؤه/ للدكتور محمد محمد فياض ـ سلسلة إقرأ ـ، القاهرة ١٩٠ م.
* جامع الرواة/ للأردبيلي، طهران ١٣٣٨ هـ ش.
* جواهر الكلام/ للشيخ محمد حسن النجفي ـ ج ٢٠ ـ، النجف ١٣٨٩ هـ.
* حديث الثقلين/ إصدار دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، القاهرة ١٣٧٤ هـ.

* حلية الأولياء/ لأبي نعيم، بيروت ١٣٨٧ هـ.
* الحماسة/ لأبي تمام ـ بشرح المرزوقي ـ، القاهرة ١٣٨٧ هـ.
* الحماسة البصرية/ لابن أبي الفرج البصري، الهند ١٣٨٣ هـ.
* حياة الحيوان/ للدميري، القاهرة ١٢٩٩ هـ، ١٣٥٦ هـ.
* خزانة الأدب/ للبغدادي، القاهرة ١٣٥٦ هـ.
* دائرة المعارف الإسلامية/ لجمهرة من المستشرقين ـ الترجمة العربية ـ، طهران (طبعة مصورة).
* الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور/ لزينب فواز، القاهرة ١٣١٢ هـ.
* دلائل الإمامة/ للطبري الإمامي، النجف ١٣٦٩ هـ.
* دلائل النبوة/ للبيهقي، بيروت ١٤٠٥ هـ.
* ديوان/ الفرزدق ـ طبعة الصاوي ـ، القاهرة ١٣٥٤ هـ.
* ذخائر العقبى/ لمحب الدين الطبري ـ طبعة مصورة ـ، طهران ١٣٨٧ هـ.
* الذريعة/ للشيخ آقابزرك الطهراني ج ٤، طهران ١٣٥٥ م، ١٣٦٠ م، ج ٥، ١٣٦١ م.
* الذريعة إلى تصانيف الشيعة/ لمحمد محسن الطهراني ج٤، طهران ١٣٦٠ هـ.
* ذيل كشف الظنون (إيضاح المكنون)/ لإسماعيل البغدادي، تركيا ١٣٦٦ هـ.
* ذيل المذيل/ للطبري، القاهرة ١٩٧٧ م.
* ربيع الأبرار/ للزمخشري، بغداد ١٤٠٠ هـ.
* رجال/ الشيخ الطوسي، النجف ١٣٨١ هـ.
* رجال/ النجاشي، الهند ١٣١٧ هـ.

* زهر الآداب/ للحصري القيرواني، القاهرة ١٩٢٥ م.
* زهرة المقول/ لابن شدقم، النجف ١٨٠ هـ.
* روضات الجنات/ للخوانساري، إيران ١٣٩١ هـ.
* زيد بن صوحان/ لمحمد حسن آل ياسين، «مخطوط».
* زين العابدين/ للشيخ الدكتور عبد الحليم محمود، القاهرة ١٩٧٨ م.
* زين العابدين/ لعبد العزيز سيد الأهل، بيروت ١٣٧٢ هـ.
* سر السلسلة العلوية/ لأبي نصر البخاري، النجف ١٣٨٢ هـ.
* سمو المعنى في سمو الذات/ للعلائلي، القاهرة ١٣٥٨ هـ.
* سنن/ ابن ماجة، القاهرة ١٣٧٢هـ.
* سنن/ أبي داوود، القاهرة ١٣٧١ هـ.
* سنن/ الترمذي، القاهرة ١٣٥٦ هـ.
* سنن/ النسائي ـ شرح السيوطي ـ، القاهرة ١٣٤٨ هـ.
* سير أعلام النبلاء/ للذهبي، القاهرة ١٩٥٦ م، بيروت ١٤٠٦ هـ.
* السيرة الحلبية/ لعلي بن برهان الحلبي، القاهرة ١٣٥١ هـ.
* شخصيات إسلامية/ لعبد الرحمن الشرقاوي ـ دار إقرأ ـ، بيروت (بلا تاريخ).
* شذرات الذهب/ لابن العماد الحنبلي، القاهرة ١٣٥٠ هـ.
* شرح الشواهد الكبرى/ للعيني ـ هامش الخزانة ـ، القاهرة ١٢٩٩ هـ.
* شرح شواهد المغني/ للسيوطي بيروت ١٣٨٦ هـ.
* شرح الصحيفة السجادية/ لابن معصوم المدني، إيران ١٣٣٤ هـ.
* شرح نهج البلاغة/ لابن أبي الحديد، القاهرة ١٣٧٥ هـ، ١٣٧٨ هـ.
* الشرف المؤبّد/ للشيخ يوسف النبهاني، بيروت ١٣٠٩ هـ.

* صبح الأعشى/ للقلقشندي، القاهرة (دار الكتب).
* الصحاح/ للجوهري، القاهرة ١٣٧٦ هـ.
* صحيح/ البخاري ـ طبعة محمد علي صبيح ـ، القاهرة (بلا تاريخ).
* صحيح/ مسلم ـ طبعة محمد علي صبيح ـ، القاهرة (بلا تاريخ).
* الصحيفة السجّادية/ للإمام زين العابدين (ع)، بغداد ١٤٠٨ هـ.
* صفة الصفوة/ لابن الجوزي، الهند ١٣٨٩ هـ.
* صلة الخلف/ للروداني ـ مجلة معهد المخطوطات، الكويت ١٤٠٥ هـ.
* الصواعق المحرقة/ لابن حجر الهيثمي، القاهرة ١٣١٢ هـ.
* طبقات/ ابن سعد، ليدن ١٣٢٢ هـ.
* طبقات/ خليفة بن خياط، دمشق ١٩٦٦ م.
* طبقات أعلام الشيعة/ لآقابزرك الطهراني ـ نوابغ الرواة ـ القرن الرابع، بيروت ١٣٩٠ هـ.
* طبقات الفقهاء/ لأبي إسحاق الشيرازي، بغداد ١٣٥٦ هـ.
* العباب الزاخر/ للصغاني، مخطوط.
* العبر/ للذهبي ـ ج ١ ـ، بيروت ١٤٠٥ هـ.
* عدة الرجال/ للسيد محسن الأعرجي، طهران ١٤١٥ هـ.
* العقد الفريد/ لابن عبد ربّه الأندلسي، القاهرة ١٣٧٥ هـ.
* عقيدة الشيعة/ لدونلدسن ـ الترجمة العربية، القاهرة ١٣٦٥ هـ.
* عمدة الزائر/ للسيد حيدر الحسني، بيروت ١٣٩٩ هـ.
* عمدة الطالب/ لابن عنبة الداوودي النسابة، النجف ١٣٥٨ هـ.
* عيون الأخبار/ لابن قتيبة، القاهرة ١٩٦٣ م.
* الغدير/ للشيخ عبد الحسين الأميني، النجف ١٣٦٤ هـ.

* غريب الحديث/ لابن الجوزي، بيروت ١٤٠٥ هـ.
* غاية النهاية في طبقات القراء/ لابن الجزري، القاهرة ١٣٥٢ هـ.
* الفائق/ للزمخشري ـ الطبعة الثانية ـ، القاهرة (بلا تاريخ).
* الفتوح/ لابن أعثم الكوفي، الهند ١٣٨٨ هـ.
* فتوح البلدان/ للبلاذري، القاهرة ١٣٥٠ هـ.
* الفخري/ لابن الطقطقي ـ الطبعة الثانية ـ، القاهرة ١٩٣٨ م.
* فرج المهموم/ لعلي رضي الدين آل طاووس، النجف ١٣٦٨ هـ.
* الفرزدق/ للدكتور شاكر الفحام، دمشق ١٣٩٧ هـ.
* الفصل/ لابن حزم ـ طبعة مصوّرة ـ، بيروت ١٣٩٥ هـ.
* الفصول المهمة/ لابن الصباغ المالكي، النجف ١٣٧٠ هـ.
* الفسر/ لابن جني، بغداد ١٣٩٠ هـ.
* الفهرست/ لابن النديم، طهران ١٣٩١ هـ.
* الفهرست/ للطوسي، النجف ١٣٥٦ هـ.
* القاموس المحيط/ للفيروز آبادي، القاهرة ١٣٥٧ هـ.
* الكافي/ للكليني محمد بن يعقوب، طهران ١٣٧٥ هـ.
* الكافي/ لمحمد بن يعقوب الكليني، طهران ١٣٧٥ هـ.
* كامل الزيارات/ لابن قولويه، النجف ١٣٥٦ هـ.
* الكامل (في التاريخ) / لابن الأثير، القاهرة ١٣٤٨ هـ، ج٥، القاهرة ١٣٥٧ هـ.
* الكامل/ للمبرد ـ طبعة نهضة مصر ـ، القاهرة (بلا تاريخ).
* كذبة فارسية/ لعبد الحميد العلوجي، بغداد ١٩٨٦ م.
* كشاف اصطلاحات الفنون/ للفاروقي التهانوي، القاهرة ١٣٨٢ هـ.

* كشف الظنون/ لحاجي خليفة، تركيا ١٣٦٠ هـ.
* كشف الغمة/ لعلي بن عيسى الأربلي، إيران ١٢٩٤ هـ.
* كشف المحجة/ لعلي رضي الدين آل طاووس، النجف ١٣٧٠ هـ.
* كفاية الطالب/ للكنجي الشافعي، النجف ١٣٥٦ هـ.
* الكنى والألقاب/ للشيخ عباس القمي، صيدا ١٣٥٨ هـ.
* لباب الآداب/ لأُسامة بن منقذ، القاهرة ١٣٥٤ هـ.
* لزوم ما لا يلزم/ لأبي العلاء المعري، القاهرة ١٣٣٣ هـ.
* لسان العرب/ لابن منظور محمد بن المكرّم، بيروت ١٣٧٤ م.
* لسان الميزان/ لابن حجر، الهند ١٣٢٩ هـ.
* لطائف المعارف/ للثعالبي، القاهرة ١٣٧٩ هـ.
* مآثر الإنافة/ للقلقشندي، الكويت ١٩٦٤ م.
* مرآة الجنان/ لليافعي، الهند ١٣٣٧ هـ.
* مجمع الأمثال/ للميداني، القاهرة ١٣٥٢ هـ.
* مجمع الرجال/ للقهبائي، إيران ١٣٨٤ هـ.
* مجمع الزوائد/ لابن حجر، بيروت ١٩٦٧ م.
* المحاسن والمساوىء/ للبيهقي، القاهرة ١٣٨٠ هـ
* المحبّر/ لمحمد بن حبيب، الهند ١٣٩١ هـ.
* المحتسب/ لابن جني، القاهرة ١٣٨٦ هـ.
* مختصر تاريخ العرب/ للسيد أمير علي الهندي ـ الترجمة العربية ـ، القاهرة ١٩٣٨ م.
* مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع/ لابن خالويه، القاهرة ١٩٣٤ م.

* مروج الذهب/ للمسعودي، القاهرة ١٣٥٧ هـ.
* المستقصى/ للزمخشري، الهند ١٣٨١ هـ.
* مسند/ أحمد بن حنبل، بيروت ١٣٨٩ هـ.
* مطالب السؤول/ لمحمد بن طلحة الشافعي، النجف ١٣٧١ هـ.
* المعارف/ لابن قتيبة، القاهرة ١٩٦٠ م.
* معالم العلماء/ لابن شهراشوب السروي، طهران ١٣٥٣ هـ.
* معاني القرآن/ للفراء ـ ج ٣ ـ، القاهرة ١٩٧٢ م.
* معاني القرآن/ للفراء، القاهرة ١٣٧٤ هـ.
* معاهد التنصيص/ لعبد الرحيم العباسي، القاهرة ١٣٦٧ هـ.
* معجم الشعراء/ للمرزباني، القاهرة ١٣٥٤ هـ.
* المعجم الكبير/ للطبراني ج٢، بغداد ١٣٩٨ هـ، ج٣، بغداد ١٣٩٩ هـ.
* معجم المؤلفين/ لعمر رضا كحالة، دمشق ١٣٧٦ هـ.
* مقاتل الطالبيين/ لأبي الفرج الأصبهاني، القاهرة ١٣٦٨ هـ.
* مقتل الحسين/ لأخطب خوارزم، النجف ١٣٦٧ هـ.
* المقدمة/ لابن خلدون، القاهرة ١٣٤٨ هـ.
* الملل والنحل/ للشهرستاني ـ هامش الفصل ـ، بيروت ١٣٩٥ هـ.
* المناقب/ لابن شهرآشوب السروي، إيران ١٣١٧ هـ.
* المنتخب من ذيل المذيل/ للطبري، القاهرة ١٩٧٧ م.
* المنمق/ لمحمد بن حبيب، الهند ١٣٨٤ هـ.
* منهاج السنة/ لابن تيمية، بولاق ١٣٢١ هـ.
* النابس ـ القرن الخامس، بيروت ١٣٩١ هـ.
* نثر الدر/ للآبي ـ ج١ ـ، القاهرة ١٩٨٠ م.

* النجوم الزاهرة/ لابن تغرى بردى، القاهرة (طبعة مصورة).
* النزاع والتخاصم/ للمقريزي، القاهرة ١٩٣٧ م.
* نزهة المجالس/ للصفوري، القاهرة ١٣٥٤ هـ.
* نسب قريش/ للمصعب الزبيري، القاهرة ١٩٥٣ م.
* النصائح الكافية/ لمحمد بن عقيل الحضرمي، بغداد ١٣٦٧ هـ.
* نصوص الردّة في تاريخ الطبري/ [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات] بيروت.
* نظرية الإمامة/ للدكتور أحمد محمود صبحي، القاهرة ١٩٦٩ م.
* نهج البلاغة/ تعليق الشيخ محمد عبده ـ طبعه البابي الحلبي، القاهرة (بلا تاريخ).
* نوادر/ أبي علي القالي، القاهرة ١٣٤٤ هـ.
* نور الأبصار/ للشبلنجي، القاهرة ١٣٥٦ هـ.
* هدية العارفين/ لإسماعيل البغدادي، تركيا ١٩٥١ م.
* الوافي بالوفيات/ للصفدي، بيروت ١٣٨١ هـ.
* الوزراء والكتاب/ للجهشياري، القاهرة ١٣٥٧ هـ.
* وفيات الأعيان/ لابن خلكان، القاهرة ١٣٦٧ هـ.
* وقعة الجمل/ لمحمد بن زكريا الغلابي، بغداد ١٣٩٠ هـ.
* وقعة صفين/ لنصر بن مزاحم، القاهرة ١٣٨٢هـ.
* ينابيع المودة/ للقندوزي الحنفي، استانبول ١٣٠٢ هـ.

المحتويات

الإمام علي بن أبي طالب (ع)
‹سيرةٌ وتاريخ›

أوسمة السماء ١٣
مع الخلفاء الثلاثة ٢٦
البيعة ٤٦
النص الأول: حديث الدار ٧٦
النص الثاني: حديث المنزلة ٨٠
النص الثالث: حديث الغدير ٨٦
الإصلاح: ومكافحة التخريب ٩٢
عثمان (الخليفة) ٩٧
طلحة ٩٧
الزبير ٩٧
عبد الرحمن بن عوف ٩٨
زيد بن ثابت ٩٨
سعد بن أبي وقاص ٩٨
يعلى بن أمية ٩٨
موقف السيدة عائشة من عثمان ١١٢
موقف طلحة من عثمان ١١٤
موقف الزبير من عثمان ١١٦

موقف معاوية من عثمان ١١٧
موقف عمرو بن العاص من عثمان ١١٩
الخاتمة ١٢٥

الإمام الحسن بن علي (ع)

الإمام الحسن (ع) منذ ولادته حتى استشهاد أبيه (ع) ١٣٣
الحسن (ع) في إمامته وخلافته ١٦٦
شروط الصلح ١٨٩
الموقف من الشرط الأول ١٩٣
الموقف من الشرط الثاني ١٩٥
الموقف من الشرط الثالث ١٩٧
الموقف من الشرط الرابع ٢٠٠
الموقف من الشرط الخامس ٢٠١
الأعداء والخصوم ٢٠٦
الأنصار والأتباع ٢١٠
ملاحق الكتاب ٢٢١
الملحق الأول ٢٢٢
الملحق الثاني ٢٣٢

الإمام الحسين بن علي (ع)

الحسين (ع) بين مولده وإمامته ٢٤٥
الحسين (ع) في إمامته وثورته ٢٦٣
أمّا النصُّ النبويُّ ٢٦٤
وأمّا نصُّ سلفه عليه ٢٦٥
وأمّا اعتراف عدوّه بذلك ٢٦٦
الجواب على السؤال الأول ٢٩٤

الجواب على السؤال الثاني ٢٩٧
الجواب على السؤال الثالث ٣٠٦
ملاحق الكتاب ٣٥٧
الملحق الأول ٣٥٩
الملحق الثاني ٣٦٥

الإمام علي بن الحسين (ع)

علي بن الحسين (ع) بين ولادته وإمامته ٣٧٥
علي بن الحسين (ع) بين إمامته وشهادته ٣٩٦
المجموعة الأولى ٣٩٨
المجموعة الثانية ٤٠١
في العلم ٤٠٣
في الزهد والورع ٤٠٤
في البر والإحسان ٤٠٦
في الأدب والسلوك ٤٠٧
تراث الإمامة ٤٥٤
علوم القرآن والشريعة ٤٥٦
رسالة الحقوق ٤٧٠
صحيفة الدعاء ٤٨١
ملاحق الكتاب ٥١١
الملحق الأول: رسالة الحقوق ٥١٣
١ ـ حَقُّ الله ٥١٦
٢ ـ حَقُّ النّفْس ٥١٦
أ ـ حقُّ اللسان ٥١٦
ب ـ حَقُّ السَّمْع ٥١٦

ج ـ حقُّ البَصَر ٥١٧
د ـ حقُّ اليد ٥١٧
هـ ـ حَقُّ الرِّجْل ٥١٧
و ـ حَقُّ البَطن ٥١٧
ز ـ حَقُّ الفَرْج ٥١٨
٣ ـ حقوق الأفعال ٥١٨
أ ـ حَقُّ الصّلاة ٥١٨
ب ـ حَقُّ الحجّ ٥١٨
ج ـ حَقُّ الصوم ٥١٨
د ـ حقُّ الصّدقة ٥١٩
هـ ـ حَقُّ الهَدْي ٥١٩
٤ ـ حقوق الأئمة ٥٢٠
أ ـ حَقُّ السلطان ٥٢٠
ب ـ حَقُّ المعلّم ٥٢٠
ج ـ حَقُّ المالِك ٥٢٠
٥ ـ حقوق الرعيّة ٥٢٠
أ ـ الرعيّة بالسلطان ٥٢٠
ب ـ الرعية بالعلم ٥٢١
ج ـ الرعيّة بملك النكاح ٥٢١
د ـ الرعيّة بملك اليمين ٥٢١
٦ ـ حَقُّ الرّحم ٥٢٣
أ ـ حَقُّ الأُمّ ٥٢٣
ب ـ حقُّ الأب ٥٢٣
ج ـ حقُّ الولد ٥٢٤
د ـ حقُّ الأخ ٥٢٤

٧ ـ حقُّ الناس ٥٢٤
أ ـ حقُّ المنعم بالولاء ٥٢٤
ب ـ حقُّ العبد ٥٢٥
ج ـ حقُّ ذي المعروف ٥٢٥
د ـ حقُّ المؤذّن ٥٢٥
هـ ـ حقُّ إمام الصلاة ٥٢٦
و ـ حقُّ الجليس ٥٢٦
ز ـ حقُّ الجار ٥٢٦
ح ـ حقُّ الصاحب ٥٢٧
ط ـ حقُّ الشريك ٥٢٧
ي ـ حقُّ المال ٥٢٧
ك ـ حقُّ الغريم ٥٢٨
ل ـ حقُّ الخَليط ٥٢٨
٨ ـ حقُّ الخصم ٥٢٨
أ ـ حقُّ المُدّعي ٥٢٨
ب ـ حقُّ المدّعى عليه ٥٢٩
٩ ـ حقُّ المشاورة والنصيحة ٥٢٩
أ ـ حق المستشير ٥٢٩
ب ـ حقُّ المشير ٥٣٠
ج ـ حقُّ المستَنْصِح ٥٣٠
د ـ حق الناصح ٥٣٠
١٠ ـ حقُّ السِّنّ ٥٣١
أ ـ حقُّ الكبير ٥٣١
ب ـ حقُّ الصغير ٥٣١
١١ ـ حقُّ السائل والمسؤول ٥٣١

أ ـ حقُّ السائل ٥٣١
ب ـ حق المسؤول ٥٣٢
ج ـ حقُّ مَنْ سرَّك ٥٣٢
د ـ حقُّ مَنْ ساءك ٥٣٢
١٢ ـ حقُّ بقيَّة الناس ٥٣٣
أ ـ حقُّ أهل الملّة ٥٣٣
ب ـ حقُّ أهل الذمّة ٥٣٣
الخاتمة ٥٣٤
الملحق الثاني: قصيدة الفرزدق ٥٣٥
أسانيد رواية القصة والشعر ٥٤٣
تخريج الشعر ٥٤٥
المصادر والمراجع ٥٥١
المحتويات ٥٦٣